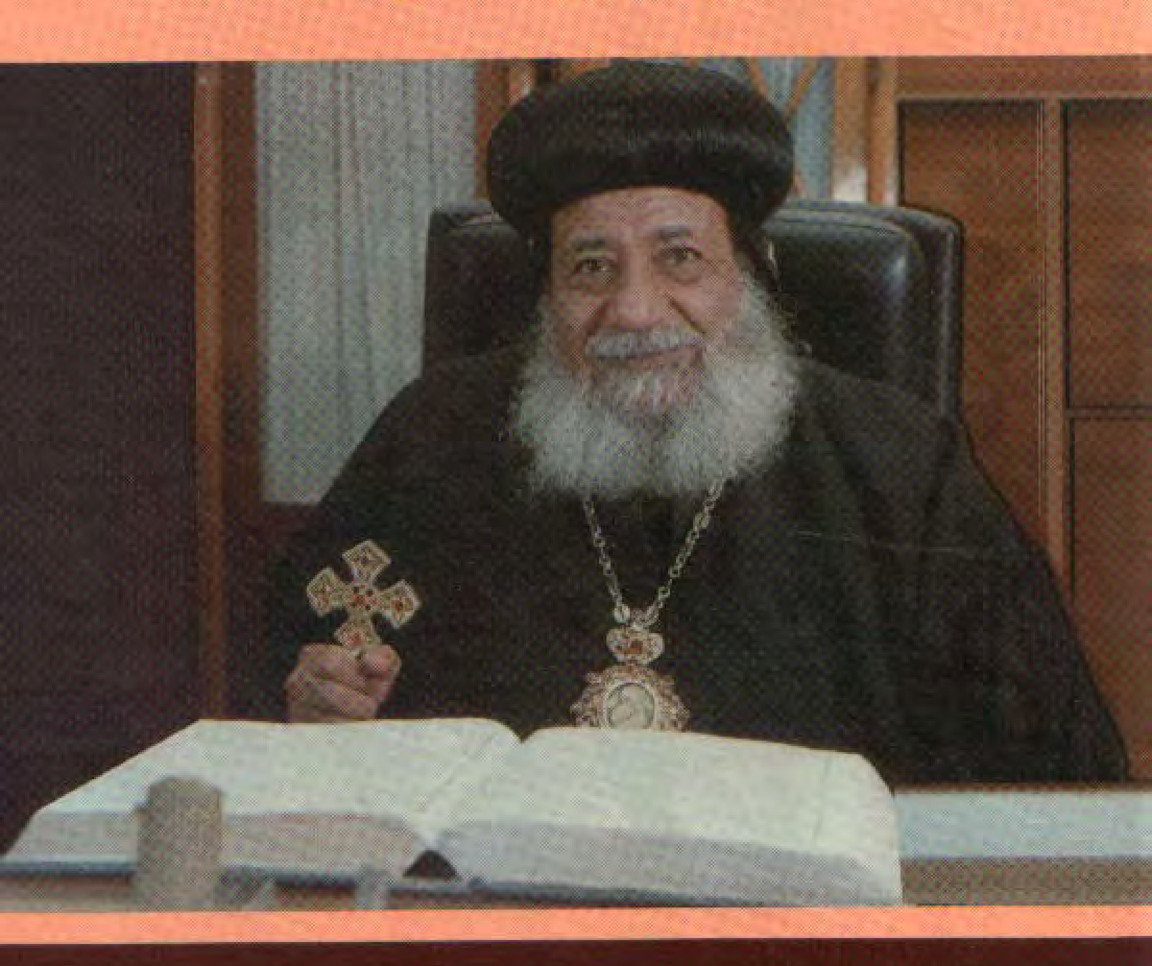
منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موسوعة الأنبا غريغوريوس

٧ـ اللاهوت العقيدى «الجزء الثانى»

سرَّى التَجسد والفداء



للمتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موســـوعة الأنبا غريغوريوس

٧ - اللاهوت العقيدى

الجزء الثانى

فى سرّ التجسد والفداء

بقلم

المتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

اكتوبر ٢٠٠٤م

الكتاب : موسوعة الأنبا غريغوريوس ٧ ـ اللاهوت العقيدى ـ الجزء الثانى.

المؤلف: المتنيح الأنبا غريغوريوس.

إعداد : الإكليريكى منير عطية.

الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس.

دير الأنبا رويس بالعباسية مصر ت: ٦٨٢٤٩٦٢ـ ٤٨٨٢٥٢٢.

المطبعة : شركة الطباعة المصرية ـ العبور ت: ٦١٠٠٠٥٨٩.

الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت: ٤٨٢٠٩٠٣.

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٧٨٣١ / ٢٠٠٤



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث



نيافة الحبر الجليل المتنيح الأنبا غريغوريوس

مقدمة

هذا هو الجزء السابع من موسوعة الأنبا غريغوريوس، وقد سبقه ستة أجزاء، كان الجزء الأول فى اللاهوت المقارن والثانى فى اللاهوت الأدبى والثالث فى الرهبنة، والرابع فى الدراسات الفلسفية والخامس فى اللاهوت الطقسى والسادس فى لاهوت المسيح.

أما هذا الجزء فيشمل سرى التجسد والفداء، وهو يجمع كل ما كتبه نيافته إلى جانب جميع الإجابات على الأسئلة التى قدمت إليه حول هذه الموضوعات.

هذه هى الثمرة السابعة، وهى من نتاج العالم والمعلم الحبر الجليل المتنيح الأنبا غريغوريوس، الذى قال عنه قداسة البابا شنوده الثالث.

«حياة أنبا غريغوريوس تتلخص فى كلمتين «التكريس والعلم» ... وكان العلم يشغل كل وقته.. بهذا التكريس للخدمة، وبهذا العلم كان بإستمرار معتكفا فى مسكنه، يقابله الناس وهو مشغول بين الكتب والكتابة...

«كان الأنبا غريغوريوس يتميز بالشمولية فى العلم... كان فى أساتذة الإكليريكية من هو متخصص بالكتاب المقدس، ومن هو مختص بالعقيدة، ومن هو مختص بالقانون. أو فى الطقس إلى آخره..، ولكنه كان يشمل كل هذه العلوم معا.. وفى الواقع كان معلما قديرا... له معلومات كثيرة... هو موسوعة من المعلومات... كان مثلا من الأمثلة التى لا تتكرر كثيرا فى العلم الكبير...»

وسنفرد أجزاء من هذه الموسوعة لتشمل كل ماكتبه فى اللاهوت العقيدى وسير من شخصيات الكتاب المقدس ومن القديسين، وستكون هناك أجزاء أخرى للموضوعات الكنسية والروحية والموضوعات العامة، بعد تبويبها، بحيث تشمل أجزاء هذه الموسوعة كل كتابات المتنيح الأنبا غريغوريوس التى لم تنشر أو نفذت بعد نشرها.

والرب وحده قادر أن يكمل مشروعنا هذا ويكلله بالنجاح، بصلوات صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث، أدام لنا الرب حياة قداسته، ومتعنا الرب برئاسته للكنيسة ولنا، أبا وراعيا، وحفظ الله قداسته بكل سلامة متمتعا بكامل الصحة والعافية، ونفعنا الرب ببركة صلوات غبطته.

الإكليركى

منير عطيه

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الموضوعات

صفحة

إهـــــداء

إلى القديس العظيم بطل الأرثوذكسية الأشهر
البابا أثناسيوس الرسولى

إليك يا سيدى البابا نهدى سلسلة المباحث اللاهوتية والعقائدية، لأنها من وحيك وإلهامك، وبفضل توجيهك وإرشادك، وثمرة لكفاحك وجهادك!

فيك رأينا أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة معاً!

ومنك تعلمنا كيف يكون الوفاء للحق، والاستمساك بالتقوى، والحرص على وديعة الإيمان.

ولقد وهبك الرب عقلاً شاخصاً فى الإلهيات، فكان تعليمك سليماً كل السلامة، وكان تعبيرك دقيقاً غاية الدقة!

ولم يكن طريقك سهلاً... كان قولك مؤذياً لمسامع المنحرفين، وكان شخصك ثقيلاً على أنفاسهم الفاسدة، فكرهوك ولعنوك... ومع ذلك لم يقووا على أن يقاوموا النعمة الساكنة بجنانك، أو يناقضوا الحكمة الناطقة على لسانك!

أثاروا عليك حرباً شعواء وطاردوك ونفوك، ولكنك صمدت وقاومت وأخيراً غلبت ونجحت، لأن الحق الذى فيك أعظم من الباطل الذى فيهم!

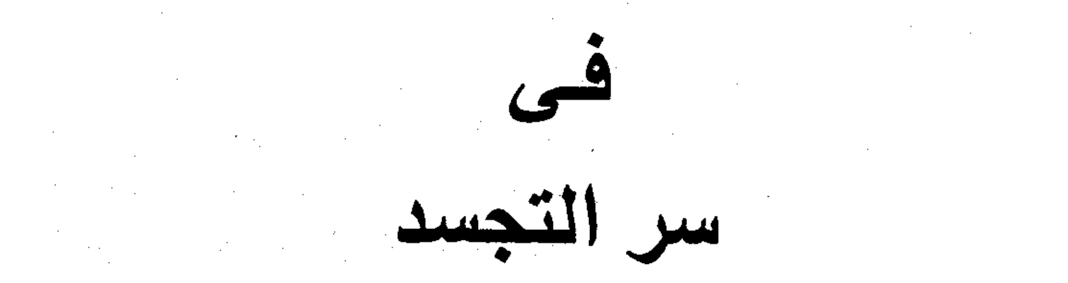
لولاك ياسيدى البابا لكان الإيمان الذى عندنا غير الإيمان الذى تسلمته أنت من أسلافك أيها البطريرك الرسولى!

لهذا نحييك تحية للفضيلة فى شخصك، ونطأمن رأسنا أمام عظمة أبوتك، تقديراً لتاريخك، وإقتداء بسيرتك فى الإيمان، يا حامى الإيمان!

من ابنك

غـريـغوريـوس

باخوم المحرقى ـ وهيب عطا الله


فى
سر التجسد

القيم الروحية فى سر التجسد

إننا نؤمن بتجسد ابن الله، وهو كلمة الله، والأقنوم الثانى من الثالوث القدوس، طبقاً لقول الوحى المقدس «والكلمة صار جسداً» (١).

ونحن لم نكتشف هذه العقيدة بعقولنا، ولكنها أعلنت لنا من الله، فهى حقيقة من حقائق الإيمان.

أما نفعها لجنسنا فمما لا يمكن التعبير عنه أو الإحاطة به، ومع ذلك فما أعظم أثر هذه الحقيقة فى نفوس الأتقياء.

١ - أنها تلهب قلوبهم بمحبة الله الفائقة، فقد تنازل ليأخذ صورة طبيعتهم ليتمشى بينهم ويعيش معهم، يكلمهم، ويسمع أنينهم ويلمس أوجاعهم، ويحتمل متاعبهم، ويشفى أمراضهم، ويخفف آلامهم. لقد رآه الذين أمكنهم أن يروه فشبعوا بمرآه، وتنعموا بصوته وبلمسته، وسعدوا بمشيته بينهم. فما أبعد الفرق بين إله غير منظور، وإله تفضل فجعل نفسه منظوراً لخلقه. لذلك كان المسيح دائماً موضوع تأملات عميقة، وعبادات حارة، وتضحيات كبرى، من جانب أتقياء المسيحيين: تضحيات بالجهد، والوقت، والمال بل بالحياة.. ومن أجل هذا تغنى العباد بأغانى التسبيح والشكر تعبيراً عن الامتنان لهذا التنازل العظيم من جانب الله الذى تفضل، فتجسد وعاش بين الناس، حتى بارك بعضهم - ومنهم القديس أوغسطينوس - خطيئة آدم التى كانت سبباً فى تجسد ابن الله وإن لم تكن السبب الوحيد لتجسده الكريم.

٢ - ومن أجل هذا تفنن الرسامون، والمصورون، والنحاتون وكل أرباب الفنون، فى رسم المسيح الرب معبرين عن عمق محبتهم له و إعجابهم به وتأثرهم بتنازله العجيب فى تجسده المنيف.

٣ - ومن أجل هذا أيضاً كتب الكتاب والأدباء كتباً، نثرا وشعرا، صوروا فيها مشاعر الإجلال لشخصه والانجذاب لحبه. كل هذا ما كان ليكون لولا ما أحدثه تجسد ابن الله من أثر عميق فى نفوس الناس.

٤ - بل هذا هو سر الحرارة التى كرز بها الرسل الأطهار ومنهم القديس يوحنا الذى يعبر عن حرارة حبه التى أضرمها فعل التجسد الإلهى فى نفسه فيصف ابن الله قائلاً «الذى كان من

---

(١) يوحنا ١: ١٤.

البدء، الذى سمعناه، الذى رأيناه بعيوننا. الذى شاهدناه ولمسته أيدينا» (١) ويقول فى موضع آخر «ونحن قد عاينا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصاً للعالم» (٢).

وبهذا أيضاً يفتخر مار بطرس قائلاً: «لأننا لم نتبع خرافات مصنعة إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه بل قد كنا معاينين عظمته» (٣).

* * *

ولما كان فعل التجسد من جانب الله موضوعاً لتأمل الأتقياء وتعبدهم ومثيرا لصلواتهم وأعمال محبتهم، كان إنكار التجسد الإلهى جحوداً بالله، استحق من الرسل مقاومتهم، فكتبوا عن المنكرين يصفونهم بأضداد المسيح والمعاندين له، وحثوا المؤمنين على مجانبتهم وعدم مخالطتهم. من ذلك ما يقوله القديس يوحنا الرسول «أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله. لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. وبهذا تعرفون روح الله. كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد هو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله وهذا هو روح ضد المسيح الذى سمعتم أنه يأتى» (٤) «لأنه قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتيا فى الجسد. هذا هو المضل والضد للمسيح... فلا تقبلوه فى البيت ولا تقولوا له سلام. لأنه من قال له سلام فقد اشترك فى أعماله الشريرة» (٥).

(١) رسالة القديس يوحنا الأولى ١ : ١.

(٢) رسالة القديس يوحنا الأولى ٤ : ١٤.

(٣) (رسالة مار بطرس الثانية ١ : ١٦) أنظر أيضاً (متى ١٧ : ١، ٢)، (مرقس ٩ : ٢).

(٤) رسالة القديس يوحنا الأولى ٤ : ١ – ٣.

(٥) رسالة القديس يوحنا الثانية ٧ : ١٠، ١١.

من أهداف التجسد

«فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١ : ٤).

«كما أن الآب له حياة فى ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة فى ذاته» (يوحنا ٥ : ٢٦).

«لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يوحنا ٦ : ٣٣).

«بهذا أظهرت محبة الله فينا، أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكى نحيا به» (١ . يوحنا ٤ : ٩).

«ونحن قد نظرنا، ونشهد أن الآب أرسل الابن مخلصاً للعالم» (١ . يوحنا ٤ : ١٤).

«وهذه هى الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هى فى ابنه. من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (١ . يوحنا ٥ : ١١، ١٢).

مقدمة فى تجسد الكلمة

نحن نعرف أن المسيح له المجد عندما تجسد كان الهدف خلاص الإنسان، فالتجسد وسيلة لغاية، والغاية هى خلاص الإنسان، لأن الإنسان لما سقط فى الخطيئة وأصبح مطروداً من الفردوس ومحكوما عليه بالموت أظهر الإنسان ندامة، وعبر عن هذا بالاعتراف والصلوات من آدم حتى غيره من أولاده. وأيضاً عبر عن ندامته بالذبائح التى قدمها الإنسان فى مختلف العصور، ومعنى الذبيحة أنه فى حاجة إلى فادى، لأنه كان من المستحيل أن يكون الحيوان وسيطا بينه وبين الله، لأن الوسيط لابد أن يكون أرفع وأعظم مرتبة من الإنسان وله دالة عند الله...

من ذلك أدرك آدم وذريته أنهم فى حاجة إلى وسيط ولم يأت زمانه بعد، ولذلك حلت الذبائح مؤقتا، فكأن هذه الذبائح مجرد تذكرة للإنسان بحاجته إلى هذا الوسيط، وحتى لا ينسى حاجته إلى هذا الوسيط، أمرت الشريعة بعمل الذبيحة...

من هنا كان الحيوان تذكرة ورمزاً وإشارة إلى الذبيح والوسيط والفادى الحقيقى الذى لم يأت زمانه بعد، ولما أتى الذبيح الحقيقى وقَبِلَ فى جسده الحكم الذى لفظ به الله على آدم وذريته، وبهذا الوضع مات المسيح عن الإنسان. وهذا هو معنى الفداء...

معنى الفداء... أن هناك وسيط ينقذ الآخر، وهنا الفداء «والرب وضع عليه إثم جميعنا» أو ما يقوله بولس الرسول «أن المسيح مات عن الجميع» أو «ليس حب أعظم من هذا أن يموت أحد عن أحبائه... أنتم أحبائى»...

إذن عبر الإنسان عن ندامته باعترافه وصلواته وذبائحه. وكل أنواع العبادات التى قدمها الإنسان كان فيها مبرهنا على الخطأ الذى وقع فيه، وهذا هو السبب فى أن مراحم الله امتدت نحو الإنسان وغمرته بالعطف وبالرعاية، ولولا توبة الإنسان وندامته وتقديمه صنوف العبادات ترضية لله، لكان شأنه شأن الشيطان الذى أخطأ ولكنه لم يخلص، لأنه لم يطلب التوبة ولا وجدت عنده سبيلا، فالشيطان مكابر ومعاند ومقاوم ومضاد، وهذا هو معنى الاسم الذى اشتهر به (ابليس) وهى كلمة غير عربية مشتقة من الكلمة اليونانية *διάβολος* .

والله تعالى إذ رغب فى أن يرحم الإنسان وأن يفديه ما كان يمكن أن يتمم عمل الرحمة بطريقة تتعارض مع إحترامه لعدالته وإحترامه للحكم الذى نطق به، فالله بقدر ما هو رحيم

رحمة بغير حدود، هو أيضاً عادل عدالة بغير حدود، والله يحترم كلمته والحكم الذى يصدر منه، بل السماء والأرض تزولان ولا تسقط كلمة واحدة ولا حرف من كلمة ينطق الله بها.

من هنا كان الحل الوحيد الذى لم يكن غيره حل وهو أن يأخذ الله صورة الإنسان ويتخذ شكله محتجبا فى جسد، ويقبل فى هذا الجسد نفس الحكم الذى أصدره هو على الإنسان وفى هذا كل الرحمة وكل العدل. كل الرحمة لأنه ليس هناك حب أعظم ولا رحمة أوسع من أن يقبل الله على ذاته القدوسة أن يتخذ له جسدا ترابياً، ويقبل فيه كل صنوف الضعف والهوان والمذلة والصلب والألم والموت... وكل العدل لأنه ليس أدل على هذه العدالة المطلقة من أن يقبل على نفسه تنفيذ الحكم الذى أصدره هو بنفسه على الإنسان، ولا شك أن فى قبول الله ذلك معنى العدالة ومعنى احترام الحكم الذى أصدره الله على الإنسان، حتى أنه لما كان تنفيذ هذا الحكم على بديل آخر للإنسان، لا يجد له مفراً آخر غير أن يقوم الله بنفسه به، لم يتوان الله فى سبيل إحترامه لكلمته من أن يقبل هذا الحكم على نفسه فى جسده الذى اتخذه له...

وغاية ما نريده من هذا كله... أن الصليب كان ضرورة ولم يكن فضلة زائدة، وأن الخلاص بالأسلوب الذى تم به فى العهد الجديد كان أمراً ضرورياً، ولم يكن هناك سبيل آخر لخلاص الإنسان غير الطريق الذى تم به، ولو كان هناك طريق آخر غير هذا لما كان هناك داع لإتخاذ هذا الطريق بالذات، وفى هذا رد على الذين يقولون أنه لا حاجة إلى الفداء مادام الله يتصف بالغفران والرحمة. أن الله لا يستطيع أن يغفر من دون ترضية كافية لعدالته، وفى هذا أيضا رد على أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التى تنادى بأن العذراء حبل بها من غير دنس الخطيئة الأصلية بدعوى أن العذراء قد استثنيت من دون جميع الناس وأنها أعفيت من الخطيئة الأصلية بأسلوب خاص تنفرد به عن غيرها... وردنا واضح أنه لو كان الأمر كذلك... لكان عمل المسيح الفدائى فضلة زائدة وليس ضرورة لخلاص جميع الناس، ومادام يمكن للعذراء أن تكون فى غنى عن الخلاص فلماذا لا يكون غيرها على نفس القياس. وفى هذا كله نقض لقضية الفداء وهدم للعقيدة الأولى من العقائد المسيحية التى على أساسها يقوم بناء المسيحية الشامخ...

هذا هو الغرض الأول والهدف الأكبر من تجسد المسيح، فلولا الفداء لما كان التجسد، ومن هنا كانت عظمة عيد القيامة بازاء جميع الأعياد لأنه لولا القيامة لما كان الميلاد... وما لم يكن المسيح قد قام مبرهنا بقيامته على لاهوته من جهة، وعلى تحقيقه الخلاص من جهة أخرى، لما كنا فى حاجة لأن نحتفل فى عيد الميلاد لرجل عاش ثم مات، وبموته انتهت قضيته. لكننا

نحتفل بعيد ميلاده لأننا نعرف من هو ونعرف مقامه اللاهوتى ومركزه فى الخلاص، فنحن لا نحتفل بميلاد القديسين وإنما نحتفل فقط بميلاد المسيح، لأنه الله الظاهر فى الجسد والذى بواسطته كان الخلاص...

ويمكن أن يضاف إلى هذا الهدف هدف أكبر للتجسد هدف آخر على قدر أهميته وعظمته لكنه ثانوى القيمة بالنسبة للهدف الأول، ويمكن أن يقال أن الله فى تجسده حقق هدفا كبيراً فى لقائه بالإنسان، وفى هذا اللقاء دليل عناية الله بالإنسان. فلم يعد الله إلها يسكن وراء الجبال كما تقدمه لنا الميثولوجيا اليونانية وأساطير الرومان... ولكنه صار فى المسيحية قريبا إلى الإنسان وقد نزل خصيصا ليعيش مع الإنسان. ويشاركه فى اللحم والدم، ويشاركه آلامه ومتاعبه، ويكفكف من دموعه ويشفى أوجاعه، وهكذا كان المسيح صورة صادقة للرحمة الإلهية وقد نزلت إلى الأرض وعاشت مع الإنسان وشاركته نصيبه فى الآلام والمتاعب، والذى يقرأ الإنجيل يرى ولا سيما فى إنجيل لوقا صورة الله المشترك مع البشرية فى آلامها، لم يُرَ قط ضاحكا كما يقول بيلاطس فى تقريره الذى رفعه إلى طيباريوس قيصر، والذى وجد على لوحه نحاسية فى روما تحت الحفريات. وإنما رؤى المسيح باكياً ورائياً ومشفقاً وحزينا ومتألماً. عانى كل ما يعانيه أبأس الناس وأفقرهم وأضعفهم، بحيث لا نكاد نجد صورة من الناس أشد إعداما وإملاقا وفقرا، من الصورة التى قدمها لنا الإنجيل، فى المسيح الذى لم يجد له مكانا يأوى إليه حتى فى وقت ميلاده، نزل ضيفا على مملكة الحيوان، وبدلا من السرير كان مزود البقر له مهدا، وقد قال مرة «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكاراً أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» عاش نجارا يحصل قوته بكده وتعبه وعرقه وكفاحه ونضاله كعامل بسيط، وبعد أن تفرغ للخدمة الجهارية عاش مسكينا على صدقات المحسنين من الرجال والنساء اللواتى كن يخدمنه بأموالهن، وكان له صندوق وهذا الصندوق كان يحمله التلميذ الخائن... وكان على شهادة أحد زملائه يحمل ما كان فى الصندوق...

عاش المسيح إذن فقيراً بكل ما فى الكلمة من معنى، ولا يمكن أن نتصور حالة من الفقر أوضح من الحالة التى عاش بها المسيح، وبهذا يجد الفقير المسكين عزاء... لأن الله عندما أخذ صورة الإنسان أخذ صورة أفقر فقير يمكن أن تخطر ببال أحد من البشر، ولم يكن له أثواب وإنما كان له ثوب واحد وكان هذا الثوب إحسانا قُدِم إليه... وأما طعامه فكان من أبسط الأنواع فكان هو الطعام السائد الذى يتمتع به كل فقير فى بلد كان يعتمد كثيرا على السمك، ولم نقرأ فى

الكتب المقدسة ما يشير إلى أن المسيح تمتع بطعام خاص، وحقا أنه قبل دعوات من أشخاص كثيرين كان أكثرهم عشارين وخطاة، وكان يتكيء في بيوتهم وعلى موائدهم لكنه كان مشغولا بخلاص نفوسهم، ولم يكن الطعام بالنسبة له غير طُعم يجذب به كصياد حكيم السمكة ليخرجها من يم الخطايا وبحر الآثام ويردها إلي شاطيء الأمان...

إذن تَجَسّدَ المسيح، وفي تَجسُده خير وبركة للإنسان، لأنه عرف الله فيه والله غير منظور لكنه صار منظورا في المسيح، وكل صفات الله وكمالاته كانت معروفه في أكثرها، معرفة نظرية عن طريق الكتب المقدسة أو عن طريق كتابات الفلاسفة والمفكرين، ولكنه في العهد الجديد أمكن للإنسان أن يعرف صفات الله وكمالاته، معرفة مباشرة في المسيح الذي هو صورة الله غير المنظور، ولم تعد صفات الله في نظر الإنسان مجرد صفات يقرأها ويدرسها في كتاب ويسمعها من معلم، ولكنه صار يراها واضحة أمامه في المسيح الذي عاش معهم وشاركهم حياتهم وتعامل معهم، ولذلك صار يعرف بابن البشر...

وهذا هو المعني الذي حينما تأمله القديس أوغسطينوس بارك من أجله خطيئة آدم، لأنه لولا خطيئة آدم لما كان جاء المسيح، وفي مجيء المسيح تحقق كل هذا الخير للإنسان، وكل هذه البركة، وظهر كل هذا الحنان، وهذا الاشفاق، وتعلم الإنسان العلم كله من فم الله، رآه بعينيه وسمعه بأذنيه وشاهده ولمسته يداه على ما يقول يوحنا الرسول. لذلك قال أوغسطينوس (مباركة خطيئة آدم التي جلبت للإنسان كل هذا الخير).

* * *

كل آباء الكنيسة تناولوا موضوع التجسد وخطروا فيه وكتبوا عنه كتابات، بروحانية كبيرة وتقوى واتصال وعمق ومحبة تقوية وتعبد، وكان التجسد مثيرا لهم فحركهم ليعبروا عن مشاعرهم في صلوات عميقة وفي تهليل وتسبيح وشكر وتمجيد، خلفته لنا كتاباتهم الباقي بعضها إلى اليوم، والتي تدل في مجملها وتفصيلها على مدى ما أحدثه موضوع التجسد فيهم من أثرعميق، ومن شدة بهتهم وتعجبهم وشعورهم بهول المفاجئة وشدة الكرامة التي نالها الإنسان بتجسد المسيح الإله، تحدثوا دائماً عن التجسد في تهيب ووقار، وعبروا عن اتضاع عقولهم وعدم قدرتهم على أن يصوروا حقيقة التجسد التصوير الدقيق، وعبروا عن عجز عقولهم عن فهم هذا التجسد والدخول إلى أعماقه، وعبروا عن ذهولهم وعدم قدرتهم على أن يفهموا كيف أن الله ضابط الكل الذي هو روح مطلق يقبل أن يتخذ صورة آدمية ترابية... وعبروا عن عجز

عقولهم عن أن يفهموا كيفية الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، ولذلك وصفوا هذا الاتحاد بأنه اتحاد لا يدرك ولا يعبر عنه، ولا يمكن تصوره ولا يمكن فهمه، وليس فى مقدور العقل الإنسانى لا أن يتصوره ولا أن يشرحه أو يعبر عنه تعبيراً أمينا دقيقا، ولذلك وصفوا التجسد بأنه «سر»، تعبيرا عن عجزهم عن إدراكه، وأنهم مهما تكلموا عنه وأوضحوا حقيقته فسيبقى لا قدرة لعقل الإنسان أن يعيها أو يفهمها أو يعبر عنها، وسيبقى التجسد أمراً خفيا ومستورا. ويظهر هذا الاتجاه فى التفكير خصوصا عند آباء كنيسة الأسكندرية، وهذا هو الطابع الخاص الذى يميز لاهوت مدرسة الأسكندرية... أنه طابع التهيب والاتضاع فى كل ما يتصل بالإلهيات، طابع فيه يُخضع رجال الكنيسة وعلماؤها منطق الفكر لمنطق الإيمان، ويخضعون العقل للروح ويحلون التناقض بالحل الروحانى، ويعلون على التناقض الذى قد يصطدم به فكر الإنسان بالإيمان وبالروحانيات وبالأسرار الخفية العميقة...

وإذا كنا سنتخذ كتاب القديس أثناسيوس الرسولي بمثابة نص للدراسة فليس لأن أثناسيوس وحده هو الذى كتب في هذا الموضوع، ولكن كتابات أثناسيوس فوق أنها كتابات سليمة كل السلامة من جهة أرثوذكسيتها، حتى قال القديس غريغوريوس الثيئولوغوس «إذا وجدت كلاما لأثناسيوس ولم تجد ورقا فاكتبه على ثيابك»، فإنها كتابات رجل عاش عشرات السنين فى هذه المشكلة، وأخذ يناضل ويكافح البدعة الأريوسية خمسين سنة من الزمان، كفاحا شمل كل نقطة من دمه وكل خليّة من جسمه، وكل عصب من أعصابه، وكل دقيقة من دقائق حياته، عاش أثناسيوس يغلى بفكره، التجسد بمفهومه الأرثوذكسى، وتصحيح مفهومات الأريوسية فيما يتصل بموضوع التجسد، لذلك فإن كتاباته تعد كتابات من الطراز الأول الذى يغنينا، كتابات تتميز بالدقة والوضوح والعمق والأصالة والتجربة الحية، كتابات كتبها وهو مطرود أو منفى أو معزول عن كرسيه، أو يعانى بسبب إيمانه عذابات متصلة من كل الاتجاهات...

من أجل هذا فإن كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس، يعد نموذجا لكتابات الآباء الذين جمعوا بين الروحانية والعلم، وكانوا ناطقين بالإلهيات بعد أن دخلت هذه الإلهيات إلى أعماقهم وأشرقت فيهم، وأضاءت عقولهم ونوّرت الطريق أمامهم، وألهمت أفكارهم وأمسكت بأيديهم، فسجلوا ما سجلوا بفاعلية الروح القدس الذى نفخ فيهم ونفخ بقوته فى عقولهم وحرك أقلامهم...

فنحن إذن...

سنكون إذاء نص من النصوص التى يندر أن نجد لها نظيراً فى روحانيتها ودقتها وأصالتها.

نصوص من أقوال: القديس أثناسيوس

«أن الكلمة صار إنسانا متخذاً جسداً *σάρκα λαβών προσλαβών* من العذراء مريم».

«كيف يتصورون أن الجسد الذى استرده المسيح وأحياه، هو الذى جلب إلى الكلمة المحيى كمال اللاهوت؟ فإنه بالأحرى جدا أن الجسد الإنسانى هو الذى نال كمالا عظيماً نتيجة اشتراكه مع الكلمة واتحاده به».

...ἐκ τῆς τοῦ Λόγου πρὸς αὐτοῦ κοινωνίας τε καὶ ἑνώσεως

* * *

نصوص من أقوال: البابا بطرس (خلف القديس أثناسيوس)

«من لا يقر أن المخلص قد خلص بمجيئه الإنسان كله، فقد انفصل عن الله وهلك هلاكا كاملا أبدياً. وإذا كان قد خلصه كله بالتمام، فلأنه اتخذه كله بالتمام، لا لكى يعينه على الخلاص، ولكن من أجل خلاصه كله» (non in zadjutorium salvationis, sed ad totius salvationem) (١).

* * *

(١) من شذرة حفظها لنا فيكوندس Facundus Hermianus

أنظر. P. G., 33, 1291 C (FACUNDUS HERM., PRO Defensione Trium Capitulorum, IX, 2)

راجع أيضاً THEODORET, Hist. eccl., v, 10

ED. WEIGL: Christologie vom Tode des hl, Athanasius Zum Ausbruch des nestorianischen Streites (373- 429), Munich 1925, p. 99- 100.

نصوص من أقوال البابا ثيوفيلوس الأسكندرى (١)

(٣٨٥- ٤١٢)م

«لم يكن للمسيح جسد بدون نفس، وأن الله الكلمة لم يحل فيه (= فى هذا الجسد) محل النفس العاقلة كما يتخيل ذلك أتباع أبوليناريوس فى أحلامهم. وعندهم أنه بقوله (= المسيح) فى الإنجيل «الآن نفسى قد اضطربت» لا يثبت إلا أن لاهوته قد خضع للاضطراب، وهى النتيجة التى ينتهى إليها الذين يدعون أن اللاهوت حل محل النفس فى جسده» (٢).

«يجب أن يعرف... أنه (= المسيح) قد اتخذ مثيل حالتنا تماما، وأنه إذ قد شاركنا ليس فقط فى جسد أو نفس غير ناطقة وبلا عقل νοῦς (Sensu) ولكن فى الجسد كله والنفس كلها، فقد أظهر فيه إنسانا كاملاً».

* * *

---

(1) H. LIETZMANN, Apollinaris von Laodicea und Seine Schule, Tubingen, 1904, P. 37- 75-76.

ED. WEIGL, Christologie vom Tode des Athanasius bis zum Ausbruch des nestorianischen Streites (373- 429), Munchen 1925, p. 113, sq.

R. DELOBEL & M. RICHARD, Theophile d' Alexandrie, dans Dictionaire de theol. Ca th.

(٢) من رسالته الفصحية السابع عشرة لعام ٤٠٢م الفقرة ٤ والخطاب محفوظ فى رسائل القديس ايرونيموس (جيروم).

S. JEROME, Epist. 98, edit. HILBERG, Corpus Script. eccl. de Vienne, t. LV, p. 185- 211.

نصوص من أقوال القديس ديديموس الضرير (١)

«كيف كان يمكن أن يثبت بوضوح أنه (= الكلمة) قد صار جسدا حيا ἔμψυχος في الحقيقة لا في الظاهر، إذا كان المانويون يعتقدون أنه كان له شبه جسد، والأريوسيون (يعتقدون) أنه كان من غير نفس ἄψυχος ما لم يكن قد قال «نفسي حزينة»، وما لم يكن قد أظهر الخوف، وتناول من الطعام والشراب والنوم؟ لأن هذا لا يوافق اللاهوت، ولا الجسد من غير نفس (٢)...

فإن مثل هذه (الضعفات) لا تليق لا باللاهوت ولا بالجسد بدون نفس. فمن جهة الجسد، نحن لا نرى إلا الآلام الضارة بالجسد، على وجه الدقة، وليست، قطعا، تلك (الآلام) التي تدهمنا نتيجة لعدم وجود التأملات λογισμῶν المفيدة. ومن جهة النفس. نلتقي بالاهتمامات المتسببة عن الآلام» (٣).

وقال في موضع آخر:

«ظهر ناسوته لنا في كل شيء، فيما عدا الخطيئة ولم يكن جسده بغير نفس (٤)... إن نفس يسوع عاقلة ومطابعة لنفوس الناس (أو من ذات جوهرها)، كما أن جسده الخارج من مريم كان مطابعا لأجساد الناس (أو من ذات جوهرها) (٥).

* * *

---

(1)G. BARDY, Didyme I'Aveugle, paris, 1910, p. 30- 31 .
Ed. WEIGL, Christol. vom Tode Des Athanasius., p. 100 sq.,
J. LEIPOLDT, Texte und Untersuchungen, XXIX (N. F., XIV)
Didymus der Blinde von Alexandrien (Leipzig, 1905).

(2) DIDYMUS, De Trinitate, III, 21; P. G., 39, 904 AB; III, 2, 797A; 4, 829G; 21, 900A; 30, 949B.

(3) DIDYMUS, In Psalm. XV 1233 BC;cf. In Psalm. XXII, 1297 B; XXXIX 1253 D- 1256 A; LXVII, 1444 A; LXVIII, 1436 C; LXX; 1465A; LXXI, 1465C.

(4) J. LIEBAERT, La doctrine christologique de Saint Cyrille d'Alexandrie avant la guerelle nestorienne, Lille, 1951. p. 136 n, 1.

(5) DIDYMUS. In Psalm. XV, P.G., 39, 1232 C.

نصوص من أقوال داماسوس أسقف روما

«يلزم أن نعترف بأن الحكمة ذاته، الكلمة، ابن الله اتخذ جسدا ونفساوعقلا(sensum) νοῦς بشريين، أعنى آدم كله، وبعبارة أوضح كل إنساننا العتيق، فيما عدا الخطيئة».

ثم أضاف:

«فمن قال أن الكلمة، قد حل، فى جسد المخلص، محل العقل الإنسانى (sensum) νοῦς فالكنيسة الجامعة تحرمه» (١).

«فإذا كان الإنسان الناقص هو الذى اتخذه (الكلمة) فتكون عطية الله ناقصة، وخلاصنا ناقصا، لأنه لم يخلص الإنسان كله. ولا تتم كلمة الرب: أن ابن الإنسان قد أتى ليخلص ما قد هلك تماما أعنى فى النفس، وفى الجسد، وفى العقل (sensum) νοῦς وفى كل جوهر طبيعته... فنحن إذن الذين نعلم أننا قد نلنا الخلاص كاملا وبالتمام، نقرّ، حسب إقرار الكنيسة الجامعة، أن الله كاملا اتخذ الإنسان كاملاً» (٢).

* * *

(١) من رسالة البابا الرومانى داماسوس إلى باولينوس عن الابن per Filium علم ٣٧٥، يصحح به خطأه الذى وقع فيه أولا بقبوله فيتاليوس الأبوليناريوسى فى شركته. وكان فيتاليوس قد خدعه (وهذا خير رد على القائلين بعصمة باباوات روما).

(٢) هذه الشذرة للبابا الرومانى داماسوس يرجع تاريخها إلى عام ٣٧٦ كتبها بعد أن كتب القديس باسيليوس يحذر من خطر البدعة الأبوليناريوسية، وقد وردت I llud Sane, P.L., 13, col. 352 B- 353 A. B.

أما عن تاريخ هذه الشذرة.

LIETZMANN (H.), Apollinaris von Laodicea und Seine Schule, Tuhingen, 1904 P. 55.

من أقوال القديس غريغوريوس النيسى

«تكلم القديس غريغوريوس النيسى فى موضوع اتحاد اللاهوت بالناسوت، لكنه عبّر عن الاتحاد بلفظ «الاختلاط، أو الامتزاج» وهما التعبيران اللذان عدل عنهما فيما بعد بسبب بدعة أوطيخا».

«هوذا الخليط الجديد: الله وإنسان، واحد من اثنين، واثنان فى واحد»

Εἷς ἐξ ἀμφοῖν καί δι᾽ ἑνὸς ἀμφότερα

ولهذا السبب، اختلط الله بجسد بتوسط نفس، والأشياء المنفصلة ارتبطت بفضل اتخاذ الاثنين عن طريق الوسيط (١).

* * *

يقول القديس غريغوريوس رئيس أساقفة الأرمن فى صلاته

«ارحم بعظمة صلاحك هذه الكورة الأرمنية ليعرفوك أنت وحدك، وابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، الذى أرسلته فلبس بشريتنا وقبل صورة ومثال وشبه خلقة يديه حتى أنه قبل جسد البشر وجذب إليه البشرية بجنسية جنسهم، لأنه لا يمكن لبشر حتى يصير الناس مستحقين اللاهوت» (٢).

* * *

ويقول القديس ألكسندروس بابا الأسكندرية
المقدم فى مجمع نيقية، فى الميمر الذى وضعه

«ما هى الضرورة الموجبة أن ينزل الله الكلمة على الأرض ويتجسد من العذراء ويلف بخرق، ويجعل فى مزود ويرضع اللبن من إمرأة، ويعتمد فى الأردن... ويعلق على خشبة ويجعل فى مقبرة وينبعث فى اليوم الثالث، أليس هو من أجلنا ليقيمنا نحن الذين هلكنا» (٣).

* * *

---

(1) orat., 1, s 23; P. G., 35, 432 C.

(٢) عن كتاب اعترافات الآباء بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت ورقة ١٦.

(٣) عن كتاب اعترافات الآباء بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت ورقة ١٦، ١٧.

يقول القديس غريغوريوس صانع العجائب

«نقول أن كلمة الله صار إنساناً من أجل خلاصنا لتنال صورة الإنسان السمائى، ويصيرنا آلهة كصورة الابن الحقيقى ابن الله» (١).

* * *

ويقول القديس غريغوريوس رئيس أساقفة الأرمن الشهيد بلا سفك دم فى صلاته

«صار مثلنا ليصيرنا آلهة لأن هذه هى إرادته» (٢).

وقال أيضاً:

«أن الأمم أحبوا صور وأشباه الشر من أخشاب نحتها الصناع. فلأجل هذا صار هو صورة إنسان بحق، حتى يرى أيضاً صانعوا الصور والتصاوير فيتعبدوا لصورة لاهوتيته... ولأجل هذا صار ابنك الوحيد فى جسد وصورة إنسان» (٣).

* * *

يقول القديس اغناطيوس أسقف أنطاكية وتلميذ ماربطرس الرسول

«قد نجد آخرين فى التاوماحوسيس أى محاربى الله، هكذا يظنون بالجسد الذى بناه الله من لحم ودم العذراء... يقولون عنه أنه جسد بلا نفس، ويقولون أن اللاهوت هو نفسه، فهل ترى خرجت منه اللاهوتية ومات الجسد بالجملة؟ فليفتضح الآن من يقول هذا الكفر هكذا، وليسمعوا قول الرب «أن نفسى حزينة حتى الموت» (٤).

«نؤمن هكذا أنه أخذ إنسانا كاملا من مريم العذراء والدة الإله، ومن الروح القدس، وليس هو من زريعة (= زرع) بشر. له جسد ونفس بالحقيقة، لا بالفكر وهكذا خلص الناس بكمال» (٥).

---

(١) و (٢) و (٣) عن اعترافات الآباء. بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت ورقة ١٦.

(٤) عن اعترافات الآباء، بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت.

(٥) عن اعترافات الآباء، بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت ورقة ١٩.

* * *

قال أطيفوس تلميذ الرسل بطريرك القسطنطينية فى ميمره على الميلاد

«اليوم قبل المسيح الرب ميلاد البشر، وهو الأزلى من البدء. المولود من الآب، كلمة الله اتضع وهو غير متضع فى جوهره. اتضع بإرادته ولبس صورة العبد. الذى بلا جسد لبس جسدا من أجلك أيها الإنسان. الكلمة الذى تجسد غير الملموس بجوهر لاهوته لمس من أجلك أيها الإنسان. الذى ليس له ابتداء بلاهوته لبس جسدا تاما يُرى. الغير متغير تجسد بالجسد المتغير. الغنى حل فى مسكن اللاوى. الذى يظلل السماء بالغمام لُف فى خرق. والملك جُعل فى مزود» (١).

---

(١) عن اعترافات الآباء، بالدير المحرق، مخطوط رقم ٦٠ لاهوت.

من أقوال البابا كيرلس الأسكندرى

فى بيان أن مخلصنا اتخذ جسداً ذا نفس عاقلة

«(يجب أن) يعرف أن جسد الرب المأخوذ من مريم كانت له أيضاً نفس، ليس كتلك التى تمتلكها الكائنات غير العاقلة، وإنما (كتلك التى تمتلكها) الأناسىّ العاقلة، فإن ألم الخوف لا ننتظره لا من اللاهوت الذى لا يقبل الألم، ولا من الجسد. إن هذا الألم يختص فى الواقع بتأملات النفس لا بالجسد، فإذا اضطربت الكائنات غير العاقلة فمما ترى لا مما عندها فى الفكر. أما الرب فقد اضطرب لا مما رأى، ولكن مما كان يتوقعه، وأعنى به اقتراب الصليب منه». (١)

«أن الكلمة، وهو الله بالطبيعة، صار إنساناً مثلنا لكى يخلصنا».

«أن الله الكلمة قد سكن فى هيكل كان خاصاً به فالجسد أخذ من إمرأة، وزود بنفس عاقلة»

ψυχὴν ἔχοντι τὴν λογικήν

وقال القديس كيرلس الأسكندرى فى تفسيره على إنجيل القديس يوحنا، شارحاً النص الوارد فى (٦ : ٢٧).

«اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقى للحياة الأبدية الذى يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه».

«يجب أن نلاحظ أنه بالقول أن ابن الإنسان يوزع الخيرات السمائية، وأنه هو ختم وصورة الله الآب، أنه (= المسيح) لا يخضع لتقسيم فاصلاً عن البنوة الحقيقية الهيكل الذى ولد من العذراء، لكنه قد حدّ نفسه بنفسه، ويريد أن يعرف أنه واحد. وفى الحقيقة والواقع أن المسيح واحد معنا ملتحف كما بثوب برفير ملكى، بلباسه الخاص، أعنى الجسد الإنسانى أو الهيكل (المركب) بكل وضوح من نفس ومن جسم، ولو أن المسيح واحد من إثنين» (٣).

(١) فى تفسير إنجيل القديس يوحنا (١٢ : ٢٧).

of. P. G., 74, 88C- 92D. PUSEY, 11, 315, 18- 32023.
J.LLEBAERT, La Doctrine Christologique de S.
Cyrille d'Alexandrie, Lille, 1951 P.13334 n.8.

(٢) عن الرسالة الفصحية الثامنة لعام ٤٢٠م

HOM. Pasch. VIII, P.G., 77, 573 B.

(3) In jo., P. G., 73, 484 B (1, 442, 17-26).

...καθάπερ ἀλουργίδα βασιλικὴν τὸ ἴδιον φόρημαπεριkείμενος, φημὶ δὲ τὸ ἀνθρώπινον σῶμα ἤτοιναὸν τόν ἐκ ψυχῆς δηλονότι καὶ σώματος, εἰ καὶ εἷς ἐξ ἀμφοῖν ὁ Χριστός

ويقول البابا كيرلس فى موضع آخر:

«ابن واحد، من قبل أن يتلقى (يتحد) بالجسد وعندما اتحد (حرفياً: اقترن) بالجسد. فبالجسد نسمى الإنسان كاملاً، أعنى (الإنسان) المؤلف من نفس ومن جسد» (١).

.........Εἷς γὰρ καὶ μόνος υἱὸς καὶ πρὸ τῆς σαρκὸςσυνόδου, καὶ ὅ τε συνῆλθε σαρκὶ διὰδὲ τῆς σαρκὸς ὁλοκλήρως τὸν ἄνθρωπον ὀ νομάζομεν, τὸν ἐκ ψυχῆς καὶ σώματος λέγω.

ويقول البابا كيرلس أيضاً فى تفسيره على إشعياء خصوصاً قوله «أنت الله، وليس إله آخر غيرك» «فى المسيح يسكن كل ملء اللاهوت جسدياً» (٢) «كان هو الله، وليس منقسماً إلى ابنين، لأن الكلمة اتخذ جسداً له خاصة، هذا الذى قيل أنه سكن فيه. وإذن، فبهذا أيضاً عرف المسيح أنه الله، كالنفس فى الجسد الإنسانى، ومن ثم هو ابن وإله واحد. فينبغى أن يعرف فى الحقيقة أننا نقول أن جسد الرب حى «بنفس عاقلة».

.....οὐοκοῦν κἀν τούτῳ νοεῖται θεὸς, καθάπερ ἐν ἀνθρωπίνῳ σώ ματι ψυχή· ἀλλ' οὖν εἷς υἱός ἐστιν ὁ θεός.
Ἰστέον γε μὴν ὅτι τὴν τοῦ κυρίου σάρκα φαμὲν ἐψυχῶσθαι (ἐμ ψυχῶσθαι) ψυχῇ νοερᾷ.

---

(1) P. G., 73, 1012 A (11, 200, 27-29).

(٢) الإشارة إلى كولوسى (٢ : ٩).

فالشعوب إذن تعترف «ان الله فيك، وليس هناك إله آخر سواك» (١).

ويقول القديس كيرلس فى تفسيره لكلمات النبى ملاخى: «وبغتة يأتى إلى هيكله، الرب الذى تطلبونه، وملاك العهد الذى ترغبونه».

«إنه يقول أنه سيأتى إلى هيكله، أو بالحرىّ، لأن الكلمة صار جسداً وسكن فى الجسد كلى الطهارة (الذى ولد) من القديسة العذراء، كما فى هيكل، أو بالحرى لأنه قد سكن فى إنسان كامل، أعنى (المركب) من نفس ومن جسد، الذى نعتقد أنه اتحد به مباشرة، وحسب التدبير» (٢).

ἤγουν ἀνθρώπῳ τελείῳ, τῷ ἐκ ψυχῆς λέγω καὶ σώματος ἀμέσ ως τε καὶ οἰκονομικῶς ἡνῶσθαι πεπιστευμένῳ

ويقول كذلك فى كتاب آخر:

«نؤكد أن عمانوئيل مؤلف فى مسيح وابن واحد من (عنصرين) كاملين *ἐκ δυοῖν τελείοιν* ، اللاهوت والناسوت. إذ أننا لا نقبل رأى الذين يظنون أن هذا الهيكل الإلهى المولود من القديسة العذراء، والذى حمله الله الكلمة، كان خلواً من نفس عاقلة. ولكن كما أنه كان كاملاً فى لاهوته كذلك كان كاملاً فى ناسوته، ولو أنه مركب فى واحد بصورة لا يعبر عنها ولا يمكن إدراكها» (٣).

---

(1) In is., XLV, 14, P. G., 70, 973 AB.

(2) IN MALACH., III, I, P. G., 72, 332 A.

(3) Glaphyres in Gen., VI, P. G., 69, 297 C.

كما يقول هو نفسه:

«كان هو الله الحقيقى فى الجسد، وكان حقاً هو الجسد فى الله» (١).

ويقول البابا كيرلس الأسكندرى فى بيان أن الجسد (خاص) بالكلمة.

«أن الجسد الذى اتخذه لم يكن غريباً عنه، لكنه جسده الخاص به» (٢).

«أن الجسد الذى تألم كان بجسده الخاص به» (٣).

ἴδιον ἐποιήσατο

«لقد صار يخصه ما كان بعيداً عن جوهره الإلهى السامى، بما لا يقاس، وأعنى به الجسد» (٤).

وقال فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا:

أنه (المسيح) بطبيعته الله فى الجسد وبالجسد وقد صار هذا (الجسد) خاصاً به ὡς ἰδίαν ومن حيث هو الله، صار الكلمة المولود من الآب جسداً كما قال يوحنا، ولكنه لم يتحول إلى جسد وإنما صار الهيكل المولود من القديسة العذراء جسده الخاص به» (٥).

ويقول القديس كيرلس الأسكندرى تعليقاً وتفسيراً على أمثال (٨: ٢٣) «قد مُسحتُ منذ الأزل».

(1 Thesaurus, P. G., 7475, 389 A: Cf. C. Arian. III, S 41, P. G., 26, 412 A.; Thesaurus, 392 A, 393 C, 428 A.

(2) Glaphyres., P. G. 69, 561 B, Cf 576 B.

أن الجسد كان جسده ولم يكن لباساً φόρημα غريباً.

(3) Thesaurus, P. G., 75, 429A; f Cf. 281 C. 361 C, 384 D. Cf. In jo, P. G., 73, 776 B(1, 713,8).

(4) Dialogues VI, P. G., 75, 1021 A; Cf., V, 961 A; VI, 1024 C, 1028 B, 1064 A.

(5) In jo., P. G., 74, 300 C (11, 505, 19- 22).

انظر أيضاً بخصوص التعبير ἰδία σάρξ

De A dor., P. G., 68, 653 D; Glaphyres, P. G., 69, 480 A; Hom, pasch. VII, P. G., 77,552 A;= VIII, 569 C; In Is., P. G., 70, 181 C, 316 A, 973 B; In jo., P. G., 73, 581 AB (I, 532, 26;

«كان منذ البدء عند الله، وكان هو الله، ولكن حيث أنه كمثل حجر قطع من جبل بغير تدخل أيد (بشرية) أى صادراً (أو آتياً) من جوهر الآب، قد لبس جسدنا كما لو كان من الأرض.

..........*καθάπερ τινὰ γῆν τὴν ἡμετέραν σάρκα περιεβάλετο*

لذلك فهو يؤكد أنه قد صار أساساً، وكأنه يقول: حيث أننى الكلمة والابن الحقيقى، فقد ألبسنى الآب جسداً ترابياً، حتى أصير أساساً ومبدءا لهؤلاء الذين سيبنون علىّ بالإيمان، كما أن الحجر الذى يطمر ويدفن فى التراب يصير أساساً للبناء» (١).

ويقول البابا كيرلس الأسكندرى تعليقاً على (أمثال ٩ : ١).

«لقد صار بيتاً *οἶκος* للحكمة، مبنياً بها، هذا الجسد العادى المولود من القديسة العذراء، الذى تفضل فسكن فيه جسدياً ملء اللاهوت حسب تعبير بولس» (٢).

وقد شبه البابا كيرلس الجسد الذى اتخذه الكلمة بالخيمة أو المسكن فى العهد القديم. وذلك فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا:

«عندما بنت الحكمة بيتاً *οἶκος* كما هو مكتوب، وشّيدت الخيمة *σκηνή* الحقيقية، أعنى الهيكل المولود من العذراء، نزل فيها الله الكلمة الذى هو فى حضن الآب، بكيفية إلهية لا يمكن تصورها» (٣).

533, 7) 793 D (II, 2, 12- 20); 74, 276 A (II, 482, 26) etc., etc.

انظر بخصوص التعبير *ἴδιον σῶμα*

De Ador., 744 C; Glaphyres, 577 B; In Is, 253 D; In jo., P. G., 73, 577 C (I, 530, 13); 74, 549 A (II, 725, 29-31), etc.

(1) Thesaurus, P. G., 75, 289 D; Cf., Contra Arianos II, S 74, P. G. 26, 305 A.

(2) Thesaurus, P. G., 75, 261 C.

(3)In jo., P. G., 73, 616 B- 621 B (1, 565- 569).

انظر أيضاً In Amos, P. g., 71, 577 A

كذلك استخدم البابا كيرلس تعبير الهيكل *ναός* في الكلام عن الجسد الذى اتخذه الكلمة وله فى ذلك أقوال كثيرة (١) ذكرنا بعضها سابقاً، ومن ذلك أيضاً قوله: وهو يجيب على سؤال: كيف أن الروح الإلهى، ولا كمّ له ولا حدود، يمكن أن ينحصر فى جسد إنسان واحد؟ فيجيب البابا قائلاً:

«أن طبيعة الكلمة» لا يمكن بتاتاً أن تحد على الرغم من أننا نقول أنه يسكن كما فى هيكل مقدس، «فى الجسد المولود من القديسة العذراء».

«أما أن نفهم (كيف) يكون ذلك، فهذا ما يجب أن نكف عنه، ونعترف بأننا نجهله».

(1) De Ador., P. G., 68, 597 C, 661 B, 672A; Glaphyres P. G., 69, 353 D, 365 B, 576 B, Hom. Pasch. VIII, P. G., 77, 569 B; XIII, 708 A. Thesaurus, P. G., 75, 204 C, 364 B, 428 C; Dialogues, V, P. G., 75, 964 C; VI, 1017 A, 1025 B.

In jo., P. G., 73, 161 AB (1, 140, 17; 141, 2) 237 AB (1, 212, 16 sq) etc.

لاحظ خصوصاً التعبير *οἰκεῖος ναός*

De Ador., 597 D; Hom. pasch. VIII, 592 A, 573 B; In jo., P. G., 73, 601 B (1, 551, 6-7), 880 A (11, 80, 2) etc.

وأما التعبير *οἰκεῖος ναός* فقد ورد:

Hom.pasch. V, 473 B; In jo., P. G., 74, 276 A (11, 482, 29) 549 C (11, 726, 21), etc.

اتحاد الكلمة بالناسوت

يستخدم البابا كيرلس تعبير «الاتحاد» اتحاد الكلمة بالناسوت الذى أخذه من مريم العذراء. وأحياناً يتحدث عن اتحاد الكلمة بالجسد، أو اتحاد الكلمة بالناسوت أو الجنس البشرى، وكلها عنده بنفس المعنى.

ويتحدث تارة عن اتحاد *ἑνοῦσθαι* الكلمة بالجسد (١)، أو بالجسم (٢)، أو بطبيعتنا (٣) وتارة أخرى بالعكس يتحدث عن اتحاد الجسد (٤)، أو الجسم (٥)، أو الهيكل (٦) بالكلمة.

وكثيراً ما يستخدم كلمة «اتحاد *ἕνωσις*» (٧)، أو أحياناً *ἑνότης* (٨)، وقليلاً ما يستخدم تعبير *συνδρομή* (٩)، بمعنى: اتحاد. مشاركة. تعاون، أو

---

(1) *ἑνοῦσθαι σαρκί* In Each., P. G., 72, 116 B; Dialogues 1, P. G., 75, 680 B, 693 B (of. 693 D); V, 936 A; In jo., P. G., 73, 357 C (1, 325, 1), 581 A (1, 538, 18) 604 B (1, 552, 26), 621 A (1. 569, 5-6) 921 D (11, 120, 16); P. G., 74, 280 B (11, 486, 10), 528 C (11, 707,21).

(2) *ἑνοῦσθαι σώματι* In jo., P. G., 74, 181 A (11, 402, 12), 528 B (11, 707, 3) 585 B (111, 21, 2).

(3) *ἑνοῦσθαι φύσει* In jo., P. G., 73, 532 B (1, 487, 18); P. G., 74, 545 D.
...ἀῤῥήτως ἑαυτὸν ἑνώσας τῇ ἡμετέρᾳ φύσει (11, 724, 4).

(4)In jo., P. G., 73, 156 D (1, 136, 8), 577 B (1, 530, 5).

(5) Ibid., 160 C C1, 139, 12), 577 B (1, 529, 27).

(6) Dial. VI, P. G., 75, 1025 B.

(7) *..τὸν ἀπορρήτως ἑνωθέντα μοι ναὸν ἕνωσις πρὸς σάρκα* De Ador., P. G., 63, 593 B, Glaph., P. G., 69, 480 A . «اتحاد بالجسد أو بالناسوت أو بالطبيعة اتحاداً كاملاً.
ἕνωσις πρὸς τὸ .... σαρκίον Hom. pasch. XVI, P. G., 77, 565 C.
ἕνωσις πρὸς σῶμα In jo, P. G., 74, 557 D (11, 734, 26), 737 C (III, 155, 2-3)
ἕνωσις πρὸς τὸ ἀνθρώπινον Dial. VI, P. G., 75, 1025 A.
بغير تحديد : Hom, pasch. XIII, 705 B; Dial. 1, 693 B; In jo., P. G., 73, 581 AB (1, 532, 21; 533,8 ; 565 D (1, 520, 6) id.; 692 C (1, 577, 10); id.

(8) *ἑνότης* De Ador., P. G., 68, 621 A; Hom. pasch. VIII, P G., 77, 569 CD; Dial. 1, P. G., 75, 693 AB.

(9) *συνδρομὴ πρός (εἰς) σάρκα* Glaph., P. G., 69, 632 C; Dial, V, P. G., 75, 933 BC: =

σύνοδος (١)، بمعنى (لقاء، إلتقاء، اتفاق)، ونادراً ما يستخدم تعبير *συνάφεια* (٢) بمعنى اقتران. اجتماع، أو *συμπλοκή* (٣) بمعنى ارتباط، اتصال، التصاق أو *συνουσία* (٤) بمعنى علاقة.

ومما هو جدير بالذكر أن القديس كيرلس الأسكندرى يستخدم تعبير الاتحاد، والتعبيرات الأخرى بمعنى فعّال من جانب الكلمة. فالاتحاد عنده ليس هو اتحاد الكلمة والجسد، أو مع الجسد، وإنما هو اتحاد الكلمة بـ الجسد ولذلك يستخدم دائماً حرف الجر *εἰς, πρός* وفحوى هذا أن القديس كيرلس لا ينظر إلى اللاهوت والناسوت كما لو كانا عنصرين على نفس المستوى كما يفعل اللاهوتيون القائلون بالطبيعتين، وإنما «الاتحاد» عنده هو تعبير آخر يعبر به عن الحقيقة التى يؤكدها القديس أثناسيوس واللاهوت الأسكندرى «أن الكلمة اتخذ جسداً» (٥).

τῆς πρὸς σάρκα καθ' ἕνωσιν συνδρομῆς

940 B; VI, 1033A; In jo, P. G., 73, 601 A (1, 550, 24); of. Dial. 1, 693 B.

συνδρομὴ ἐκ δυοῖν εἰς ἕν τε

(1) *σύνοδος πρός (εἰς) σάρκα* Glaph., P. G., 69, 129 B; Hom. pasch XI, 664B; Dial. 111, P. G., 75, 816 BCD; In jo., P. G. 74, 548D.

σύνοδος τῆς σαρκός In Jo,P.G.73; 1012 A

σύνοδος τῆς θεότητος καὶ ἀνθρωπότητος (ἑνότης τῆς συνόδου) Hom. pasch. VIII, 572 A., 569 C

X, 609 C; In jo., P. G., 73, 577 B (1, 530, 3).

(2) *συνάφεια* Dial. VI, P. G., 75, 1032 D:

.....πρὸ τῆς πρὸς σάρκα συνδρομῆς καὶ τῆς καθ' ἕνωσιν συναφε ίας

(3) *συμπλοκὴ πρὸς σάρκα* De Ador., P. G., 68, 636 A; Cf., In jo, P. G., 73, 160 B (1. 139, 11).

ἀσύμπλοκος τῆς σαρκός (تعبير يصف الكلمة قبل التجسد)

In jo., P. G., 73, 305 B (1, 277, 18), 533 A (1, 489, 3); of. P. G., 74, 704 C (111, 126, 6-7). Glaph., P. G., 69 632 C.

(4) *συνουσία* In jo., P. G., 74, 520 A (11, 599, 31 sq): *τῇ συνουσίᾳ τοῦ ἑνώθεντος αὐτῇ Λόγου*

(٥) يقول القديس أثناسيوس الرسولى فى رسالة له إلى ابسيلتيتوس:

«كيف يتصورون أن الجسد الذى استرده المسيح وأحياه هو الذى جلب إلى الكلمة المحى كمال اللاهوت؟ فإنه بالأحرى جداً أن الجسد الإنسانى هو الذى نال كمالاً عظيماً نتيجة اشتراكه مع الكلمة واتحاده به».

...ἐκ τῆς τοῦ Λόγου πρὸς αὐτὸν κοινωνίας τε καὶ ἑνώσεως

ATHANASIUS (S), AD EPICT., 9, P. G., 26, 1065 A.

من أقوال البابا كيرلس الأسكندرى بشأن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت (قبل عام ٤٢٨ م)

«ابن واحد (مؤلف) من إثنين، الطبيعة الإلهية والإنسانية مشتركتان ومتوافقتان فى واحد.

συνδεδραμηκότων καὶ συνενεχθέντων εἰς ἓν

بصورة تفوق الوصف، ولا يعبر عنها، ومؤتلفتان فى وحدة *εἰς ἑνότητα συντεθειμένων* بكيفية من المستحيل تصوّرها» (١).

«الابن الوحيد الجنس، وهو الله بالطبيعة، حمل الجسد من القديسة العذراء، وكأنه مؤلف من إثنين أعنى: من الطبيعة التى من عل، ومن الناسوت، بصورة لا يعبر عنها، ولا يمكن إدراكها» (٢).

ومن التعبيرات السائدة فى كتابات البابا كيرلس قبل عام ٤٢٨م، والتى تدل على الاتحاد: أن المسيح بعد الاتحاد هو «الواحد بعينه» (٣).

Εἷς που πάντως καὶ ὁ αὐτὸς

«واحد من إثنين» (٤) ***Εἷς ἐξ ἀμφοῖν*** «الكلمة هو» واحد ووحيد بالطبيعة، وأسمى ما يكون السمو، قبل الجسد، وبعد الجسد» (٥).

Εἷς καὶ μόνος φυσικῶς τε καὶ ἐξαιρέτως καὶ πρὸ σαρκὸς καὶ με τὰ σαρκός

---

(1) Dial., 1, P. G., 75, 693 B.

(2) Glaph., P. G., 69, 560 C.

(3) Glaph., P. G., 69,129 B.

(4)DE ADOR., P. G., 68, 345 C; GLAPH., P. G., 69, 576 BC; IN JO., P. G., 73, 161 A (1, 140, 17), 249 C (1, 224, 21-22), 484 B (1, 442, 25), 581 A (1, 532, 25); P. G., 74, 157 A (11, 381, 28- 29) OF. HOM. PASCH. VIII, P. G., 77, 573 B:

يجب أن نعبد *ἕνα τὸν ἐξ ἀμφοῖν ἀρρήτως κεκερασμένον*

(5) In jo., P. G., 73, 629 BC (1, 577,3- 4).

وأنه «واحد» ...εἷς , ἕν , ἕν τι مع جسمه، مع جسده، مع هيكله».

ومن ذلك قوله: ان الكلمة «ليس آخر بالنظر إلى جسده، أو (بالنظر إلى) الهيكل المولود من العذراء، لكنه يفهم على أنه واحد ἕν معه، حسب الاتحاد الذى قيل فيه أنه صار جسداً (١)، وقوله: أن الجسد «يعتبر أنه له، ويفهم على أنه واحد εἷς معه» (٢).

وقوله: ان الكلمة والهيكل هما «واحد» ἕν بموجب الاتحاد (حرفياً: الالتقاء) والمشاركة اللذين لا يمكن تصوّرهما».

وقوله: أن الجسد الخاص، به هو واحد ἕν مع الكلمة (٣).

وقوله: يجب أن يعتبر ويعد الكلمة والهيكل ὡς ἕν τι (٤).

وقوله: أن الجسد «يعتبر على أنه واحد ἕν معه (٥).

وقوله: «نحن نفهم الكلمة على أنه واحد ὡς ἕν τι مع جسده الخاص به» (٦).

ومن تعبيرات البابا كيرلس الواردة فى كتاباته عن اتحاد اللاهوت بالناسوت، أن الطبيعة الإلهية والناسوت اتحدا فيه إلى واحد εἷς ἕν (٧).

ومن تعبيراته أيضاً: أن المسيح فى نفس الوقت ἐν ταυτῷ إله وإنسان، لا يقبل التجزئة بتاتاً، بعد التجسد». من ذلك قوله: أن المعرفة فى موضوع المسيح تتألف من شيئين وهى أنه إله وفى نفس الوقت ἐν ταυτῷ إنسان، ومع ذلك فهو ابن واحد ومسيح واحد من اثنين ἐξ ἀμφοῖν (٨).

---

(1) Hom. pasch., XIII, 708 A:

ويتصل بهذا قوله: أن الكلمة «ليس آخر بالنظر إلى جسده الخاص به».

In jo., P. G., 73, 161 A (1, 140, 7-8); 581 B (1, 533, 6-7); P. G., 74, 181 A (11, 402, 18 sq), etc.

وقوله «نحن لا نعتبر الجسد الخاص بالكلمة غريباً عنه».

In jo., P. G., 73, 601 A (1, 351, 1-2).

(2)In jo., P. G., 73, 577 BC (1, 529, 28-29).

(3)In jo., P. G., 73, 604 B (1, 553, 3).

(4) P. G., 74, 157 A (11, 381, 25).

(5) 564, AB (111, 2, 5-6).

(6) 737 C (111, 155, 10- 11).

(7) Dial. 1, P. G., 75, 693 A; Glaph., P. G., 69, 560 C.

(8) De Ador., P. G., 68, 345 C. cf. ibid., 593 B.

وقوله: «أنه يفهم على أنه إله وإنسان فى نفس الوقت *ἐν ταυτῷ* ». (١)، «فإن المسيح واحد ولا يقبل التجزئة» (٢).

Εἷς γὰρ καὶ ἀμέριστος ὁ Χριστός

(1) De Ador., P. G., 68, 637 A; Dial, 1, P. G., 75, 693 B; In jo., P. G., 74, 557 D (11, 734, 29).

(2)Glaph., P. G., 69, 129 C; 669 A; Cf. De Ador., P. G., 68. 593 B; In jo., P. G., 73, 601 A (1, 550, 22). In jo., P. G., 73, 249 C (1, 224, 23) 577 B (1, 529, 29), 629c (L, 577, 9) 1012 B (11, 201, 14).

البابا كيرلس الأسكندرى
ينفى الثنائية فى السيد المسيح

يقول مشيراً إلى الهراطقة، وذلك فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا:

«ليس هذا من اليوم فقط أن بعضا حتى من هؤلاء الذين يقال عنهم أنهم مسيحيون ولم يفهموا بالضبط هدف التدبير (الإلهى) من التجسد، قد تجرأوا على أن يفصلوا *ἀποδιελεῖν* عن الله الكلمة، الهيكل المأخوذ من المرأة من أجلنا، وقسّموا ***κατεμέρισαν*** إلى ابنين إثنين، الابن الوحيد الحقيقى، وذلك لأنه صار إنساناً. وفى الواقع، أنهم يظنون، كما يبدو أنه لا يليق بهم أن يعترفوا بما حسبه الابن الوحيد الجنس لائقاً أن يصنعه من أجلنا. لأنه إذ كان فى صورة الله، كما هو مكتوب، لم يحسب مساواته لله إختلاساً (حرفياً : لم يحتفظ بمساواته لله جشعا) لكنه أخلى نفسه (حرفيا أفنى نفسه) آخذاً صورة عبد، ليصير إنساناً مثلنا (حرفياً : بكل وضوح) فيما عدا الخطيئة. فهؤلاء بتصوّرهم الغريب، إذ يلومون بكيفية ما، مشيئة الله الخيّرة نحو الناس، وينفون بحسب ما تسيغ لهم أفكارهم الخاصة، الهيكل المأخوذ من المرأة، عن البنوة الحقيقية، لا يقّرون الإذلال *ὅσον εἰς οἰκείας ἐννοίας* (ـ الذى قبله ابن الله) وإذ يرتأون رأياً ضالا وبعيداً عن الحقيقة، يقولون أن الابن الوحيد الجنس المولود من الله الآب، أعنى الكلمة المولود من جوهره، شىء *ἕτερον* ، وأما الابن المولود من المرأة فشىء آخر *ἕτερον δὲ πάλιν* .

ويضيف البابا كيرلس بأن الهراطقة يقسمون الابن الواحد الحقيقى، إلى إثنين، ويتكلمون عن «إنسان المسيح» (١) · ***ὁ ἄνθρωπος τοῦ Χριστοῦ*** ·

ويقول أيضاً فى موضع آخر.

«أنهم يمزّقون ***κατά τέμνουσι*** (المسيح) إلى إنسان وإلى الله الكلمة، كل على حدة، حتى بعد الاتحاد والالتقاء بالجسد، الالتقاء الذى لا يعّبر عنه ولا يمكن إدراكه، وهكذا يضلّون،

1. In Jo., P.G., 73, 1009 C. 1012 B (11,200`201).

وإذ يتيهون على نوع ما بعيدا عن الحقيقة، فقد أنكروا السيد الذى أفتداهم» (١).

وفى الرسالة الفصحية لعام ٤٢٠م يكتب القديس كيرلس معلقا على قول ماربولس الرسول:

«المسيح يسوع هو أمساً واليوم وإلى الأبد» (٢) ويقول: أن المسيح «هو الله بالطبيعة، قبل الجسد، وبعد الجسد» ثم يردف قائلاً: «فأنت ترى كيف أنه (القديس بولس) لا يقسم عمانوئيل إلى ابنين اثنين، ولا ينسب الثبات المطلق إلاّ للكلمة المولود بالبهاء من الله الآب من حيث هو مجّرد وفى ذاته. لكنه يعترف به على أنه الابن الواحد والوحيد بالطبيعة الذى تجسد، ويسميه المسيح يسوع» (٣).

ويقول فى بيان حقيقة الاتحاد التام بحيث أن ما ينسب للاهوت ينسب إلى الناسوت:

«لا يمكن أن ينسب (صفات) الكلمة الحىّ الأزلى للهيكل المولود فى الأزمنة الأخيرة ما لم يحسب القسمة *τὸ διατεμεῖν* كفرا، وينكر فصل الابن الوحيد الحقيقى إلى إثنين» (٤).

ويقول تعليقاً على قول مخلصنا فى إنجيل يوحنا «وليس أحد صعد إلى السماء إلاّ الذى نزل من السماء ابن الإنسان الذى هو فى السماء» (٥)

وقوله: «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولا» (٦).

فنحن نرى كيف أنه يضم «الكلمة» فى الوحدة ضماً من غير تخلخل، وبدون فصم الالتقاء (= الاتحاد) الذى لا يعبر عنه. *ἀδιαστάτῳ τε καί*

...ἀδιορίστῳ περσφίγξας ἑνότητι τῆς ἀπορρήτου συνόδου τὸν Λ όγον

---

(1) p.g., 74, 737 C(111,155,1-5) of. ibid., 152 B.

(٢) عبرانيين ١٣ : ٨.

(3) 568 BC.

(4) 568 D; 569 A.

(٥) يوحنا ٣ : ١٢، ١٣ .

(٦) يوحنا ٦ : ٦٢، ٦٣.

يريد (المسيح) منا ان نعترف به على انه مسيح واحد قبل الجسد وبعد الجسد... فما يختص به بالطبيعة، ينسبه فى الواقع لجسده الخاص به، كأنه ليس شيئاً آخر بالنظر إلى جسده، حسبما تحتمل الوحدة (الناجمة أو الناتجة)، وحدة التدبير (الإلهى)..

ὅσον εἰς ἑνότητα τὴν ἐκ τῆς οἰκονομίας

ونحن سوف لا نباعد بين هذه الأشياء (غير المتشابهة) فى طبيعتها، نظراً لاتحادها التام *διὰ τὸ εἰς ἄκρον ἑνοῦν* أعنى من جهة: بهاء الآب (أى الكلمة) يظل حسب طبيعته الخاصة *κατ᾽ ἴδιον λόγον* ومن جهة أخرى الجسد الترابى، أو الإنسان بالمعنى الكامل. أما وقد ميّزنا *διεγνωκότες* بين هذه الأشياء، ولم نفّرق بين طبيعة كل منهما الخاصة إلاّ فى الذهن.

.........καὶ μόναις διελόντες ταῖς ἐννοίαις τὸν ἐφ᾽ ἑκάστῳ λόγον

فنحن سنضمها من جديد فى وحدة من دون تخلخل، فإن الكلمة صار جسداً كما يقول البشير القديس، لا بالتناسخ فى جسد - فلم يقل هذا - ولكنه دعا الجسد وسمّاه إنساناً بالمعنى الكامل» (١)

ويقول أيضاً فى بيان طبيعة الوحدة القائمة بين اللاهوت والناسوت، مع عدم تغيّر أحدهما إلى الآخر:

«أن الكلمة لم يتغير إلى الجسد، فإن كلا منهما ظل على طبيعته كما هو، والمسيح واحد من إثنين» (٢). *Εἷς ἐξ ἀμφοῖν* .

وفى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا يقول :

«المسيح، لا يقبل التقسيم بعد التجسد إلاّ بالقدر الضرورى للاعتراف بأن الكلمة الآتى من الآب، ثم الهيكل المولود من العذراء، ليسا من جوهر واحد بالطبيعة - إذ أن الجسد ليس من جوهر الكلمة المولود من الله - لكنهما واحد بموجب الاتحاد (حرفياً: الالتقاء) والمشاركة اللذين لا يمكن تصوّرهما» (٣).

---

(1) (P.G., 77), 569 CD.

(2) P.G., 73 , 581 A (1, 532 , 22 - 25).

(3) In Jo.. P.G., 73,577 B; CF., P.G., 74, 564A B (111, 2, 2 sq).

ونحن لا نتصور الكلمة المولود من الله غريبا ἕτερον τι عن الجسد الذى سكن فيه (١).

فمن حيث هو الله الكلمة فيعتبر آخر بالنسبة إلى الجسد، ومن حيث هو جسد فيعتبر آخر غير الكلمة. ولكن من حيث هو الكلمة المولود من الله الآب وقد صار إنساناً، فليس مجال بعد للسؤال إذا كان هو الواحد أو الآخر، وذلك بفضل الاتحاد والمشاركة اللذين لا يعبّر عنهما(٢).

تعلّمنا الكتب المقدسة أن نعتقد فيمن صلب ومات وقام من بين الأموات على أنه ليس آخر غير الكلمة (الذى يسكن) فيه (= فى الجسد). ولست أعنى بذلك أنهما من جوهر واحد ـ لأن الجسد هو جسد وليس هو الكلمة، مع أنه جسد الكلمة ـ لكن من أجل موضوع البنوة الحقيقية(٣).

ويقول أيضاً:

«أن المسيح لا يسمح بالقول، أن الهيكل المأخوذ من العذراء بالضرورة هو ابن، وأن الكلمة المولود من الآب هو ابن آخر، إلاّ بالقدر الذى يحتمله التمييز διορισμός الذى يناسب كلاً منهما حسب طبيعته، إذ كما أنه هو الكلمة المولود من الله، كذلك هو أيضاً الإنسان المولود من المرأة» (٤).

ويقول كذلك:

«يجب أن نعتبر، أن الكلمة المولود من الله الآب، والهيكل المأخوذ من القديسة العذراء هما واحد ὡς ἕν τι ، لا كأنهما من جوهر واحد، ولكن لأن فكرة التقسيم، بعد الاتحاد الذى لا يعبّر عنه، فكرة كفرية» (٥).

ثم يصف البابا كيرلس الاتحاد بين اللاهوت والناسوت أنه اتحاد بدون اختلاط وبدون تناسخ وبدون تغيير، كما أنه ليس اتحاداً على النحو الطبيعى كما هو الحال فى الأجسام، وفى تفسير إنجيل القديس يوحنا يقول البابا كيرلس تعليقاً على أصحاح ١٧ : ٢٢ ـ ٢٣ «وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد أنا فيهم، وأنت فىّ».

(1) P.G., 73, 629 BC (1, 577, 11 - 12).
(2) P.G., 73, 1009 C (11, 200, 22-26).
(3) P.G. 74, 181 A (11, 402, 16-22).
(4) P.G. 73, 249 C (1. 224, 15 sq).
(5) P.G., 74. 157 A (11, 381, 25- 29).

«لأن كيفية الاتحاد بالله لا تحتمل وسيلة أخرى، أيضاً بالنسبة إلى المسيح، من حيث أنه قد ظهر وسميّ إنساناً. وواضح أن الجسد قد تقدّس بفضل الاتحاد بالروح، حسب كيفية الاتحاد (حرفيا: الالتقاء) الذى لا يعبّر عنه، وقد سما إذن إلى الاتحاد الذى بلا اختلاط، بالله الكلمة، وبالآب عن طريقه (= الله الكلمة). فهو قطعاً ولا شك *σχετικῶς* لا على نحو طبيعى *φυσικῶς* (١).

ويقول فى بيان أنه ليس ثمت قطع *τομή* بين اللاهوت والناسوت بعد التجسد أو بعد الاتحاد:

«أنه ابن ومسيح واحد، وليس ثمت قطع (أو شق) بعد التجسد، لكنه إذ كان هو الله فيعتبر كذلك حتى بعد الجسد» (٢).

وقال أيضاً فى بيان أنه لا يمكن الفصل بين اللاهوت والناسوت فى المسيح كل على حدة:

«كمثل حجر المذبح (سفر الخروج ٢٠: ٢٤، ٢٥) كذلك المسيح لا ينقسم ولا يدنس، ولا ينقسم بين الله والعالم، حتى وقد صار جسداً، لكنه وهو كلىّ القداسة، لا ينفصل إلى الله على حدة *ἰδία* ، وإلى الإنسان على حدة *ἰδικῶς* ، بعد الاتحاد الذى لا يعبّر عنه أو الالتقاء بالجسد، وإنما يظل هو نفسه واحداً: إله وإنسان. إذ أنه لا ينقسم بصورة ما، كما يكتب الحكيم بولس» (٣).

«ونحن نعبده (المسيح) كإله بدون أن نقسمه إلى اثنين، أو نعتبر الإنسان على حدة *ἰδία* والكلمة البهى (المولود) من جوهر الله الآب على حدة *ἰδιαζόντως* وإذ لا نقبل بتاتاً أى تقطيع *τομή* أو تقسيم *μερισμός* تحت علاقة البنوة بعد الاتحاد بالجسد، معترفين بابن واحد، فإننا نكرمه (أو نعظمه) باعتباره الابن الوحيد الجنس، والابن البكر» (٤).

---

(1) P.G. 74, 564 AB (111, 2, 12, sq).

(2) In Jo., P.G. 74, 85 A (11, 311, 18sq); Hom. Pesch. X1, P.G., 77, 664 A .

(3) De Ador, P.G. 68, 593 B.

(4) Hom. Pasch., Xl. P.G. 77, 664 B.

«ابن واحد» والهيكل المأخوذ من إمرأة لم يكن موضوعاً على حدة *ἐν μέρει* ، لأن الجسد جسده الذي يخصه. وبعد التجسد، لا يجوز القول بالتقسيم فى العلاقة الولادية، دون الوقوع فى كفر» (١).

«وإذن فإذا فصلنا، وجعلنا الجسد والساكن فيه كلا على حدة، فقد جرؤنا على القول بابنين. ونحن نعلم أن هذا لا يصدق إلا على الجسد» (٢).

وقد شرح البابا كيرلس أن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت كان بغير تخلخل *ἀδιάστατος* ومن غير افتراق أو فصل *ἀδιόριστος* ويضيف فى تفسيره لسفر ملاخى، بأن هذا الاتحاد مباشر ومن غير واسطة *ἀμέσως* (٣) وفى المحاورة الأولى من محاوراته يستخدم لفظاً آخر يصف به الاتحاد بأنه بغير تمزيق أو تقطيع *ἀδιασπάστως* .

«أن الله الكلمة وهو جمال الله الآب وبهاؤه خالصا، وهو شكله وصورته والمولود منه وفيه، قد وضع نفسه وأخلى ذاته ليس تحت إكراه أو قهر أيّا كان، ولكن لطفا من الآب وبمقتضى إرادته، وصار إنسانا، محتفظا فى نفسه بعظمة طبيعته الخاصة سالمة كاملة وبدون تغيّر على الاطلاق، وبالتدبير (الإلهى) اتخذ الناسوت، مفهوماً على أنه الابن الوحيد من إثنين *Εἷς ἐξ ἀμφοῖν νοούμενος υἱός* .

فالطبيعة الإلهية والناسوت اتحدا (حرفياً: اتفقا) ووجدا متوافقين فى واحد.

συνδεδραμηκότων καὶ συνενεχθέντων εἰς ἓν

على نحو يفوق الوصف ولا يعبر عنه ومؤتلفين فى وحدة *εἰς ἑνότητα συντεθειμένων*

بكيفية يستحيل تصوّرها. وفى الحقيقة، أننا لا نقول أن كلمة الله تغيّر إلى طبيعة الجسد الترابى أو إلى جسد الكلمة نفسه: إذ أن هذا عندى علامة على الجنون المطبق. لكن كلاً منهما (اللاهوت والناسوت) ظل على ما هو عليه فى مداه وفى خصائصه.

(1) In Jo., P.G., 73, 776 C (1, 713, 7-10).

(2) P. G.., 74, 181 A (11, 402,13-16).

(3) In Mal., P.G., 72, 332 A.

ὥσπερ ἐν ἰδίῳ μένοντος ὅρῳ τε καὶ λόγῳ

أما اتحادهما (حرفيا: اتفاقهما) الكامل وبغير واسطة فى الوحدة

τὴν εἰς ἄκρον τε καὶ ἀδιασπάστως ἔχουσιν εἰς ἑνότητα συνδρο μήν

فيظهر من اسم العهد، *σύμβασις* الذى نحن بصدده هنا، (١).

ويلِح البابا كيرلس على أن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت جمع بين شيئين مختلفين ومتباينين فى جوهرهما، لكنهما بلطف من الله ومن أجلنا ومن أجل خلاصنا اتحدا. ومع ذلك فهو اتحاد يفوق الوصف ولا يعبر عنه، ولا يمكن إدراكه ومن المستحيل تصوّره،

ἀπόρρητος, ἄρρητος, ἄφατος, ἀπερινόητος

وهو سّر يعلو على العقول البشرية *ὑπὲρ νοῦν* ولا يمكن قبوله بغير الإيمان...

فيقول فى رسالته الفصحية لعام ٤٢٠م:

«وعلى ذلك، فكما قال أيضاً فى كتاباته أبونا وأسقفنا أثناسيوس، الجدير بكل ثناء، وهو قاعدة الإيمان الأرثوذكسى التى لا تنحرف، أن هناك إتحاداً (حرفيا: مشاركة) فى ذات الحقيقتين المتباينتين بطبيعتهما (وهما) اللاهوت والناسوت..

.....δύο πραγμάτων ἀνομοίων κατὰ τὴν φύσιν ἐν τούτῳ γέγνε σύνοδος , θεότητος δηλονότι καὶ ἀνθρωπότητος

أن المسيح واحد من اثنين. على أن كيفية الامتزاج *ὁ τῆς ἀνακράσεως τρόπος* لا يعبر عنها ولا يمكن إدراكها مطلقاً، ومع ذلك فبالإيمان يمكن أن يقبل عمق السرّ. لأن ما يفوق عقولنا وإدراكنا، لا نوقره أبدا بالفضول، وإنما بالايمان فقط» (٢).

---

(1) Dial. L, P.G., 7475, 693 AB.

(2) P.G., 77, 572 A.

ومع أن هذا الاتحاد سر يفوق العقل فيه يلتقى الكلمة وهو بطبيعته الله، بالجسد وهو ترابى، فى اتحاد حقيقى بدون تخلخل ولا يقبل الانفصال أو التجزئة أو التقطيع أو التمزيق أو التقسيم، لكنه أيضاً بدون اختلاط أو امتزاج أو تغيير فكل من اللاهوت والناسوت يحتفظ فى هذا الاتحاد بخصائصه. فلا اللاهوت يمتزج بالناسوت أو يختلط أو يتحول إليه. ولا الناسوت كذلك..

ويتقدم البابا كيرلس بتشبيه هذا الاتحاد باتحاد آخر طبيعى يوجد فينا ونعرفه، وهو اتحاد النفس بالبدن فى الإنسان. ومع ذلك فهذا الاتحاد الأخير هو مجرد تشبيه وقياس مع الفارق، لأن اتحاد النفس بالبدن قابل للانفصال بالموت، أما اتحاد اللاهوت بالناسوت فلا يقبل الانفصال مطلقاً.

يقول البابا كيرلس فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا: «إذا تأملنا من حيث الطبيعة (حرفيا : إذا وضعنا أنفسنا فى وجهة نظر الطبيعة) ، وفكرنا فى موضوع المسيح، فنحن نقر بأن الجسد غير الله الكلمة (المولود) من الآب، و(الكائن) فى الآب. لكننا إذا بحثنا فى معنى الاتحاد به، وإذا سبرنا بقدر الامكان، هذا السر غير العادى والذى يفوق العقل فنعتبر الكلمة على أنه واحد ἕν τι مع جسده الذى يخصه، والذى لم يتحول إلى جسد. إذ نحن لا نقول بهذا. لأن طبيعة الكلمة فى الواقع ثابتة ولا تتغير على الاطلاق، وغير قابلة لأى تغيّر. ولكن لأن يسوع حسب كتابنا المقدس الملهم من الله يعتبر على أنه من هيكل إلهى له كامل حد (أو فهوم) ὅρος الناسوتية، ومن الكلمة الحى، فهو قطعاً مسيح وابن واحد. لو ننظر أن هذا نفسه حقيقى فينا كما أنه أيضاً طبيعىّ بالنسبة لنا. فنحن فى الواقع نتألف فى إنسان واحد من نفس ومن جسم. والجسم غير النفس (القائمة) فى الجسد. ولكل خصائصه.

κατά γε τόν ἐφ' ἑκατέρῳ λόγον

ومع ذلك يتفقان فى ابراز كائن واحد حى ولا يقبلان الانفصال مطلقا مع اتحادهما *συμπλοκή* المشترك» (١).

ويكرر القديس كيرلس الاستعانة بهذا التشبيه: تشبيه النفس والبدن وتطبيقه على علاقة اللاهوت والناسوت وبيان أن الناسوت لم يعد غريبا على اللاهوت بعد الاتحاد الشريف:

«الجسد ليس غريباً على الكلمة، كما أن جسدنا ليس غريباً على نفسنا» (٢).

ومن التعبيرات المألوفة لدى الآباء، ولدى البابا كيرلس الأول عن تجسد الكلمة، تعبير «السكنى» والنصوص كثيرة منها:

قول البابا كيرلس:

«ولو أنه ظهر إنساناً مثلنا بالتدبير (الإلهى مع ذلك سكن فيه كل ملء اللاهوت، وأعنى حسب كيفية الإتحاد *ἑνώσεως τρόπος* (٣).

يتميز اللاهوت الأسكندرى كما نرى على الخصوص عند القديس أثناسيوس الرسولى، والقديس كيرلس الأول المعروف بالأسكندرى، بالنظر إلى السيد المسيح لا على أنه إله وإنسان اجتمعا معاً أو اتحدا معاً، فهذه على كل حال ثنائية لا يسيغها اللاهوت الأسكندرى وإنما على أنه الإله المتأنس، أو الإله المتجسد.

وكما نقول بالفرنسية Verbe-Chair, Berbe-Tncarné .

ويذهب اللاهوت الأسكندرى فى فهم الاتحاد التام بين اللاهوت والناسوت فى المسيح إلى تبرير قبول الكلمة لخاصيات الضعف البشرية، واتصاف الناسوت بخصائص اللاهوت وصفاته، وهو ما يعرف فى علم اللاهوت باشتراك الخواص. فالكلمة اتخذ الخواص الإنسانية *ἀνθρώπινα* على أساس أن الجسد هو جسد الكلمة الخاص *ἴδιον* فمن ثم فخاصيات الضعف. *ἴδαι* بهذا الجسد أمكن أن يقال عنها أنها أيضاً خواص *ἰδίαι* الكلمة.

(1) P.G., 74, 737 C (111, 155, 5- 24).

(2) P.G., 74, 344 B (11, 543, 25 - 27).

(3) In Is., P.G., 72, 181 C.

ويقـول البـابـا كيـرلـس أن الكلمـة أتـخـذ خـاصـيـات الضعـف الإنسانـيـة التـى يـدعـوهـا بأسماء مختلفة فيدعوها τὰ ἀνθρώπινα أو τὰ πάθη σαρκός أو τὰ ἴδια أو ἀνθρωπότητος ἴδια τὰ μέτρα τῆς ἀνθρωπότητος أتخذ ἀναλαμβάνειν كل ما لنا (١)، وجعـلـه خاصـاً به οἰκειοῦν (٢) ἰδιοποιεῖσθαι (٣)، والعكس أيضاً صحيح فقد خصّ الكلمة بجسده الخاص بامتيازاته الإلهية.

ومن ذلك قوله: «أنه ينسب إلى جسده الخاص به، ما يختص به (الكلمة) وكأنه ليس شيئاً آخر بالنسبة له (الجسد) (٤).

ويقول فى رسالته الفصحية لعام ٤٢٠م:

«من ثم لم يكن يعتبر جسده كأنه غريب عنه، بل بالأحرى قد جعله هيكله الخاص، لذلك ومع أنه صار إنساناً يسجد له من الملائكة القديسين، إذ يقول «متى أدخل من جديد البكر إلى العالم، يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله» (٥) و (٦).

ثم يقول فى موضع آخر تعليقاً على أن المسيح هو البكر:

«كيـف يكون هو (= الكلمة) فى الواقـع الابـن الوحيـد الجنس، إذا كـان هو البكر؟ فإنه إذا كان هـو الابـن الوحـيد الجنـس، فـلا يمكـن أن يكـون هـو البـكر. لكن المسيح هـو ذاتـه κατὰ τουτόν الإثنان. ومن المستحيل إذا قسم الابن الواحد الوحيد إلى إثنين، أن ينسب إلى الواحـد (لقب) البكر، وإلى الآخـر (لقب) الابن الوحـيد الجنس... والواقع، أن بولس يعتـرف

---

(1) Thes., P.G. 75, 75, 69A 269D, 400D, 425B, 469 A.

(2) Claph., P.G. 69, 480A; Hom. Pasch. VII, P.G., 77, 549D; Thes., P.G., 75, 69A; Dial. V, P. G. 75, 964C; VI, 1017 A; In Jo., P.G. 73, 209 C (1,187,23); P.G., 74,700 C (111,122,29).

(3) Thes., 281 C, 333A, 384 D, 400 CD; Dial, VI, P.G., 75, 1064 D; In Jo., P.G., 73,249 C (1, 224,25)

(4) Hom. Pasch. VIII, P.G. 77,569 C.

(٥) عبرانيين ١ : ٦

(6) Hom. Pasch. VIII, P.G. 77, 572 A.

بالمسيح على أنه الواحد بعينه، ولو أنه يقدم أحياناً على أنه الكلمة وأحياناً أخرى على أنه إنسان، ويعلّم بولس بخصوصه أيضاً «الذى لنا فيه الفداء، وغفران الخطايا. الذى هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خلق» (١) و (٢).

ويقول أيضاً:

«أنه الله وإنسان معا... وكما أن اسم الابن الوحيد الجنس، وهو خاص بالكلمة، قد أدّخر له أيضاً حيث أنه متحد بالجسد، كذلك (اسم الابن البكر ولو أنه لا يختص به على الدقة، لكنه صار خاصا به مع الجسد» (٣).

ويعود كيرلس الأسكندرى إلى فكرة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وكيف أن السيد المسيح جمع بينهما بغير فصل، ولكنه كان يتصرف كإله بالتدبير وكإنسان بالتدبير أيضاً، ومع ذلك فهو ابن واحد وليس اثنين *ἕτερον ἄρα καὶ ἕτερον υἱόν* (٤).

«أنه (المسيح) يمزج من جديد الناسوت باللاهوت (فى كلماته). وهو لا يسمو إلى المجد الخالص، ولا يتوقف كُليةَ فى حدود الناسوت، لكنه يسلك بالاثنين *ἔρχεται δι᾽ ἀμφοῖν* بكيفية غير عادية ومحكمة، معاً، لأنه إله وإنسان، فى نفس الوقت» (٥).

كذلك يوضح عمود الدين كيف أن العبادة والسجود لا يوجهان إلى الكلمة وحده بمعزل عن لباس الجسد، وإنما إلى الواحد ذاته الذى اتحد فيه اللاهوت والناسوت معاً على نحو لا يعبر عنه، لأن الله الكلمة سكن فى هيكل خاص» (٦).

---

(١) كولوسى ١ : ١٤ ـ ١٨

(2) Hom. Pasch., VII, P.G. 77,572 BC; CF. Hom. Pasch. XL, 664 B.

(3) Dial. 1, P.G. 75, 693 B.

(4) Hom. Pasch. VIII, P.G. 77, 572 D-573 A.. CF. In Jo., P.G., 73,384 A (1, 347, 8S q).

(5)P.G. 74, 256B (11, 466, 9sq); ibid., 488 D (11, 671, 9sq) 512d. 513 AB (11, 694-695).

(6) Hom. Pasch. VIII, P.G. 77, 573 B.

ويفسر أيضاً كيف يتصف المسيح بصفات تصدق فى الواقع على اللاهوت فقط، كما يتصف أيضاً بصفات لا تصدق إلاّ على الناسوت فقط، ومع ذلك بسبب الاتحاد التام بين اللاهوت والناسوت يمكن أن يتصف المسيح بصفات اللاهوت والناسوت معاً.

«لقد مات المسيح بسببنا، ومن أجلنا. وكما أنه عندما مات جسده قيل عنه أنه احتمل ذلك هو نفسه، مع أنه بطبيعته لا يموت، كذلك عندما خَلَقَ جسده، قيل أنه هو نفسه مخلوق مع أنه بجوهره غير مخلوق، وفى الواقع، حيث أن الجسد جسده هو وليس جسد شخص آخر، فهو يخصه بما يحدث له» (١).

وقال أيضاً عن الألم وكيف نسب إلى الكلمة مع أن اللاهوت بطبيعته لا يقبل الألم.

«الكلمة يختص ذاته بالألم، لأن الجسد جسده هو، وليس جسد شخص آخر» (٢).

وكذلك قال بالنسبة إلى تقدم المسيح فى القامة والحكمة عند الله والناس..

«إذا كنت تعلم أن الكلمة قد صار جسداً بالتمام وولدَ إنساناً، كما يقول الكتاب المقدس، فلماذا لا تُنْسبَ إليه أنه يقبل أيضاً ما يُناسبَ الإنسان، فيماعدا الخطيئة؟؟ والواقع أنه حيث أن الجسد خاضع للتقدم فيمكن أن يقال «أنه (الكلمة) يتقدم بما أنه قد صار فيه (فى الجسد) وقد اختص بنفسه أيضاً الآلام غير الأثيمة. فالجسد فى الحقيقة، لم يكن جسداً لشخص آخر، لكنه جسد الكلمة ذاته. وكما نقول أنه (الكلمة) تألم بالجسد *σαρκί* مع أن الجسد وحده هو الذى تألم لأنه ولو أنه لم يتألم كإله لكن الجسد المتألم كان جسده خاصة، كذلك أيضاً يمكن أن يقال أنه (الكلمة) يتقدم مع أنه لا يقبل لأى تقدم بصفته الله، لكن يقال أنه يتقدم بسبب تقدم جسده فيه» (٣).

وقال فى محاوراته:

«إذا كان هو (=الكلمة) قد اتخذ الناسوت، وأصبح هذا خاصاً به، فليس ما يمنع أن نتصور بل أن نؤكد أنه قد حمل، تدبيريا، مع الناسوت، خصائصه» (٤).

---

(1) Thes., P.G., 75, 281C: Cf. Athanasius, C, Arian.II, S66, P. G. 26, 285 C- 288 A.

(2) Hom. Pasch. V, P.G., 77, 496 D.

(3) Thesa urus, P.G., 75, 429A; Of. A thanasius, C. Arian III, 53, P.G. 26, 433 C-436A.

(4) Dialogues, Vi, P.G. 75, 1064 A.

وواضح من هذا كله أن كيرلس الأسكندرى يسير فى منطق ثابت: حيث أن جسد الكلمة هو جسده خاصة فيعتبر كالكلمة ذاته ὡς αὐτὸς λελόγισται (١).

ويقول فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا. لما كان الجسد هو جسد الكلمة لذلك فقد قيل فيه (الكلمة) أنه احتمل الموت، وأنه قد تقدس (٢)، ولهذا السبب عينه صار جسد المسيح محييا فى الافخارستيا.

«فالكلمة هو حياة، لكن «جسده محيى» وليس أقل منه فى أنه محيى كذلك، حيث أنه مشترك مع الكلمة المحيى الكل بكيفية ما، ومتحد به على نحو لا يعبّر عنه. ولهذا السبب يعتبر على أنه له، ويفهم على أنه واحد Εἷς معه» (٣).

ويؤكد البابا كيرلس أنه وإن كان بسبب الاتحاد التام بين اللاهوت والناسوت يجوز أن تنسب إلى الكلمة صفات الناسوت وخصائص الضعف البشرى من جوع وعطش، وتعب وصلب وموت، وأكل وشرب ونوم وما إلى ذلك، لكن يجب أن نوضح أن هذه الصفات ليست من طبيعة اللاهوت، لكنها صارت تنسب إلى الكلمة باعتبار أن الجسد هو جسد الكلمة الخاص به.

«حيث أنه اتخذ جسداً فانياً وقابلاً للفساد، وخاضعاً لهذه الآلام، فقد اختص (الكلمة) ذاته، بالضرورة مع الجسد، بآلام الجسد. ولما كان هذا (الجسد) خاضعاً لها، فقد قيل أنه (الكلمة) هو ذاته قد كابدها، لهذا فى الواقع نقول أنه (الكلمة) قد صلب ومات، لأن الجسد هو الذى عانى هذا وليس الكلمة على الدقة، وفى ذاته. لأن الكلمة لا يقبل الآلام، وهو لا يموت» (٤).

«ونحن نُقِرُ أن (الابن الوحيد الجنس) هو بعينه وقبل الاتحاد بالجسد بل وعندما صار جسداً، مع أن بعضا من أدنأ وأحقر الأشياء قيلت فيه بسبب الناسوت» (٥).

---

(1) Cf. Athanasius, C. Arian. 111, s 38, 405B.

(2) In Jo., P.G. 74, 549 ABC (11, 726).

(3) Ibid., P.G. 73, 577 B (1, 529, 26-29) 530, 581BC (1, 533) 601 CD (1, 551-552); Cf. 604 CD (1, 553); P.G. 74, 344 AB (11, 543), 528 B (11, 707).

(4) Thes., P.G. 75, 396CD; of. Athanasius, C. Arian. 111,

(5) Dial., V,P.G., 75,940 B.

«إن الكتب المقدسة تعلمنا أن نعتقد فيمن صلب، ومات وقام من بين الأموات» على أنه لم يكن شيئاً آخر غير الله الكلمة (الكائن) فيه (الجسد) ... ولكن إذا كنا نبدو لأحد الناس أننا لا نتكلم كلاماً دقيقاً حتى يأتي ويبين أن الكلمة المولود من الله قد مات من حيث هو الله، وهو أمر مستحيل، بل وأكثر من هذا، أنه كفر، فشيء من هذا لم نفكر فيه» (١).

ويقول أيضاً:

«وإذن فالمسيح قطعاً واحد من اثنين، وهو لا ينقسم من حيث البنوة الإلهية ومن حيث المجد الإلهى، بما أنه، بكيفية ما، يختص الهيكل المولود من العذراء بما يناسب الكلمة وحده مجردا، وفى مقابل ذلك يختص ذاته بما ينسب للجسد» (٢).

ويقول على سبيل الحصر:

«كلما كان الكلام عن الابن من حيث الولادة والبنوة الحقيقيتين بواسطة الله الآب، فالكلام عن الولادة البشرية لا يختص بالابن، لكنه مع ذلك يخصه من حيث أنه قد ظهر إنسانا» (٣).

ومما هو جدير بالملاحظة أن آباء الأسكندرية من أمثال القديس أثناسيوس الرسولى، والقديس كيرلس الأسكندرى، إذا تكلموا عن اتخاذ الكلمة لصفة من صفات الضعف البشرى كالجوع والعطش والتعب والألم والاضطراب والموت وما إلى ذلك، كانوا دائماً يضيفون تعبيرا للدلالة على أن هذه الصفة تابعة للناسوت وليست من صفات اللاهوت.

فالقديس أثناسيوس أبان فى رده على الأريوسية أن الكلمة كان يصنع تلك الأفعال، أو يتصف بتلك الصفات البشرية جسدياً *σαρκί* (٤).

وعلى العموم فما كان القديس أثناسيوس يصف الكلمة بصفة بشرية دون أن يضيف تعبيرا بيانيا مثل

.......σαρκικῶς, ἀνθρωπίνως, ὡς ἄνθρωπος διὰ τὴν σάρκα

وأحياناً يقول أنه يتكلم عن الكلمة «من حيث هو الكلمة»، أو «لا من حيث هو الكلمة» (٥).

(1) In Jo., P.G. 74, 181 A (11, 402,16 - 25).

(2) In Jo., P.G. 73, 249C (1, 224, 21- 25).

(3) In Jo., P.G. 74, 513 D-516A (11, 696, 9-11). (4) C. Arianos, 111, S 34.

(5) M. RTCHARD, S. Athanasius et la psych, du Christ, Mélanges de Sc. religieuse, vol.IV (ILLE, 1947) P. 23.

وبالمثل نرى البابا كيرلس عمود الدين لا يصف الكلمة بصفة من صفات الجسد أو الناسوت إلاّ ويضيف تعبيرات بيانية تفيد ذلك، منها: σαρκί (١).

مثلاً : παθόντος ὑπὲρ ἡμῶν σαρκί (٢).

διὰ τὴν σάρκα (٣).

κατὰ τὴν σάρκα (٤).

فمثلاً يقول «ألا نرى أن الموت أمر غريب كل الغرابة عن الكلمة الذى يحيى الكل؟ سنقول أنه احتمل هذا (الموت) حسب الجسد κατὰ τὴν σάρκα لأن الجسد يقبل الموت. لهذا السبب قيل إنه مات، لأن جسده الخاص به قد مات» (٥)

ἀνθρωπίνως (٦)

ἀνθρωπινώτερον (٧)

διὰ τὸ ἀνθρώπινον (٨)

κατὰ τὸ ἀνθρώπινον (٩)

«من حيث هو الكلمة» (١٠)

«بما أنه صار إنساناً» (١١)

«باعتباره الله، باعتباره إنساناً» (١٢)

διὰ τὴν ἀνθρωπότητα (١٣)

---

(1) Thes., P.G. 75, 429 A; DIAL. IV, P.G. 75, 877 D. (2) Glaph., P.G. 69,60 D.
(3) Thes., P. G. 75, 388 C; Dial. V, 937 C. (4) Dial, IV, P.G. 75, 912 C; VI, 1008 C, 1033 D.
(5) In Jo., P.G. 74, 549 A (11, 725, 24-29). (6) Thes., P.G., 120 B, 377 A; Dial. VI, 1033 D;In Jo., P. G. 74, 497 B (11, 679, 13) 505 C (11, 687 5).
(7) Thes., P.G., 75, 377 A, 400B; In Jo., P.G., 75, 373 C(11, 569, 28), 472A (11,654, 30 - 31).
(8) Dial. IV, P.G., 75, 888 C, 940 B, etc. (9) Glaph., P.G. 69, 100 A, 129 C; Dial IV, P.G.75, 1028D, 1048; In Jo., P.G., 74, 300D (11, 506, 13). (10) Thes., P.G. 75, 369 C, 373 A.
(11)Ibid., 384 C, 389 C; Dial. V, 961 A, etc. (12) Glaph., P.G., 69,348 B, 365 B,377 D;In Zach., P.G. 72, 252A; Thes., P.G., 75,117 CD, 377 AB; Dial. VI, 1064 B; In Jo., P.G. 73,845D-848A (11,50-51)P.G. 74,508 B (11,689,6sq) etc.
(13) In Jo., P.G., 74,552 A (11,727,24).

التدبيـــر

كذلك نجد تعبيراً هاماً يرد كثيراً فى كتابات البابا كيرلس الأول، وإن كان قد ورد كذلك فى كتابات غيره من الآباء من أمثال القديس أثناسيوس الرسولى (١)، وديديموس الضرير (٢)، بل ورد أيضاً فى كتابات القديس باسيليوس (٣)، هذا التعبير هو تعبير «التدبير» ***οἰκονομία***

يقول كيرلس الأسكندرى أن المسيح تألم أو كابد الألم البشرى من جوع وعطش وتعب وموت.. إلخ «تدبيرياً».

οἰκονομικῶς

δι᾽οἰκονομίαν

οἰκονομῶν

أو يصف الألم بأنه «تدبيرى».

οἰκονομικὴ ἀσθένεια (٤)

οἰκονομικὴ ταπείνωσις (٥)

οἰκονομικὴ κένωσις (٦)

أما صيغة الحال وهى: ***οἰκονομικῶς***

أى «تدبيريا»، فعند كيرلس الأسكندرى للدلالة ببساطة على «أى نوع من العمل أو النشاط المقصود».

---

(١) ولئن لم يرد هذا التعبير فى الجزء الثالث من الرد على الأريوسية Contra Arianos III للقديس أثناسيوس الرسولى، لكنه ورد فى مواضع أخرى من نفس الكتاب للدلالة مباشرة على التجسد. (C. Arian, 1, P. G. 26, 125 C, 133 C, 145 B; 11, 165 A 189 A, 305 B) أو بمعنى «عمل مقصود من أعمال الكلمة» (11, 241 C, 256 A) أو بمعنى «تدبير الخلاص» (11, 305 C).

(٢) عند ديديموس الضرير، «التدبير» هو عمل «التجسد».

G. BA RDY; Didyme L' Aveugle, p. 115. cf. Didymus. Adv. Eunom. Iv, P.G. 29, 697 B, 701 AB. etc., De Trinit., III, P.G., 39, 817 B, 93 D, etc.

(٣) وكذلك عند القديس باسيليوس: «التدبير هو سر التجسد» وهو حجته الرئيسية ضد الأريوسيين.

K. Holl, Amphilochius ...... p. 156.

(4) Thes., P. G. 75, 416 A.

(5) Dial. III, 828 B.

(6) Hom. Pasch. XIV, P. G. 77, 725 C.

من ذلك، كما يقول البابا كيرلس: أن يوحنا المعمدان عندما أرسل اثنين من تلاميذه، يسألان المسيح إذا كان هو المسيّا المنتظر، قد افتعل الجهل أو تظاهر به «تدبيريا» (١).

وفى حالات أخرى، يمكن أن يحتمل هذا التعبير *οἰκονομικῶς* معنى مختلفاً كل الاختلاف: فهو يستخدم للدلالة على «قصد الله فى الفداء» (٢) وفى أغلب الحالات يتضمن الإشارة إلى «التجسد» مباشرة، مثلاً عندما يؤكد البابا كيرلس أن المخلص «قال أن الآب أعظم منه تدبيرياً» أو إذا شئت، من حيث أنه صار إنساناً» (٣) وفى مواضع أخرى يستخدم البابا كيرلس الأسكندرى هذا التعبير مع أحد التعبيرات المذكورة سابقاً فى وقت واحد، فمثلاً:

«تدبيرياً كإنسان» (٤)

«تدبيرياً من حيث قد صار إنساناً» (٥)

«تدبيرياً بسبب التجسد» (٦)

أمّا صيغة الاسم «التدبير» *οἰκονομία* فيستخدم أيضاً فى معانٍ متنوعة:

فهو يدل أحياناً على نيّة أو قصد أيّا كان (٧).

ويدل أحياناً أخرى على توزيع الله للخيرات الروحية (٨).

ويدل أحياناً ثالثة على ما نسميه بتدبير الخلاص (٩).

(1) Thes., P,G. 75, 169 A, 172 A; Glaph., P,G. 69, 501 C, 589 B; De Ador., P. G., 68, 616 C; In Jo., P.G., 73, 213 A (1, 190, 3), 252 D (1, 226, 20), etc.

(2) cf. De Ador., P. G. 68. 620 B, 661 B 757 A; Glaph., P.G., 69, 180 A, 337 A, 436 B; Hom. pasch. XI, P, G., 77 654D; XVL. 768 A.

(3) Thes., P,G, 75, 149 D; of. 144B; Dial, VI, 1033 BC. 1064 A etc.

(4) Thes., 117 CD, 120 B.

(5) Thes., P.g. 75, 120 A.

(6) Glaph., P.G. 69, 429 C.

(7) Thes., P. G. 75, 173 B, 181 A, 372 A, 376 B; Dial. VI, 1061 A; In Jo., P. G., 73, 476 C (1, 435, 15).

(8) Thes., 217 B.

(9) De Ador., P. G., 68, 221 A, 388 B; Glaph., P. G. 69, 60 B, 401 A; Hom. Pasch. V, P. G. 77, 496 B, 497 A; XV, 741 B; In Is., P. G., 70, 1189 B; Thes., P. G. 75; 68C 397 A; Dial. VI, P. G. 75, 1048 B.

وأخيراً يستخدم غالباً بمعنى «التجسد ذاته».

وبهذا المعنى الأخير «التجسد» يستخدم لفظ «التدبير» بمفرده (١)، أو مع مخصصات متنوعة:

(٢) *ἡ καθ' ἡμᾶς οἰκονομία*

(٣) *ἡ μετὰ σαρκὸς οἰκονομία*

(٤) *ἡ ἐν σαρκὶ οἰκονομία*

وأخيراً صيغة الفعل: يُدبّر *οἰκονομεῖν* تعيّن بكل بساطة بعض أفعال تممها المخلص بقصد مخصوص، مثل وضع أسئلة كان يعلم هو جوابها (٥).

هذه التعبيرات تستخدم أحياناً للتفسير، من الناحية الظاهرية الخارجية فقط، لصفات الضعف البشرى التى اتخذها المسيح. فلفظ «التدبير» *οἰκονομία* إذن يفسر القصد أو الغرض الذى انتواه المسيح. وكمثل عملىّ على ذلك يقدمه البابا كيرلس مبيناً أن هناك دافعاً مزدوجاً من الناحية الظاهرية لاختصاص المسيح ذاته بالخصائص الإنسانية. *ἀνθρώπινα*

«إن الكلمة المتجسد اتخذ هذه الخصائص ليظهر حقيقة كإنسان ثم لكي يشفيها» (٦)

وقد يكون لهذا التعبير «التدبير» أحياناً قيمته كتبرير باطنى للإشارة إلى سر التجسّد ذاته:

«فالكلمة قد اتخذ صفات الضعف البشرى لأن الجسد هو جسده، بموجب التدبير، وليس إلا واحداً معه».

وعلى كل حال، فاتخاذ الكلمة لصفات الناسوت هو عمل «تدبيرى»، أى بحسب ما يراه البابا كيرلس، هو عمل «حقيقى» لكنه يتميز بكل وضوح عن عمل الخصائص الطبيعية. فالكلمة فى

---

(1) Glaph., P. G., 69, 88 B, 129 B, 308 D, Hom. Pasch. VIII P. G. 77, 569 C; XV, 744 D; Thes., P. G. 75, 12oc, 369B etc.; Dial. IV, P.G. 75, 924 C; V. 940 B, B 977 A, etc.

(2) Thes., p. G. 75, 269 D, 280 A etc.

(3) Ibid., 393B, 424 D; Dial. IV, 924 B; VI, 1033 BC etc.

(4) Thes., 293A, 333B.

(5) cf. Thes., P. G. 75, 376 BC, 377AD etc.

(6) In Jo., P. G. 74, 88D (11, 316, 6sq) et P. G. 73, 293 C (1, 266, 17sq).

نظر القديس كيرلس، هو الفاعل الوحيد فى موضوع اتخاذ المسيح للصفات البشرية، ومع ذلك فهو لا يقبل الألم فى ذاته. وهذا الاتحاد «تدبيرى» بمعنى أنه ليس مجرد اتحاد بميل إرادى، وإنما له طابع اسمى بحت، أو قل رمزى، لكنه ليس اتحاداً طبيعياً بالمعنى الدقيق.

وإذا كان القديس أثناسيوس الرسولى يرى أن الكلمة قد اتخذ صفات الناسوت، وأن الناسوت بدوره قد ساهم فى أعمال المسيح الإلهية (١) فالقديس كيرلس الأسكندرى يتبنى هذه الفكرة فى أحد كتبه ويؤكد أن الكلمة المتجسد قد صنع معجزاته بالجسد *διὰ τῆς σαρκός* «لكنها لم تكن أعمال الجسد» (٢).

ويرى كيرلس رأى سلفه فى جسد المسيح أنه «أداة *ὄργανον* اللاهوت الحال فيه» (٣) وأن الجسم هو «المساعد» *συνεργάτης* فى عمل معجزات المسيح (٤).

يتضح من كل هذا، أنه - كما يرى كيرلس الأسكندرى - لا يوجد فى الكلمة المتجسد غير فاعل واحد فى الاتحاد هو الذى يجب أن تنسب إليه الأفعال الإلهية والأفعال البشرية أيضاً. فإن: «هذا الذى قال، وبإتضاع كابد هذه الأشياء (البشرية)، هو الذى قال، وبجلال صنع هذه الأشياء الأخرى (المعجزات) بصفته الله» (٥).

والكلمة من حيث هو متحد بالجسد فهو إنسان فى الواقع، وإليه من حيث هو متحد بالجسد طبيعياً، تنسب الخصائص والصفات الناسوتية. يقول البابا كيرلس:

«ومن ثمّ، يجب أن ينسب إليه (= الكلمة) من حيث هو الله ما هو من الله، (وأن ينسب) إليه من حيث قد صار شبيهاً بنا ما يتناسب معنا، أعنى الصفات البشرية» (٦).

---

(1) cf. M. Richard, Art. Cit., p. 23 - 24.

(2) Thes., P. G. 75, 388C cf. In Is., P. G. 70, 181 C.

(3) Thes., 429 C, cf. Athanas., C, Arianos, III. S 53, P. G. 26 436 A.

(4) In Jo., P. G. 73, 577 C (I, 530, 10). cf. Inis. P. G. 70, 181 C.

(5) Thes., P. G. 75, 393A; cf. Injo., P. G. 73, 964D (II, 1584sq) cf. Athanasius, C. Arian. III, S 35, P. G. 26, 397 B.

(6) Dialogues, I P.G. 75, 681 C.

مشكلة الآم المسيح

قال مخلصنا «نفسى قد اضطربت» (يوحنا ١٢ : ٢٧).

وقال أيضاً «نفسى حزينة جداً حتى الموت» (مرقس ١٤ : ٣٤).

وقال البشير القديس متى عن معلمه «وابتدأ يحزن ويكتئب، فقال لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت» (متى ٢٦ : ٣٧، ٣٨).

وقال البشير القديس يوحنا «فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون، انزعج بالروح واضطرب.. بكى يسوع.. فانزعج يسوع أيضاً فى نفسه» (يوحنا ١١ : ٣٣، ٣٨).

وقال أيضاً «ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح» (يوحنا ١٣ : ٢١)، وقال مخلصنا «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذا الكأس» (متى ٢٦ : ٣٩).

* * *

من هذه النصوص يتضح أن مخلصنا كابد الخوف، والاضطراب والحزن وما إليها من إنفعالات إنسانية..

ولما كان الأريوسيون ينكرون وجود نفس إنسانية فى المسيح، فقد أبرزوا هذه النصوص لتأييد نظريتهم ضد لاهوت المسيح قائلين: إن الكلمة هو الذى اضطرب وحزن، وانزعج.

وقد عالج القديس كيرلس هذا الموضوع فى الفصل ٢٤ من كتابه Thesaurus (١)، مستخدماً مباشرة الحل الذى عرضه القديس أثناسيوس الرسولى فى «رده على الأريوسية» Contra Arianos، كما عاد إلى الكلام عليه فى مواضع متفرقة من «تفسيره لإنجيل القديس يوحنا» (٢).

---

(1) P. G. 75, 389 D, 401 B.

(٢) لم يتعرض البابا كيرلس فى تفاسيره للعهد القديم، لمسألة آلام المسيح، ولكنه أشار فى موضعين إلى نصوص من العهد الجديد لبيان أن المخلص كان حقاً شبيهاً لنا فى كل شئ.

Glaph. in Ex., II, P. G. 69, 476 CD; Inis. P. G. 70, 1172 CD.

والنصان يذكران الآلام النفسية: أولهما يتحدث عن الحزن بينما يقتبس النص الثانى من يوحنا ١٢ : ٢٧، مرقس ١٤ : ٣٤، متى ٢٤ : ٣٧ دون أى تفسير.

مسألة آلام المسيح
كما يعالجها البابا كيرلس الأسكندرى
أولاً
فى الفصل الرابع والعشرين من كتاب
Thesaurus

أولاً، يجب التنويه إلى أن البابا كيرلس عالج هذه المسألة فى الفصل الرابع والعشرين من كتاب Thesaurus بنفس الحل الذى عرضه القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه «الرد على الأريوسية» (١).

وفى الفقرة ٢٦ من الجزء الثالث من كتاب «الرد على الأريوسية» Contra Arianos, III, P. 26 يعرض القديس أثناسيوس للنصوص الكتابية التى يستند إليها الأريوسيون فى إثبات أن الابن ليس بالطبيعة قوة الآب: «نفسى قد اضطربت» (يوحنا ١٢ : ٢٧)، «يا أبتاه، إن أمكن، فلتعبر عنى هذه الكأس» (متى ٢٦ : ٣٩)، «ولما قال يسوع هذا، اضطرب بالروح» (يوحنا ١٣ : ٢١)، ويردد القديس أثناسيوس ما يقوله الأريوسيون مرة أخرى فى الفقرة ٥٤ من نفس كتابه، ويقول بلسانهم:

«هوذا قد بكى، وقال: «نفسى قد اضطربت» وطلب أن تُعبر عنه الكأس. فكيف إذن يكون هو الله وكلمة الآب، إذا كان قد قال ذلك» (٢).

أما البابا كيرلس ففى كتابه Thesaurus يورد النصوص الكتابية السابقة التى يتذرع بها الأريوسيون والتى ذكرها القديس أثناسيوس، ثم يضيف إليها نصاً آخر، هو «نفسى حزينة جداً» (متى ٢٦ : ٣٨) ويقول بلسان الأريوسيين، كما فعل أثناسيوس:

«كيف يمكن أن يكون هو الله بالطبيعة من بكى، وخاف، وحزن؟ إن مثل هذه الأشياء فى الواقع تناسب الناس» (٣).

---

(١) ردّ القديس أثناسيوس على الاعتراضات الأريوسية فى الفقرات ٥٤ - ٥٨ ومن الجزء الثالث من كتابه «الرد على الأريوسية».

(2) C. Arian, III, P. G. 26 54, 5436 B.

(3) P. G. 75, 392 D.

ويتابع القديس كيرلس سلفه أثناسيوس في عرض المسألة والرد عليها. كل ما هنالك أن أثناسيوس يتكلم أولاً عن موضوع ترك الآب للمسيح (ف ٥٦)، ثم خوفه من الموت واضطراب نفسه (ف ٥٧) بينما أن القديس كيرلس يعالج أولاً موضوع «الخوف من الموت» (٣٩٦ د - ٣٩٧ د). ثم موضوع «الترك»: (٣٩٧د - ٤٠٠أ) وأخيراً موضوع «الاضطراب»: (٤٠٠أ - ٤٠١ب).

وقبل أن ندخل في تفصيلات لإيضاح ردود القديس كيرلس على الاعتراضات الأريوسية فيما يتصل بآلام المسيح، لابد من الإشارة إلى الحجّة الأولية والأساسية التي يستند إليها ردّ البابا كيرلس ومن قبله البابا أثناسيوس...

أما القديس أثناسيوس فيذكر الضعفات النفسية ويشير إلى بكاء (١) المسيح، وتعبه، وآلامه وغيرها من الضعفات الجسدية (٢) وينسبها جميعها وبلا تفريق إلى الجسد، ثم يقول «إن الأريوسيين يريدون أن يقولوا أنه بكى، وأموراً أخرى مثيلة بهذا، ولكنهم يجب أن يعترفوا بأنها خصائص الجسد» (٣).

ويقول القديس أثناسيوس أن الكلمة أمكن أن يكابد الدموع، والجوع، وأمور الجسد الأخرى *ἴδια τοῦ σώματος* لأنه كان قد اتخذ له جسداً أو جسماً قابلاً للألم (٤).

σῶμα παθητόν, σάρκα παθητήν

أما القديس كيرلس فيقول: إن الكلمة المتجسد كان ينبغي أن يظهر نفسه على أنه إله حقيقي في نفس الوقت، ولذلك «فقد جعل الجسد، والناسوت *τῷ σώματι καὶ τῇ ἀνθρωπότητι* أن يحتمل الآلام الملازمة للطبيعة نفسها» (٥).

ويقول القديس أثناسيوس عن الأريوسيين «أنهم يريدون أن يقولوا أنه بكى، وتصبب عرقاً، وتألم، ولا يعتبرون الجسد، ولهذا السبب يجعلون في عداد المخلوقات من به تكوّنت الخليقة» (٦)

ويقول القديس كيرلس:

«ولأنهم (=الهراطقة) وجدوا في الأناجيل كل ما له كإنسان، وما احتمله وما يبدو وما قيل من أنه بكى، وحزن، وما إليها من أشياء مماثلة، فلا يعزونها إلى الناسوت *ἐπὶ τὴν ἀνθρωπότητα* لكنهم ينسبونها على الفور إلى الكلمة، لكي يثبتوا أنه لا يكون من يكابدها هو الله» (٧).

---

(1) P. G. 26, 436 C, 737 C, 440 C.
(2) Ibid., 440 C.
(3) Ibid., 440 B.
(4) P. G. 26 S 55, 437 C, 440 A.
(5) P. G. 75, 393 C.
(6) P.G. 26, S 55, 44oA.
(7) P. G. 75, 396 A.

يقول القديس أثناسيوس:

«وإذا قالوا أنه بكى وما إلى ذلك من أشياء مشابهة، فكان يجب أن يقال أن هذه (الآلام) خاصة بالجسد» (١).

ويقول القديس كيرلس:

«فإذا أردت أن تقول من جديد، في موضوعه: أنه بكى، وحزن ، وخاف، وابتدأ أن يكتئب، فعليك أن تفكر أيضاً في أنه إنسان في نفس الوقت الذى هو فيه الله، وأن ننسب إلى الناسوت τῇ ἀνθρωπότητι ما يرتد إليه» (٢).

ويضيف البابا كيرلس قائلاً:

«حيث أنه، في الواقع، كان قد اتخذ جسداً فانياً وقابلاً للفساد، وخاضعاً لمثل هذه الآلام، فكان من الضرورى أن يختص ذاته مع الجسد بهذه الآلام. ولما كان الجسد قد كابدها، فقد قيل أنه هو ذاته قد احتملها وإذن، فى الحقيقة، إذا قلنا أنه صُلب وأنه مات، فإنما كان الجسد هو الذى احتمل هذه (الأشياء)، وليس الكلمة فى ذاته، وبالمعنى الدقيق، لأنه (الكلمة) غير قابل للآلام، وهو لا يموت» (٣).

ويستطرد أيضاً ويقول:

«فنحن إذن نفسر هذه الكلمات بأرثوذكسية كاملة، بأن ننسب إلى اللاهوت (الأقوال) الإلهية ونخصّ الجسد (بالأقوال) التى قيلت فى شأنه، حيث أنها قد صدرت عنه (الجسد) عن طريق الميول الطبيعة التى تظهر فينا، وإذ يكون للعقل ὁ νοῦς الإحساس αἴσθησις بها. فإنه يحرّك (حرفياً، يفجّر) اللسان بما يهمس به باطنياً بكيفية غير منظورة وصامتة» (٤).

ويقول القديس ساويرس الأنطاكي تعليقاً على هذا النص المأخوذ من كتاب الـ Thesaurus.

«وإذن كما أنه فى خلقة الإنسان بصفة عامة، العقل هو الذى يتكلم على الرغم من أنه هو الذى ينطق بالكلمات كأنها صادرة من الجسد، هكذا أيضاً فى التجسد الإلهى: إن الله الكلمة هو الذى يتكلم، وإليه ينسب الألم على الرغم من أن الألم يبدو فى الجسد المزوّد بنفس وعقل، وتصدر الكلمات كأنها آتية منه (الجسد) وتتعلّق به» (٥).

(1)P. G 26, S 56, 440 B.
(2) P. G. 75, 396 C.
(3) P. G. 75, 396 CD.
(4) 396 D.
(5) Contra Grammaticum, III, 6 Trd. Lebon, t.v., p. 54.

الخوف

يخصص البابا كيرلس الأسكندرى ثلاث فقرات (١) من الفصل الرابع والعشرين من كتابه Thesaurus لبحث موضوع «الخوف» الذى كابده المسيح أمام الموت إن أمكن، «فلتعبر عنى هذه الكأس» (متى ٢٦ : ٣٩).

ففى الفقرة الأولى يسترجع البابا كيرلس ما ذكره القديس أثناسيوس فى الجزء الثالث (٢) من ردّه على الأريوسية وهو المبدأ الذى بموجبه أراد المسيح أن يتجسد: وهو أن يمزج *συγκεράσας* - أو على حد تعبير كيرلس - *ἀναμείξας* خصائصه الإلهية بضعفاته، حتى ينقل إلى طبيعتنا قوّته الإلهية. ثم يعرض رأى أثناسيوس وحجته أن الكلمة ما كان يخشى الموت لأنه كان يريده.

«وإذن، إذا كان يظهر أنه (= الكلمة) يخشى الموت، وقد قال: إذا كان يمكن، فلتعبر عنى هذه الكأس، فكّر أيضاً أن الجسد الذى يخشى الموت كان يعلم - وذلك بمساعدة الكلمة - أنه لا (يقدر على أن) يحتمل الألم بعد (أعنى : الخوف من الموت). والواقع أنه قال لأبيه: ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت».

ويقول البابا كيرلس:

«فمن جهة، فى الواقع هو ذاته (: كلمة الله) ما كان يخشى الموت، من حيث هو الكلمة وهو الله، لكنه كان متعجلاً أن يتتبع التدبير إلى النهاية. فإنه كانت فيه إرادة الآب. ومن جهة أخرى، أنه يبين أيضاً رفضه للموت، لأن الجسد بطبيعته يرفض الموت. لهذا، فإنه إذ كان يريد أن يعلم الناسوت أن لا يعاود فيفكر فى غرائزه *τὰ αὐτῇ προσόντα* بل أن يطلب إرادة الله، قال كإنسان: لا كما أريد أنا، بل كما تريد أنت. وبسبب هذا فى الواقع نرى أنه يضيف أيضاً الروح قوى، أما الجسد فضعيف».

فهذا التردد أمام الموت هو إذن تمرد من جانب الجسد أو قل هو ردّ فعل غريزى من جانب الناسوت *ἀνθρωπότης* وواضح أن الناسوت تعبير استخدم هنا بمعنى عام أى الطبيعة:

---

(1) P. G. 75, 396 D -397 C, cf., C. Arian. III, S 57 441 B - 444A.

(2) S 57, 441 C.

طبيعة كل إنسان، مثلنا فى ذلك كلمة الجسد σάρξ كما وردت فى عبارة سابقة للقديس كيرلس: «الجسد الذى يخشى الموت كان يعلم ـ وذلك بمساعدة الكلمة، أنه لا (يقدر أن) يحتمل الألم بعد».

وأما فى الفقرتين الأخيرتين من كتاب Thesaurus فيبين فيهما القديس كيرلس، على نظير ما فعل القديس أثناسيوس فى كتابه الرد على الأريوسية ـ الجزء الثالث (١) : إن المسيح لا يمكن أن يخشى الموت لأنه هو الذى منح الآخرين القدرة على الاستخفاف بالموت والاستهانة به، لكن كان من الضرورى أن يحمل المخلص آلامنا حتى يحررنا منها:

«كما أن الموت لم يكن ليبطل لو لم يمت (الكلمة المتجسد) هكذا كل ألم من آلام الجسد. وفى الواقع إذا لم يخف (الكلمة المتجسد) ما كانت الطبيعة تتخلص من الخوف، وإذا لم يحزن ما كانت طبيعتنا تعتق من الحزن، وإذا لم يضطرب ما كانت تتحرر من هذا (الاضطراب) مطلقاً. فإذا اتبعت نفس القياس (حرفياً: البرهان) على كل أمر من الأمور التى تُممت ناسوتياً، ستجد أن آلام الجسد تحركت فى المسيح لا لكى تسود فهى كما هو الحال فينا، بل لكى إذا ساد هو عليها بطلت بقوة الكلمة الساكن فى الجسد».

ومن هذا يتضح أن خوف المسيح لم يكن فى تفسير القديس كيرلس «خوفاً وهمياً» أو «مصطنعاً» وإنما كان خوفاً حقيقياً، لكنه لم يؤثر إلا على الجسد. وإذن فهو ألم جسدى τῆς σαρκὸς πάθη وكذلك الحزن والاضطراب.

---

(1)S 57, 444 A

الترك

عالج القديس كيرلس الأسكندرى موضوع «الترك» فى فقرة واحدة (١) من الفصل الرابع والعشرين من كتابه Thesaurus وقد تأثر فيها بما قاله القديس أثناسيوس فى ردّه على الأريوسية.

قال القديس أثناسيوس الرسولى:

«الواقع أنها كانت كلمات بشرية قوله: فلتعبر الكأس، ولماذا تركتنى؟ لكنه هو نفسه صنع بقوة إلهية كسوف الشمس وقيامة الموتى» (٢).

وكذلك فعل القديس كيرلس: أنه لم يهتم بموضوع الترك إلاّ من حيث نهايته وأعنى: وصف العجائب التى حدثت وشهادة الحاضرين: كان هذا بالحقيقة هو ابن الله. وإذن فحلّ المشكلة كما يراه القديس كيرلس، فهو أن المسيح أراد أن يظهر كإله حقيقى وأيضاً كإنسان حقيقى، «ولهذا السبب قال بما يناسب إنساناً: إلهى إلهى لماذا تركتنى؟، لتعبر عنى هذه الكأس» .

ولكن فى نفس الوقت، إن المعجزات التى صنعها تبيّن فيه أنه الله المتجسد

Θεὸς ἐνανθρωπήσας

قال المسيح: لماذا تركتنى؟ لكن القديس كيرلس يبدو أنه لا يعتقد أن هذا الترك حقيقى.. وقد تبع فى هذا رأى القديس أثناسيوس الذى يقول صراحة وبكل وضوح:

«إن المخلص ما كان يمكن أن يترك حتي بصفته إنساناً» (٣).

---

(1)P. G. 75, 397 C -400A.

M. G.Joussard: "L'abondon du christ en croix dans la tradition grecque des Ive et ve siècles (Revue des Sciences Religieueses, t. v., 1925, P. 620 - 621).

(2) C. Arian. III, S 57, 444 B, Ibid. S 56, 440C- 441B.

(3) C. Arian., III, S 56, 441 A.

M. Richard, Art. cit., P. 33 - 34.

الاضطراب

«الآن نفسى قد اضطربت (١)» (يوحنا ١٢ : ٢٧)

يعد هذا النص من أهم النصوص التى استند إليها الأريوسيون فى اعتراضهم على لاهوت المسيح...

أما القديس أثناسيوس فيتمسك كل التمسك بأن الكلمة فى ذاته غير قابل للألم، وقد بذل القديس أثناسيوس كل جهده فى ردّ هذا الاضطراب إلى حركة جسدية بحتة (٢).

وأما القديس كيرلس فيعرض للمشكلة فى ثلاث فقرات من الفصل الرابع والعشرين من كتابه Thesaurus فى الفقرة الأولى يذكر مبدءاً عاماً: إذا كان الكلمة قد صار إنساناً، فليس لكى يتكلم أو يتصرف بصفته الله فقط كما كان الحال قبل التجسد، *ἐνανθρώπησις* ولكن لكى يتكلم أيضاً كإنسان بفضل التدبير بعد التجسد.

ἡ μετὰ σαρκὸς οἰκονομία

فلا ينبغى أن نُعثر إذن إذا سمعناه يتكلم على نحو إنسانى فله سلطان أن يتكلم كإله، وله سلطان أيضاً أن يتكلم كإنسان..

ويقول البابا كيرلس:

«الواقع أنه قال ناسوتياً: الآن نفسى قد اضطربت، لكنه قال أيضاً لاهوتياً: لى سلطان أن أمنحها ولى سلطان أن أستردها (٣). فكونه قد اضطرب هو إذن ألم خاص بالجسد، أما سلطان المنح والاسترداد فعمل فى سلطان الكلمة».

ويعود البابا كيرلس فيقرر:

«إذا قال الكلمة شيئاً بلاهوته أو من الناحية اللاهوتية فيجب أن نفكر «فى الكلمة الساكن فى الجسد». أما إذا تكلم كإنسان فيجب أن نذكر أنه صار إنساناً من أجلنا وأنه يقول ما يناسب الحالة الإنسانية *τῇ ἀνθρωπότητι* .

(1)P. G., 75, 400B - 401B. C. Arian. III, S 57, P. G. 26, 444BC.

(2) CF. M. Richard, art. cit., p. 36 - 37.

(٣) يوحنا ١٠ : ١٨ «لى سلطان أن أضعها، ولى سلطان أن آخذها».

وفى الفقرتين الأخريين من كتاب Thesaurus يلخص البابا كيرلس إلى أن موت المسيح لم يحدث فى الكلمة تغييراً ما، لأن الجسم هو الذى مات (١) . والجسد هو الذى احتمل الموت (٢) . وفى مواضع أخرى يبين عمود الدين أن الكلمة قد اختص ذاته حقاً بموت جسده (٣) بل وينسب إلى الكلمة ذاته، منفصلاً بالطبع عن جسمه، النزول إلى الجحيم. وهو فى هذا يردد ما قاله القديس أثناسيوس من قبل فى كتابه الرد على الأريوسية.

وبتعبير القديس كيرلس الأسكندرى:

«كيف لا يكون قد تجاوز كل كفر من يقول بأنه (الكلمة) خشى الجحيم، هذا الذى لمنظره فقط أصاب حرّاسه (=الجحيم) الدهش.. إلخ» (٤) .

الاضطراب إذن الذى خبره المسيح هو كما يقول البابا كيرلس (٥)، تابع لناسوت المسيح، فالمسيح بفضل تجسده أمكنه أن يتكلم أحياناً كإله وأحياناً كإنسان. وحينما قيل عنه أنه اضطرب كان اضطرابه كإنسان، بينما أن السلطان الذى نسب إليه من حيث المنح والاسترداد أو الأخذ هو سلطانه من حيث هو الله.

ومن أقوال القديس كيرلس:

«هل نحسب أن الحزن والاضطراب يغمّان الطبيعة الإلهية، وأن هذه يسودها الخوف من الموت» .

وفى هذا التعبير الاستنكارى تظهر الحقيقة التى دافع عنها البابا مراراً: إن المسيح قال ذلك، أو قيل فيه ذلك من حيث هو إنسان، أو لأنه كان فى الجسد، أو فى الناسوت..

---

(1) Thes., XV, P. G. 75, 7281 C.

(2) Ibid., XXIV, 396 D. cf. Hom. Pasch. X, P. G. 77 633A. (موت الجسد المقدس)

ويقول القديس كيرلس فى تفسير إنجيل القديس يوحنا: «نكس (يسوع) رأسه، وأسلم الروح» (يوحنا ١٩ : ٣٠) إن المسيح احتمل الموت (بالجسد) أو (حسب الجسد) . وقد نكّس رأسه عندما مات لأن الأعصاب ترتخى عندما تنطلق الروح πνεῦμα أو النفس ψυχή التى تحفظ الوحدة والتوتر فى الجسم. وقوله «أسلم الروح» معناه أن المسيح رد نفسه إلى أبيه In Jo., P. G. 74, 668 D- 669 AB (III, 96 - 97) Cf. De Ador., X, P. G. 68, 697 B.

(3) Glaph. in Ex., II, P. G. 69, 480 AB.

(4) Thes., XXIV, P. G. 75, 392 A cf. C. Arian. III S 54 437 A et S 56, 441 A.

(5) Thes., X, 120 B - 121 A.

وفى الفقرة الثانية (١) التى عالج فيها معلم الأسكندرية مشكلة الاضطراب يطوّر حجة عامة توجد فكرتها الأساسية عند القديس أثناسيوس وهى : أن الكلمة بتجسده نقل إلينا امتيازاته الإلهية متخذاً ضعفاتنا البشرية وأعنى بها «آلام الجسد»..

وأما فى الفقرة الأخيرة (٢)، فيعود البابا كيرلس من جديد على الخصوص إلى مشكلة الاضطراب الذى أدرك المخلص:

«لقد قال الله بعض أشياء عن طريق الأنبياء القديسين متهماً بنى إسرائيل ببعض الخطايا: إنهم أجازوا بنيهم فى النار، الأمر الذى لم آمرهم به ولا صعد إلى قلبى» (٣) وكما خاطب أورشليم: «لقد أحزنْتنى فى كل هذه الأمور» (٤) وبصدد أخطاء أخرى «ألا أغضب بسبب هذه الأشياء يقول الرب ألَا تنتقم نفسى من مثل هذا الشعب» (٥) والآن، كما هو واضح للجميع أن كلمة الله هو الذى نطق هذه الأشياء فى الأنبياء، فماذا يصنع أعداء المسيح؟ ألا ينسبون إليه نفساً وقلباً ويقولون أنه قد ساد عليه ألم الحزن وألم الغضب، حتى يبدو وكأنه لا يزيد شيئاً عن إنسان، مع أنه كلمة الله الذى هو فوق كل خليقة، ومساو للآب؟ ولكن ربما يتحاشون هذا ويؤكدون أن هذه الأمور قالها الكلمة استعارة ومجاراة»...

هذا الجزء الأول من حجة القديس كيرلس يذكرنا بحجة مماثلة قدمها القديس أثناسيوس الرسولى عندما كان بصدد أسئلة وجهها المسيح. فتقدّم مؤلف الرد على الأريوسية بأسئلة منسوبة إلى الله فى العهد القديم وبعد أن ذكر بعضاً من هذه الأسئلة، أضاف قائلاً:

«ما الذى ترونه مستحيلاً أو غريباً حتى تصيروا هكذا معاندين، إذا كان الابن، من حيث هو الله سبق فسأل، فهذا الابن نفسه لابساً الجسد، يسأل الآن أيضاً، التلاميذ، بصفته إنساناً» (٦).

وكل من حجة أثناسيوس وكيرلس تقوم على هذه الفكرة، إنه إذا كان الكلمة، قبل التجسد، أمكن أن ينطق بأقوال بدت فى ظاهرها دالة على النقص، فبالأحرى يمكنه وقد تجسد، أن ينطق بأقوال نظيرها كإنسان. ومعنى هذا أن النقص حتى فى الحالة الأخيرة لم يكن نقصاً فى الحقيقة، وإنما فى الظاهر فقط...

(1) 400 CD.
(2) 400 D-401 B.
(3) Jer., XIX, 5.
(4) Jer., XIX, 13.
(5) Jer., IX, 9.
(6) C. Arian III, S 50, 429A.

وبعد أن أوضح البابا كيرلس أن نصوص العهد القديم التى ورد فيها أن الكلمة تكلم عن مشاعر قلبه ونفسه، ليس لها إلا معنى المشابهة البحتة، يأخذ فى تطبيق ذلك على كلام المسيح:

«وعلى ذلك، إذا راعينا لابن الله القائل هذه الكلمات العظَمة اللائقة به، وأكدنا أنه كان بلا حزن ولا غضب ولا ألم أيا كان حتى لو أنه تظاهر بمكابدتها لأن ذلك نافع، فكيف لا يكون محالاً، وقد صار إنساناً ونزل فى الجسد القابل لهذه الآلام، أن لا ننسب إليه أنه ظل غير قابل للألم عندما قال هذه الأشياء، لأن هذه (الآلام) تتعلق طبيعياً بالجسد الذى اتخذ من أجلنا، مع كل ما يرتبط به طبيعياً؟ لكن هذه خاصية الناسوت *ἀνθρωπότητος δὲ ἴδιον* أن يبكى وأن يضطرب وأن يكتئب، وأن يرفض الموت وأن يحتمل (الآلام) المشابهة لهذه».

* * *

وهذه هى الحجة الأخيرة للقديس كيرلس. إنه حاول أن يقرب بين أقوال الكلمة فى العهد القديم وكلمات المسيح فى الإنجيل، فعلى أى أساس أقام هذه المقارنة؟ لا شك أنه أقامها على الأساس الآتى: فى الحالين تكلم الكلمة، من حيث هو الكلمة كما لو كان قابلاً للألم. والواقع أنه لم يكابد أى ألم، فكلماته إذن يجب أن تفسر حرفياً: إن التفسير الحرفى يؤدى فى الحالين إلى نسبة الآلام إلى الكلمة نفسه. فعندما قال المسيح: نفسى قد اضطربت، فهذا يكون معناه حرفياً أن الكلمة قد اضطرب، وهذا ما فهمه الأريوسيون، ولهذا السبب ناقش كل من أثناسيوس وكيرلس هذه المسألة على هذا الأساس..

* * *

إن نصوص العهد القديم تشبيهية بحتة، وهى تشبه الله بالبشر. إن المسيح هو الذى تكلم فى العهد القديم، ولكن على حد تعبير القديس كيرلس «استعارة، ومجاراة» أو «لأن ذلك كان مفيداً». ولم يكن كذلك كلام المسيح فى الأناجيل. إن الاضطراب الذى تحدثنا عنه الأناجيل كان اضطراباً حقيقياً، ولم يكن مجازياً، ولكن كيف شرحه القديس كيرلس. الحل عند كيرلس كما هو عند أثناسيوس، إن هذا الاضطراب ألم من آلام الجسد الذى نزل فيه الكلمة، إنه من مقتضيات الحالة البشرية التى لبسها مثل الدموع، والاكتئاب، والخوف..

وعلى الإجمال يتضح من مقارنة الفصل الرابع والعشرين من كتاب Thesaurus للقديس كيرلس الأسكندرى بالجزء الثالث من «الرد على الأريوسية» للقديس أثناسيوس، أن فكر كيرلس، على الرغم من بعض الاختلافات فى التعبير، كان قريباً جداً من فكر أثناسيوس.

مسألة الام المسيح

فى المحاورات

لكيرلس الأسكندرى

لم يتعرض القديس كيرلس لهذه المسألة فى المحاورة السادسة ومع ذلك فهناك بعض نصوص قليلة متفرقة لها علاقة بالمسألة...

أنه فى أماكن عدة يشير إلى المبدأ الأثناسيوسى بوجوب التفرقة فى «الأزمنة» الأمر الذى إذا أهملناه أدى بنا إلى نتائج يستحيل على العقل أن يقبلها. فإذا لم تفرق فى الأزمنة فهذا يقودنا إلى أن ننسب إلى الكلمة ضعفات كالجوع، والنوم، والتعب (١)، والموت وأوجاع الآلام (٢). وهنا يجب أن نلاحظ أن هذه الآلام جسدية...

وفى المحاورة الخامسة يفرق القديس كيرلس بين حالتين فى الكلمة، ويميز بينهما بالخصائص المرتبطة بكل منهما. وبعد أن يشير إلى الامتيازات الإلهية للابن يأخذ فى تعديد الضعفات المتصلة بحالته الإنسانية ويعبر عنها بالتعبير *τὰ σαρκὸς ἤτοι διὰ τὴν σάρκα*

«الذى لا يلمس أصبح ملموسا... غير المنظور صار منظورا... وفى الواقع، متى، وأين، وكيف، جاء الله منظورا لنا... إذا لم يكن عندما صار الابن الوحيد الجنس إنسانا، والذى لا تراه خليقة ما ظهر عيانا بالجسد، وتعب من الطريق عندما اجتاز بمدينة السامريين، وزيادة على ذلك كان فى حاجة إلى الطعام الجسدى، مع أنه هو الذى يعطى القوة للجائعين كما يقول النبى؟ هذا الذى به نحيا ونتحرك ونوجد الذى قيل فيه أنه كان معنا إلى موت الجسد»...

هذه هى الضعفات التى «لها معنى ترابى وبشرى» والتى يجب أن تفسر «تدبيريا» (٣) *οἰκονομικῶς*، وهى فى مقابل الصفات والخصائص الإلهية التى تعلو على طبيعتنا...

وفى المحاورة الرابعة عدّد القديس كيرلس بالمثل «خصائص الجسد»

τὰ σαρκὸς ἤτοι διὰ τὴν σάρκα

---

(1) Dial I, P. G. 75, 680 D.

(2) Dial. 111, 816 D- 817 A; Dial. VI, 1024 AB.

(3) Dial V, 937 BCD.

فالكلمة «...صار خاضعا للناموس، مقهوراً وملموساً أقل قليلا من الملائكة، وعُدّ بين الأشرار، سيق كشاة إلى الذبح، وهكذا كابد موتا يثير الإشفاق» (١).

ونحن لا نجد إشارة إلى ضعفات نفسية إلا فى تفسيرين موجزين كتبهما القديس كيرلس للنص الوارد فى الرسالة إلى العبرانيين:

«الذى فى أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، و (قد) سمع له من أجل تقواه، مع كونه إبنا تعلم الطاعة مما تألم به» (٢).

وفى الفقرة الأولى (٣) أبرز القديس كيرلس أن القديس بولس ينسب إلى المسيح «طلبات ودموع» «فى أيام جسده»،

«أعني، عندما صار الكلمة جسدا، حسب الكتب، وهو الله، ولم يصر فى إنسان كما فى القديسين».

وإذن فالقديس كيرلس لا يفهم الضعفات التى يتكلم عنها الرسول إلا على أنها ضعفات الجسد بالمعنى الدقيق (٤).

ويقول بعد قليل معلقا على نفس النص:

«تأمل حالة الناسوت *τὸ τῆς ἀνθρωπότητος μέτρον* (٥)وليس الذى مات فى الواقع هو رسم الآب، لأنه أيضاً فى أيام الجسد صار التضرع. والخوف هو فعل الجسد، والخوف من الموت بالمعنى الكامل هو فعل الناسوت» (٦).

فالجسد *σάρξ* أو الناسوت *ἀνθρωπότης* هو الفاعل فى المشاعر البشرية التى كابدها المسيح.

---

(1) Dial.. IV, 913 B. CF. Dial. V1, 1024 A.

(٢) عبرانيين ٥: ٧، ٨.

(3) Dial.. 1, 681 C.

(٤) عبرانيين ١: ٣.

(5)CF. DIDYMUS, De Trinit., 111, 21, P. G. 39, 916 AB

(6) Dial.. V. 976 A

وفى كتاب آخر Glaphyres يعدد القديس كيرلس بعض آلام الجسد التى عاناها السيد المسيح وهو يعنى الآلام الطبيعية لا آلام الخطيئة...

بعد القيامة «نحن لا نعرفه (المسيح) بعد حسب الجسد، أو كما كان كذلك فى آلام الجسد، وأعنى: الآلام الطبيعية، لا آلام الخطيئة. لأنه قبل الصليب الكريم، قيل عنه أنه جاع، وتوجع من تعب الطريق، وحزن» (١).

* * *

(1) Glaph. in EX. 11, P. G. 69, 476 CD.

مسألة آلام المسيح

فى كتاب تفسير إنجيل القديس يوحنا

لكيرلس الأسكندرى

تناول القديس كيرلس فى كتابه «تفسير إنجيل القديس يوحنا موضوع آلام المسيح، ولم ينكر حقيقتها. وقد نجد فى كتاباته بعض تعبيرات لم يستعملها القديس أثناسيوس...

«إذا لم يكن قد ظهر ἔδειξε أنه قبل (الآلام) كإنسان، وأنه أيضاً قد تألم كواحد منا، فكيف يمكن أن نبين أنه قد اتضع» (١).

«إن الكلمة» تظاهر συνεσχηματίζετο أنه خضع لضعفاتنا» (٢).

ولقد حاول القديس كيرلس الأسكندرى أن يشرح موضوع الآلام على نحو آخر غير Λόγος παθητός الذى قال به الأريوسيون (٣).

ويتبين لنا من قراءة نصوص كتاب «تفسير إنجيل القديس يوحنا» أن اتجاه القديس كيرلس فى هذا الكتاب ظل فى نطاق اتجاهه فى كتابيه Thesaurus و Dialogues . وبالإيجاز يمكن أن يقال أنه ينسب الآلام إلى الجسد أو إلى الناسوت.

فمثلا، يقول فى تفسيره لإنجيل يوحنا ٣ : ١٢، ١٣ : يشير إلى الضعفات «التى تناسب الجسد وحده» وأن الكلمة اختص ذاته بها، ويقول:

«أنه خاف، وانزعج، وتعذب فى وقت الآلام، واختص ذاته بالآلام المناسبة للناسوت فقط، وكأنه هو ذاته قد تألم» (٤).

وزيادة على ذلك، ففى تفسير (يوحنا ٤ : ٦)، حيث يذكر البشير تعب المسيح، يبرز القديس كيرلس الاعتراض الأريوسى كما أبرزه فى كتاب Thesaurus . لكنه لم يشرح هذا الاعتراض لكن تفسيره لهذا النص يفترض بوضوح أن الأريوسيين يتخذون من هذا الضعف وهو ضعف

---

(1) In Jo., 1, 32- 33, P. G. 73, 208 B: 1, 185, 11- 13.

(2) CF. Ibid., P. G. 73, 429A (1, 392, 27- 28).

(3)In Jo., 1, 32- 33, P. G. 73, 201C (1, 180, 16- 17).

(4)P. G. 73, 249 CD: 1, 224.

فيزيقى كله، حجة ضد لاهوت الكلمة، وقد أبان القديس كيرلس جيدا أن هذا الضعف هو ضعف الجسد وليس ضعف ابن الله من حيث هو كذلك...

ويقــول:

«أتريدون أن تظهروا لنا رب القوات كما لو كان عاجزا ضعيفا، وتنسبون تعب الطريق للابن الوحيد الجنس ذاته (المولود) من الآب، حتى يعتبر من الآن فصاعدا، قابلا للألم، وهو الذى لا يعرف الألم؟ أو ترفضون بحق أن تفكروا على هذا النحو، وتختصون بطبيعة الجسد وحدها الآلام التى من هذا النوع، قائلين أن التعب يناسب الناسوت، لا الكلمة من حيث هو كذلك، وبالنظر إليه مجردا، وفى ذاته» (١).

أن القديس كيرلس يعرض فى تفسيره لإنجيل القديس يوحنا لموضوع الخوف والاضطراب اللذين عاناهما المسيح، ولكن من الضرورى أن نفرق هنا بين النصوص التى وصلت إلينا بالتقليد المباشر، وبين تلك النصوص التى لا نعرفها إلا بالتسلسل ومن ثم نشك فى صحتها.

* * *

النصوص التى وصلت إلينا بالتقليد المباشر

فى الأجزاء التى وصلت إلينا من تفسير إنجيل القديس يوحنا، سالمة كاملة، لم يتناول القديس كيرلس مسألة آلام المسيح إلا مرتين، الأولى، فى تفسيره يوحنا ٦: ٣٨، ٣٩ (كتاب ٤)، والثانية، فى تفسير يوحنا ١٣: ٢١ (جزء ٩)...

ففى تفسير النص الأول:

«قد نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى».

يبين القديس كيرلس أن المسيح احتمل الآلام بإرادته، لكن إذا كان يمكنه أن يخلصنا من دون تلك الآلام فكان سيتجنبها. ويؤيد رأيه هذا بالاستناد إلى صلاة المخلص: «ياأبتاه، إذا كان يمكن، فلتعبر هذه الكأس». وفيما يلى يبرر القديس كيرلس فزع الكلمة المتجسد أمام ألم الموت...

«أن الكلمة، من حيث هو الله، لا يموت، ولا يقبل الفساد، بل من حيث هو بطبيعته الحياة

(1) P. G. 73, 293 AB (1, 265, 18 Sq)

ذاتها، ما كان يمكن أن يخشى الموت. وإنى اعتقد أن هذا الأمر واضح كل الوضوح للجميع. لكنه اختص الجسد، بما أنه هو كائن فى الجسد، أن يحتمل ما يختص به، وقد سمح له أن يضطرب أمام الموت العتيد منذ الآن، حتى يبدو إنسانا حقيقيا كأكمل ما تكون الحقيقة... فأنت ترى كيف أن طبيعه الإنسان - وهو فى المسيح ذاته - تظهر ضعيفة، لمن هو من هذه الطبيعة، ولكنها قد ردت إلى القوة اللائقة بالله، بواسطة الكلمة الذى اتحد بها» (١).

فالخوف من الموت فى نظر القديس كيرلس، تمرد من الجسد وهو أمر عادى فى طبيعة الإنسان...

وفى تفسير النص الثانى: «اضطرب يسوع بالروح».

اضطر القديس كيرلس إلى أن يواجه المشكلة من زاوية سيكولوجية (٢) وهى الناحية التى يثيرها الأريوسيون، ولحل هذه المشكلة أخذ القديس كيرلس ينبه إلى جفاف παχύτης لغتنا البشرية وعجزها عن التعبير الدقيق عن الحقائق الإلهية. فإن الكتاب المقدس يتكلم عن بغض الله وغضبه بينما أن الجوهر الإلهى لا يكون موضوعا لإنفعال بشرى أيا كان...

يقول القديس كيرلس:

«فالبشير الإلهى يقول هنا أيضاً أن المسيح قد اضطرب بالروح، وعنده أن الاضطراب هو حركة الروح فى نفورها من الشر. والواقع، أنه ليس فى الإمكان كما يبدو، أن يعبر عنها بطريق آخر. ثم أنه من الطبيعى بكل تأكيد، أن الجسد، وهو لا يقوى على احتمال حركة اللاهوت، ينزعج قليلا، ويحتمل الاستعداد للاضطراب، ويبدى علامات الغضب، كما كتب فى الواقع عن موضوع لعازر أن «يسوع، انزعج فى نفسه، وجاء إلى القبر»، لأنه بنفس الأسلوب سمى بالفزع الانذار الشديد ضد الموت، وهكذا سمى باللفظ اضطرب، الحركة ضد الخائن الكافر» (٣).

---

(1) In Jo., V1, 38- 39, P. G. 73, 532 AB (1, 487, 4 Sq). CF. P. G. 75, 396 D- 397 A.

(2) ATHANASIUS, Contra Arianos, 111, S 26.

(3)In Jo., XIII, 21, P. G. 74, 136 ABC (11, 363)

وإننا نجد نفس التفسير، ونفس الاتجاه عند ثيودوروس أسقف المصيصة الذى يضيف لتفسيره τῷ πνεύματι معنى «الروح القدس». انظر تفسيره لإنجيل القديس يوحنا فى:

Corp. Script. Christ. Orient. Série 4, tome 111, trad.

J-M-Vosté, P. 185, 1. 19 Sq

أما الروح πνεῦμα التى يتكلم عنها البشير يوحنا، فهى الكلمة. وقد قيل أنه اضطرب، تشبيها لله بالإنسان، وهذا للدلالة على ردّ الفعل فى الطبيعة الإلهية أى «حركة اللاهوت» أمام الشر الذى تمقته وتنفر منه. لكن أليس لهذا الاضطراب طابع إنفعالى؟ نعم، إن الإنفعال فى الجسد يظهر بالفزع الظاهرى حركة اللاهوت الداخلية...

وهكذا يصل القديس كيرلس إلى معالجة النص الإنجيلى الذى يتكلم عن إنفعال حقيقى وداخلى. فهناك اضطراب حقيقى، فى الجسد، وهذا الاضطراب تثيره حركة داخلية، هى كراهية الله الكلمة للشر...

شذرات من الجزئين ٧، ٨

يحتوى هذا القسم من إنجيل القديس يوحنا الذى فسره القديس كيرلس فى الجزئين السابع والثامن من كتابه (١) على نصوص صعبة عن «الاضطراب» الذى أظهره السيد المسيح. وهذا التفسير هو لحادثة قيامة لعازر، إذ يقول البشير «يسوع... انزعج بالروح واضطرب» (يوحنا ١١ : ٣٣)، «فانزعج يسوع أيضاً فى نفسه وجاء إلى القبر» (١١ : ٣٨)، ثم لقول المخلص نفسه: «الآن نفسى قد اضطربت» (يوحنا ١٢ : ٢٧) وهو النص الذى فسره القديس كيرلس فى الفصل الرابع والعشرين من كتابه Thesaurus ونحن لا يمكننا إلا أن نأسف على فقد تفسير هذه النصوص. فلم يبقى لنا منها غير شذرات...

ويبدو أن الشذرات التى تتناول تفسير (يوحنا ١١ : ٣٣، ٣٨) والتى تشتمل عليها طبعة Pusey (٢)، جدّ صحيحة وموثوق بها. ونحن نجد فيها فى الواقع تفسيرا هو بعينه التفسير الذى قدمه القديس كيرلس فى الجزء التاسع عن (يوحنا ١٣ : ٢١)...

---

(١) الجزءان السابع والثامن هما تفسير ليوحنا ١٠ : ١٨ – ١٢ : ٤٨.

(٢) ثلاث شذرات عن تفسير (يوحنا ١١ : ٣٣)، الأوليان منهما تتصل بمشكلة الاضطراب. وشذرتان عن تفسير (يوحنا ١١ : ٣٨) تختص أولهما فقط بنفس المشكلة.

أما الشذرة الأولى، عن (عدد ٣٣) فتبدأ كما يلى:

«من حيث أن المسيح، لأنه لم يكن فى طبيعته الله فقط، ولكنه كان إنساناً أيضاً، فقد احتمل الناسوتية مثل سائر الناس. وإذ أن الحزن بدأ أن يعمل فيه بكيفية ما، كما أن الجسد المقدس يميل فى الحاضر إلى الدموع، فلم يسمح له أن يعانى ذلك دون مانع، حسب العادة المتبعة عندنا. «أنه انزعج فى الروح» أعنى أنه ضبط بكيفية ما جسده بقوة الروح القدس، وإذ لم يستطع هذا (الجسد) أن يحتمل حركة اللاهوت المتحد به، لذلك فقد اضطرب واتخذ الميل إلى الاضطراب وهذا، على ما أعتقد، معنى الكلمات «أنه اضطرب» (١).

فدموع الجمع أثارت يسوع. وهذا الحزن الذى عزاه القديس كيرلس إلى ميل الجسد إلى الدموع، هو الذى يدعو إلى الانزعاج بالروح، فالروح حبس هذا الانفعال، وتدخّله ولّدَ اضطرابا جديدا فى الجسد. فتدخل اللاهوت وهزات الجسد تفسر الانفعال الذى وصفه البشير. وهذا التفسير يتمشى مع حجة القديس كيرلس، وكذلك القديس أثناسيوس إذا حاول أن يفسر هذا النص ما كان يمكن أن يصنع غير هذا.

وتمضى الشذرة فى متابعة بعض الأفكار التى قد التقينا بها فى كتاب Thesaurus. أن الكلمة لا يمكن أن يضطرب فى طبيعته الإلهية لكنه يُضبِّط الجسد بالروح حتى يعلّمه أن «يشعر بما يتجاوز طبيعته الخاصة» (٢).

ويقـول القديس كيرلس:

«إن الكلمة قد تجسد» ... لكى يقوّى ـ بفضل قوة روحه الخاصة ـ ضعفات الجسد، ويخلص الطبيعة (البشرية) من كل فكر ترابى، ويحولها إلى ما يرضى الله. وإذن هو ضعف فى الطبيعة البشرية أن تكون خاضعة للدموع، وهذا قد أبطل أيضاً مع سائر (الضعفات) فى المسيح أولا، حتى ننتفع نحن أيضاً به» (٣).

(1) PUSEY, 11, 279, 14- 280, 3.

(2) PUSEY, 11, 280, 3- 7 CF. Thes., P. G. 75, 397A.

(3) PUSEY, 11, 280, 8- 14.

وفى شذره ثانية نقرأ تفسير آخر مقبولا للنص :

«أو بالحرى، يجب أن تفهم (العبارة) هكذا : أنه انزعج بالروح واضطرب، حتى ـ وقد تحرك بالشفقة بسبب بكاء الجمع ـ أمر بكيفية ما روحه الخاصة بأن تنتصر على الموت نفسه قبل الوقت، وأن يقيم لعازر» (١).

وتبعا لهذا التفسير الثانى، فإن الإنفعال الذى سجله القديس يوحنا ليس له معنى مادى جسدى. أنه حركة باطنية بحتة، من قبل إرادة المسيح الإلهية وقد اتخذت، أمام الحداد العام، قرارا بإقامة لعازر، وأعلمت روحه (٢) بهذا الأمر. فالألفاظ التى استخدمها البشير القديس يوحنا ليس لها إلا طابع تشبيهى بما يحدث فى عالم الإنسان (٣).

أما احدى الشذرتين الباقيتين لنا عن تفسير عدد ٣٨ فقد تناولت هذه الفكرة وربطتها هذه المرة بشرح مادى جسدى، وذهبت إلى تدخل اللاهوت وقرر أن يسلب الموت :

«هناك (أو بالحرى : على ذلك) نفهم الانزعاج على أنه الإرادة والحركة (التى) فى قوته، و(نفهم) أن قد قمع كآبته بصرامة، والدموع المستعدة لأن تنذرف بسبب كآبته. لأنه من حيث هو الله، حكم الناسوت نحو غرض تربوى، وأمره بأن يكون شهما فى الحزن، أو بالحرى قد قرر، بحركة إلهية، أنه يجب منذ الآن أن يصرع قوة الموت. وهذا يظهره عن طريق جسده، فحركة الجسد تعنى الحركة المستترة فى الداخل. وهذا ما يبينه التعبير» أنه انزعج «أعنى : يميل الجسد قصد الحركة المستترة» (٤)

وفى هذا النص نلاحظ أن الإرادة التى يتحدث عنها هى الإرادة الإلهية للكلمة، كما أن الحركة التى أمرت بها هى أيضا حركة إلهية..

---

(1) PUSEY, 11, 280, 15 - 19.

(٢) أن القدرة على القيامة، وخصوصا قيامة المسيح ذاته ينسبها القديس كيرلس دائما إلى روح المسيح..

(٣) وكذلك تفسير ثيودوروس أسقف المصيصة من نفس النوع، أن إنزعاج المسيح هو غضب الكلمة الإلهى ضد اليهود.

THEOD. MOPS., In Jo., X1, 33 trad.

J. M. VOSTE P. 162, 1. 3. 6.

(4) PUSEY, 11, 283, 7 - 16.

ومهما يكن من أمر فهذا الشرح، يمكن أن يسمى شرحا باطنيا لا سيكولوجيا، وهو لا يفترق عن منهج البرهنة الذى اتبعه القديس كيرلس فى كتابه Thesaurus ·

أما عن البكاء وتعليل دوافعه فى السيد المسيح فللقديس كيرلس فيه نص طويل نوعا ما، جاء فى بعض الشذرات المحفوظة لنا فى تفسير عدد ٣٥ لإنجيل يوحنا ١١ «بكى يسوع» وفى هذا النص يجد القديس كيرلس أنه من الضرورى أن يقرر أن ليس فى الأمر شئ عجيب. لأن الدموع «ألم خاص بالجسد، ولا يليق باللاهوت».

أما فى تعليل الباعث على هذه الدموع فيقول القديس كيرلس :

«أن الرب بكى لكى يمسح دموعنا عنا، كما أنه مات لكى يعتقنا من الموت. وبكى لكى لا يظهر غير بشرى، وقد منع دموعه فى الحال ليعلمنا أن لا نبكى أمواتنا أكثر مما يجب..».

(وهى نفس الملاحظة غير المتوقعة التى أبداها ثيودوروس أسقف المصيصة THEODORE MOPS., op.cit., p. 162, 1. 13 - 14) .

«وأخيرا، أنه فى بكائه لعازر قد بكى الطبيعة البشرية الخاضعة لسلطان الموت» (١) .

تفسير يوحنا ١٢ : ٢٧

بقى تفسير يوحنا ١٢ : ٢٧ «الآن نفسى قد اضطربت» ونجد فى نص طويل فى الجزء الثامن من «تفسير إنجيل القديس يوحنا» وقد طبعه تبعا للتسلسل، منى Migne (٢)، كما طبعه أيضا مع بعض تغييرات قليلة الأهمية، بوسية Pusey (٣) حيث نجد على التتابع تطورا فى تفسير معنى الاضطراب الذى عاناه السيد المسيح (يوحنا ١٢ : ٢٧ أ)، ثم شرحا لصلاته إلى الآب (يوحنا ١٢ : ٢٧ ب) «أيها الآب، نجنى من هذه الساعة»، ثم شرحا لتمجيده بمعرفة الآب (يوحنا ١٢ : ٢٨) : أيها الآب مجد اسمك أو ابنك (٤) يضاف إليه شذرة ختامية (٥) عن آلام المسيح بصفة عامة.

---

(1) In Jo., X1, 35. PUSEY, 11, p. 281, 16 - 283, 3).

(2) P. G., 74, 88 c - 92 D.

(3) 11, 315, 18 - 320, 23.

(٤) مجد اسمك، هى القراءة المألوفة فى أغلب النسخ.

(5) PUSEY 11, 320, 13 - 23 Thes.,
XXIV, P. G., 75, 397C.

وهذه هى النصوص مقسمة إلى فقرات تسهيلاً لتحليلها وفهمها :

(أ) «الآن نفسى قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب نجنى من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢ : ٢٧).

«ثم تأمل مليا فى هذا. فمن جهة، ميل الطبيعة البشرية إلى الاضطراب وقابليتها للخوف، ومن جهة أخرى عدم قابلية العزة الإلهية التى لا يعبر عنها للألم والجرح على الإطلاق، واتجاهها الذى لا مثيل له إلى أعمال الشجاعة التى تليق بها. إذ أن فكر الموت، يحاول أن يزعج يسوع بأن ينساب إليه شيئا فشيئا، لكن قدرة اللاهوت تسيطر فى الحال على الألم وهو يتحرك، وتحول حالا ما كان مغلوبا بالخوف إلى القوة التى لا تضارع» (١).

(ب) «ونحن نتصور فى الواقع، أن خصائص الناسوت *ἀνθρώπινα* كانت تعمل فى المسيح الفادى ذاته، بضررة مزدوجة، فإنه كان يلزم أنه بهذه الخصائص، يظهر أنه إنسان، مولودا من المرأة، لا فى الظاهر، ولا بالوهم، وإنما بالأحرى حقا وبالطبيعة، حاملا كل خصائص الناسوت *ἀνθρώπινα* فيما عدا الخطيئة وحدها. فالخشية والخوف هما فينا آلام طبيعية، ولا يسلكان بين الخطايا. وزيادة على ذلك، فالخصائص الناسوتية *ἀνθρώπινα* تعمل أيضاً فى المسيح عملا نافعا، لا لكى تتمكن وتنمو فى حركاتها كما هو الحال فينا، ولكن حتى إذا أثيرت يوما ما وتحطمت بقوة الكلمة، فإن الطبيعة تجد نفسها وقد تحولت فى المسيح أولا إلى حالة أفضل، وإلهية. فإنه بهذا وليس بطريق آخر أمكن للشفاء أيضاً أن يصل إلينا» (٢).

(جـ) «إن فى المسيح، وهو الباكورة، قد رفعت فى الواقع طبيعة الإنسان إلى حدة الحياة، وفيه قد حصلنا على الخيرات فائقة الطبيعة. لهذا السبب سمى فى الكتب المقدسة بآدم الثانى. وكما أنه بصفته إنسانا جاع وتعب، هكذا اختبر الاضطراب الناجم من الألم باعتباره شيئا بشريا. إنه لم يضطرب مثلنا، ولكن فقط بقدر ما هو ضرورى فليصل إلى الإدراك *αἴσθησις* (٣) بالشئ. وبعد ذلك يرقى حالا إلى القوة *εὐτολμία* التى تلائمه» (٤).

---

(1) PUSEY, 11, 315, 18-316, 6 (cf. P. G., 74, 88C, 14 - D3).

(2) PUSEY, 11, 316, 619 (88D 3 - 89 A 5).

(٣) تبعا لأفلوطين الـ *αἴσθησις* غير قابل للألم *ἀπαθής* لأنه من طبيعة عاقلة. والكلمة يمكن أن يكون له *αἴσθησις* لاضطراب من دون أن يتألم به. لذلك فترجمتها «بالإدراك» أنسب من ترجمتها «بالإحساس».

(4) PUSEY, 11, 316, 19-317, 7 (89 A 5 - 14).

(د) «من هذا يتضح أنه كان له أيضا نفس عاقلة *ψυχὴ λογικὴ* فإنه كما أن العطش مثلا أو اختبار أى ضعف من الضعفات التى من نفس النوع هو ألم خاص بالجسد، هكذا الاضطراب بخاطر *μνήμη* (الوقوع فى) الخطر قد يكون ألما للنفس العاقلة، به وحده ينساب إلينا الخاطر عن طريق التصورات» (١).

«والواقع، أن المسيح، بدون أن يكون على الصليب ذاته، قد عانى الاضطراب مقدما، لأنه سبق فرأى المستقبل قبل حدوثه. ولأنه أقتيد بالفكر إلى أن يتأمل *λογισμός* ما هو عتيد أن يحدث، فنحن نعلم أن ألم الخوف ليس من اللاهوت الذى لا يقبل الألم، كما أنه بكل تأكيد ليس من الجسد. إن هذا الألم يختص فى الواقع بتأملات *λογισμοί* النفس،. لا بالجسد. فإذا كان الكائن المزود بنفس غير عاقلة يضطرب ويهتز، فإنه مع ذلك لا يساق إلى الخوف، عن طريق الفكر أو لأنه يسبق فيرى بالفكر *λογισμός* الألم فى المستقبل قبل وقوعه، ولكن عندما يصبح فريسة للشرور ذاتها، فحينئذ بالكاد يدرك الخطر المحيط به. أما الرب فقط اضطرب لا بما رأى

---

(1) ....*ἡ καὶ μόνη ἡμῖν διὰ τῶν ἐνθυμήσεων ἐπεισκρίνεται μνήμη*

إن كلمة (*ἐπεισκρίνεσθαι*) لفظة نادرة لكننا نجد عنها الإشارات الآتية فى كتاب :

Thesaurus Linguae graecae.

ἐπεισκρίνω : Immisceo, Indo. Greg. Nyss, Vol. l, P. 126 c.

ἐπεισκρίνομαι : Ingredior, Insinue me. creg., De homine (vol. 1, p, 119 E).

Bud. interprete Carnem subeuntis ante se formatam (Rectius carnem ante formatam pra estantiorom anima postea indita. conf. ib. 123E, 804 C. pro auo postea **ἐπεισέρχεσθαι**

But Hesychius (Le Lexicographe).

ἐπεισκρινόμενον interp.

ἐπεισερχόμενον Hippocr. 380, 49 :

ἡ ἔξωθεν συνεχὴς ἐπεισκριθεῖσα

τροφή Liddel and Scott citent HIPPOCR. Alim., 5 et SEXTUS EMP IRICUS Quest. Pyrrhon., 3, 82.

وهذا تعبير محبوب عند ديديموس الضرير وقد استعمله أحيانا كيرلس.

ولكن بسبب ما هو فى فكره، وما يتوقعه أيضا، هذا والمسيح لا يقول بعد : أن جسدى قد اضطرب، ولكن : نفسى، وبهذا دحض مقدما ابتداعات الهراطقة، فإذا اعترضت بأن الله قال أيضاً فى العهد القديم لليهود : «أن نفسى كرهت أصوامكم واعتكافكم وأعيادكم» وأعدادا من أشياء أخرى مماثلة، فسنقول أنه يستخدم بالحرى طرائقنا (فى الكلام) بنوع من التلطف بنا، تماما كما ينسب إلى نفسه ضدا للواقع :

καταχρηστικῶς وجها وعينين وأعضاء أخرى من الجسد، وأما بعد التجسد، فإذا أعطينا لكلماته نفس المعنى، فكأنه هو لم يكن غير صورة أو مظهر أو ظل، لا إنسانا بالحقيقة كما زعم مانى الكافر. فالله الكلمة قد اتحد إذن بطبيعة الإنسان كلها، حتى يُخلِّص كلّه. فإن ما لم يتخذه (الله الكلمة) لم يُخلَّص بعد (١).

(هـ) «وإذا قال بكل تأكيد : إنها اضطربت، فهو لم يصمت لكنه حول الألم إلى قوة εὐτολμία وقال تقريبا : ليس الموت شيئا، لكننى سمحت للجسد أن يخاف حتى أحوله إلى قوة εὐτολμία فإنى قد أتيت لأبعث الحياة فى سكان الأرض لهذا أيضا كنت حساسا للألم» (٢).

ومن الملاحظات التى تستحق التسجيل هنا :

(أولا) أن القديس كيرلس لا يجد مانعا من أن ينسب إلى السيد المسيح الضعفات النفسية البشرية كالاضطراب والخوف والحزن كما ينسب إليه الضعفات البشرية الأخرى كالجوع والعطش والتعب والنوم، والموت وما إليها غير أنه يسمى هذه جميعا بالضعفات الطبيعية وليس فيها خطيئة أو إثم..

(ثانيا) يستخدم البابا كيرلس مصطلحات وتعبيرات نادرة منها :

الفعل ἐπεισκρίνεσθαι وهو فعل استخدامه نادر جدا فى الأدب اليونانى.. وكذلك μνήμη بمعنى الفكر ممتدا إلى الماضى كما إلى المستقبل.

ثم λογισμός بمعنى التفكير ἐνθύμησις .

وهى كلها مصطلحات ليس من السهل ترجمتها ترجمة دقيقة، والتفريق بينها تفرقة واضحة متميزة.

---

(1) PUSEY, 11, 317, 7- 318, 10 (P. G., 74, 89A 14 - D2).

(2) PUSEY, 11, 318, 11 - 16 (89 D2 - 8).

(ثالثا) يقرر القديس كيرلس حقيقة سوتيريولوجية هى : «أن الله الكلمة قد اتحد بطبيعة الإنسان كلها، حتى يخلّص الإنسان كله، فإن ما لم يتخذه (الله الكلمة)، لم يخلص بعد».

وفى تفسيره لقول الإنجيل «والكلمة صار جسدا» (١) Verbum caro factum est يبين أن الجسد، وقد فقد الخلود نتيجة الخطيئة، كان لابد أن يشفى باتحاده بالكلمة المحيى (٢)، لكنه لم يطبق هذه الفكرة على النفس.

---

(١) يوحنا ١ : ١٤

(2) In Jo., P. G., 73, 160 BC : PUSEY, 1, 139.

نستقبل فى السادس عشر من هاتور الموافق ٢٥ من نوفمبر صوم الميلاد المجيد المعروف بالصوم الصغير ومدته ٤٣ يوما، لأننا نتهيأ فى هذا الوقت ذهنيا وعاطفياً وروحياً لإستقبال عيد الميلاد المجيد الذى فيه نذكر دواما مجئ ربنا يسوع المسيح إلينا ليرفعنا إليه، ويردنا إلى رتبتنا التى سقطنا منها بخطيئة أبينا آدم الأول.

والكنيسة المقدسة تجد فى صوم موسى النبى أربعين يوما وأربعين ليلة وهو يستقبل كلمة الله مكتوبة على لوحين من حجر، رمزا وإشارة لاستقبال كلمة الله المتجسد الموجود والكائن والقائم منذ الأزل مع الآب والروح القدس، فنصوم أربعين يوماً نتهيأ ذهنياً وعاطفياً وروحياً لاستقبال هذا العيد العظيم، عيد الميلاد المجيد الذى يمثل محبة الله وتنازله لافتقاد بنى إسرائيل.

معجزة نقل جبل المقطم وعلاقتها بزيادة صوم الميلاد المجيد ثلاثة أيام:

أما ثلاثة الأيام المضافة على الأربعين يوما فقد أضيفت فى القرن العاشر للميلاد تخليدا لذكرى معجزة نقل جبل المقطم التى تمت على يدى البابا ابرآم بابا الأسكندرية فى عهد الخليفة المعز الفاطمى الذى ألزمه بنقل جبل المقطم إثباتا وتحقيقا لكلمات السيد المسيح فى الإنجيل:

«الحق أقول لكم إنكم لو كان لديكم من الإيمان مثل حبة الخردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل» (متى ١٧: ٢٠)، (٢١: ٢٢)، (مرقس ١١: ٢٣).

قال الخليفة المعز الفاطمى بإيعاز من يعقوب بن كلس اليهودى الذى كان قد أسلم. إن كان دينكم صحيحاً فأثبتوا لنا صحة هذه الآية، وإلا فلا معنى لوجودكم فى البلاد. واعتكف بابا الأسكندرية فى كنيسة المعلقة بمصر القديمة ثلاثة أيام مصليا صائما باكيا يطلب معونة الله. وفى فجر اليوم الثالث أشرفت عليه العذراء الطاهرة من أيقونتها وقالت:

«أبشر أيها البابا القديس فإن صلواتك قد قبلت».

وذهب البابا ابرآم وذهب الخليفة إلى حيث الجبل، جبل المقطم، ورفع البابا الصلوات ونادى بمطانيات، فكان هو والاكليروس والشعب ومعهم سمعان الخراز، وأخذ الكل يتضرع، والكل يبتهل. فانتقل جبل المقطم من تل الكبش إلى الفسطاط، بزلزلة عظيمة انخلع لها قلب الخليفة المعز وسقط هو وجنوده مغشيا عليهم.

فتخليدا لهذه الحادثة الهامة التى تحقق فيها عمليا وعد المسيح إلهنا فى الإنجيل حيث صار التحدى لكلمات المسيح... أقول، تخليدا لهذه الحادثة، وهذه الواقعة التاريخية الإيمانية، أضافت

الكنيسة منذ القرن العاشر للميلاد - وهو القرن الذى تمت فيه هذه الواقعة فى أيام البابا ابرآم وهو الثانى والستون من سلسلة باباوات الأسكندرية وفى أيام الخليفة المعز الفاطمى - ثلاثة أيام إلى الأربعين يوما التى كان يصومها الأقباط وغير الأقباط منذ أقدم أيام المسيحية، فأصبح بذلك صوم الميلاد ثلاثة وأربعين يوما.

تنازل الإله فى تجسده :

نحن الآن فى أواخر شهر هاتور وبعد أيام يبدأ شهر كيهك الشهر المبارك الذى فى التاسع والعشرين منه تحتفل الكنيسة بعيد الميلاد وقد خصصت الكنيسة هذا الشهر للتسبيح والشكر، والتمجيد لله، على اهتمامه بنا نحن البشر، إذ قد تنازل فضلا، من غير استحقاقنا، وقبل أن تكون له صورة الإنسان. اتحد بطبيعتنا، ولبس صورتنا، وظهر بيننا كأنه واحد منا وهو ملك السموات والأرض. إنه لم يخل السماء من وجوده حينما نزل، فوجوده يملأ السموات والأرض. وإنما أخلى نفسه من صورة المجد، وقبل صورة الهوان، أخلى نفسه من مجده كرب وسيد، وقبل صورة العبد، وهو المسجود له مع الملائكة ورؤساء الملائكة والمعبود من السمائيين والأرضيين، وله تجثو كل ركبة فى السماوات وعلى الأرض وما تحت الأرض.

لقد قبل الإله تفضلا، وحنانا، وتكرما، وإشفاقا علينا، وإهتماما بنا، أن ينزل إلينا ليرى ذلنا ويرى مرارة ماوصل إليه جنس بنى الإنسان، الذين خلقهم الله على صورته ومثاله، ولكن الخطيئة أفسدت هذه الصورة وأساءت إليها فلم يشأ الله - كما يقول القديس أثناسيوس الرسولى - أن تبقى صورته المجيدة ملطخة بالإثم وملوثة وفاسدة، فتحرك حنانه، وتحرك قلبه، وتحرك تدبيره، ليخلص الإنسان ويرد إعتباره، ويرد له كرامته، ويرد له الصورة الأصلية التى خلقه الله عليها.

لذلك تجسد الله الكلمة، وفى تجسده كل الحب، وما من حب أعظم من هذا أن يقبل الإله صورة الهوان، صورة التراب، وهو رب المجد، الساكن فى نور لايدنى منه، والنار الآكلة.

قَبِلَ على نفسه أن يأخذ صورة التراب، وشاء أن يتحد بها. فلا يكون اتحاده بصورة الإنسان وضعا مؤقتا، كأى ظهور لكائن روحانى يتشكل فى وقت ما بشكل ما ويتركه بعد حين. لم يشأ المسيح ذلك بل رأى أن يتحد بهذا الشكل الترابى، وأن يبقى هذا الاتحاد دائما اتحادا كاملا، اتحادا جوهريا لا عرضيا، اتحادا إقنوميا ثابتا لا يتغير ولا يتبدل.

الشرف الذى اكتسبته البشرية بتجسد المسيح:

فما أعظم الشرف الذى أضفاه الله على جنسنا بتجسده المنيف لأننا نحن صرنا متحدين به فى المسيح، وصرنا نحن فى المسيح لأنه أخذ طبيعتنا.

بل وصارت طبيعتنا نحن فيه، ومعه، ثم حملها معه إلى السماء، وصعد بها إلى الأعالى، وأدخلها إلى المجد.

فما أرفع الإنسان بعمل المسيح، وما أمجده، وما أشرفه لأن الإله أخذ طبيعته.

عظيمة هى ديانتنا المسيحية بهذا التعليم المجيد:

الله قبل صورة الإنسان، فكان قبوله هذه الصورة أعظم حب يمكن أن يطمح إليه الإنسان، ويطمع فيه أو يمكن أن يحلم به. الله الكلمة المنقذ والمخلص، والفادى صاحب المجد والكرامة، قبل صورة الإنسان. نزل الإله إلى الإنسان تفضلاً، وتكرما، والإنسان لم يكن مستحقا. وهنا عظمة الحب. ما فضلك أنت إن أحسنت إلى من أحسن إليك؟ «إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم» (متى ٥: ٤٦، ٤٧) إنما الحب الحقيقى يظهر إذا كان تنازلا من الأعلى إلى الأدنى، وإذا لم يكن له مقابل بل يكون من قبيل الفضل والإحسان. هكذا صنع المسيح بنا.

هل كانت البشرية مستحقة لظهوره يوم أن جاء المسيح إلينا؟!!

كلا.. إنما كانت البشرية تستصرخ هذا المجئ وتستحقه لا بمعنى إنها جديرة به، لكن بمعنى أنها فى حاجة إليه.

البشرية انتظرت المخلص والمنقذ وعبرت عن ذلك بواسطة فلاسفتها وأنبيائها:

قال سقراط أحد كبار الفلاسفة فى العصور القديمة : «لاسبيل إلى معرفة الحقيقة إلا إذا جاء رب الحقيقة نفسه وأعلن ذاته للبشر».

قال هذا بعد أن تعب سقراط من المناقشات والجدل ومن المساجلات الكلامية عن الحق والحقيقة، بين المفكرين البارزين من بنى الإنسان. فلما تناقش الناس، وتعارضوا وانقسموا، واختلفوا، قال سقراط «لا سبيل إلى حل هذا الخلاف بين البشر إلا إذا تفضل رب الحقيقة وأعلنها بذاته للبشر».

فسقراط الوثنى كان بمثابة نبى فى العالم الوثنى، أنبأ بحاجة البشرية إلى هذا المخلص، وإلى هذا الحق الذى يكشف ذاته للبشر.

وإلى جانب الأمم الوثنية كانت هناك أمة بنى إسرائيل التى تخيرها الله فى وقت ما لكى تكون عينة من عينات البشر يجرى فيها وبها تدبير الخلاص. فقد عبر أنبياء العهد القديم عن حاجة بنى الإنسان إلى المخلص وإلى الفادى، كلهم تحدثوا عن هذا المجئ، وتوقعوه، وحيوه وأنبأوا به فمنهم من قال: «أراه ولكن ليس حاضرا، أبصره ولكن ليس قريبا، يبرز كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل» (العدد ٢٤ : ١٧) ومنهم من قال: «لخلاصك انتظرت يارب» (التكوين ٤٩ : ١٨) ومنهم من قال: «ارجعوا إلى الحصن ياأسرى الرجاء» (زكريا ٩ : ١١، ١٢) وقصد بذلك الجحيم الذى انطلقت إليه أرواح القديسين فى العهد القديم وظلوا هناك محبوسين، لأنه لم يكن مباحا بعد للإنسان أن يقترب من الفردوس المغلق فى وجه الإنسان.

إنّ حنه ابنه فنوئيل. وكانت أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تبرح الهيكل حينما رأت المسيح طفلا على يدى سمعان الشيخ، وسمعان يقول: «الآن اطلق ياسيدى عبدك بسلام، وفقا لكلمتك فإن عينى قد أبصرتا خلاصك، الذى أعددته أمام كل الشعوب» - جاءت وشكرت الرب وحدثت عنه كل من كان ينتظر فداء فى أورشليم (لوقا ٢ : ٢٨ - ٣٨) وتشكره لأنه جاء الوقت الذى فيه تفقّد الله شعبه وأشرق على الجالسين فى الظلمة نور، وظهر، وفى ظهوره فتح باب الرجاء أمام النفوس اليائسة. فبنو إسرائيل وأنبياؤهم جميعا، عبروا عن حاجة البشرية إلى هذا المخلص، وإلى هذا الفادى الذى بمجيئه يكون الخلاص والفداء للإنسان ورجوعه إلى الفردوس الذى كان مغلقا فى وجهه.

فاليهود إذن وغير اليهود من الأمم ومن الوثنيين، هؤلاء وأولئك جميعا عبروا عن حاجة البشر إلى الخلاص. ومن أجل هذا جاء المسيح فى الوقت الذى اشتدت فيه الحاجة إليه، وتحقق جميع الناس ذلك.

لذلك قال الكتاب: «فلما تم الزمان، أرسل الله ابنه مولودا من إمرأة، مولودا تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى» (غلاطية ٤ : ٤).

فمجئ المسيح برهان حبه لنا، ولطفه بنا، وعنايته واهتمامه بجنسنا. «تفقدنا المشرق من العلاء» (لوقا ١ : ٧٨) جاءنا وعاش معنا، وعاش ظروفنا وأحوالنا، ولمس متاعبنا، لا لأنه كان جاهلا بطبيعتنا، ولا لأنه كان غير عارف بظروفنا وآلامنا، إنّما لكى يشعرنا نحن بأنه أبونا وراعينا، وأنه مهتم بنا، لذلك جاء إلينا.

بمجئ المسيح تغيرت صورة الإله فى نظر الإنسان :

لقد غير المسيح له المجد بمجيئه الصورة التى كان يعرفها الناس عن الإله. كان الإله فى

نظر اليونان والرومان إلها متعاليا مترفعا يسكن وراء الجبال ولا يحفل بالبشر، ولا يهتم بهم. ما علاقته بهم؟ هو فى سموه وعلوه أعلى وأعظم وأشرف من أن يحفل بالإنسان...

أما فى المسيح فقد تغيرت الصورة، فرأينا ـ فى المسيح ـ الله الذى يحفل بالبشر. الله الذى يرعى الناس، ويهتم بهم..

الإله الذى علاقته بالإنسان علاقة الأب بابنه..

الإله الذى ينزل إلينا ليعيش معنا كأنه واحد منا.

المسيحية أثرت فى غير المسيحيين أيضاً :

فى أحد المؤتمرات العالمية، وكان مؤتمرا للأديان الحية، أذكر كلمة قالها أمامنا واحد من غير المسيحيين، قال: «من المسيحية تعلمنا شيئا جديداً، رأينا الله الذى يشارك الإنسان فى الألم. هذه الصور غير موجودة فى أى دين آخر لكنها موجودة فى الديانة المسيحية وحدها، وقد إنفردت ديانة المسيح بهذا الأمر، أنها تقدم لنا الله متألما مع البشر».

لقد تأثرت وأنا أسمع من رجل غير مسيحى هذا التعليق، إنه أدرك أن المسيحية ديانة تقدم لنا الله، لا إلها متعاليا مترفعا بعيدا عن الإنسان، لا يحفل به، ولا يهتم بأمره، إنما تقدمه على أنه إله محب، إله أب. وأب، بكل معنى الأبوة! لم يرضَ أن يحيا فى غنى عن الإنسان بل جعل مسرته فى بنى الإنسان «بالناس المسرة» (لوقا ٢ : ١٤).

شكرا يارب.. شكرا لك يارب إذ جعلت يا إلهى مسرتك فى الناس. هذا معناه أنك تحب الناس.. وتسعد بهم..

وبعد، كيف يمكن للإنسان أن يتنكر لهذا الحب؟!!

كيف عبر الإنسان عن حبه لله مخلصه وفاديه:

أيمكن للإنسان إلا أن يقابل الحب بحب «نحن نحبه لأنه قد أحبنا هو أولا» (١. يوحنا ٤ : ١٩).

نحبه لأنه هو أحبنا أولا.. هو صاحب الفضل الأول، ونحن نرد له حبا بحب. هو صاحب الجميل ونحن نرد له بعض الجميل. من أجل هذا عبر الروحانيون من بنى البشر، عن تأثرهم بهذا الحب، وعن تعلقهم به.

عبروا عنه بصلواتهم الحارة التى رفعوها عبر كل العصور. والتى تعبر وتنطق بتأثر الإنسان بفضل الله، وفضل محبته.

اجمعوا صلوات القديسين العميقة فى هذه المئات من السنين، واقرأوها وتأملوها، تجدوا كيف عبر الإنسان عن حبه لله وأفصح له بأنه أسير له. وأنه مديون لمحبته له، غارق فى هذا الدين، ولا يقدر أن يفى به.

ومن القديسين من رأى أن الصلوات لا تكفى، وأن الأصوام لا تكفى، وأن القرابين والعطايا وكل أنواع الضحايا لا تكفى، تعبيرا عن هذا الحب. لذلك تحركوا عمليا لكى ينقطعوا لخدمة هذا الرب، تعبيرا عن الحب.. «فاختارت مريم النصيب الصالح» لتجلس عند قدميه، لا تعمل شيئا إلا أن تصغى، وأن تتأمل.. وأن تحيا فى عاطفة الحب.. وتشبع منها.. وتتغذى بها. وكل الذين على مسيرة مريم ساروا، هؤلاء الذين وجدوا بقاءهم فى الدنيا ومشاغلها يعوقهم عن هذه المناجاة الروحية الباطنية، فالبعض منهم خرج من الدنيا وتعجل الآخرة وأراد أن يحيا فى العالم الآخر وهو فى العالم الحاضر.

فمنهم من أراد أن يهرب بذهنه وبعقله، من الدنيا ومشاغلها، ويفر من ضجيجها وعجيجها، إلى الجبال وإلى الصحارى، وإلى شقوق الأرض، والمغاور والكهوف؟!! فمن كلّفهم بذلك؟!! ومن أمرهم أن يمضوا إلى الجبال؟!! وأن يعيشوا فى شقوق الأرض ومغاورها وكهوفها، يعانون قسوة الحياة وشظف العيش، ويمارسون النسك والحياة القاسية الجافة؟.

من كلّفهم بذلك؟!! من ذا أمرهم به؟!! إنه الحب. هو الذى استثارهم وجذبهم وشدهم، وقد شعروا أن الإخلاص فى الحب واجب مقابل يفرضه الوفاء، ذهبوا ليعبروا عن محبتهم من دون أن يطلب أحد منهم ذلك. خرجوا إلى الجبال، إلى شقوق الأرض، من أجل عظم محبتهم فى الملك المسيح، وأعطوا حياتهم «للصلاة بلا إنقطاع» (تسالونيكى الأولى ٥ : ١٧) حتى النوم! وهو أمر طبيعى، وكل إنسان فى حاجة إليه، شعروا بأنهم يجب أن يقللوا منه ما أمكن لكى يقضوا مع المسيح أطول مدة ممكنة! حتى النوم وهو طبيعى! رأوا فيه عائقا عن هذه المناجاة التى يعبرون بها عن حبهم مقابل الحب الذى أحبهم المسيح به.

وكل تاريخ البشرية.. وكل تاريخ المسيحيين، فى هذين الألفين من السنين.. فى العشرين قرنا التى مضت.. عبر فيها أتقياء المسيحيين، بمختلف الوسائل عن وفائهم لهذا الجميل.

فمنهم من صلى، ومنهم من كتب كتبا، ومنهم من وعظ وعلم، ومنهم من عبر عن حبه بفنون التصوير، والنحت، والموسيقى، وكلها وسائط تعبير عن التأثر، وعن الحب الذى فى قلوبهم نحو المسيح، الذى أحبهم أولا.

وبقدر ما يكون الفنان متأثرا بعمق، بقدر ذلك ينجح فى التعبير عن شعوره، ويستطيع أن ينقل نقلا صادقا وعميقا ما يشعر به. ولذلك يرتفع الفن فى كل بلد من بلاد المسيحية، كلما كان فى هذا البلد شعور أكثر بمحبة المسيح، وتأثر أكثر بمحبة المسيح التى غلبت والتى سيطرت على قلب الإنسان، وملكت عليه، وأسرته، وجعلته أسيراً لها.

كل هذه مظاهر حبنا للمسيح. تعبيرا عن وفائنا للمسيح الذى أحبنا، والذى جاء من السماء من أجلنا.

ما الذى كسبناه أيضا من تجسد المسيح؟:

ولكن شيئا آخر قد كسبناه فى طبيعتنا. وليس التجسد معناه فقط أن الله إهتم بالإنسان، وأنه أحبه، وأنه أتى لخلاصه، ولكن الإنسان كسب من مجئ المسيح شيئا دخل إلى صميم طبيعته. إن الله أخذ طبيعتنا، ونحن أيضا أخذنا من طبيعته. «وهو أخذ الذى لنا وأعطانا الذى له».

ما أعظم كسبنا! ما أعظم ربحنا! إنه أخذ منا طبيعتنا، فلم نخسر ما أعطيناه إياه، بل على العكس إزداد الذى أعطيناه له شرفا وكرامة ورفعة وجلالا، فقد رفع المسيح فى المجد جسدنا وأصعده إلى السماء. فكان صعوده بجسد بشريتنا باكورة. فتح أمامنا طريق الخلاص، فتح أمامنا الفردوس المغلق فى وجوهنا.

ثم إننا أخذنا من طبيعته هو، أخذنا منه.. أخذنا الذى له.. أخذنا ما رفعنا فوق شهواتنا.. وفوق رغباتنا.. وفوق حياتنا الدنية. بعد أن كنا نشتاق ونتحرق نحو الترابيات والجسديات والحسيات، صار البعض منا على الأقل، ممن أخذوا طبيعة المسيح فى المعمودية، وصانوا الحلة الأولى التى أخذوها فى المعمودية، ورعوها بالمجاهدات الروحية، بالصلوات والأصوام والتأملات والقراءات وفحص الضمير وما إليها من أعمال التقوى ووسائط الخلاص.. قد تساموا فوق الترابيات والجسديات والحسيات.. وكسبوا لطبيعتهم ولإنسانيتهم قوة بل قوى.. أخذوا موهبة بل مواهب، رفعتهم فوق مستوى طبيعتهم البشرية، ردتهم لا إلى طبيعة آدم الأول فقط، ولكن أعطتهم إمتيازات أعظم، فقد قال المسيح «أن الأصغر فى ملكوت السماوات أعظم من أعظم مواليد النساء». (متى ١١ : ١١)، (لوقا ٧ : ٢٨) لأن أصغر إنسان فى الكنيسة قد نال بإستحقاقات المسيح مواهب وإمتيازات وعطايا لطبيعته، أعظم مما ناله يوحنا المعمدان أعظم أنبياء العهد القديم.

هذا هو المعنى الذى كان فى ذهن القديس أوغسطينوس يوم أن إمتلأ شعوره بالشكر والامتنان للرب حتى بارك خطيئة آدم. قال «مباركة هى خطيئة آدم التى جلبت لجنسنا كل هذا الخير وكل

تستغنى، وثيابا بيضا حتى تلبس ولا يظهر خزى عريتك، واثمدا تكحل به عينيك حتى تبصر» (الرؤيا ٣: ١٧، ١٨).

لقد كسانا المسيح ببره فلنحفظ الحلة... لنحفظ للحلة كرامتها... والحلة إذا اتسخت نغسلها بدموع التوبة.. ونصلى.. ونتفاضل ونتنافس فى الخير.. ونجاهد من أجل الحياة الأفضل، «جدوا للمواهب الروحية» (١ . كورنثوس ١٤: ١). «أطلبوا تعطوا، ابحثوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم..» (متى ٧: ٧).

«تغيروا.. تغيروا.. تغيروا عن شكلكم، بتجديد أذهانكم، لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة (رومية ١٢: ٢).

ما الذى يعوزنا:

يعوزنا أن نتغير فى الذهن بعد أن تغيرنا فى المعمودية، وأخذنا الطبيعة التى أعطانا المسيح إياها، ولبسنا الحلة الأولى الجميلة الناصعة البياض... فلنحفظ للحلة كرامتها، ولنحفظ للحلة بياضها، وإذا إتسخت نغسلها... فباب التوبة مفتوح وليس كل من يقول عن نفسه إنه تاب يكون قد تاب فعلا توبة حقيقية صادقة.. فلربما أن يكون قد خدع نفسه أو خدع غيره.

أما إذا كانت توبتنا صادقة، فالله يقبلها ويمحو خطايانا... ويطهرنا من كل إثم.. ويرد إلينا طبيعتنا المجيدة، طبيعته المقدسة المقامة من بين الأموات.

فليبارك المسيح علينا جميعنا ويحفظنا فى اسمه المبارك غير عاثرين فى شئ.

له المجد والكرامة وله المجد إلى الأبد آمين،

تستغني، وثيابا بيضا حتى تلبس ولا يظهر خزى عريتك، واثمدا تكحل به عينيك حتى تبصر، (الرؤيا ٣ : ١٧، ١٨) .

لقد كسانا المسيح ببره فلنحفظ الحلة... لنحفظ للحلة كرامتها... والحلة إذا اتسخت نغسلها بدموع التوبة.. ونصلي.. ونتفاضل ونتنافس في الخير.. ونجاهد من أجل الحياة الأفضل، «جدوا للمواهب الروحية» (١. كورنثوس ١٤ : ١) . «أطلبوا تعطوا، ابحثوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم..» (متى ٧ : ٧) .

«تغيروا.. تغيروا.. تغيروا عن شكلكم، بتجديد أذهانكم، لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة (رومية ١٢ : ٢) .

ما الذى يعوزنا:

يعوزنا أن نتغير في الذهن بعد أن تغيرنا في المعمودية، وأخذنا الطبيعة التى أعطانا المسيح إياها، ولبسنا الحلة الأولى الجميلة الناصعة البياض... فلنحفظ للحلة كرامتها، ولنحفظ للحلة بياضها، وإذا إتسخت نغسلها... فباب التوبة مفتوح وليس كل من يقول عن نفسه إنه تاب يكون قد تاب فعلا توبة حقيقية صادقة.. فلربما أن يكون قد خدع نفسه أو خدع غيره.

أما إذا كانت توبتنا صادقة، فالله يقبلها ويمحو خطايانا... ويطهرنا من كل إثم.. ويرد إلينا طبيعتنا المجيدة، طبيعته المقدسة المقامة من بين الأموات.

فليبارك المسيح علينا جميعنا ويحفظنا في اسمه المبارك غير عاثرين في شئ.

له المجد والكرامة وله المجد إلى الأبد آمين،

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس



موسوعة الأنبا غريغوريوس

٧ـ اللاهوت العقيدى «الجزء الثانى»

سرّ التجسد والفداء

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمى



فى سر التجسد

موضوعات وإجابات على أسئلة

صفحة

١- «والكلمة اتخذ جسداً» (١)

(يوحنا ١ : ١٤)

من هذا الذى ولد فى مثل هذا اليوم من ١٩٨٣ سنة ؟

ولد فى فلسطين وظهر فى أحقر إقليم فيه، هو إقليم الجليل الذى كانوا يقولون عنه «إنه لا يقوم نبى من الجليل» (يوحنا ٧ : ٥٢).

وانتمى المسيح إلى أحقر مدينة من مدن الجليل، هى «الناصرة» وسمى لذلك بيسوع الناصرى، مع أنهم قالوا عنها «أيمكن أن يخرج من الناصرة شئ صالح؟» (يوحنا ١ : ٤٦).

وانتسب المسيح إلى أحقر بيت من بيوت الناصرة، هو بيت يوسف النجار، ومريم العذراء اليتيمة والفقيرة...

وعندما ولد المسيح، ولد فى بيت لحم تلك القرية التى وصفت بأنها «الصغرى بين ولايات يهوذا» (متى ٢ : ٦)، (ميخا ٥ : ٢).

وفى بيت لحم لم يكن له حتى فى الفندق أو الخان الذى نزلت فيه أمه مكان، «فولدته وقمطته وأضجعته فى مذود» (لوقا ٢ : ٧).

وعاش المسيح فقيراً جداً «ليس له موضع يسند إليه رأسه» (متى ٨: ٢٠)، (لوقا ٩ : ٥٨).

ومن آيات فقره إنه لم يكن لديه ما قيمته قرشان، فلما طالبه جباة الخراج أو الجزية بالمبلغ الذى فرضوه عليه عن غير حق، قال لتلميذه سمعان بطرس «اذهب إلى البحر وألق صنارة، وأول سمكة تخرج أمسكها، فحين تفتح فاها ستجد إستارا (= أربعة دراهم فضة)، فخذه وأعطهم عنى وعنك» (متى ١٧ : ٢٧).

* * *

وإذا كان هذا هو شأنه، ولد فقيرا وعاش فقيراً، فلماذا اهتمت بمولده ملائكة السماء تبشر بميلاده الأمر الذى لم يسبق إليه فى كل تاريخ البشرية.

---

(١) ألقيت فى الإحتفال بعيد الميلاد المجيد - ٧ من يناير ١٩٨٣م - ٢٩ من كيهك ١٦٩٩ش.

قال الملاك لرعاة الغنم فى ليلة ميلاده وكانوا بالبادية يتناوبون السهر بالليل فى حراسة قطعانهم «وإذا بملاك الرب يظهر فجأة قبالتهم، ومجد الرب يضئ من حولهم، فارتعبوا ارتعاباً شديداً. فقال الملاك لهم: لا تخافوا. فها أناذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ ولد لكم اليوم فى مدينة داود (= بيت لحم) مخلص هو المسيح الرب... ثم ظهرت بغتة مع الملاك كوكبة من جند السماء يسبحون الله قائلين: المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته» (لوقا ٢ : ٨ – ١٤).

وقبل أن يحبل به فى البطن جاء رئيس الملائكة جبرائيل إلى العذراء الطاهرة مريم، وبادرها بتحية لم تسمعها إمرأة من قبل «السلام لك أيتها الممتلئة نعمة. الرب معك. مباركة أنت فى النساء». ولما اضطربت من قوله، وأخذت تفكر ما عسى أن يكون معنى هذه التحية، قال الملاك لها... إنك قد نلت نعمة عند الله. وها أنت ذى ستحبلين وتلدين إبناً تسمينه يسوع. وسيكون عظيماً، وابن العلى يدعى، وسيعطيه الرب الإله عرش داود ابيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه إنقضاء» (لوقا ١ : ٢٧ – ٣٣).

وإذن فذاك الذى ولد فقيراً وعاش فقيراً هو يسوع المسيح ابن الله العلى، وهو ابن الله لأنه ليس له أب من الناس، ولم يولد من زرع بشر، فأمه عندما ولدته كانت عذراء. وبعد أن ولدته ظلت عذراء، بل العذراء معرفة بالألف واللام، لأنها الدائمة البكارة والدائمة البتولية.

ثم إن ذاك الذى ولد فقيراً وعاش فقيراً هو الوارث بالجسد لداود الملك، وهو ملك بنى إسرائيل إلى الأبد، «ولن يكون لملكه إنقضاء».

هذا الذى ولد فقيراً وعاش فقيراً هو «المسيح الرب كما قال الملاك ليلة ميلاده وهو المسيح الملك» (لوقا ٢٣ : ٢) كما أنبأت عنه الأنبياء من قبل مجيئه فى الجسد بأجيال كثيرة، لكنه ليس ملكاً من طراز هيرودس أو طيباريوس قيصر، فعندما سأله بيلاطس قائلاً: «أأنت ملك اليهود؟» أجابه ليطمئنه أنه ليس من ملوك الأرض «إن مملكتى ليست من هذا العالم. ولو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يقاتلون عنى.. والآن فإن مملكتى ليست من هذا العالم. فقال له بيلاطس «أفأنت إذن ملك؟ أجابه قائلاً: نعم أنا ملك كقولك. ولأجل هذا ولدت أنا، ولأجل هذا جئت إلى العالم كى أشهد للحق» (يوحنا ١٨ : ٣٦، ٣٧)، وكما يقول الوحى الإلهى «القدير وحده

ملك الملوك ورب الارباب» (١ . تيموثيئوس ٦ : ١٥) ، وعلى ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب «ملك الملوك ورب الأرباب» (الرؤيا ١٩ : ١٦) ، (١٧ : ١٤) .

لكن اليهود لم يفهموا فقالوا لبيلاطس «إن أنت أطلقت سراحه فلست محبا لقيصر، لأن كل من يجعل نفسه ملكاً إنما يقاوم قيصر.. ليس لنا ملك إلا قيصر» (يوحنا ١٩ : ١٢، ١٥) .

لقد أنكر اليهود على المسيح أنه «ملك اليهود» حتى إنه لما وضع بيلاطس لافتة على الصليب وكتب فيها بالعبرانية واللاتينية واليونانية «يسوع الناصرى ملك اليهود» اعترض رؤساؤهم قائلين لبيلاطس «لا تكتب إنه ملك اليهود بل إنه هو قال أنا ملك اليهود» (يوحنا ١٩ : ١٩ - ٢١) .

ولم ينتبه اليهود إلى معنى دخول المسيح أورشليم فى أحد السعف راكباً على أتان وجحش ابن أتان وهو الذى كان دائما يسير على رجليه، وإن ذلك كان إتماما لمقولة الوحى الإلهى على لسان النبى زكريا «اهتفى يابنت أورشليم، قولوا لإبنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً وراكبا أتاناً وجحشاً ابن أتان» (متى ٢١ : ٥) ، (زكريا ٩ : ٩) .

ولم يتنبهوا لهتاف الجموع الذين كانوا يسيرون أمامه والذين كانوا يسيرون خلفه وكانوا يهتفون قائلين «المجد لمخلصنا ابن داود. مبارك الآتى باسم الرب. المجد لمخلصنا فى الأعالى. مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب. مبارك الملك الآتى باسم الرب ملك إسرائيل. السلام فى السماء، والمجد فى الأعالى» (متى ٢١ : ٩) ، (مرقس ١١ : ١٠) ، (لوقا ١٩ : ٣٨) ، (يوحنا ١٢ : ١٣) .

والعجيب فى تدبير العناية الإلهية أن الذى لم يتنبه له اليهود على الرغم من أقوال الأنبياء السابقين، تنبه له المجوس الذين أتوا إلى أورشليم من المشرق، من إيران، بلاد الفرس على ما يقول كثيرون، منهم: أكليمنضس الأسكندرى، وديودوروس الطرسوسى ويوحنا ذهبى الفم، وكيرلس الأسكندرى، قائلين: «أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له» (متى ٢ : ١، ٢) .

فقد كان زرادوشت ZARATHUSTRA زعيم المجوسية ونبيهم فى زمن الملك قمبيز، (وكان زرادشت ZOROASTER قد ظهر) حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (وتوفى حوالى ٥٨٣ ق.م) كما روى عنه العلامة أبو الفرج (غريغوريوس مفريان الشرق) الشهير بابن

العبرى (١٢٢٦ - ١٢٨٦) فى كتابه «تاريخ مختصر الدول» أنه قد أخبر ذويه بظهور السيد المسيح وأمرهم بأن يحملوا إليه قرابينهم عند ظهوره، وأنبأهم بأنه فى آخر الزمان يكون أن بكرا تحبل بجنين من غير أن يمسها رجل. وعند ميلاده يظهر بالنهار كوكب، ترى فى وسطه صورة صبية عذراء. وأنتم ياأولادى ستحسون بظهوره قبل جميع الأمم. فإذا شاهدتم هذا الكوكب، فاذهبوا معه إلى حيث يقودكم، واسجدوا لذاك المولود، وقربوا إليه قرابينكم، فهو الكلمة مقيم السماء. ويروى ابن العبرى بعد ذلك فى صفحة ١١٠ من كتابه «تاريخ مختصر الدول «أن المجوس ساروا بهدى النجم إلى أن وصلوا أورشليم القدس، واختفى هناك عن أعينهم فدخلوا أورشليم، وجعلوا يتساءلون قائلين: «أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له». فلما نما الخبر إلى هيرودس الملك استدعاهم وسألهم عن حقيقة ما جاؤا لأجله بهذا الركب العظيم الذى يتقدمه ثلاثة من ملوكهم (على ما يذكر العلامة أوريجينوس - وترتليانوس) وهم فى نفس الوقت رؤساء كهنتهم، وهم جسبار CASPAR وميلشيور MELCHIOR وبالثاسر BALTHASAR قالوا له: إن زعيمنا قد أنبأنا بأنه سيولد فى فلسطين «مولود أصله من السماء، وسوف يتعبد له كثيرون، وفى وقت ميلاده يظهر نجم غريب» ولسوف تهتدون بهذا النجم إلى حيث هذا المولود الإلهى، فمتى رأيتم النجم سيروا وهو يتقدمكم، واحملوا معكم إلى المولود قرابينكم من الذهب واللبان والمر.

ويقول الإنجيل «فلما سمع هيرودس الملك ذلك اضطرب هو وكل أورشليم معه، وجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم: أين ينبغى أن يولد المسيح؟ فقالوا له: فى بيت لحم التى بإقليم اليهودية لأنه هكذا كتب بواسطة النبى: «وأنت يابيت لحم بأرض يهوذا، لست الصغرى بين ولايات يهوذا، لأن منك يخرج الحاكم الذى يرعى شعبى إسرائيل. وعند ذلك اختلى هيرودس بالمجوس، وتحقق منهم عن الوقت الذى ظهر فيه النجم. ثم بعث بهم إلى بيت لحم قائلا: اذهبوا وابحثوا عن الصبى بتدقيق فإذا وجدتموه فأخبرونى لكى أجئ أنا أيضا وأسجد له. فاستمعوا إلى الملك وانصرفوا، وإذا النجم الذى كانوا قد رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق الموضع الذى كان فيه الصبى. فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جدا. وحين أتوا إلى البيت رأوا الصبى مع مريم أمه، فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا من ذهب ولبان ومر. ثم أوحى إليهم فى حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس، فانصرفوا من طريق آخر إلى بلادهم» (متى ٢ : ١ - ١٢).

ولعله إلى هذا يشير سفر المزامير إذ يقول عن المسيح المنتظر «أمامه يجثو أهل البرية، وأعداؤه يلحسون التراب. ملوك يحملون إليه الهدايا، ملوك... يقربون له العطايا. ويسجد له جميع الملوك. وتتعبد له كل الأمم... ويؤدون إليه ذهب شبأ... النهار كله يباركونه.. يكون اسمه إلى الأبد. مادامت الشمس، (ينمو) يمتد اسمه، ويتبارك فيه جميع قبائل الأرض وتغبطه كل الأمم» (مزمور ٧١: ٩ – ١٧).

فالمجوس طائفة من الحكماء والعلماء والكهنة والعباد لأورموزدا ORMAZD أو OR-MUZD مبدأ الخير، ورب الحكمة، اشتهروا أولا فى ميديا، وهى منطقة فى شمال غربى ايران ولهم زيهم الخاص ويسكنون منفردين عن سائر الناس وقد امتد نفوذهم الدينى ووضعهم الإجتماعى وصاروا مشهورين بالعلم والقدرة على تفسير الأحلام، وكانوا أيضا علماء بالتنجيم والإنباء بالمستقبل القريب والبعيد، وكانوا فى مبدأ الأمر مستشارى الملك ومشيرى المملكة، وهم لذلك يحتلون مركزاً متوسطا بين الملك والشعب. ثم أخذ نفوذهم يمتد ويقوى حتى صار بعضهم رؤساء فى المملكة أو رءوساً أو ملوكاً لأنه لم يكن يتم شئ فى المملكة من غير رأيهم ومشورتهم، لأن بيدهم مفاتيح المعرفة، وهم الواقفون على أسرار العالم المجهول، (والكلمة نفسها (مجوس) معربة عن ميخ كوش بالفارسية، ومعناها (صغير الأذنين).

يقول فورفوريوس PORPHYRY «الذين يسمون بالمجوس، بين الفرس، هم الحكماء والعلماء فى الإلهيات، ومن يقوم على خدمتهم»، ويقول هيزيخيوس HESYCHIUS «إن العباد واللاهوتيين أو الكهنة والقسيسين يسمون عند الفرس بالمجوس وهم يتعبدون للنار المقدسة ويمارسون التطهر بالماء ويزاولون رصد النجوم..»

ويقول هيرودوت HERODOTUS إن المجوس طائفة من الميديين MEDES الذين يدّعون تفسير الأحلام، ويمارسون رسميا الطقوس الدينية المقدسة. وبالإيجاز هم طائفة العلماء والكهنة الذين كان من المفروض فيهم أن يستخرجوا من الكتب، وعن طريق رصد النجوم وبالبصيرة الخارقة يستلهمون أحداث المستقبل. ولقد صار لهم بفضل ذلك نفوذ عظيم، وكانوا دائما يستشارون فى الأمور الهامة.

* * *

ومع ذلك يبقى أمر النجم الذى ظهر للمجوس غريبا: ما نوع هذا النجم الذى يسير فى السماء نهاراً أمام المجوس، ويختفى عندما يصلون إلى أورشليم، وبعد أن يتنبه هيرودس واليهود إلى حقيقة الميلاد لملك اليهود، يخرج المجوس من أورشليم صوب بيت لحم، فيظهر لهم النجم من جديد، ويتقدمهم حتى يجئ ويقف فوق الموضع الذى كان فيه يسوع المسيح طفلا، ويفرحون فرحاً عظيماً جداً برؤية النجم الذى كان قد اختفى عن نواظرهم عند اقترابهم من أورشليم حتى خرجوا منها؟

هل كان هذا النجم من طراز تلك النجوم المعروفة فى قبة السماء؟

بالتوكيد كلا؟ بدليل قول المجوس «إننا رأينا (نجمه) فى المشرق، فأتينا لنسجد له». وإذن فهو نجم خاص بالمولود الإلهى. تأمل هاء النسبة: (نجمه).

ثم إنه نجم متميز، نجم يحمل علامات تدل على أنه مرتبط فى أذهان المجوس بنبوءة تحققت بظهوره. ولذلك فإن المجوس حين رأوه تحركوا وسافروا من إيران إلى أورشليم، وهذا يؤكد أنها بالفعل نبوءة زرادشت زعيم المجوسية، مما يدل على أن النجم نجم يتميز بعلامات رآها المجوس فتحققوا بها أنه النجم الذى أنبأهم عنه زرادشت زعيمهم ونبيهم، والذى رأوا فيه صورة صبية عذراء؟

ثم ما هو هذا النجم الذى يتحرك فى السماء فى اتجاه مرسوم ليهدى المجوس، ويسير أمامهم ويسيرون هم وراءه ثم يتجه بالضبط إلى أورشليم ثم يختفى هناك ثم يظهر من جديد فى الطريق الذاهب إلى بيت لحم ثم يقف فى السماء فوق الموضع الذى كان فيه الصبى الإلهى؟

لابد أن يكون هذا النجم ظاهرة غير طبيعية، وخصوصا أنه ظهر للمجوس نهاراً. (فلربما كان ملاكاً نورانيا مرسلاً من السماء لهداية المجوس من بلاد بعيدة). وهذا وحده بينة على أن المسيح وإن كان هو ملك اليهود كما قال عنه المجوس، وكما دلتهم على ذلك نبوءة سابقة تناقلتها الأجيال منذ أنبأهم بها زرادشت فى القرن السابع قبل الميلاد، وظلت محفوظة فى تراثهم إلى أن تحققت بظهور هذا النجم الخاص، إنما أيضاً هذا دليل على أن المسيح جاء ليس لليهود وحدهم وأن أهميته ليست مقصورة على شعب اليهود، ولكن لشعوب أخرى غير اليهود.

ولعل هذا النجم أو الكوكب اللامع هو الذى أنبأ به نبى من غير أنبياء اليهود وهو بلعام بن بعور وهو من فتور، وهى قرية فيما بين النهرين، قال عن المسيح «وحى بلعام بن بعور وحى الرجل المفتوح العينين. وحى الذى يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلى، الذى يرى رؤيا القدير... وهو مكشوف العينين . أراه، ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريبا. يبرز كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل... ويكون أدوم ميراثاً له، ملكاً له...» (سفر العدد ٢٤ : ١٥ - ١٨).

أغلب الظن أن يكون هذا النجم الهادى للمجوس حكماء المشرق ليس نجماً عاديا كسائر النجوم التى تظهر فى السماء والتى يرصدها علماء الفلك، وعلماء التنجيم، ولعله ملاك نورانى، أو كائن منير بصير، عاقل وفهيم، يتحرك بخطة مرسومة وهادفة، أرشد المجوس إلى الملك المولود، ومن خلالهم هدى الفرس وبلاد المشرق إلى الحدث العظيم بميلاد الكلمة مقيم السماء كما قال زرادشت فى نبوءته، وأوصاهم وهم عباد أورموزدا إله الخير أن يتنبهوا لظهور هذا الملك الإله الذى من السماء يأتى، وينزل على الأرض فى صورة إنسان يولد كما يولد الإنسان، لكنه لا يولد من زرع رجل، وإنما يتخذ جسده من إمرأة عذراء بكر بتول لم ولا تعرف رجلاً معرفة الأزواج، يكّون منها جسده بقدرة خارقة. ومن هنا فإنه ليس ابن رجل من بين الناس، وإن كان قد اتخذ له صورة إنسان وشكل إنسان، يحتجب فيه ويستتر به الكلمة غير المنظور ليصير له كيان منظور كما يقول الإنجيل «والكلمة اتخذ جسدا، وحل بيننا.. ورأينا مجده... (يوحنا ١ : ١٤).

وإذن هذا المولود من مريم ليس له أب من الناس، فمن يكون أباه إلا الله الواحد وحده؟ إذن هو ابن الله، لكن لا بمعنى أن الله ولده كما يلد الإنسان ابنه من صلبه ومن زرعه. حاشا لكنه ابن الله بمعنى أنه صورة الله الغير المنظور (كولوسى ١ : ١٥). الله الغير المنظور بطبيعته لأنه نور (١. يوحنا ١ : ٥) ومسكنه نور لا يقترب منه، وهو الذى لم يره إنسان ولا يستطيع أن يراه (١. تيموثيئوس ٦ : ١٦) عندما أراد أن يصير له على الأرض كيان منظور، كان لابد أن يتخذ له جسداً يستتر به حتى يصير ممكناً للناس أن ينظروه. ولقد قال الله للنبى موسى عندما اشتهى أن يراه «أما وجهى فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يرانى إنسان ويعيش» (الخروج ٣٣ : ٢٠).

من هنا فليس ميلاد المسيح كميلاد أى طفل آخر. كل طفل متى ولد فقد وجد، لأنه لم يكن له قبل ميلاده وجود. أما المسيح فهو الكلمة مقيم السماء والأرض، وقال عنه الإنجيل «فى البدء كان

الكلمة، والكلمة كان لدى الله. والكلمة هو الله. كان منذ الأزل لدى الله. كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شئ مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١ : ١ – ٤).

إذن المسيح قبل أن يولد من العذراء مريم كان كائناً منذ الأزل، فميلاده ليس فى الواقع إلا تجسد. قال المسيح لليهود «لقد تهلل أبوكم ابراهيم مشتهياً بأن يرى يومى. وقد رأى وفرح. فقال له اليهود: إنك لم تبلغ الخمسين بعد أفرأيت إبراهيم؟ قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يوحنا ٨ : ٥٦ – ٥٨).

والنجم الذى ظهر للمجوس لم ينبه المجوس وحدهم إلى «المولود ملك اليهود» لكنه باختفائه عند مدخل أورشليم أيقظ أيضاً اليهود الغافلين، فلما جمع هيرودس كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وعلمائهم وسألهم «أين ينبغى أن يولد المسيح»؟ كان جواب الأئمة حاضراً، فقالوا له على الفور «فى بيت لحم التى بإقليم اليهودية لأنه هكذا كتب بواسطة النبى» (متى ٢ : ٣ – ٥).

وهكذا أيقظ النجم، بلاد الفرس، كما أيقظ اليهود أيضاً لذلك «لما سمع هيرودس الملك ذلك اضطرب هو وكل أورشليم معه».

ما هو المعنى إذن من أن يظهر ملاك من السماء للرعاة فى البيداء بنور يضئ من حولهم حتى ارتعبوا ارتعاباً شديدا، ويبشرهم قائلا: هاأناذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب... وتظهر مع الملاك بغتة كوكبة من جند السماء يسبحون الله قائلين «المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته» ثم يظهر فى السماء للمجوس فى بلاد المشرق نجم خاص بهذا المولود الملك، يهدى المجوس إليه فيحملون إليه قرابينهم وهداياهم من ذهب، ولبان، ومر...

إن البشرى لم تكن من الأرض، ولكنها من السماء: ملاك يبشر الرعاة بميلاد مخلص هو المسيح الرب، وكوكبة من جند السماء تسبح الله بالقول «المجد لله فى الأعالى»، ويخصون الأرض بالقول «وعلى الأرض السلام. وبالناس مسرته» أى أنه على الأرض ولد، ومن أجل السلام جاء إلى الأرض، وميلاده أو بالأحرى تجسده هو رحمة بالناس ومحبة لهم لأن مسرته بهم «فنعيمه ولذّاته مع بنى آدم (أمثال ٨ : ٣١) إذ هم خليقته لا ينساهم، وإنما نزل من السماء يخلصهم، إذ لم يكن لهم منهم فاد ومخلص، لأن الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. فرأى الرب وساء فى عينيه... فرأى أنه ليس إنسان وبهت أنه ليس شفيع، فخلصت له ذراعه، وبره هو

عضده. فلبس البر كدرع، وخوذه الخلاص على رأسه.. ويأتى الفادى إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية من يعقوب، يقول الرب» (إشعياء ٥٩: ١٥ - ٢٠).

ولماذا قدم المجوس قرابينهم للمسيح المولود من ذهب، ولبان، ومر؟

إن (الذهب) يشير إلى أنه ملك. قالوا «أين هو المولود ملك اليهود»؟

وأما (اللبان) فيرمز إلى أنه (إله ومعبود) يجب له التبخير والسجود. قالوا «فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له».

وأما (المر) فيرمز إلى أنه سيتألم. وهذه نبوءة مسبقة للدلالة على أنه جاء ليكون الفادى والمخلص. ألم يقل الملاك للقديس يوسف النجار خطيب العذراء مريم عن العذراء «وستلد ابنا وتسميه يسوع، لأنه هو الذى يخلص شعبه من خطاياهم» (متى ١: ٢١) وقال الملاك للرعاة فى البادية عندما ظهر لهم «ولد لكم اليوم فى مدينة داود «مخلص» هو المسيح الرب» (لوقا ٢: ١١) وكيف يتم الخلاص إلا بالفداء. والفداء معناه أن يموت المسيح بديلاً عن البشر، وبهذا يفديهم. وإذن المسيح نزل من السماء من أجل «خلاص» البشر، نزل ليكون «الفادى»، فيقبل من فرط محبته، الموت المحكوم به على آدم وبنيه من بعده، من أجل أن يهبهم الحياة، والخلاص من الهلاك الأبدى. «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). وهو ما يردده المسيحيون فى قانون الإيمان قائلين «ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، واحد مع الآب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ، هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس وصلب عنا.. تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث... وصعد إلى السماوات..

يقول القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه تجسد الكلمة:

«من كان يمكنه أن يرد الإنسان الفاسد إلى عدم الفساد غير كلمة الله ذاته الذى من البدء خلق كل شئ من العدم. لقد كان عليه هو وحده أن يرد الفاسد إلى عدم الفساد، وفى نفس الوقت أن يوفى مطلب العدل الإلهى المطالب به الجميع، لأنه هو وحده، بصفته كلمة الآب وفوق الجميع يمكنه أن يخلق كل شئ من جديد، وأن يتحمل الآلام بدلاً من الجميع، وأن يكون شفيعاً عند الآب عن الجميع» (تجسد الكلمة، الفصل ٧: ٥).

* * *

والآن فإن عيد الميلاد هو عيد السلام، وهو عيد المبادرة الإلهية بالمصالحة للناس «الله هو الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح.. أى أن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه» (٢. كورنثوس ٥: ١٨، ١٩).

إن الله الكلمة نزل إلى أرضنا، وحل بيننا وحل فينا أى فى طبيعتنا، واتخذ من طبيعتنا جسداً اتحد به (لاهوته)، فشاركنا حياتنا وظروفنا، فأفضى على طبيعة البشر شرفاً، وأى شرف أعظم من هذا أن يحمل كلمة الله جسد إنسان؟... وبعد أن تمم عمل الفداء والخلاص، صعد إلى السماء، وعندما صعد إلى السماء صعد بالجسد الذى أخذه منا، فصرنا نحن فى المسيح جالسين الآن فى السماء على عرش المجد.

فلنردد تسبيحة الميلاد أو بالأحرى عيد التجسد الإلهى «المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته».

* * *

وفى ختام هذه الكلمة الروحية نوجه من فوق منبر الكاتدرائية المرقسية التحية إلى فخامة الرئيس محمد حسنى مبارك، رئيس جمهوريتنا المحبوب المناضل من أجل السلام بكل امتداداته فى الخارج والداخل.

إنه فى الداخل يعمل بخطط مدروسة مع العلماء والخبراء وقادة الفكر لتحقيق الأمن والأمان والاستقرار والسلام الإجتماعى والوحدة الوطنية، ماداً يده مبسوطة، وقلبه مفتوح، إلى كل القوى الوطنية للعمل معه، بإيجابية فعالة من أجل مصر وخيرها وسلامها ورخائها وازدهارها؟ إقتصاديا وإجتماعيا وحضاريا...

وفى الخارج يبذل جهوداً جبارة فى إجتماعات ولقاءات مع رؤساء العالم، يذهب فى سبيل السلام وتحقيق البناء من غير حرب، إلى الشمال والجنوب، إلى الغرب والغرب الأقصى وإلى الشرق والشرق الأقصى، فى حكمة وبصيرة، ينشر ويمد أواصر الصداقة والمحبة والتعاون على أساس من عدم الانحياز مع الاحترام المتبادل بين الشعوب، ورفض الهيمنة والاستعمار بكافة صوره مع الإلحاح المستمر على حل المشكلة الفلسطينية باعتبارها محور النزاع فى الشرق الأوسط، ومساندة الشعب الفلسطينى فى حقه الطبيعى فى تقرير مصيره.

ومع أن الكنيسة بصفتها هذه لاتقحم ذاتها أو رجالها فى السياسة، لكننا كمواطنين نحب بلدنا من حقنا بل من واجبنا أن نشيد بقيادتنا الوطنية، إذ نراها تبذل جهوداً مخلصة ورائدة وقوية فى سبيل الخير والسلام، ولا تتقوقع فى داخلها غافلة عن وضعها فى ملتقى القارات، ولاتتقاعس عن القيام بدورها الحضارى كعضو حى عامل وغير خامل فى الأسرة البشرية والعائلة الإنسانية العالمية، خصوصا وأن مصر كان لها دائما ولايزال رصيد حضارى ضخم فاضت به على كل الحضارات اللاحقة فى الشرق والغرب.

إننا ندعو الله أن يحفظ بلادنا، سماءها وأرضها ونيلها وزرعها وهواءها، وأن يحفظ رئيس مصر ودولتها وحكومتها وشعبها الواحد، مسلمين ومسيحيين وأن يحفظ وحدتنا الوطنية إلى الأبد مصونة وأن يقويها، وأن يجعل العام المقبل عام خير وبركة وسلام للعالم بأسره.

ومن فوق هذا المنبر نرسل التحية إلى قداسة البابا شنودة الثالث الذى من أجل مصر قبل راضيا أن يعتكف بالدير، وقال إذا كان سلام مصر الإجتماعى يتحقق بوجودى بالدير إلى حين، فإن هذه التضحية من جانبنا تعد مساهمة متواضعة فى الخير الأعظم الذى نعمل جميعا كمصريين لتحقيقه من أجل مصر الغالية وسلامها.

ونحن بعد هذا نرجو أن يحفظ الله حياة قداسته ونثق فى حكمة الرئيس مبارك فى اختيار الوقت المناسب لخروج البابا من خلوته.

٢ ـ التجسد من مريم العذراء

قال الإنجيل المقدّس:

«فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله... كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شئ مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. والنور يضئ فى الظلمة، والظلمة لم تدركه.

«كان النور الحقيقى الذى ينير كُل إنسان آتيا إلى العالم. **كان فى العالم**، والعالم به كون، **والعالم لم يعرفه.**

«**والكلمة اتّخذ جسداً وحلّ بيننا**، وقد أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه» (يوحنا ١ : ١ – ١٤).

إنها الحقيقة الجميلة والسعيدة لجنس البشر التى عرفناها فى المسيح، أنّ الله تعالى، وهو فى ذاته «لايُرى، ولا يقدر أحد أن يراه» (١. تيموثيئوس ٦ : ١٦)، وجوهره تبارك تعالى لا يُدرك ولا يُحاط به، وهو أعلى من مثالنا، وأسمى من كل تصوّر للكائنات العاقلة، فضلاً عن الكائنات غير العاقلة من الجمادات والنباتات والحيوانات... يشاءُ بنعمتِه وفضلِ عنايتِهِ بالإنسان، ومحبتِه لخليقته العاقلة، أن يتّخذ له جسداً حتى يُمكِن للإنسان أن يراه ويلمس وجوده بحواسّه الممنوحة له، وهى أبواب المعرفة التى تُطل منها روحه على العالم الخارج عن ذاته.

إنّ الله فى ذاته العليّة فى غنى عن أن يُظهِرَ ذاته لأحد من خليقته، لأنه المستشرف على المادة بكل صورها، «فإنّ الله روح» (يوحنا ٤ : ٢٤) بل هو «الروح» الأعظم (٢. كورنثوس ٣ : ١٧)، لكنّه أحبّنا، وأحبّنا قبل أن يخلُقنا، ولهذا قد خلقنا وهو فى غنيٍ عنا، هو «الله أبونا الذى أحبّنا» (٢. تسالونيكى ٢ : ١٦) ومن فيض حبِّه يشاءُ أن يتّخذ له جسداً ليتلامس معنا، ونتلامس نحن معه..

شكراً يارب، شكراً وشكراً.. وألف شكر!

إنّ المسيحية تعلّمنا عن الله وعن أُبوّته ومحبته بصورة لم يعرفها اليُونان والرّومان وغيرهم من شعوب العالم.. كانت الآلهة عند اليونان والرّومان تسكنُ سعيدةً فوق الجبال، ولا تحفل بالبشر، بل إنّ بعض الفلاسفة القُدامى علّم بأنّ الله مُستشرِف على المادة، وهو أسمى من أن

يتصل بالمادة، فلكى يخلُق الوجود من جمادٍ ونبات وحيوان وإنسان، خلَقَ كائناً متوسطاً، ليخلُق به سائر الموجودات. إلى هذا المدى رأى الفلاسفة استشراف الله على المادة وعلى سائر الموجودات. أما المسيحية فتقدِّم لنا الله تعالى فى المسيح فى صورة الله الذى من قبل أن يخلُقنا أحبَّنا «لأنه إلى هذا المدى أحبَّ الله العالم» (يوحنا ٣ : ١٦)، فهو خلقنا من فيض حبِّه لنا، فهو أبونا مع أنه سيِّدنا وربنا وأصل وجودنا، فما أجملها صورة عن الله، خالقنا وسيِّدنا وربنا، إنه أيضاً أبونا الذى أحبنا وخلقنا من فيض حبه لنا.

وخلق الله الإنسان، ومن اعتزازه به ومحبته له خلقه على صورته ومثاله، وهذه ميزة للإنسان وكرامة لم يمنحها الله لأى من خلائقه الأخرى، «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (سفر التكوين ١ : ٢٦)، فكرامة الإنسان وشرفه أنه «صورة الله ومجده» (١ . كورنثوس ١١ : ٧) . «وجبل الربُ الإله آدم تُراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم الإنسان نفساً حية» (التكوين ٢ : ٧) هذه الروح التى نفخها الله فى الإنسان «هى من الله» (الجامعة ١٢ : ٧)، (زكريا ١٢ : ١)، «وعلى صورة الله ومثاله»، فيملك بها على كلّ الخليقة الجامدة والحيّة من نبات وحيوان، «وقال الله لِنصنعَ **الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلّط على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى جميع الأرض، وعلى كل الدبابات التى تدب على الأرض**. فخلق الله الإنسان، **على صورته، على صورة الله خلقه**... وباركهم الله، وقال لهم... املأوا الأرض وأخضعوها، **وتسلّطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى جميع الحيوان الدّاب على الأرض**» (التكوين ١ : ٢٦ – ٢٨).

ومن محبة الله للإنسان أنه من أجله، وعناية به، «غرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، وجعل هناك آدم الإنسان الذى جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيّدة للأكل، **وشجرة الحياة فى وسط الجنة**» (التكوين ٢ : ٨، ٩) «وأخذ الرب الإله آدم الإنسان وجعله فى جنة عدن ليفلحها ويحرسها» (التكوين ٢ : ١٥).

ولما كانَ الإنسان قد خُلق فى الزمان، فليس له الخلود، فكل ما له بداية لابدّ أن تكون له نهاية، لكن الله من فيض حبه للإنسان الذى خلقه على صورته ومثاله أراد له الخلود، أى أنه

أراد له الحياة. فجعل له «**شجرة الحياة فى وسط الجنة**» (التكوين ٢ : ٩) ، فإذا مدّ يده ، **فيأخذ من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد**» (التكوين ٣ : ٢٢) .

على أنّ الله تعالى أظهر للإنسان شجرة الحياة فى وسط الجنة ، ولم يُعطه وصيّه فيها . أظهرها له كما جاء فى القداس ، قداس القديس غريغوريوس الثيئولوغوس «**أظهرت لى شجرة الحياة**. وعرّفتنى شوكة الموت. غُرس واحد نهيتنى عن أن آكل منه.

هذا الذى قلتَ لى: لا تأكل منه وحده . فأكلتُ بإرادتى ، وأهملتُ شريعتك برأيى وتغافلت عن وصاياك ، فانتزعت لنفسى الحكم بالموت» .

وجاء فى الكتاب المقدس أنّ الله أعطى آدم وصيّة بالنسبة إلى شجرة معرفة الخير والشر» وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنّة تأكل (أكلا) . **وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، فإنك يوم تأكل منها تموت موتا**» (التكوين ٢ : ١٦ ، ١٧) ، واعترفت حواء للحية بأنّ الله حذّرها وآدم وأنذرهما وتوعدهما بالعقاب إذا أكلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشر أو مسّاه «وأمّا ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله: **لا تأكلا منه ولاتمساه** (١) لئلا تموتا» (التكوين ٣ : ٣) .

جاء فى الرسالة إلى كورنثوس «حسن للرجل **أن لايمَسّ إمرأة**» (١ . كورنثوس ٧ : ١) .

فشجرة الحياة أظهرها الله لآدم ولكن لم يمنعه عنها وإنما جعلها له للحياة الأبدية ، إذا مدّ يده وأكل منها. أمّا شجرة معرفة الخير والشر فهى التى أمر الله آدم وأوصاه أن لا يأكل منها **ولا أن يَمَسَّها ، فإذا أكل منها أو مَسَّها مات موتاً.**

وواضح أنّ شجرة معرفة الخير والشر التى فى وسط الجنة كانت **شجرة معنوية** ، وإلاّ فلماذا لم يذكر الكتاب المقدّس لها اسما من أنواع النباتات ، ولو كانت من النباتات لذكر لها اسماً ، بل ولم يرد بعد ذلك أنّ الله منع الإنسان من أكل أى نوع من النباتات ، مما يتبين معه أنّ الشجرة المنهىّ عنها هى قطعاً **شجرة معنوية** ، لانباتية...

وعصى الإنسان أمر خالقه فأكل من الشُجرة المنهىّ عنها «رأت المرأة أنّ الشجرة جيّدة للأكل ، وشهية للعيون ، وأنّ الشجرة مُنية للعقل ، فأخذت من ثمرها ، وأكلت ، وأعطت رجلها أيضا

---

(١) جاء فى الرسالة إلى كورنثوس: «حسن للرجل أن لا يمسّ إمرأة» (١ . كورنثوس ٧ : ١) .

معها فأكل، فانفتحت أعينهما، فعلما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر» (التكوين ٣ : ٦، ٧).

لقد سقط الإنسان فى خطيئة العصيان، فحق عليه العقاب الذى توعده الله به (موتاً تموت).

مات الإنسان وتعرّى، وكان لابدّ أن يموت موتاً أبديا، فضلاً عن الموت الجسدى، وكان لابدّ من أن يُحرم من الحياة الأبدية التى كان سينالها إذا أكل من شجرة الحياة، **وما كان له أن يأكل من شجرة الحياة بعد أن أكل من شجرة معرفة الخير والشر التى أمره الله** وأوصاه بأن لا يأكل منها ولا يمسّها، كيلا يموت «من يَغْلب فسأُعطيه من المن الخفىّ» (الجليان - الرؤيا ٢ : ١٧)، (يوحنا ٦ : ٤٩، ٥٠) طوبى للذين يعملون بوصايا الله... ليكون لهم سلطان على شجرة الحياة» (الجليان - الرؤيا ٢٢ : ٢، ١٤).

قالَ الكتاب المقدّس «**فأخرجه الرب الإله من جنة عدن،... فطرد آدم الإنسان،** وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة» (التكوين ٣ : ٢٣، ٢٤) (الجليان - الرؤيا ٢ : ٧)، (٢٢ : ٢، ١٤) حتى يمنع الإنسان من أن يقترب إلى شجرة الحياة، لأنه لم يعد مستحقا أن يأخذ منها، وإذا تجاسر واقترب ضربه الكروبيم بسيفه الملتهب ناراً فيحرقه. وقال المسيح له المجد «أنا هو الخبز الحىّ الذى نزل من السماء. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذى سأعطيه أنا هو جسدى الذى سأبذله من أجل حياة العالم» (يوحنا ٦ : ٥١) «وإذن فمن أكلَ من هذا الخبز أو شرب من كأس الرب بغير استحقاق، يكون مُجرماً إلى جسد الرب ودمه. ولكن ليمتحن الإنسان نفسه، ومن ثم فليأكل من الخبز ويشرب من الكأس، لأن من يأكل ويشرب بغير استحقاق، يأكل ويشرب دينونةً لنفسه، إذ لم يميز جسد الرب. من أجل هذا كثر فيكم المرضى والضعفاء، وكثيرون منكم يموتون. فلو أننا حاسبنا أنفسنا لتجنبنا الحكم علينا. وإذ قد حكم الرب علينا، إنما يؤدبنا الرب، حتى لا ندان مع العالم» (١ . كورنثوس ١١ : ٢٧ – ٣٢).

٣ ـ لما تمّ الزّمان ظهر الله الكلمة مُتجسّداً

فى التاسع والعشرين من شهر كيهك المبارك تحتفل كنيستنا القبطية الأرثوذكسية وجميع الكنائس التى تتبع التقويم الشرقى بعيد الميلاد المجيد. وقد خصصت الكنيسة هذا الشهر للتسبيح والشكر والتمجيد لله، على إهتمامه بنا نحن البشر، إذ قد تنازل فضلاً، من غير استحقاقنا، وقَبِلَ أن تكون له صورة الإنسان. اتّحدَ بطبيعتنا، ولبس صورتنا، وظهر بيننا كأنه واحد منا، وهو ملك السماوات والأرض. إنه لم يُخلِ السماء من وجودِه حينما نزل، فوجوده يملأ السماوات والأرض. وإنما أخلى ذاته من صورة المجد، وارتضى صورة الهوان، أخلى ذاته من صورة الرب، وارتضى صورة العبد، وهو المسجود له من الملائكة ورؤساء الملائكة والمعبود من السمائيين والأرضيين، (وله تجثو كلُّ ركبة مما فى السماوات ومما على الأرض ومما تحت الأرض) (فيلبى ٢ : ١٠).

لقد ارتضى الإله تفضلاً، وحناناً، وتكرُّماً، وإشفاقاً علينا، واهتماماً بنا، أن ينزل إلينا ليرى ذلنا ويرى مرارة ما وصل إليه جنس بنى الإنسان، الذين خلقهم الله على صورته ومثاله، ولكن الخطيئة أفسدت هذه الصورة وأساءت إليها، فلم يشأ الله ـ كما يقول القديس أثناسيوس الرسولى ـ أن تبقى صورته المجيدة ملّطخة بالإثم وملوثة وفاسدة، فتحرك حنانه وتحرّك قلبه، وتحرّك تدبيره، ليخلّص الإنسان ويرد له اعتباره، ويرد له كرامته، ويرد له الصورة الأصلية التى خلقه عليها.

لذلك تجسد الله الكلمة، وفى تجسّده كلّ الحبّ، وما من حب أعظم من هذا أن يَقبَلَ الإله صورة الهوان، صورة التراب، وهو رب المجد، (الساكن فى نور لا يقترب منه) (١ . تيموثيئوس ٦ : ١٦)، (والنار الآكلة) (العبرانيين ١٢ : ٢٩) لقد قبل الرب على نفسه أن يأخذ صورة التراب، وشاء أن يتّحد بها. فلا يكون اتحاده بصورة الإنسان وضعا مؤقتا، كأى ظهور لكائن روحانى يتشكل فى وقت ما بشكل ما ويتركه بعد حين. لم يشأ الرب ذلك، بل رأى أن يتّحد بهذا الشكل الترابى وأن يظل هذا الإتحاد باقيا دائماً إتحاداً كاملا، إتحاد جوهريا لا عرضيا، اتحادا اقنوميا ثابتا لا يتغير ولا يتبدّل.

الشرف الذى اكتسبته البشرية بتجسد الكلمة :

فما أعظم الشرف الذى أضفاه الله على جنسنا بتجسده المنيف، لأننا نحن قد صرنا متحدين به فى المسيح، وصرنا نحن فى المسيح لأنه أخذ طبيعتنا. بل وصارت طبيعتنا نحن فيه، ومعه، ثم حملها معه إلى السماء، إذ صعد بها إلى الأعالى، وأدخلها إلى المجد.

فما أرفع الإنسان بعمل المسيح، وما أمجده، وما أشرفه، لأن الإله أخذ طبيعته.

عظيمة هى ديانتنا المسيحية بهذا التعليم المجيد:

الله ارتضى وقبل أن يأخذ صورة الإنسان، فكان فى قبوله هذه الصورة أعظم حبّ يمكن أن يطمح إليه الإنسان، ويطمع فيه أو يمكن أن يحلم به. الله الكلمة المنقذ والمخلّص، والفادى صاحب المجد والكرامة، قَبِل وارتضى صورة الإنسان. نزل الإله إلى الإنسان تفضُّلا، وتكرما والإنسان لم يكن مستحقا. وهنا عظمة الحب. مافضلك أنت إن أحسنت إلى من أُحسن إليك؟ (لأنكم إن أَحببَتم الذين يُحبّونكم فأى أجرٍ لكم؟ (متى ٥: ٤٦، ٤٧) إنما الحبّ الحقيقى يظهر إذا كان ثمت تنازل من الأعلى إلى الأدنى، وإذا لم يكن له مقابل بل يكون من قبيل الفضل، والإحسان. هكذا صنع الله الكلمة بنا.

هل كانت البشرية مستحقة لظهوره يوم أن جاء المسيح إلينا؟

كلاً.. إنما كانت البشرية تتطلب هذا المجئ وتستحقه، لكن لا بمعنى أنها جديرة به بل تستحقه بمعنى أنها فى حاجة إليه.

البشرية انتظرت المخلّص والمنقذ وعبّرت عن ذلك بواسطة فلاسفتها وأنبيائها:

قال (سقراط) (نحو ٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م) أحد كبار الفلاسفة فى العصور القديمة: لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلا إذا ظهر رب الحقيقة وأعلن ذاته للبشر.

قال هذا بعد أن تعب سقراط من المناقشات والجدل، ومن المساجلات الكلامية عن الحق والحقيقة، بين المفكرين البارزين من بنى الإنسان. فلما تناقش الناس، وتعارضوا وانقسموا، واختلفوا، قال سقراط لا سبيل إلى حسم هذا الخلاف بين البشر إلا إذا تفضل رب الحقيقة وأعلنها بذاته للبشر.

فسقراط الوثنى كان بمثابة نبىّ فى العالم الوثنّى، أنبأ بحاجة البشرية إلى هذا المخلِّص، وإلى هذا الحق الذى يكشف ذاته للبشر.

تنبأ عنه الشاعر الرُومانى (فِرجيل) VIRGILIUS (٧١ - ١٩ ق.م)، وهو أعظم شعراء روما ومؤلف ملحمة الانيادة ENEIDE، وقال: (العذراء عائدة الآن... وينزل جنس إنسانى جديد من علا السماوات. وهذا يتحقق بميلاد طفل به ينتهى عصر الإنسانية الحديدى، وبه يبدأ عصرها الذهبى).

وقد خاطب فرجيل هذا الطفل المنتظر قائلا: (من أجلك، أيها الطفل، تأتى الأرض بعطاياها، طواعية، ومن دون حرث. ومن عهدك تنبعث الزهور المزمنة الحانية. أما الحية فسوف تموت)

وكان (زُرادشت) ZOROASTER (توفى حوالى ٥٨٣ ق.م) وهو نبّى الفرس الأقدمين وأصله من اذربيجان، وهو زعيم المجوسيّة فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، كما يروى العلامة ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) قد أخبر ذويه بظهور (المسيح الملك) وأمرهم بأن يحملوا إليه قرابينهم عند ظهوره، وأنبأهم بأنه فى آخر الزمان يكون أنّ بكرا تحبل بجنين من غير أن يمسّها رجل. وعند ميلاده، يظهر بالنهار كوكب، تُرى فى وسطه صورة صَبيّه عذراء. وأنتم يا أولادى ستُحسُّون بظهوره قبل جميع الأمم. فإذا شاهدتم هذا الكوكب، فاذهبوا معه إلى حيث يقودكم، واسجدوا لذلك المولود، وقرّبوا إليه قرابينكم، فهو الكلمة مقيم السماء).

وجاء فى الكتاب المقدس أنّ (نبوخذنّصر) ملك بابل (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) وهو وثنى رأى حلما وانزعجت له روحه: رأى وإذا بتمثال عظيم كثير البهاء، ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب خالص، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نُحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضهما من حديد، والبعض من خزف.. ثم نظر الملك، فإذا **حجر انقطع لا باليدين، فضرب التمثال** على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما، فانسحق الحديد والخزف والنُحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كعصافة البيدر فى الصيف، فحملتها الريح، فلم يوجد لهما مكان. **أمّا الحجر الذى ضَرَب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلّها**. وقال النبّى دانيال فى تفسير هذا الحلم الذى أُغلقَ تفسيره على جميع حكماء بابل إنّ **الحجر الذى انقطع لا بيدين فسحق الحديد والنُحاس والخزف والفضة والذهب، يرمز إلى ميلاد ملك، مملكته لن تنقرض أبداً، وملكه لا يترك لشعبٍ آخر. إنها تسحق وتُفنى جميع الممالك، وهى تثبت إلى الأبد)** (دانيال ٢ : ١ - ٤٥).

كذلك الإمبراطور (أوغسطس قيصر) AUGUSTUS (٦٣ ق.م - ١٤م) رأى حلما روّعه، رأى نقطة من الزيت نزلت من السماء، ولم تلبث أن كبرت طولاً وعرضاً حتى صارت بِركة أو بحيرة صغيرة ثم كبرت البركة، فصارت نهراً، وكَبُرَ النهر فصار بحراً، وكَبُرَ البحر فصار محيطاً، وأخذ الماء فى المحيط يعلو ويعلو حتى غطّى الأرض كلّها ووديانها وجبالها حتى وصل علوه إلى السماوات، وأحس الإمبراطور إنه قد غرق هو نفسه واستيقظ مذعوراً، ولم يفهم لهذا الحلم معنى، فجمع العلماء وسألهم التفسير، فأنبأوه أن هذا الحلم نذير أو بشير بميلاد إله تُعَطّى ديانته وعبادته الأرض كلّها والسماء.. ولما لم يتوصل إلى حقيقة هذا الإله الجديد، أمر أن يقام له فى كل أنحاء الإمبراطورية، مذبح ويكتب عليه (إلى الإله الذى لا نعرفه). فلما ذهب القديس بولس إلى أثينا ورأى هذا المذبح والمكتوب عليه، وقف فى وسط الأرياباغس وقال: يا أهل أثينا.. فى مرورى ومعاينتى لمعبوداتكم وجدتُ مذبحاً مكتوبا عليه (إلى الإله الذى لا نعرفه، فهذا الذى تعبدونه ولا تعرفونه، هو الذى أنا أبشركم به) (أعمال الرسل ١٧: ٢٢، ٢٣).

وواضح من حلم أوغسطس قيصر الذى فى عهده وُلد المسيح له المجد (لوقا ٢: ١)، إنه هو نبع الزيت الذى نزل من السماء، ثمّ كبر وعلا حتى غطى الأرض كلّها والسماوات، وهو ما يشير إلى امتداد ملكوته أو مملكته. فهو كما قال عنه الملاك للعذراء مريم (ويملك.. إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية) (لوقا ١: ٢٢).

وإلى جانب الأمم الوثنية كانت هناك أمة بنى إسرائيل التى اختارها أو تخيّرها الله فى وقت ما لكى تكون عينة من عينات البشر يجرى فيها وبها تدبير الخلاص. فقد عبّر أنبياء العهد القديم عن حاجة بنى الإنسان إلى المخلّص وإلى الفادى، كلُّهم تحدّثوا عن هذا المجئ وتوقعوه، وحيّوه وأنبأوا به. فمنهم من قال: (أراهُ، ولكن ليس الآن، أُبصره ولكن ليس قريبا، يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم صولجان من إسرائيل) (سفر العدد ٢٤: ١٧) ومنهم من قال (خلاصك انتظرت يارب) (التكوين ٤٩: ١٨) ومنهم من قال بفم الرب (بدم عهدك قد أطلقتُ أسراك من الجُبِّ الذى لاماء فيه. إرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء) (زكريا ٩: ١١، ١٢) والمقصود بالجُبِّ الذى لاماء فيه هو الجحيم الذى انطلقت إليه أرواح القديسين فى العهد القديم وظلوا فيه هناك محبوسين، لأنه لم يكن مباحاً بعد للإنسان أن يقترب من الفردوس المغلق فى وجه الإنسان، بسبب الخطيئة التى ارتكبها آدم وحواء.

وإنّ حنة ابنة فنوئيل. وكانت قد ظلت أرملة مدة أربع وثمانين سنة، لا تبرح الهيكل، متعبدة بالصوم والصلاة ليلاً ونهاراً، إذ رأت المسيح يسوع وهو طفل في حضن العذراء مريم، في يوم الأربعين لميلاده، تقدّمت نحوه، وأخذت تحمد الله بشأنه، وتحدث عنه كل من كان ينتظر الخلاص في أورشليم وكذلك سمعان الشيخ حمله على ذراعيه، وبارك الله ثم قال: الآن أطلق ياسيدي عبدك بسلام وفقاً لكلمتك. فإن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته أمام كل الشعوب، نوراً يتجلي للوثنيين، ومجداً لشعبك إسرائيل... ثم قال لمريم أمه: إن هذا قد جعل لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل... (لوقا ٢ : ٢٥ – ٣٨).

لقد جاء الوقت الذي تفقد الله فيه شعبه ليفتديه، وأشرق على الجالسين في الظلمة نوره، وظهر، وفي ظهوره فتح باب الرجاء أمام النفوس اليائسة. فبنو إسرائيل وأنبياؤهم جميعا، عبروا عن حاجة البشرية إلى هذا المخلص، وإلى هذا الفادي الذي بمجيئه يكون الخلاص والفداء للإنسان ورجوعه إلى الفردوس الذي كان مغلقا في وجهه، بعد أن سقط في الخطيئة الأب الأول آدم، وفيه ماتت كل ذريته من بعده.

فاليهود إذن وغير اليهود من الأمم ومن الوثنيين، هؤلاء وأولئك جميعا عبروا عن حاجة البشر إلى الخلاص. ومن أجل هذا جاء المسيح ـ وهو الله الكلمة ـ في الوقت الذي اشتدت فيه الحاجة إليه وتحقق جميع الناس ذلك.

لذلك قال الكتاب المقدس: (فلما تمّ الزمان، أرسل الله ابنه مولودا لإمرأةٍ، مولوداً في حكم الشريعة ليفتدي (= ليشتري من جديد) الذين هم في حكم الشريعة، فنحظى بالتبني (= حتى نصير نحن أبناء الله) (غلاطية ٤ : ٤).

فمجيء المسيح برهان حبه لنا، ولطفه بنا، وعنايته واهتمامه بجنسنا (فبفضل رحمة إلهنا تفقّدنا المُشرقُ من العلاء) (لوقا ١ : ٧٨). لقد جاءنا وعاش معنا، وعاش ظروفنا وأحوالنا، ولمس متاعبنا لا لأنه كان جاهلاً بطبيعتنا، ولا لأنه كان غير عارف بظروفنا وآلامنا، إنّما لكي يشعرنا نحن بأنه أبونا وراعينا، وأنه مهتم بنا، لذلك جاء إلينا.

٤ ـ عيد الميلاد هو عيد التجسّد الإلهى

الغرض الأول والهدف الأكبر من تجسد المسيح هو الفداء، فلولا الفداء لما كان التجسد. ومن هنا كانت عظمة عيد القيامة بإزاء جميع الأعياد، لأنه لولا القيامة لما كان الميلاد... ومالم يكن المسيح قد قام مبرهنا بقيامته على لاهوته من جهة وعلى تحقيقه الخلاص من جهة أخرى، لما كنا فى حاجة لأن نحتفل فى عيد الميلاد لرجل عاش ثم مات، وبموته انتهت قضيته. لكننا نحتفل بعيد ميلاده لأننا نعرف من هو ونعرف مقامه اللاهوتى ومركزه فى الخلاص، وأنه هو الله الظاهر فى الجسد والذى بواسطته كان الخلاص..

ويمكن أن يضاف إلى هذا الهدف الأكبر للتجسد، هدف آخر له أهميته وقيمته، بحيث يمكن أن يقال إنّ الله فى تجسّده حقّقَ هدفا كبيرا فى لقائه بالإنسان، وفى هذا اللقاء دليل عناية الله بالإنسان. فلم يعد الله إلها يسكن وراء الجبال، كما تقدّمه لنا الميثولوجيا اليونانية وأساطير الرومان. ولكنه صار فى المسيحية قريبا إلى الإنسان وقد نزل خصيصا ليعيش مع الإنسان. ويشاركه اللحم والدم، ويشاركه آلامه ومتاعبه، ويكفكف من دموعه ويشفى أوجاعه. وهكذا كان المسيح صورة صادقة للرحمة الإلهية، وقد نزل إلى الأرض وعاش مع الإنسان، وشاركه فى الآلام والمتاعب. والذى يقرأ الإنجيل يرى ولاسيما فى إنجيل لوقا، صورة الله المشترك مع البشرية فى آلامها وأنه لم يرَ قط ضاحكا، كما يقول بيلاطس البنطى فى تقريره الذى رفعه إلى طيباريوس قيصر، والذى وُجِدَ على لوحة نحاسية فى روما وإنما رُئِى المسيح باكيا ورائيا ومشفقا وحزينا ومتألما. عانى كلَّ ما يعانيه أبأس الناس وأفقرهم وأضعفهم بحيث لانكاد نجد صورة فى الناس أشد إعداما وإملاقا وفقرا من الصورة التى قدمها لنا الإنجيل عن المسيح، الذي لم يجد له مكانا يأوى إليه حتى في وقت ميلاده، فنزل ضيفا على مملكة الحيوان، وبدلا من السرير كان مذود البقر له مهداً، وقد قال مرة (إنّ للثعالب أوجرةً، ولطيور السماء أوكارا، أما ابن الإنسان فليس له موضع يُسند إليه رأسه) (متى ٨: ٢٠)، (لوقا ٩ : ٥٨).

عاش نجاراً يُحصِّل قوته بكدّه وتعبه وعرقه وكفاحه ونضاله كعامل بسيط، وبعد أن تفرّغ للخدمة الجِهارية عاش مسكينا على صدقات المحسنين، وكان له صندوق، وهذا الصندوق كان يحمله التلميذ الخائن.. وكان على شهادة الإنجيل يستولى على ما كان فى الصندوق (يوحنا ١٢ : ٦).

عاش المسيح إذن فقيرا بكل ما فى الكلمة من معنى ولا يمكن أن نتصور حالة من الفقر أوضح من الحالة التى عاشها المسيح. وفى هذا يجد الفقير المسكين عزاءه. لأن الله عندما أخذ صورة الإنسان أخذ صورة أفقر فقير يمكن أن تخطر ببال أحد من البشر، ولم تكن له أثواب وإنما كان له ثوب واحد.. وأما طعامه فكان من أبسط الأنواع فكان هو الطعام السائد الذى يتمتع به كل فقير فى بلد كان يعتمد كثيرا على السمك، ولم نقرأ فى الكتب المقدسة ما يشير إلى أن المسيح تمتع بطعام خاص، وحقا إنه قَبِل دعوات من أشخاص كثيرين كان أكثرهم عشارين وخطاة وكان يجلس فى بيوتهم وعلى موائدهم، لكنه كان مشغولا بخلاص نفوسهم ولم يكن الطعام بالنسبة له غير طُعم يجذبهم به، كصياد حكيم يجذب السمكة ليخرجها من يَمّ الخطايا وبحر الآثام ليردّها إلى شاطئ الأمان.

إذن لقد تجسد المسيح، وفى تجسده خير وبركة للإنسان، لأنه عرف الله فيه، والله غير منظور لكنه صار منظورا فى المسيح. وكل صفات الله وكمالاته كانت معروفة فى أكثرها معرفة نظرية عن طريق الكتب المقدّسة أو عن طريق كتابات الفلاسفة والمفكرين، وأما فى العهد الجديد فأمكن للإنسان أن يعرف صفات الله وكمالاته معرفة مباشرة فى المسيح، الذى هو صورة الله الغير المنظور، ولم تعد صفات الله فى نظر الإنسان مجرد صفات يقرأ عنها ويدرسها فى كتاب أو يسمعها من معلّم، ولكنه صار يراها واضحة أمامه فى المسيح الذى عاش مع الناس وشاركهم حياتهم وتعامل معهم، ولذلك صار يعرف بابن الإنسان.

هذا هو المعنى الذى حينما تأمله القديس أوغسطينوس بارك من أجله خطيئة آدم، لأنه لولا خطيئة آدم لما كان جاء المسيح، وفى مجئ المسيح تحقق كل هذا الخير للإنسان، وكل هذه البركة، وظهر كل هذا الحنان، وهذا الإشفاق وتعلّم الإنسان العِلم كُلّه من فم الله، رآه بعينيه، وسمعه بأذنيه، وشاهده ولمسته يداه على ما يقول يوحنا الرسول. (ذلك الذى منذ البدء، ذاك الذى سمعناه، ذاك الذى رأيناه بعيوننا، ذاك الذى تأملناه، ذلك الذى لمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة (١. يوحنا ١ : ١) .

إنّ كُلَّ آباء الكنيسة تناولوا موضوع التجسد، وتأملوا فيه، وكتبوا عنه كتابات بروحانية كبيرة وتقوى واتصال وعمق ومحبة تقوية وتعبد. وكان التجسد مثيرا لهم، فحرّكهم ليعبروا عن مشاعرهم فى صلوات عميقة وفى تهليل وتسبيح وشكر وتمجيد، خلفته لنا كتاباتهم الباقى بعضها

إلى اليوم، والتى تدل فى مجملها وتفصيلها على مدى ما أحدثه موضوع التجسد فيهم من أثر عميق، ومن شدة انبهارهم وتعجبهم وشعورهم بهول المفاجأة، وعظمة الكرامة التى نالها الإنسان بتجسد المسيح الإله، تحدثوا دائما عن التجسد فى تهيب ووقار وعبّروا عن اتضاع عقولهم وعدم قدرتهم على أن يصوروا حقيقة التجسد التصوير الدقيق، وعبّروا عن عجز عقولهم عن فهم هذا التجسد والدخول إلى أعماقه وعبّروا عن ذهولهم وعدم قدرتهم على أن يفهموا كيف أن الله وهو حاكم الكون، وهو روح مطلق، يقبل أن يتخذ صورة آدمية ترابية.. وعبّروا عن عجز عقولهم عن أن يفهموا كيفية الاتحّاد بين اللاهوت والناسوت، ولذلك وصفوا هذا الاتحاد بأنه اتّحاد لا يُدرك ولا يعبَّر عنه، ولا يمكن تصورّه، ولا يمكن فهمه، وليس فى مقدور العقل الإنسانى أن يتصوره ولا أن يشرحه أو يعبر عنه تعبيرا أمينا دقيقا، ولذلك وصفوا التجسد بأنه (سر)، وذلك تعبيراً عن عجزهم عن إدراكه، وأنهم مهما تكلّموا عنه وأوضحوا حقيقته، فسيبقى لا قدرة لعقل الإنسان أن يعيها أو يفهمها أو يعبر عنها، وسيبقى التجسد أمراً خفياً ومستوراً. ويظهر هذا الاتجاه فى التفكير خصوصاً عند آباء كنيسة الأسكندرية، وهذا هو الطابع الخاص الذى يميّز لاهوت مدرسة الأسكندرية.. إنه طابع التهيب والاتضاع فى كلِ ما يتصل بالإلهيات، طابع فيه يُخضِع رجال الكنيسة وعلماؤها منطق الفكر لمنطق الإيمان، ويُخضِعون العقل للروح، ويحِلون التناقض بالحل الروحانى، ويعلون على التناقض الذى قد يصطدم به فكر الإنسان بالإيمان وبالروحانيات وبالأسرار الخفيّة العميقة.

٥ ـ فى عيد الميلاد المجيد

لو لم يأتِ السيّدُ المسيح بجديد لما قامت الدنيا بأسرها وقعدت لمجيئه، وقد تأثر جميع الناس بمبادئه سواء كان هذا التأثر تأثرا بالقبول أو بالرفض. وإذا كان المسيح له المجد لم يظهر إلاّ بعد فترة طويلة من الزمن، تناول الفلاسفة وعباقرة الفكر فيها الحقيقة من كلّ جانب، وأعملوا فيها قرائحهم، وحاولوا أن يصلوا إلى نتيجة يرضى عنها العقلُ من جهة، والضمير من جهة أخرى، إلاّ أنهم باءوا جميعا بالفشل وسلّموا صاغرين بأن الحقيقة عالية عن مستواهم، بعيدةً عن منالهم، وقد تفرّقت كلمتهم فلم يُجمعوا على رأى، وبعد أن ملك الغرور قلوبهم، وكانوا لا يؤمنون بغير عقولهم، عادوا فأقرّوا بعجز العقل وقصوره عن أن يصل إلى الحقيقة المطلقة الجامعة الكاملة، وازداد يقينهم فى ضعف المقاييس البشرية عن أن تبلغ بهم إلى الحقيقة فى ذاتها... فلماذا إذن أقبل كثير من الخلق، ومنهم فلاسفة مبرزون، على دين المسيح فى ذلك الزمن؟..

لابدّ أنهم رأوا فيه ما يقنع عقولهم من جهة، ويُشبع قلوبهم من جهة أخرى، ولابد أنه كان فى مبادئ المسيح جدّة وطرافة، تعلو على كل ماعرفته الإنسانية فى كل ماضيها الطويل! ...

ولسنا نريد أن نتناول هنا غير المبادئ الإنسانية العامة، والقيم الخلقية التى تبرز فى تعاليم المسيح له المجد.

فقد أعلن المسيح فضيلة الحبّ بصورة جديدة وطريفة، فما كان الناس يعرفون فى الوثنية عن الإله إلا أنه القوىّ، القاهر، المنتقم من كلّ من يتجاوز أوامره، وكان العابد فى صلاته يمثل أمام معبوده فى فزع وهلع، يقدم الضحية ليتقى بها شرّ الإله عن نفسه وعن عياله، أما الله كما علّم به المسيح، فهو الأب الشفوق، الذى أحبّ الناس فخلقهم، وهو يهتم بهم كأولاده، يرعاهم من العُلى، ويراقب ضمائرهم وأفعالهم، يحنو عليهم ويرثى لهم، ويغمرهم بآلائه ونعمائه، يتلطف بهم إن أخطأوا، ويغفر لهم إذا تابوا، ويفرح بهم إذا تمموا مشيئته فنشروا فى العالم الخير الذى يصدر عنه ويفيض منه، فهم أبناؤه، ودعاة جودته وصلاحه، يقاومون الشر بالخير، ويطردون الظلام بالنور، سلاحهم الإيمان، وسيفهم البرهان، وما زاد على ذلك فهو من الشرير.

هذا هو الحبّ الإلهى، الذى يغمر قلب الإنسان فيمسك عنه مشاعره ويستلب لبّه، فيصير لربّه عبداً، ولحبه أسيرا، يتأمل الله فيؤمن به، ويتعلّق به، فيصبح الله معشوقه الأول، فيهبه كلّ قلبه

وكل عقله، حتى يفنى عن نفسه، فتفنى أنانيته، ويغدو شبيها بالله، تفكيره فى الله ومن الله، أو إن شئت فقل: هذا هو الشخوص فى الله، والاتحاد مع الله، أو هو الفناء، والبقاء بعد الفناء...

ثمَ مدَّ المسيح من آفاقِ الحبّ فجعله فضيلة إنسانية أو إجتماعية، فلا سيطرة، ولا نفعية أو أثرة أو أنانيـة أو إنتقـام أو ثأر، ولكنه الحبّ الذى يجب أن يسود بين الناس فى صلتهم بمن يعيشون معهم ويُعايشونهم.

إنه حب... وأى حب؟... حب عامـر غـامـر من القلب، حب كـامل بغير حـدود أو قيـود أو سدود، حبّ شامل لجميع الناس، من كل الأجناس ومن كل الأديان، ومن كل اللغات، ومن كل الطبقات، وللجميع فى كل العصور، ألا سحقا للعداوة أو الكراهية، فهى صفة ليست للناس، بل لمن أرادوا أن يحيوا كالوحوش الضارية، يصرع القوى منهم الضعيف... أما من يسلكون بالحب، فهم أبناء أبيهم الذى فى السماوات، فإنه يجعل شمسه تشرق على الأشرار والصالحين، وينزل المطر على الأبرار والظالمين...

ومعنى هذا أيضا أنَّ الحبّ يمتد فيشمل الأعداء، فضلا عن الأصدقاء «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا من أجل الذين يُسيئون إليكم ويضطهدونكم، باركوا ولا تلعنوا»... «إن جاع عدوّك فأطعمه، وإن عطش فأسقه».

وليس الحبّ فلسفة فكرية، وإنمّا هو حياة عملية. وليس هو بالكلام واللسان، وإنما بالحق والعمل، فهو حب طاهر بغير غرض، دعامته الإخلاص، وقوامه التضحية، فكل أعمالنا فى المجتمع من تعليم للأطفال إلى إهتمام بالمرضى إلى علاج للشواذ والمجرمين، كلّ هذه بدون الحب لا مبرر لها، ولا دافع إليها، ولا نفع منها يُرتجى...

وإذا كـان الحـب للجميـع، فالجميـع أقربـاء بالحـب لا بالحسب أو النسب... هـذا هـو مبـدأ الإنسانية "HUMANISME" أن يحيا الناس جميعا أخوة متحابين لا أعداء متنابذين.

ومن الحب تنبع القيم الإنسانية والإجتماعية، أما الإنسانية فلأنَّ الفرد فى نظر المسيح شخص له كـيانه الذاتى، وليس وسيلة، ولكنه غـاية فى ذاته، ومـادام كل شـخص آخـر غـاية فى ذاته، فالناس جميعا سواء. «فلا يهودى أو يونانى، ولا عبد أو حر، ولا رجل أو إمرأة».

وهكذا قضى المسيح على النعرة الجنسية، وأبدلها بالإخوة البشرية والمساواة الإنسانية، وقضى على عبودية المرأة، وعبودية الرقيق، وقد نسى ابراهام لنكولن مبادئ المسيح يوم أن قاد حربا أهلية طاحنة بين الولايات المتحدة الأمريكية ليقرر مبدأ حرية العبيد، وقد انتصر العبيد أخيرا ولكن ليحيوا مشَّردين بلا مأوى أو قوت تُلِح عليهم ضرورات الحياة على طلب الأود بالسلب والنهب وضروب الفساد...

إنَّ المسيح لم يقد حركة إجتماعية، ولم يدعُ إلى قلْب نظام إجتماعى قائم، ولو قصد لفعل، ولكن هذه ليست مهمته لأنَّ رسالته أن يصلح الفرد، ولأنّ النظام مهما يكن صالحا قابل للفساد إذا أشرفت على تطبيقه شخصيات فاسدة، ويوم أن سألوه: أنعطى جزية لقيصر؟.. تناول دينارا، وسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟.. فأجابوا: لقيصر.. قال: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

فليست العبرة بالنظام، بل بالأشخاص، فالفرد إذا كان قلبه طاهرا، وروحه عالية، كان حاكما صالحا إذا ملك، أو رأس، وكان لأسرته ولمجتمعه نافعا، أبا بارا بأولاده، أو زوجا وفيا لإمرأته، أو سيّدا كريما رحيما بمرؤوسيه وخدمه.

وكذلك الخادم إذا صلحت حياته الخاصة أصبح خادما أمينا فلسنا فى حاجة إلى ثورة إجتماعية مدمرة مهلكة، نقتل فيها المخالفين المارقين، فليتجه الإصلاح للفرد أولا، وبعد أن ينضج وعى الجميع، يصبح الكل مواطنين صالحين، يوم ذاك يسود الخير بين الجميع، ويطهر المجتمع وينقى، ويرقى فى مدارج العلى قدما...

سيدي يسوع المسيح، هل يتدارس الناس اليوم مبادئك من جديد ـ المسيحيون أولا قبل غيرهم ـ لعلّهم يُفيقون، فقد نسوا أنك مخلص العالم...

٦ - روح السلام فى ملك السلام وصانع السلام

لم يكن بغير قصد أو تدبير أن يجئ المسيح إلى دنيانا فى سكون الليل وهجعة الخليقة، فقد كان السكون بهذا المعنى يلائم طبيعته، وطبيعة الرسالة التى جاء من أجلها. ولذا لم يشأ أن يزعج بقدومه أحداً، أو يثير من حوله ضجة، بل أتى والناس نيام، فلم ينتبه لمجيئه فى ليلة الميلاد غير رعاة ساهرين أنبأتهم بمجيئه ملائكة من السماء. فكان ذلك علامة على روح السلام فى ملك السلام.

وُلِد المسيح بالجسد بعيدا عن الأهل والأصدقاء والجيران، بعيدا عن كل أحد حتى فى الخان أو الفندق الصغير الذى وُلِد فيه، بالفعل لم يكن له فيه مكان «فولدت (مريم) ابنها البكر وقمّطته وأضجعته فى مذود، إذ لم يكن لهما مكان فى الفندق». فلما لم يشأ أحد من الناس أن يُفسح له فى منزله مكانا لم يشأ هو أن يقهر أحدا على قبوله. وهكذا ارتضى المسيح أن ينزل ضيفا على مملكة الحيوان، بعيدا عن الناس وإن كان قد جاء من أجل الناس.

ولئن كان هذا شرفا حَظِى به الحيوان وحُرِم منه الإنسان، لكنه تدبير عجيب، يُنبئ عن روح السلام فى رئيس السلام.

مظاهرة روحانية :

إنّ ملائكة السماء أبت إلا أن تجئ معه فى موكبه السماوى. وقد أدركت ما حلّ على الأرض من خير وبركة وسلام، فأضاءت البادية وهى تلتحف بالظلماء، وأشرق على رعاة الغنم نور عظيم، وظهر جمهور من الجند السماويين يُسبحون الله ويُنشدون نشيدا ما أحلاه : «المجد لله فى العُلى، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة». فكانت هذه المظاهرة الروحانية السماوية علامة أخرى على روح السلام فى ملِك السلام. نعم، وعلى الأرض السلام!

فمهما مادت الأرض بالنزاعات والحروب والمخاصمات التى يثيرها الناس لسبب أو لآخر، سواء كان ذلك فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل القريب أو البعيد، فالمسيح له المجد كان ولم يزل وسوف يظل دوما ملك السلام.

مَن مِنَ الناس زفّته الملائكة يوم مولده كما فعلت ليلة ميلاد المسيح فى بيت لحم؟! أليس هذا بيّنة على طبيعته وطبيعة الرسالة التى جاء يغزو بها عقول الناس وقلوبهم، وهى رسالة هادئة

صافية طاهرة، ومع ذلك فهى أيضاً رسالة عميقة نافذة وفاعلة، أحدثت على الرغم من هدوئها ثورة حقيقية قلبت مفاهيم، وحطمت مبادئ، وأقامت بدلا منها مفاهيم جديدة، ومبادئ جديدة، وستظل مبادئه دائما جديدة لا تبلى ولا تفنى، مطبوعة بطابع الأبد.

روح السلام :

ولم يكن مسلكه يوم مولده فى بيت لحم مسلكا خلصا اقتضته ضرورة الساعة، فإنّ السيد المسيح قد سلك طريق الوداعة والسلام على الدوام، لم يستعمل العنف أو القسوة، ولم يلجأ إلى القهر والتجبر، بل كان يترك للبشر حرياتهم، ويكتفى بأن ينير الطريق أمامهم، فَيُبَصِّر الناس بالخير ويقنعهم بالحجة والدليل ويهديهم سواء السبيل.

لقد ذهب مرة إلى قرية فرفض أهلها أن يقبلوه فلم يشأ أن يدخلها. ولو شاء لقدر. فغضب تلميذان من حوارييه، وأراداه أن يُنزل على القرية وأهلها نارا من السماء لتحرقها وتُدمِّرها، فأبى وقال: لستما تعلمان من أى روح أنتما، لأننى لم آتِ لأهلك نفوس الناس بل لأحييها، معلّما إياهما أنَّ روح المسيح روح سلام.

وقد سار تلاميذه المخلصون على طريق معلّمهم، فلم يعرفوا الغلظة أو التجبر، بل كانوا يُضيئون طريق الناس بالتعليم الصحيح ثم يتركونهم بعد ذلك أحراراً يقبلون تعليمهم أو ينصرفون عنه.

وليست روح السلام كما علّمها المسيح روح السلبية أو الخنوع، وليست هى روح الضعف أو الاستكانة أو الذلة، وليست هى الهرب حتى من الألم.

قوة الضعف :

مع وداعته وطهره وكمال صفاته، ومع إنه لم يصنع بأحد شراً، وإنما صنع بالناس كل خير، لكن اليهود خاصموه وقاوموه، وأخيراً تجمهروا عليه وصلبوه.

ولما وقف للمحاكمة أمام بيلاطس الوالى الرومانى، كان صامتاً وساكناً وكان قادة اليهود يوجهون الإتهامات إليه فلا يجيب بشئ.. فقال له بيلاطس: «أما تسمع كل هذا الذى يشهدون به عليك؟». فلم يُجبه بكلمة حتى لقد دهش الوالى جدا. فقال له بيلاطس: «لماذا لا تكلّمنى؟ أما تعلم أن لى سُلطانا أن أصلبك؟ وسلطانا أن أطلق سراحك؟». فلما قال له الوالى هذا أجابه المسيح على الفور: «ليس لك علىّ سلطان البتة مالم تكن قد أُعطيت من فوق».

تكريم للفقراء

كل من أصغى إلى المسيح أحبّه وهابه. لذلك كانت تتبعه الجماهير بالألوف وعشرات الألوف حتى كان يدوس بعضهم بعضا. وكانوا يجدون فى تعليمه «قوة جاذبة» وقوة «فاعلة. وكانت تخرج منه قوة» لشفاء النفوس وشفاء الأجساد، وإقامة الموتى، وطرد الشياطين.

لقد علّم المسيح بالسلام لا عن ضعف، بل عن قوة، لأن روح السلام هى روح القوة. أما العُنف فهو الضعف، ضعف النفس عن ضبطها لذاتها. ولذلك فإنّ من حسبوا مبادئ المسيح مبادئ ضعف، لم يفهموا روح السلام، ولا معنى السلام.

والناس قد يتخاصمون ويتحاربون بدافع النزوات العارضة. وفى القديم كانت كلمة واحدة يقولها ملك أو رئيس تثير ملكا آخر أو رئيسا آخر، فيعلنها حرباً شعواء يفنى فيها خلق كثير.. أما اليوم، وقد تبين الناس بلايا الحروب وأنها تجهز على الأخضر واليابس، ولا فرق فى ذلك بين غالب ومغلوب، صار الناس جميعاً مؤمنين بقوة السلام.

ثم لنتأمل ميلاد المسيح فى مذود للبقر لنتعلّم حبه ورحمته.

كيف وُلِد من أفقر عذراء فى أفقر بقعة فى الوجود، مذود للبقر؟!

هل لفقير فى الوجود أن يُنافس المسيح فى فقره؟

هل للفقراء بعد ذلك أن يحزنوا أو يتذمروا أو يُجدّفوا على الله؟

إنّ المسيح بميلاده فى مذود للأبقار فى خان صغير وحقير، قد شَرّف الفقر، وكَرّم الفقراء إذ صار كواحد من أفقر فقرائهم بل لعله ارتضى أن يكون بالفعل أشدهم ضنكا وأرقهم حالا. وبذلك أنصفهم إذ انحاز إليهم وجعل ذاته واحدا منهم، فجذب إليهم عن هذا الطريق قلوب المترفعين عليهم والمنعزلين عنهم.

عاش يعمل بيديه

انضمّ إليهم فجبر كسرهم ورد اعتبارهم ولفت الأنظار إليهم، ورفع معنوياتهم وأشعرهم أنه عارف بأحوالهم، وأنه مهتم بهم أكثر من غيرهم، لذلك نزل إليهم وشاركهم فقرهم وشقاءهم.

أية إشتراكية اسمى دلالة من إشتراكية المسيح الذى اختار أن يولَد فى مذود للأبقار فى قرية صغيرة مغمورة، وهى قرية بيت لحم؟! ولكن لم تعد قرية بيت لحم مغمورة ولعلها أصبحت أشهر

من كبرى عواصم العالم! لقد صارت مزارا ومحجا لكل الشعوب. قصدها الملوك ووضعوا على أرضها تيجانهم، تعبيرا عن اتضاع أمام الغنيّ الذى من أجل الناس افتقر، حتى نغتنى نحن بفقره.

وشاء دائما أن يُواصل عمل الفقير، فعاش طوال فترة وجوده على الأرض فقيرا يأكل ما يأكله الفقراء ويلبس ما يلبسون، ويشتغل بيديه كنجّار يصنع بابا أو يُصلح نافذة ويقنع بالقليل من كل شئ..

وعندما أعلن ذاته كقائد روحى كان دائما ينحاز إلى الفقراء، يحنو عليهم ويُنصت إلى شكواهم ويمدّ يده إلى معونتهم. وكان يمشى معهم وإليهم وعلى قدميه، يزحمونه فيحتملهم. وهمّوا يوماً من فرط إعجابهم به ومحبتهم له أن يختطفوه ليقيموه ملكا. فلم يناقشهم حتى لا يجرح شعورهم، أو يصد رغبتهم بل اكتفى أن يتحول عنهم ويمضى، فلم يشعروا به عندما اختفى عنهم وابتعد. وحتى فى اليوم الذى قبل فيه تحيتهم وهتافهم له، وسعف النخل فى أيديهم وهم يصيحون «أوصنّا» أى «خلّصنا» لم يشأ أن يدخل أورشليم ممتطيا صهوة جواد، كما يفعل الملوك، لكنه دخل أورشليم كفقير، راكبا على جحش صغير ما ركبه أحد من الناس قط..

لهذا أحبه الفقراء :

هذا هو مولود بيت لحم الذى قضى على أرضنا نيفا وثلاثة وثلاثين عاماً عانى فيها كل أسباب الفقر حتى لقد قال مرة يصف فقره «إن للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكارا، وأما ابن الإنسان فليس له موضع يُسنِد إليه رأسه». وقال عنه أحد رسله «افتقر لأجلكم وهو الغنى لتغتنوا أنتم بفقره»

هذا هو المسيح الذى بشرت بميلاده الملائكة، رعاة فى البيداء فذهبوا إليه، وقدموا له خضوعهم وولاءهم قبل أن يسجد له المجوس الأغنياء.

هذا هو المولود العجيب، الكائن السماوى فى صورة طفل، هو شفيع الفقراء وحاميهم. ولقد دافع عنهم دفاعا لم يعرفه العالم من قبل أو من بعد، حتى أنه دعاهم «إخوته». وقال إنه يوم ينزل للحساب ديانا فلسوف يسأل الأغنياء عما فعلوه بالفقراء.

لهذه الأسباب أحبه الفقراء وعامة الشعب لأنهم رأوا حنانه عليهم ورفقه بهم، ولمسوا فيه أنه كان يدافع عنهم ويوبخ الرؤساء والأغنياء من أجلهم.

ولهذه الأسباب نفسها كرهه زعماء اليهود وقادتهم، وأخذوا يحيكون له الفخاخ ويتربصون به الدوائر. ومع ذلك لم يفلحوا فى حمل الناس على كراهيتهم له.

إن أورشليم القدس سُمِّيت كذلك لأنها مدينة السلام وهى مدينة المسيح، لأنه هو سلامها.. فلما جاء إلى أهلها يمد إليهم يد السلام رفضوه وقاوموه، فنعاها باكيا عليها لأنهم لم يفهموا رسالته.. وقال «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها!»

هل يدرك العالم اليوم هذا الدرس الثمين فى يوم ميلاد رب السلام وملك السلام وصانع السلام؟!.

٧ ـ المولود... ملكاً... وملكاً إلى الأبد (١)

للمسيح وجودان: وجود قبل الزمان، ووجود في الزمان. ووجوده في الزمان هو ما اصطلح عليه بالميلاد. وميلاد المسيح ليس كميلاد أي طفل آخر. إن ميلاد طفل هو بدء وجوده. أما ميلاد المسيح فشئ آخر. ميلاده هو وجوده في الزمان.. وعيد ميلاده هو عيد تجسده في الزمان..

عندما جاء المجوس من بلاد المشرق وهي بلاد الفرس أو ايران إلى أورشليم في موكب عظيم، يتقدمهم ثلاثة من عظمائهم وحكمائهم وعلمائهم وهم أيضاً رؤساؤهم أو ملوكهم، جاءوا يقولون ويتساءلون (أين هو **المولود ملك اليهود**، فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له) (متى ٢ : ٢) . فهذا المولود ملك، وقد أتى المجوس من بلادهم، وساروا في موكبهم مدة تقدر بثلاثة أشهر ليسجدوا للمولود الملك، ويقدموا له وهو وليد، هداياهم، وقرابينهم من الذهب واللبان والمر، وقالوا: إنّ زعيمنا زرادُشت (وقد نبغ حول منتصف القرن السابع قبل الميلاد وتوفى حوالى ٥٨٣ ق.م) قد أنبأنا بأنه سيولد في فلسطين مولود أصله من السماء، وسوف يتعبد له كثيرون. وفي وقت ميلاده يظهر نجم غريب. ولسوف تهتدون بهذا النجم إلى حيث هذا المولود الإلهي. فمتى رأيتم النجم سيروا وهو يتقدمكم، واحملوا معكم إلى المولود قرابينكم من الذهب واللبان والمر، فإنه الكلمة مقيم السماء. أمّا الذهب فلأنه ملك. وأما اللبّان فلأنه معبود، وأما المرّ فلأنه الفادى والمخلّص.

وقد تم بهذا ما أنبأ به الوحي الإلهي في سفر المزامير (أمامه يجثو أهل البادية، وأعداؤه يلحسون التراب. ملوك ترشيش والجزائر يحملون إليه الهدايا، ملوك شبأ وسبأ يقربون له العطايا. ويسجد له جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم) (مزمور ٧١: ٨ – ١١) .

وعندما جاء الملاك جبرائيل إلى العذراء القديسة مريم ليبشرها بحملها للمسيح الكلمة قال لها: السلام لكِ أيتها الممتلئة نعمة. الربّ معك، مباركة أنت في النساء... قد نلت نعمة عند الله. وها أنت ذى ستحبلين وتلدين ابنا تسمينه يسوع وسيكون عظيماً وابن العليّ يدعى، وسيعطيه الربُّ الإله **عرش داود أبيه ، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه**

---

(١) كتب الثلاثاء ٢٥ من ديسمبر ١٩٨٤م ـ ١٦ من كيهك ١٧٠١ ش.

إنقضاء (لوقا ٢ : ٢٨ - ٣٣) . فالذى ولد من مريم، وهو المسيح يسوع ملك، وملك إلى الأبد، ولن يكون لملكه إنقضاء (إرميا ٢٣ : ٥، ٦) .

هذا هو الذى أنبأ عنه النبى دانيال فى القديم قائلا إنه (أوتى **سلطانا ومجداً وملكا**، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه. **وسلطانه سلطان أبدى مالن يزول، وملكه لا ينقرض**) (دانيال ٧ : ١٣، ١٤) وقال عنه أيضاً (**وسيكون ملكه ملكا أبديا** ويعبده جميع السلاطين ويطيعونه) (دانيال ٧ : ٢٧)، (٦ : ٢٦)، (مزمور ٢ : ٨) .

لهذا لم يكن عبثا أن تتحرّك ملائكة السماء لتستقبل مجيئه فى ليلة ميلاده، وتعلن عنه للرعاة فى البادية (وإذا بملاك الرب يظهر فجأة قبالتهم، ومجد الرب يضئ من حولهم، فارتعبوا إرتعابا شديدا. فقال الملاك لهم: لا تخافوا، فها أنا ذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ ولد لكم اليوم فى مدينة داود (بيت لحم) مخلّص هو المسيح الرب... ثم ظهر بغتة مع الملاك كوكبة من جند السماء يسبحّون الله قائلين: (المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته) (لوقا ٢ : ٨ - ١٤) .

ولذلك كانت دائما ملائكة السماء فى خدمته، كما جاء مثلا فى (متى ٤ : ١١)، (لوقا ٢٢ : ٤٣)، (متى ٢٦ : ٥٣) .

وقبيل نهاية رحلته على الأرض شاء أن يدخل أورشليم، قبل صلبه بستة أيام، راكبا على جحش، فى موكب رسمى، معلنا أنه بعينه الملك الذى أنبأ عنه الوحى الإلهى فى سفر نبوءة النبى زكريا، مخاطبا أورشليم (ابتهجى جداً يابنت صهيون، واهتفى يابنت أورشليم، هوذا **ملكك** يأتى إليك، هو عادل ومنصور ووديع، وراكب على أتان وجحش ابن أتان) (زكريا ٩ : ٩) . ومع أن السيد المسيح كان دائما يسير على قدميه، لكنه فى هذه المرة رأى أن يدخل أورشليم راكبا على جحش ليلفت النظر إلى حقيقة أنه الملك الذى أنبأت عنه الأنبياء بوحى من الله، فى القديم، خصوصا وأن وقت عودته إلى السماء التى نزل منها قد اقترب، فكان لابدّ أن يُبرز هذه الحقيقة الخلاصية حتى لا تغيب عن الأذهان فى خضم الأحداث المتتابعة.

هذا هو اليوم المعروف بأحد الشعانين أو أحد السعف، حيث (بسط جمع عظيم جداً ثيابهم فى الطريق، وقطع آخرون أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق، والجموع الذين كانوا يسيرون

أمامه والذين كانوا يسيرون خلفه، كانوا يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم على كل ماشاهدوا من القوات، يهتفون قائلين: المجد لمخلِّصنا ابن داود، مبارك **الملك** الآتى باسم الرب. السلام فى السماء. والمجد فى الأعالى. مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب. المجد لمخلِّصنا فى الأعالى. مبارك الآتى باسم الرب **ملك إسرائيل**) (متى ٢١: ٨، ٩)، (مرقس ١١: ٨ – ١٠)، (لوقا ١٩: ٣٦ – ٣٨)، (يوحنا ١٢: ١٢، ١٣).

وقد روى الإنجيل للقديس متى ـ قصة دخول المسيح ملكا فى أحد الشعانين، راكبا على جحش ثم عقّب قائلاً: (وقد كان هذا ليتمّ ما قيل بفم النبى القائل: قولوا لإبنة صهيون: هوذا **ملكك** يأتيك وديعاً راكباً أتانا وجحشا ابن أتان) (متى ٢١: ٤، ٥). وكذلك روى الإنجيل للقديس يوحنا قصة دخول المسيح ملكا إلى أورشليم وعقّب قائلا: (كما هو مكتوب: لا تخافى يا إبنة صهيون، هوذا **ملكك** يأتى إليك راكباً على جحش ابن أتان) (يوحنا ١٢: ١٤، ١٥).

وقال فيه الوحى الإلهى بفم النبى إشعياء يصف ميلاده فى الزمان أو بالأحرى تجسده وأنه المولود ملكا (لأنه يولد لنا ولد، ونعطى إبنا، وتكون **الرئاسة على كتفه**، ويُدعى اسمه عجيبا مشيرا، إلها قديراً، أبا الأبد، رئيس السلام. **لنمو رئاسته وللسلام لا نهاية له، على عرش داود ومملكته**، ليثبتها ويوطدها بالحق والعدل، من الآن إلى الأبد) (إشعياء ٩: ٦، ٧). ولنذكر هنا ما قاله الملاك جبرائيل للعذراء القديسة مريم (وسيعطيه الرب الإله **عرش داود أبيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه إنقضاء**) (لوقا ١: ٢٢، ٣٣) وبهذا المعنى وبهذا التعبير هتف نثنائيل أو برثولماوس الذى صار فيما بعد أحد تلاميذ المسيح الإثنى عشر، وقد انبهر من علمه بماضيه من أول لقاء له به (يامعلِّم أنت ابن الله، أنت **ملك إسرائيل**) (يوحنا ١: ٤٩).

ولقد اتخذ قادة اليهود من هذه الحقيقة المعروفة عندهم عن المسيح بحسب أقوال الأنبياء موضوعاً لإتهام يسوع الناصرى أمام الحاكم الرومانى لإثارته بتهمة التمرد على قيصر الرومان، حتى يحكم عليه بالصلب، (وأخذوا يتهّمونه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة... مدّعيا أنه **المسيح الملك**) (لوقا ٢٣: ٢) ولما رأوا أنّ بيلاطس يريد أن يُطلق سراحه (أخذوا يصيحون قائلين: إن أنت أطلقت سراحه فلست محبا لقيصر، لأنّ كل من يجعل نفسه ملكا إنما يقاوم قيصر) (يوحنا ١٩: ١٢).

ولذلك وقع بيلاطس فى حرج (ودعا إليه يسوع، وقال له: أأنت **ملك اليهود**؟ فأجابه يسوع قائلا: أمن نفسك تقول هذا أم قال لك آخرون ذلك عنى؟) ثم أضاف ليطمئنه قائلا: (إنَّ **مملكتى ليست من هذا العالم**... فقال له بيلاطس: أفأنت إذن **ملك**؟ أجاب يسوع قائلا: **نعم، أنا هو كقولك**. لأجل هذا ولدت أنا، ولأجل هذا جئت إلى العالم) (يوحنا ١٨ : ٣٣ – ٣٧)، (متى ٢٧ : ١١)، (مرقس ١٥ : ٢).

ولذلك فإنهم لكى يسخروا منه (ألبسوه رداء قرمزيا) كرداء الملوك، وبدلا من التاج الذهب الذى يضعه الملوك فوق رؤوسهم (ضفروا **تاجاً** من الشوك ووضعوه على رأسه، ووضعوا **قصبة فى يمينه**، ثم راحوا يجثون على ركبهم أمامه ويهزأون به قائلين: السلام **ياملك اليهود**..) (متى ٢٧ : ٢٨، ٢٩)، (مرقس ١٥ : ١٢، ١٧، ١٨)، (يوحنا ١٩ : ٣).

(ووضع بيلاطس لافتة على الصليب، كتب فيها: يسوع الناصرى **ملك اليهود**.. وكانت مكتوبة بالعبرانية واللاتينية واليونانية. فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس: (لا تكتب أنه **ملك اليهود**، بل إنه هو قال: أنا **ملك اليهود**. فأجاب بيلاطس قائلا: ما كتبتُ قد كتبتُ) (يوحنا ١٩ : ١٩ – ٢٢)، (متى ٢٧ : ٣٧)، (مرقس ١٥ : ٢٦)، (لوقا ٢٣ : ٣٨).

بل واتّخذ اليهود من هذا الموضوع مادة لسخريتهم بالمسيح المصلوب. قال الإنجيل (وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والشيوخ قائلين: خلَّص آخرين ولا يستطيع أن يخلِّص نفسه، إن كان هو **ملك إسرائيل** فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به) (متى ٢٧ : ٤١، ٤٢)، (مرقس ١٥ : ٣١، ٣٢).

وجنود الرومان أيضاً اتخذوا من المسيح المصلوب نفس الموقف. قال الإنجيل (وكذلك الجنود كانوا يسخرون منه، وقد دنوا منه وقدّموا له خلاً، قائلين له: إن كنت أنت **ملك اليهود** فخلِّص نفسك) (لوقا ٢٣ : ٣٦، ٣٧).

وبيلاطس البنطى الحاكم الرومانى عندما كان قادة اليهود أمامه يشكون إليه يسوع المسيح قال لهم إنه لم يجد فيه ما يستوجب الحكم عليه ثم سألهم (ولما كانت قد جرت العادة عندكم أن أطلق لكم فى الفصح سراح واحد، فهل تريدون أن أطلق لكم سراح **ملك اليهود**؟) (يوحنا ١٨ : ٣٩)، (مرقس ١٥ : ٩) ثم (قال بيلاطس لليهود: **ها هوذا ملككم**. أما هم فصاحوا قائلين: ارفعه، ارفعه، اصلبه. قال لهم بيلاطس: **أأصلب ملككم**؟ فأجاب رؤساء الكهنة قائلين: ليس لنا ملك إلا قيصر) (يوحنا ١٩ : ١٥).

وقد أكد المسيح سلطانه كملك فى قوله لتلاميذه بعد قيامته المجيدة من بين الأموات (إنى قد أُعطيت كل سلطان فى السماء وعلى الأرض) (متى ٢٨ : ١٨)، (٢٦ : ٦٤)، (١١ : ٢٧)، (يوحنا ٣ : ٣٥)، (١٣ : ٣)، (١٧ : ٢).

وقد أوضح العهد الجديد أن اسم المسيح (**يفوق كل اسم**) وأنه (**تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض، ومن تحت الأرض**) (فيلبى ٢ : ٩، ١٠)، وأنه الملك (**فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة، وفوق كل اسم يسمّى، ليس فى هذا الدهر فقط، بل فى الدهر الآتى أيضاً**) (أفسس ١ : ٢١)، (أعمال الرسل ١٧ : ٧)، وأنه (**رب يسود على الأموات والأحياء**) (رومية ١٤ : ٩)، (**وإنه أخضع كل شئ تحت قدميه**) (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٧) **ويملك على الكل** (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٥) وأنه (**هو رأس كل رئاسة وكل سلطان وكل قوة**) (كولوسى ٢ : ١٠)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٤)، **وطغمات** (**الملائكة والسلاطين والقوات**) (١ . بطرس ٣ : ٢٢)، (العبرانيين ١ : ٦). ثمّ إنه (له على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: **ملك الملوك** ورب الأرباب) (سفر الرؤيا ١٩ : ١٦)، (١٧ : ١٤)، (١ . تيموثيئوس ٦ : ١٥) وهو (**الملك الديان**) (متى ٢٥ : ٣٤، ٤٠)، وهو (**ملك القديسين**) (الرؤيا ١٥ : ٣)، (٢٠ : ٤، ٦)، (**وله ملك العالمين، وسيملك إلى أبد الآبدين**) (الرؤيا ١١ : ١٥، ١٧) ومن هنا كان دعاء ديماس اللص الذى صلب عن يمينه، فقد آمن بأنه الملك الذى يملك وسيملك إلى أبد الدهور فصاح وهو على الصليب إلى المسيح المصلوب قائلا: (أذكرنى يارب متى جئت **فى ملكوتك**) (لوقا ٢٣ : ٤٢) وذات المطلب سأله إياه تلميذاه يعقوب ويوحنا (أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك فى **ملكوتك**) (متى ٢٠ : ٢١)، (مرقس ١٠ : ٣٧). وهى المملكة الأبدية التى أشار إليها النبى دانيال بقوله: (يقيم إله السماوات **مملكة لن تنقرض أبدا، وملَكُها لا يترك لشعب آخر، فتسحق وتفنى جميع تلك الممالك، وهى تثبت إلى الأبد**) (دانيال ٢ : ٤٤).

* * *

وها إننى، ياسيدى ويامولاى، يامن بغير تحوّل تجسّدت وتأنست، أهتف نحوك فى ضراعة وابتهال (أذكرنى يارب، متى جئتَ فى ملكوتك).

٨ - الإختيار الملهم لفصول القراءة في ليلة عيد الميلاد المجيد

مما يثير الإنتباه حقاً ويدعو إلى التأمل والاعتبار، إختيار فصول القراءة في صلوات ليلة عيد الميلاد المجيد. ذلك أنّ فصل الإنجيل الذي يُتلى في رفع بخور باكر مأخوذ من الإنجيل للقديس يوحنا، ويبدأ بقول الوحي الإلهي (والكلمة اتّخذ جسداً) (يوحنا ١ : ١٤) . ثم يمضي النصّ قائلاً: (وحلَّ بيننا، وقد أبصرنا مجده، مجدَ الابن الوحيد لأبيه، الممتلئ من النّعمة والحقّ. وقد شهدَ يوحنّا له، ونادى قائلاً: (هذا هو الذّي قُلتُ عنه إنّ الذي يأتي بعدي قد تقدّمني، لأنه كان قبلي. ومن ملئه نحن جميعنا أخذنا. ونعمةً أخذنا بدلاً من نعمة. لأنّ الشريعة بموسى أُعطيت، وأمّا النعمة والحق فبيسوع المسيح كانا) (يوحنا ١ : ١٤ - ١٧) .

بينما أنّ فصل إنجيل القُدّاس مأخوذ من الإنجيل للقديس متى الذي يروي قصّة مجئ المجوس إلى أورشليم باحثين عن (المولود ملك اليهود) ليسجُدوا له وليقدموا له هداياهم، وذلك بناء على نبوءة سابقة كان قد أنبأهم بها زُرادشت زعيم المجوسية في تاريخ سابق (وإذ وُلِدَ يسوع في بيت لحم التي بإقليم اليهودية في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس جاءوا من المشرق إلى أورشليم قائلين (أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له) (متى ٢ : ١، ٢) .

وهنا يتساءل الإنسان: كيف يُقرأ في الكنيسة في ليلة عيد الميلاد، في رفع بخور باكر، وفي القُدّاس، فصلان، لا يتحدث أي منهما عن قصة الميلاد ذاتها كما رواها الإنجيل للقديس لوقا حيث يتناول ظهور الملاك للرعاة الساهرين في البيداء، وتبشيره لهم بميلاد المسيح له المجد في ذلك اليوم عينه، بقوله: «وكان في تلك الناحية رعاة بالبادية يتناوبون السّهر بالليل في حراسة قطعانهم. وإذا بملاك الربّ يظهر فجأة قبالتهم، ومجد الرب يضئ من حولهم، فارتعبوا ارتعاباً شديداً. فقال الملاك لهم (لا تخافوا فها أناذا أُبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الرب. وإليكم هذه العلامة: إنكم ستجدون الطّفل مُقمّطاً ومضجعاً في مذود) . ثمّ ظهرت بَغتةً مع الملاك كوكبة من جند السّماء يُسبّحون الله قائلين (المجدُ لله في الأعالي، وعلى الأرض السّلامُ وبالناس مَسَرّتُه) (لوقا ٢ : ٨ - ١٤) .

إن رواية الميلاد كما أوردها الإنجيل للقديس لوقا تُقرأ في القُدّاس في اليوم السابق مباشرة على يوم عيد الميلاد، أي أنها تقرأ في إنجيل القُدّاس الذي يُتلى في برامون عيد الميلاد، ولكنها

لا تقرأ فى ليلة عيد الميلاد، مع أنه من المتوقع منطقيا تلاوتها فى ليلة العيد التى نحتفل فيها بعيد الميلاد الجيد.

فلماذا هذا؟

لماذا رتبت الكنيسة فى صلوات ليلة عيد الميلاد، تلاوة فصلين لا يتحدثان عن وقائع الميلاد نفسه؟

نجيب بأنّ هذا الترتيب لم يكن عبثا أو اعتباطا، وإنما هو ترتيب حكيم، ينطوى على حكمة روحية وعلى قصد نبيل، وتدبير جميل، وفهم عميق وبعيد.

تريد الكنيسة، بهذا الترتيب الحكيم، أن تبين أنّ من نحتفل بعيد ميلاده، وهو المسيح يسوع، لم يبدأ وجوده بميلاده من مريم، كما هو الحال بالنسبة لجميع البشر. فالمسيح له المجد كائن بوجوده قبل أن يُولد من مريم العذراء، إنه كائن منذ الأزل إنه البدء الذى لابداءة له، وكما أنبأ عنه النبّى ميخا قائلا: (أما أنتِ يابيتَ لحم أفراتَه. إنّك صغيرة فى ألوف يهوذا، ولكن منك يخرج لى من يكون مُتسلّطاً على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل) (ميخا ٥: ٢)، (متى ٢: ٥، ٦). انظر (مزمور ٨٩: ٢)، (سفر الأمثال ٨: ٢٣).

وإذن فالمسيح لم يبدأ وجوده بميلاده من العذراء مريم. كلا، إنه الكائن قبل كل الدهور... إنه الأزلىّ، والسرمدىّ والسرمد.. إنه هو بذاته (يهوه) (الكائن الذى كان والدائم إلى الأبد) (سفر الرؤيا والجليان ١: ٤، ٨)، (سفر الخروج ٣:١٤) ... هو (الألف والياء، وهو البداءة والنهاية، وهو الأوّل والآخر) (الرؤيا والجليان ١: ٨، ١١، ١٧).

هو المسيح له المجد الذى قال لليهود صراحة وعلانية: (الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن) (يوحنا ٨: ٥٨).

وقال أيضاً إنّ مجده كائن من قبل كون العالم) (يوحنا ١٧: ٥) وإنّ مجده قبل إنشاء العالم (يوحنا ١٧: ٢٤) (وهو كائن قبل كل شئ) (كولوسى ١: ١٧)، (فيلبى ٢: ٦).

لهذا، وحتى لايظنّ أحد من الشّعب المسيحى بخاصةٍ أو من الناس بعامةٍ، أننا عندما نحتفل بعيد الميلاد المجيد، نحتفل بميلاد المسيح من مريم كما يحتفل سائر الناس بميلاد أحد الأنبياء أو أحد الناس عامة، وهذا الظن فيه ما فيه من خطر ومن خطأ سوء الاعتقاد فى المسيح كما لو كان مجرد إنسان.

لذلك رأت الكنيسة مرتشدة بالروح القدس أن تقرأ على المؤمنين فى ليلة عيد الميلاد الفصول الإنجيلية التى تنصُّ **على وجود المسيح الإلهى منذ الأزل، وقبل أن يولد كإنسان من مريم العذراء، ولكى يتبين جميع الناس أنَّ عيد الميلاد بالنسبة للسيدِّ المسيح له المجد إنما هو فى حقيقته، عيد لتجسّده الإلهى**، أى أنّ عيد الميلاد هو اليوم الذى فيه شاء الله الكلمة أن يتّخذ جسداً، حلّ فيه وبه بين الناس (يوحنا ١ : ١٤) (الذى وهو صورة الله لم يَحسِب مساواته لله غنيمة له. لكنه تَخَلّى عن مجده، واتخذ صورة العبد، وصار فى شبه البشر، وظهر فى هيئة إنسان. وضع نفسه وأطاع حتى الموت، الموت على الصليب) (فيلبى ٢ : ٦ – ٨)، (رومية ٨ : ٣)، (العبرانيين ٢ : ١٧).

من أجل توكيد هذا المعنى وتثبيته فى أذهان الشعب المسيحى بخاصةٍ، وجميع الناس بعامةٍ، رتبت الكنيسة المقدّسة أن يُتلى فى رفع بخور باكر فى ليلة عيد الميلاد، قول الإنجيل للقديس يوحنا (والكلمة اتّخذ جسداً، وحلّ بيننا) (يوحنا ١ : ١٤) وأن يُتلى فى إنجيل القدّاس الفصل الخاص بمجئ المجوس من بلاد المشرق (متى ٢ : ١ – ١٢) بناء على ظهور النجم لهم، وهو النجم الذى كان قد أنبأهم عن ظهوره بنحو سبعة قرون قبل الميلاد، زعيمهم زرادشت ZO-ROASTER فقد قال لذويه كما يروى ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) صفحة ٨٣: إنَّ فى آخر الزمان بكراً تحبل بجنين من غير أن يمسّها رجل. وعند ولادته يظهر كوكب يُضئ بالنهار ويُرى فى وسطه صورة صبيّة عذراء. وأنتم يا أولادى، قبل كل الأُمم تُحسُّون بظهوره. فإذا شاهدتم الكوكب امضوا حيث يهديكم، واسجدوا لذلك المولود، وقرّبوا قرابينكم فهو الكلمة مقيم السماء..)

ولماَ جاء المجوس إلى أورشليم وكان النجم الذى تقدّمهم من بلادهم ايران قد اختفى، قالوا لهيرودس الملك كما جاء فى كتاب (تاريخ مختصر الدول) لابن العبرى صفحة ١١٠: إنَّ عظيماً كان لنا قد أنبأنا بكتاب وضعه، ذَكَرَ فيه أنه سيولد فى فلسطين مولود أصله من السّماء، وسيتعبّد له أكثر العالم. وآية ظهوره أنكم ترون نجماً غريباً، وهو يهديكم إلى حيث هو. فإذا رأيتموه، فاحملوا ذهبا ومراً ولبانا، وانطلقوا إليه ولاطفوه بها، لئلا ينالكم بلاء عظيم.

وجاء المجوس فى موكب عظيم من بلاد الفرس وهى ايران، وكانوا قد هيأوا أنفسهم ليسجدوا له وليقدموا له هداياهم. وعندما دخلوا المدينة، أُورشليم القدس أخذوا يتساءلون (أين هو المولود ملكُ اليهود، فإنّنا رأينا نجمه فى المشرق، وأتينا لنسجد له) (متى ٢ : ١، ٢).

وإذن فالمولود الذى جاء المجوس من بلاد المشرق يسألون عنه ليس مولودا عاديا، لكنه (ملك) **ثم هو إله معبود ينبغى له السجود**.. وليس هذا المولود طفلاً سيصير ملكا فيما بعد، لكنه منذ ظهوره هو ملك، وهو أيضاً إله معبود، خليق به السجود له، والعبادة.

هذه القضية غاية فى الأهمية، لتوكيد أنّ المسيح يسوع له المجد، وإن كان قد ظهر بيننا طفلاً صغيراً رضيعاً وأخذ ينمو جسمه قليلاً قليلاً شبه البشر، إلاّ أنّه **فى حقيقته كائن قبل ظهوره فى الجسد**. وتجسّده جاء فى الزمان لخلاص آدم وبنيه.

فلا ننسى إذن أنّ **المسيح يسوع فى حقيقته هو الله ظاهراً فى جسد إنسان**.

(وحقاً عظيمٌ هو سرُّ التقوى

الله ظهر فى الجسد

وتبرّر فى الروح

وتراءى للملائكة

وبُشّر به فى الأُمم

وأُومِنَ به فى العالم

وارتفع فى المجد) (١ . تيموثيئوس ٣: ١٦) - (رومية ١٦: ٢٥، ٢٦)، (١ . بطرس ١: ٢٠)، (١ . يوحنا ٣: ٥، ٨).

إنّ ميلاد المسيح ليس معناه أنه بميلاده من مريم قد وُجد، كما هو الحال بالنسبة لأىّ بشر آخر. فكل إنسان إذا وُلِدَ فقد وُجد. أمّا المسيح له المجد فهو كائن قبل ميلاده من مريم، **كائن فى السماء ثم نزل من السماء** (يوحنا ٦: ٣٨، ٤١، ٥١، ٥٨) وتلبّس بالجسد الذى أخذه من مريم العذراء وظهر به إنسانا مثلنا فى كل شئ ما خلا الخطيئة (العبرانيين ٤: ١٥).

وكما يقول القديس أثناسيوس الرسولى حامى الإيمان:

إنّ المسيح كان ولم يزل إلها إلى الأبد. فميلاده من مريم العذراء إنما هو تجسُّد.

على أنه (هو الكائن على كل شئ إلها مباركا إلى الأبد) (رومية ٩: ٥)، (١: ٢٥).

(ففيه يَحِلُّ كل ملء اللاهوت) (كولوسى ٢: ٩).

لهذا عندما تكلم يوحنا الرسول عن التجسد، لم يتحدث عن الميلاد من مريم العذراء كما تكلم الإنجيليون الآخرون ولم يحك رواية الميلاد كما حكاها الإنجيل بحسب ما كتبه القديس متى والقديس لوقا، ولم يذكر مريم ويوسف، ولا تكلم عن بشارة الملاك جبرائيل بالحبل الإلهى ولا عن بشارة الملائكة للرعاة بالميلاد... كل هذا تركه يوحنا الرسول ليبرز وجود المسيح الأزلى قبل الميلاد. فقد كانت مهمة القديس يوحنا الرسول بعد استشهاد جميع الآباء الرسل أن يظهر حقيقة المسيح اللاهوتية توكيدا لأزليته وتثبيتا لحقيقة وجوده قبل الزمان، وأنه كائن قبل كل الدهور حتى لا يختلط فى ذهن الناس أو يظنوا أن المسيح بدأ من مريم ـ حاشا ـ لأن المسيح كائن قبل مريم أى منذ الأزل، لأنه ليس له بداءة كما قال الرب يسوع للقديس يوحنا فى سفر الرؤيا «أنا هو الأول والآخر. أنا الألف والياء. البداءة والنهاية» (الرؤيا ١ : ٨، ١١) .

فمن هذا الذى يقول عن نفسه أنه الأول والآخر إن لم يكن هو الله ؟!.

* * *

وبناء عليه تتضح لنا الحكمة فى اختيار فصل الإنجيل من يوحنا ١ : ١٤ – ١٧ ليتلى فى رفع بخور باكر ليلة عيد الميلاد المجيد حتى يتبين الشعب حقيقة المولود، وأنه ليس إنسانا كسائر الناس، وإن كان قد أخذ صورة الناس، لكنه فى حقيقته هو الله الكائن منذ الأزل، وقد اتخذ له فى ملء الزمان جسدا احتجب فيه، واستتر به حتى يمكن أن يراه الإنسان ولا يموت (الخروج ٣٣ : ٢٠)، فإن إلهنا نار آكلة (الخروج ٢٤ : ١٧)، (العبرانيين ١٢ : ٢٩)، (التثنية ٤ : ٢٤)، (٩ : ٣) .

ثم هو، وإن تجسد فى الزمان، لكنه كائن منذ الأزل قبل تجسده أى أنه على قول القديس أثناسيوس الرسولى «إنه كان، وما زال إلها.. كان قبل التجسد إلها، ولا يزال بعد التجسد كما كان، ولم يتغير فى طبيعته الإلهية...

إنه نزل من السماء وتجسد من العذراء مريم، وقد ألح المسيح له المجد كثيرا على أنه نزل من السماء. فقال: «إنى قد نزلت من السماء» (يوحنا ٦ : ٣٨، ٤٢) وقال «أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء» (يوحنا ٦ : ٤١، ٥٠، ٥١، ٥٨) وقال أيضاً «من الله خرجت. خرجت من الآب، وجئت إلى العالم، ثم اترك العالم وانطلق إلى الآب» (يوحنا ١٦ : ٢٧، ٢٨، ٣٠)، (١٧ : ٨)، (أفسس ٤ : ٩، ١٠) .

على أن نزول المسيح له المجد من السماء كان بتجسده الإلهى من مريم العذراء، ومع ذلك لم يخل السماء من وجوده. ففيما كان على الأرض، كان فى نفس الوقت ساكنا فى السماء، ويملأ بلاهوته الكون كله. وفى ذلك يقول له المجد «ما من أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذى نزل من السماء، ابن الإنسان الذى هو فى السماء» (يوحنا ٣ : ١٣)، (يوحنا ٦ : ٦٢) أى إنه فيما كان على الأرض ماشيا أو جالسا كان أيضا بلاهوته فى السماء على العرش، وفى كل الوجود، وفى كل الكون.

وإذا قلنا أن المسيح نزل من السماء، فليس نزوله من قبيل نزول الإنسان من الطابق الأعلى فى بيته إلى الطابق الأسفل، فالإنسان محدود، ولا يمكن أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد. فإذا نزل من الطابق الأعلى إلى الطابق الأسفل، فقد أخلى الطابق الأعلى من وجوده. وليس كذلك الله، فإن الله لا يحل فى مكان لم يكن كائنا فيه من قبل، فإنه حال بلاهوته فى كل مكان، ولا يخلو منه مكان. إنما نزول المسيح من السماء، وحلوله على الأرض، معناه إنه وهو فى جلاله ساكن السماوات، تنازل واتخذ له جسدا، وصار له على الأرض كيان منظور فى جسد إنسان. فإن كان المسيح قد نزل بالنسبة للناس، إذ صار له على الأرض كيان منظور. أما فى لاهوته فلم ينزل، لأنه كان ومازال كائنا فى السماء وعلى الأرض... مثل وجوده على الأرض مثل النور فى المصباح، إنه فى المصباح وخارج المصباح فى آن واحد، ويملأ بنوره المكان، ولا يحصره ولا يحده المكان، فى المصباح أو خارج المصباح. إن المسيح كان فى الأرض بتجسده، ولكنه كان فى السماء، وفى كل الكون. ولم يحجب ناسوته لاهوته إلا بالنسبة للبشر على الأرض، حتى يعيشوا ولا يموتوا.

إنه تجسد من أجلنا، لكى يراه الناس، ومن غير التجسد ما كان يمكن أن يراه أحد ويعيش... ولقد تجسد لكى يحمل طبيعتنا، فيطهرها ويقدسها ثم يصعد بها إلى السماء عند صعوده وعودته إلى السماء التى نزل منها.

قال القديس أثناسيوس الرسولى: لقد صار الإله إنسانا، لكى يجعل الإنسان إلها.

شكرا أيها الرب، فإنك شرفت طبيعتنا بحلولك فيها، وبصعودك بها وجلوسك على العرش صرنا نحن فيك جالسين على العرش...

المجد لك، دائما وأبدا.

٩ - ترقب البشرية مجئ السلام (١)

تنشر فيما يلى الكلمة الرائعة التى سجلها الأستاذ الإرشيدياكون الدكتور وهيب عطاالله بمناسبة عيد الميلاد المجيد لما تضمنته من معان وأفكار جديدة تنشر لأول مرة.

فى ليلة من ليالى البرد القارس، والناس نيام، جئت إلينا يارب فى صورة طفل رضيع فى ركن مجهول من أركان الدنيا الواسعة الرحيبة وفى مذود للبقر من الناصرة، وهى أحقر بلد فى أحقر إقليم من بلاد فلسطين وهى الجليل.

لم ينتبه لمجيئك أحد، ولا كان فى استقبالك من البشر غير من تشرفت بحملك فى أحشائها وحتى يوسف البار تروى التقاليد عنه أنه مضى ليحضر القابلة، فعاد ومعه القابلة، ولكن بعد أن خرجت ياربى من بطن العذراء كما دخلت العلية بعد ذلك بسنين وكانت أبوابها مغلقة لم تفتح ولم تمس، خرجت منها كما دخلت بقدرة لاهوتك.

إلا إنك يارب لا تحفل بالناس جئت مخفيا جلالك عن عيون الناس؟ ولكنك تحفل بالناس، ولا تحفل بهم فقط بل ومن أجل خلاصهم قد جئت فلماذا تخفيت يارب؟!

لقد عرفناك يارب على كل حال، وعرفنا أنك «من أجلنا قد افتقرت وأنت الغنى لنستغنى نحن بفقرك»، ولبست الضعف وأنت القوى لترفع نفوس الضعفاء وتشفى شقاءهم.

لم تستقبلك طلقات المدافع المدوية كما تستقبل كل طفل ملكى، ولكن استقبلتك أبواق الملائكة النقية.

لم تضأ لك الثريات الكهربائية، ولكن أضاءت مقرك الصغير الكبير أنوار سمائية وأضواء روحانية بهية.

لا ياسيدى لست أنت بشرا، وإن دعوت نفسك «ابن البشر» ولم تكن فى طبيعتك الأزلية إنسانا، وإن كنت قد اتخذت «فى ملء الزمان» صورة الناس وطبيعة الناس.

وإلا فلماذا اهتزت السماء بميلادك وطاولت الأرض؟ صمت الناس وتكلمت الملائكة وأنشدت طغماتهم ألوفا وربوات «المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام»؟

---

(١) نشر بمجلة الإيمان - السنة الثلاثون العدد الخامس - فى عام ١٩٦١م.

ولماذا وقف ملاك الرب بالرعاه، ومجد الله أشرق حولهم، فخافوا خوفا عظيماً جداً؟!

ولماذا وصف الملاك الفرح بميلادك بأنه «فرح عظيم لجميع الشعب؟»

ولماذا قال «إنه قد ولد لكم اليوم فى مدينة داود (بيت لحم) مخلص هو المسيح الرب؟»

إذن فلست يا إلهى مولودا طفلا كسائر المولودين، ولكنك الرب فى صورة طفل وليد.

ولماذا جاء رئيس الملائكة يبشر العذراء البتول بميلادك منها، ويحيها بأجمل تحية عرفتها إمرأة فى تاريخ البشر «مباركة أنت فى النساء»! ويصفك لها بأنك «القدوس» الذى «يملك على آل يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه إنقضاء»؟

وذلك أنك الأزلى الأبدى، والسرمدى الذى لا بداية له ولا نهاية!!

ألست أنت بعينك من رآه دانيال النبى قديما فى صورة ابن بشر، ومع ذلك «سلطانه أبدى لن يزول، وملكه لا ينقرض» «وتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة»؟!

ألست أنت بذاتك الذى تغنى النبى ميخا بأزليته وأخذ يناجى القرية التى ولدت فيها ميلادك فى الزمان «وأنت يابيت لحم افراته، أنك صغيرة فى ألوف يهوذا، ولكن منك يخرج لى من يكون متسلطا على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل»؟!

ومن أين عرف المجوس بميلادك، وكيف عرفوا بقدرك وألوهتك حتى جاءوا ليسجدوا لك كإله، ويقدموا لك قرابينهم ذهبا ولبانا ومرا؟

إن زرادشت حكيمهم أنبأهم بأن فى آخر الزمان بكرا تحبل بجنين. وأنتم يا أولادى أول من يعلم بمجيئه من شعوب الأرض. فإذا رأيتم نجمه، فامضوا إليه واسجدوا له، وقدموا هداياكم لئلا يصيبكم بلاء عظيم، فإنه الكلمة مقيم السماء.

وطبقا لنبوءة زرادشت رأى المجوس ياإلهى نجمك، ورأوا فيه صورة عذراء تحتضن وليدها، فمضوا والنجم يتقدمهم حتى بلغوا بيت لحم، ووقف النجم حيث كنت يارب، فدخلوا وسجدوا لعظمتك، وقدموا لجلالك هداياهم.

ألست أنت هو بعينك النبع الأزلى الأبدى الذى رآه الإمبراطور أوغسطس فى رؤياه، وكأنه نقطة من الزيت نبعت من مصدر مجهول ثم كبرت فصارت نهرا فبحرا فمحيطا غطى الأرض

كلها ثم السماء، وقد غرق فيه كل الكون، فاستيقظ الإمبراطور مذعورا وجمع من حوله العرافين والمنجمين يسألهم عن تفسير لحلمه، فأنباؤه بمولد إله عظيم يغطى ملكه ومجده السماء والأرض. ولما لم يعرف قيصر عن هذا الإله شيئا أمر بأن يقام مذبح فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية وأن يكتب عليه أنه «لإله مجهول». وفعلا ذهب ماريولس أحد رسلك إلى أثينا ورأى بعينيه ذلك المذبح فصرخ فى محفل أريوس باغوس وقال «يارجال أثينا.. بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه «لإله مجهول» فهذا الذى تعبدونه وأنتم تجهلونه، به أنا أبشركم. أن هذا الإله الذى صنع العالم وجميع ما فيه إذ هو رب السماء والأرض.. يعطى للجميع حياة ونفسا وكل شئ».

ولم يكن هذا الإله المجهول لقيصر وللرومان واليونان غيرك أنت يارب يامن جئت إلينا متخفيا فى صورة طفل رضيع.

فافرحى ياأرض لأن الذى نزل إليك من السماء وصار فى شبه الناس، لازال كما هو فى السماء. وطفل المذود هو بعينه الكلمة الذى خلق العالمين.

١٠ ـ والكلمة اتّخذ جسداً (١)

سؤال: من أحد القراء.

قال معلّمنا يوحنا (يوحنا ١ : ١٤): «والكلمة صار جسداً» فكيف تجوز الصيرورة على كلمة الله الكائن منذ الأزل وإلى الأبد لا يتغير، إذ لا يتحول ولا يصير إلا المخلوق. فما قصد الرسول؟

الجواب :

إن الله لا يتحول ولا يتبدل ولا يتغير، على ما تقول، ولكن الصيرورة هنا يجب أن تحمل على معنى ظاهرى لا حقيقى. لأنّ الكلمة هو الله ظاهراً فى الجسد. ولا شك أن هذا تحول ولكن لا فى الجوهر بل فى المظهر. وعلى ذلك فقوله «صار جسداً» معناه «اتّخذ جسداً» والكلمة القبطية تفيد هذا المعنى لأنّ المقابل الحرفى لها «أخذ جسداً» أو «تجسّد». وربما كانت الترجمة القبطية كما ترى أدق فى الدلالة على المعنى بصورة سليمة تنأى بالقارئ عن اللبس والإبهام.

ولا مراء فى أنّ **الكلمة الإلهى لم يتّخذ جسداً فقط، ولكنه اتّخذ أيضاً معه روحاً أو نفساً ناطقة متحدة بهذا الجسد.** ولكنّ الرسول يوحنا أراد أن يتحدّث عن مظهر التجسّد البارز والذى يتمثل فى الجسد. ولعّل السبب فى ذلك، على ما نعلم، أنّ الرسول كتب إنجيله يرد به على بدع وتعاليم ضالة روّج لها قوم مفسدون ضدّ التعليم الأرثوذكسى المستقيم، ومنها أنّ جسد المسيح لم يكن إلا خيالاً وظهوراً فقط. ولما كانت مثل هذه البدعة خبيثة هدامة، تلغى عمل الفداء الذى قام به المخلّص فى جسده الذى سُمّر بالصّليب، وتُفوِّت على البشر حكمة الله فى التجسد، فقد عبّر الرسول عن ظهور الكلمة بعبارة يؤكد فيها حقيقة الجسدِ الذى اتخذه المسيح واتحد به فصار مع لاهوته طبيعة واحدة.

على أنّ هذه «الصيرورة الظاهرية» لا تفيد إندماج اللاهوت فى النّاسوت أو إختلاطه به على ما يذهب أوطاخى، بدليل قوله بعد ذلك مباشرة «وحلّ بيننا ورأينا مَجْدَه» وإنما هى عبارة قوية الدلالة على مبلغ الاتّحاد التام بين اللاهوت والناسوت بحيث «أصبحا» طبيعةً واحدةً بغير **امتزاج ولا تداخل ولا اختلاط ودون إنفصال أو افتراق أو إنقسام.**

ولعلّ هذه الآية وحدها كافية للبرهنة على خطأ ما يذهب إليه النساطرة من القول بالفصل بين الطبيعتين فى المسيح، وصِحّة ما يُصِرُّ، على القول به، آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: **«طبيعة واحدة للكلمة المتجسد».**

---

(١) مقال نُشِر بمجلة (مدارس الأحد) السنة الرابعة العدد الثانى (فبراير ـ شباط لسنة ١٩٥٠م) صفحة ٣٢.

١١ ـ ولدته وبكارتها مختومة

سؤال : من أحد القراء:

كيف ولدت السيدة العذراء السيد المسيح وبتوليتها مختومة رغم العوامل الطبيعية التى تسبق الولادة ؟

وهل يصدق القول أنها ولدته من جنبها ؟

الجواب :

تلك معجزة يصعب تفسيرها بمنطق القوانين الطبيعية، وهى البرهان على أن **المولود من العذراء مريم لم يكن إنساناً. إنها واقعة لم يحدث لها نظير من قبل ولم تتكرر، ولن تتكرر.**

وقد قال آباء الكنيسة فى ذلك أن المسيح عندما قام من بين الأموات خرج من القبر وهو مغلق، وكذلك دخل إلى العلية وأبوابها مغلقة (يوحنا ٢٠ : ١٩) ليثبت أنه **خرج من بطن العذراء وختوم البكارة مصونة.**

إن المعروف بالنسبة لكل عذراء أنها إذا ولدت فلا بد أن تزول بكارتها بفعل الجنين عند نزوله من رحمها. أما العذراء مريم فهى وحدها من بين جميع العذارى التى ولدت رب المجد يسوع المسيح، ولم يخدش بنزوله منها بكارتها، **وذلك مردّهُ إلى قدرة لاهوته المتحد بناسوته لأن المولود لم يكن مجرد إنسان، بل كان كلمة اللّه المتجسد،** (يوحنا ١ : ١٤) **«اللّه الظاهر فى الجسد»** (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦).

ولقد قال الرب بفم حزقيال النبى «هذا الباب يكون مغلقاً، لا يفتح، ولا يدخل منه إنسان، لأن الرب إله إسرائيل دخل منه، فيكون مغلقاً» (حزقيال ٤٤ : ٢). وقال آباء الكنيسة إنّ هذه النبوءة قيلت عن العذراء مريم، التى خرج الرب يسوع منها، طفلاً، ولم يثلم بكارتها ولم يجرح علامة عفتها.

وقد جاء فى صلاة القسمة التى تتلى فى القداس فى صوم الميلاد المجيد: «أيها السيد الرب إلهنا الخالق، غير المرئى، وغير المحوىّ، وغير المتغير، الذى لا تدركه أعماقه.

الذى أرسل **نوره الحقيقى، ابنه الوحيد، يسوع المسيح، الكلمة الذاتى.**

الكائن فى حضنه الأبوى كل حين، أتى وحل فى الحشا البتولى غير الدنس، ولدته وهى عذراء وبكارتها مختومة...»

هذا وتؤكد مصادرنا الكنسية أن ولادة العذراء مريم للسيد المسيح كانت ولادة طبيعية، بمعنى أنها ولدته بالمخاض والطلق، وإن كان من غير ألم.

قال القديس أثناسيوس الرسولى عن ولادة العذراء للمسيح، إنها:

«ولادة بلا دنس، طلقة بلا وجع»... (إعترافات الآباء - مخطوط رقم ٦٠/ لاهوت، ورقة رقم ٣٣ - بدير العذراء بالمحرق).

وجاء فى الابصلمودية السنوية، فى التفسير الثانى من المعقب القبطى الذى يقال على تذاكية يوم السبت فى صلاة عشية، فى شهر كيهك:

«ولدته على الأرض من غير ألم».

وجاء في ميمر للقديس كيرلس رئيس أساقفة أورشليم فى القرن الثالث (٣١٥ - نحو ٣٨٦) أنه عندما «شعرت العذراء بقرب وضع الجنين حالاً، أخبرت يوسف، فأسرع إلى البلدة ليستحضر قابلة لمساعدتها... ولما وصلا المغارة ودخلا فيها وجدا أن العذراء ترضع ابنها الحبيب، ولم تظهر عليها أدنى علامة ولا تعب كبقية النساء، حتى تعجبت تلك القابلة من هذا المنظر... وسألتها بقولها: يا أيتها السيدة: ألم ينزل الخلاص (المشيمة) المعتاد للنساء فلم تجاوبها قط، بل ظلت ساكتة ترضع الطفل. فوضعت القابلة يدها لتنظر، فلم تجد سوى عذراء بكر بتول كما هى، فتعجبت تلك المرأة وتركتها. وقامت مسرعة لتدخل بيت لحم، وقد صادفتها سالومه القابلة الشهيرة، فقصت عليها الخبر من أوله. فقالت إنى فى شك وعدم تصديق لذلك الخبر الغريب حتى أتوجه وأنظر بعيني. وقد كان. وعادت الإثنتان مسرعتين وبوصولهما نظرت سالومه الطفل وأمه، وقد تهورت بجسارة، ومدت يدها تريد أن تكشف العذراء، فوقفت يدها، ونشف دمها، وصارت تستغيث، وصرخت بصوت عظيم، وقالت: ياإلهى، ذنبى عظيم. اغفر لى. **وسجدت أمام الطفل، ووضعت يدها عليه، فشفيت فى الحال...»** (عن كتاب ميامر وعجائب السيدة العذراء، على حسب ما وضعه آباء الكنيسة الأرثوذكسية).

ولعل هذا مصداق ما قاله الوحى الإلهى بفم إشعياء النبى:

«قبل أن يأخذها الطلق ولدت. قبل أن يأتى عليها المخاض ولدت ذكراً» (إشعياء ٦٦: ٧).

١٢ ـ الميلاد الأزلى والميلاد الزمنى

يحتفل المسيحيون بميلاد المسيح، ويعيدون له عيداً يعرف بعيد الميلاد، وإلى هذا الميلاد تنسب السنة الميلادية، فنقول مثلاً: هذه السنة هى سنة ١٩٨٣ لميلاد المسيح.

على أن هذا هو الميلاد الزمنى للسيد المسيح، وليس هذا الميلاد كميلاد أى إنسان آخر. فالمعروف أن ميلاد الإنسان يحدد وجوده، بمعنى أنه إذ وُلِدَ فقد وُجِدَ. أمّا قبل ميلاده فلم يكن له وجود.

أما المسيح فليس كمثله شئ، إذ هو الوحيد الذى ولد، ومع ذلك **كان له وجود قبل ميلاده فى الزمان من العذراء مريم**. إن تاريخ ميلاده فى الأرض هو تاريخ تجسده. ولكن قبل أن يتخذ له جسداً كان كائناً، وكينونته منذ الأزل. وإذن لم يكن ميلاده من مريم، فى الحقيقة، غير تجسد. أما وجوده فقبل الزمان.

إن المسيح حسب الجسد هو «ابن إبراهيم» (متى ١ : ١)، ولكنه **كان كائناً قبل إبراهيم**. قال له المجد لليهود «الحق الحق أقول لكم: **قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن**» (يوحنا ٨: ٥٨). (قارن سفر الرؤيا ١ : ٤، ٨)، (٤ : ٨)، (١١ : ١٧)، (١٦ : ٥).

والمسيح حسب الجسد هو «ابن داود» (متى ١ : ١)، (٩ : ٢٧)، (١٥ : ٢٢)، (٢٠ : ٣٠، ٣١)، (٢١ : ٩، ١٥)، ولكن داود دعاه بالروح ربّه... ولقد وجه المسيح إلى الفريسيين سؤالاً حيّرهم ولم يجدوا له جواباً «سألهم يسوع قائلاً: «ماذا تظنون فى المسيح؟ ابن من هو؟ فقالوا له: «ابن داود». قال لهم: كيف يقول الكتبة إن المسيح هو ابن داود فى حين أن داود نفسه يقول بالروح القدس فى كتاب المزامير: قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك تحت قدميك؟ **فداود نفسه يقول عنه إنه الرب، فكيف يكون ابنه** ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة» (مرقس ١٢ : ٣٥ – ٣٧)، (متى ٢٢ : ٤١ – ٤٦)، (لوقا ٢٠ : ٤١ – ٤٤)، (مزمور ١٠٩ : ١)، (٤٤ : ٦، ٧)، (أعمال الرسل ٢ : ٣٤ – ٣٦)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٥)، (العبرانيين ١ : ١٣، ٣)، (١٠ : ١٢، ١٣).

والمسيح حسب الجسد كان أصغر من يوحنا المعمدان لأنه وُلِدَ بعد يوحنا بستة شهور، لكن «يوحنا شهد له ونادى قائلاً: هذا هو الذى قلت عنه: إن الذى يأتى بعدى قد تقدمنى، **لأنه كان**

قبلى، وقال عندما رأى المسيح مقبلاً إليه: «هوذا حمل الله الذى يحمل خطيئة العالم. هذا هو الذى قلت عنه: يأتى بعدى رجل يتقدمنى لأنه **كان قبلى**» (يوحنا ١ : ١٥، ٣٠). فعلى الرغم من أن المسيح جاء فى الجسد بعد يوحنا، لكنه كان أسبق عليه فى الزمان.

لقد نسب المسيح إلى ذاته بأن مجده «كان **قبل كون العالم**» (يوحنا ١٧ : ٥). وأنه كان مع الله الآب «**قبل إنشاء العالم**» (يوحنا ١٧ : ٢٤). وقال عنه الوحى على فم القديس بولس الرسول «**والبكر قبل الخلائق كلها**، . . فإنه فيه خلق كل شئ، مما فى السماوات ومما فى الأرض، ما يرى وما لا يرى،... «**كل شئ به وله قد خلق؟. كان هو قبل كل شئ، وفيه يقوم كل شئ.. هو البدء**» (كولوسى ١ : ١٥ - ١٨). وقال يوجه الخطاب إليه «وأنت يارب، أنت أسست الأرض منذ البدء، والسماوات من صنع يديك» (العبرانيين ١ : ١٠)، (مزمور ١٠١ : ٢٥).

وعلى هذا جاء فى قانون الإيمان الذى يردده جميع المسيحيين فى صلواتهم الخاصة والعامة: أن يسوع المسيح كائن «**قبل كل الدهور**».

وإذا كان المسيح كائناً قبل إبراهيم، وداود، ويوحنا المعمدان، وسائر الأنبياء والآباء، بل إنه كائن قبل إنشاء العالم، وقبل كل شئ، وأنه الأول قبل الخليقة، وهو الذى أسس السماوات والأرض، فهو الكلمة مقيم السماء. قال الإنجيل «**فى البدء كان الكلمة.. وكان الكلمة هو الله... به كان كل شئ، وبغيره لم يكن شئ مما كان. فيه كانت الحياة**» (يوحنا ١ : ١- ٤) «**وبه خلق الدهور**» (العبرانيين ١ : ٢). ويقول الوحى أيضاً على فم القديس بولس الرسول «وربنا واحد وهو يسوع المسيح، **الذى به كان كل شئ**، ونحن به» (١. كورنثوس ٨ : ٦).

ولهذا السبب وتوكيداً لحقيقة أن المسيح هو الخالق، صنع معجزة الخلق لعينين فى رجل مولود أعمى لم تكن له عينان فى موضع العينين، بأن تفل على الأرض وصنع من التفل طيناً، وطلى بالطين عينى الأعمى ففتح عينيه فأبصر، وذلك ليثبت أنه بنفس الكيفية التى خلق الله تعالى بها آدم إذ «جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه» (التكوين ٢ : ٧) خلق المسيح له المجد للمولود أعمى عينين، من تراب الأرض بعد أن تفل عليه فصار طيناً (يوحنا ٩ : ٦، ١١،

١٤، ١٥) . ولقد انبهر اليهود بهذه المعجزة، لأنها **معجزة خلق**، وليست مجرد معجزة شفاء عادية حتى إنّ بعض اليهود لما رأوا المسيح واقفاً على قبر لعازر من بعيد، وقد أنتن بعد أن صار له في القبر أربعة أيام، قالوا عن المسيح «أما كان هذا الذى فتح عينى الأعمى منذ ولادته قادراً على أن لايترك هذا (لعازر) أيضاً يموت» (يوحنا ١١ : ٣٧) وكأنهم أرادوا أن يقولوا إن الذى يقدر على الأصعب والأعسر لابدّ أن يقدر على الأيسر والأسهل، إذ الخلق من العدم أشق وأصعب من إقامة ميت من الموت.

على أن يسوع المسيح نسب إلى ذاته أنه (**ابن اللّه الوحيد**) وقال «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل **ابنه الوحيد** لكى لايهلك كل من يؤمن به وإنما ينال الحياة الأبدية. لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم. فالذى يؤمن به لايدان. وأما الذى لايؤمن به فقد أدين لأنه لم يؤمن باسم **ابن الله الوحيد**» (يوحنا ٣ : ١٦-١٨) . وقال الإنجيل : «الله لم يره أحد قط، **الابن الوحيد** الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨) وبعد أن خلق للمولود أعمى عينين بأن تفل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين مقلتيه، وإلتقى به عندما أخرجه اليهود من مجمعهم، قال الرب يسوع **«أتؤمن بابن الله ؟ أجاب المولود أعمى الذى أبصر وقال: من هو ياسيدى، لأومن به ؟ فقال له يسوع المسيح : «إنك تراه، وهو الذى يكلمك. فقال أؤمن ياسيدى، ثم سجد له» (يوحنا ٩ : ٣٥-٣٨) أى أن الرب يسوع نسب إلى ذاته فى حديثه مع المولود أعمى أنه هو ابن الله**. كذلك سأله رئيس الكهنة قيافا وهم يحاكمونه فى ليلة آلامه «وقال له: أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا: **هل أنت المسيح ابن الله** ؟ فقال له يسوع: **نعم، أنا هو كقولك**... وعندئذ مزّق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً: لقد جدّف» (متى ٢٦ : ٦٣-٦٥) ، (مرقس ١٤ : ٦٢-٦٤) ، (لوقا ٢٢ : ٦٦-٧١) . ولما سأل تلاميذه فى قيصرية فيلبس «وأنتم من تقولون إنى هو؟ وأجابه سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح الله ابن الله الحى. فأجاب يسوع وقال له: مبارك أنت يا سمعان بن يونا، لأنه ليس لحماً ودماً الذى كشف لك هذا، وإنما أبى الذى فى السماوات... وإنى على هذه الصخرة سأبنى كنيستى» (متى ١٦ : ١٣-١٨) ، (مرقس ٨ : ٢٧-٢٩) ، (لوقا ٩ : ١٨-٢٠) ، (يوحنا ٦ : ٦٩) .

وقال المسيح لليهود «**أنا وأبى نحن معاً واحد**» (يوحنا ١٠: ٣٠) فالتقط اليهود عندئذ حجارة مرة أخرى ليرجموه. فأجابهم يسوع قائلاً: إن أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من لدن أبى. فبسبب أى عمل منها ترجموننى؟ أجابه اليهود قائلين: إننا نرجمك لا بسبب عمل حسن، وإنما بسبب التجديف، لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً. فأجابهم يسوع قائلاً:... أتقولون أنتم للذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم إنك تجدّف، لأنى قلت إننى أنا ابن الله. إن لم أكن أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى. ولكن إن كنت أعمل أعماله فإن لم تؤمنوا بى، آمنوا بالأعمال لتعلموا وتعرفوا أنى أنا فى أبى، وأن أبى فىّ» (يوحنا ١٠: ٣٠-٣٨).

ومعنى ذلك أن المسيح نسب إلى ذاته أنه **ابن الله**، بل **أنه والآب معاً جوهر واحد، وذات إلهية واحدة**، وأنه لذلك ليس منفصلاً عن الآب، ولكنه كائن فى الله الآب، والله الآب كائن فيه.

وليس المسيح ابن الله بمعنى أن الله يلد كما يلد الإنسان، معاذ الله!، ولكن لأن الله وهو بلاهوته غير منظور، قد صار بالتجسد منظوراً. فبهذا المعنى نفهم أن المسيح هو ابن الله، أى أنه «**صورة الله** الغير المنظور» (كولوسى ١: ١٥) ولهذا قال المسيح أيضاً «من رآنى فقد رأى الآب... **إنى أنا فى أبى، وأن أبى فىّ... الآب الكائن فىّ** هو الذى يعمل أعماله...» (يوحنا ١٤: ٩، ١٠). وقال الإنجيل «الله لم يره أحد قط، **الابن الوحيد الذى فى حضن الآب** هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١: ١٨).

ومرة أخرى يروى الإنجيل المقدس أن يسوع المسيح قال لليهود: إن أبى حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل. فاشتدت رغبة اليهود فى قتله، لأنه لم ينقض السبت فحسب، وإنما قال أيضاً: الله أبى، **مساويا نفسه بالله**» (يوحنا ٥: ١٧، ١٨).

ومعنى ذلك أن المسيح إذ نسب إلى ذاته أنه ابن الله وأنه هو صورة الله الغير المنظور، أى أن الله - وهو الغير المنظور - صار منظوراً فى المسيح، بالتجسد. ولهذا **فالمقصود من قوله أنه ابن الله، أنه معادل لله، ومساو له، وأنه واحد معه فى جوهر الألوهة والذات**. أنظر (فيلبى ٢: ٦).

ويقول سفر الرؤيا عن المسيح بعد أن صعد إلى السماء ودخل إلى مجده، واسترد صورة البهاء والمجد التى كانت له منذ الأزل وكان قد أخلى نفسه منها آخذاً بالتجسد صورة عبد «**أنا الألف والياء، البداءة والنهاية**، يقول الرب الإله الكائن والذى كان والذى سيأتى، القادر على كل شئ» (الرؤيا ١: ٨) «**أنا الأول والآخر**، أنا الحىّ، وقد مت، وهاءنذا حىّ إلى أبد الدهور. وبيدى مفاتيح الموت والجحيم» (الرؤيا ١: ١٧، ١٨) (٢: ٨) «**أنا الألف والياء، البداءة والنهاية**» (الرؤيا ٢١: ٦) «**أنا الألف والياء، البداءة والنهاية، الأول والآخر**» (الرؤيا ٢٢: ١٣)، قارن (الخروج ٣: ١٤)، (إشعياء ٤١: ٤)، (٤٣: ١٠، ١١)، (٤٤: ٦، ٨، ٢٤)، (٤٥: ٥، ٦، ١٤، ١٨، ٢١، ٢٢)، (٤٦: ٩)، (٤٨: ١٢)، (هوشع ١٣: ٤).

ولم يلتقط اليهود حجارة ليرجموه فقط ولكنهم حقدوا عليه وصلبوه أيضاً من أجل ما نسبه إلى ذاته من أنه ابن الله. فلما علقوه على الصليب. «كان المارة يسبّونه وهم يهزون رؤوسهم قائلين... إن كنت **ابن الله** فانزل عن الصليب. وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والشيوخ قائلين: خلّص آخرين ولا يستطيع أن يخلّص نفسه، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به... لأنه قال أنا ابن الله» (متى ٢٧: ٣٩ – ٤٣).

ولقد شهد له الآب السماوى وهو صاعد من الماء بعد عماده من يوحنا المعمدان فى نهر الأردن. وإذا السماوات تنشق، والروح القدس ينزل عليه فى صورة جسم يشبه الحمامة، ومقبلاً عليه ويستقر على رأسه. وإذا صوت يجئ من السماء، قائلاً: هذا هو **ابنى الحبيب** الذى به سررت (مرقس ١: ٩ – ١١)، (متى ٣: ١٦، ١٧)، (لوقا ٣: ٢١، ٢٢). ومرة أخرى شهد له الآب السماوى عندما صعد على جبل التجلى وتغيّرت هيئته متجلياً أمام ثلاثة من تلاميذه «فأضاء وجهه كالشمس، وقد أصبحت ثيابه بيضاء كالنور متألقة ناصعة البياض كالثلج، حتى ليعجز أى قصار على الأرض عن أن يجعلها فى مثل بياضها... وكان ثمة سحابة من نور غمرتهم، وإذا صوت من السحابة يقول: «**هذا هو ابنى الحبيب** الذى به سررت، فله اسمعوا» (متى ١٧: ١ – ٥)، (مرقس ٩: ١ – ٧)، (لوقا ٩: ٢٨ – ٣٥).

وقد «شهد يوحنا (المعمدان) قائلاً: إنى قد أبصرت الروح نازلاً عليه من السماء فى هيئة حمامة، واستقر على رأسه. وأنا لم أكن أعرفه. ولكنّ الذى أرسلنى لأعمدّ بالماء هو الذى قال لى: إنّ الذى تبصر الروح ينزل ويستقر على رأسه هو الذى يعمدّ بروح القدس. وأنا قد أبصرت وشهدت بأن **هذا هو ابن الله**» (يوحنا ١: ٣٢ – ٣٤).

وشهد له بذلك نثنائيل قبل أن يصير تلميذاً له باسم برثولماوس، بعد أن أعلمه المسيح الرب أنه قد رآه وهو طفل رضيع وكانت أمه قد وضعته فى سفط وخبأته من جند هيرودس فى تعريشه التينة «فأجاب نثنائيل وقال له: يا معلّم **أنت ابن الله**. أنت ملك إسرائيل. أجاب يسوع وقال له: لأني قلت لك إني رأيتك تحت شجرة التين آمنت؟ لسوف ترى أعظم من هذا» (يوحنا ١ : ٤٧ – ٥٠) . وشهد له تلاميذه وغير تلاميذه بأنه ابن الله، عندما كانوا فى السفينة وسط البحر، وكانت السفينة تتقاذفها الأمواج، إذ كانت الريح مضادة لها فذهب إليهم ماشياً على البحر. فلما رآه تلاميذه ماشياً على البحر اضطربوا قائلين: إنه شبح، وصرخوا من الخوف لأنهم رأوه كلّهم واضطربوا. فكلّمهم يسوع فى الحال قائلاً: اطمئنوا. أنا هو. لا تخافوا... واتجه نحوهم وركب السفينة فسكنت الريح، فذهلوا ذهولاً عظيماً، وقد استولت الدهشة عليهم، فجاء الذين كانوا فى السفينة وسجدوا له قائلين: «**حقاً أنت ابن الله**» (متى ١٤ : ٢٣ – ٣٣)، (مرقس ٦ : ٤٧ – ٥١)، (يوحنا ٦ : ١٦ – ٢١) .

وشهدت له مرثا أخت لعازر الذى أقامه الرب يسوع من بين الأموات، بعد أربعة أيام من دفنه «قال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة. من آمن بى وإن مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بى، فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يارب. إنني أؤمن بأنك **أنت المسيح ابن الله** الآتى إلى العالم» (يوحنا ١١ : ٢٥ – ٢٧) .

وشهد له لونجينوس قائد المائة الذى كان يشرف على عملية الصلب، وكان هو الذى طعنه بالحربة فى جنبه الأيمن ليتحقق من موته، فإذ رأى أنه قد جرى من جنبه بعد موته دم وماء، ثم إذا زلزلة عظيمة حدثت «الأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقد قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور... ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين. أما قائد المائة والذين كانوا معه يحرسون يسوع فحين رأوا الزلزال وما حدث خافوا خوفاً عظيماً قائلين: حقاً **كان هذا هو ابن الله**» (متى ٢٧ : ٥١ – ٥٤)، (مرقس ١٥ : ٣٧ – ٣٩)، (يوحنا ١٩ : ٣٣، ٣٤) .

بل وحتى الشياطين والأرواح النجسة كانت «أيضاً تخرج من كثيرين، وهى تصرخ قائلة: **أنت هو المسيح ابن الله**» (لوقا ٤ : ٤١) وصرخ واحد منهم قائلاً: «مالك ولنا يا يسوع الناصرى؟ أجئت لتهلكنا؟ إننا نعرف من أنت. **أنت قدوس الله**» (مرقس ١ : ٢٣، ٢٤) «أما

الأرواح النجسة فكانت حين تراه تخر ساجدة له، وتصرخ قائلة: «**إنك أنت هو ابن الله**» (مرقس ٣: ١١).

ولما كانت هذه الحقيقة المسيحية (أنَّ المسيح هو ابن الله الحَّى) هى الصخرة التى بنيت عليها الكنيسة المسيحية، وأنَّ المسيح له المجد صرّح قائلاً: «على هذه الصخرة سأبنى كنيستى» (متى ١٦: ١٨) فإن الإنجيل المقدس على حسب ما كتبه القديس يوحنا، بعد أن أورد عدداً من المعجزات الخارقة التى صنعها المسيح الرب، بسلطان لاهوته، من دون أن يستمد فيها قوة من خارج ذاته، على نحو ما يفعل الأنبياء والرسل، بل إنما أعلن أنَّ معجزاته كان يصنعها «**بالقوة التى كانت تخرج منه**» (مرقس ٥: ٣٠)، (لوقا ٨: ٤٦)، (٥: ١٧). (٦: ١٩). نقول إن الإنجيل للقديس يوحنا يقرر أخيراً «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب فى هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» (يوحنا ٢٠: ٣٠، ٣١).

ولهذا كان كل من يؤمن بالمسيح ويتبع دين المسيح، كان يصرح علانية بإيمانه بالمسيح أنه ابن الله الحى.

فالوزير الحبشى، وزير كنداكة ملكة الحبشة، المؤتمن على جميع خزائنها، عندما آمن بالمسيح طلب من القديس فيلبس أن يعمده «فقال فيلبس: إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز. فأجاب وقال: إنى أؤمن بأن يسوع المسيح هو ابن الله» (أعمال الرسل ٨: ٣٦-٣٨).

والقديس بولس، كان قبل إيمانه بالمسيح، يهودياً متزمتاً، وكان يضطهد المسيحيين ويلقيهم فى السجون وقد صنع بهم شروراً كثيرة، فلما رأى مجد المسيح بعد صعوده إلى السماء، عندما تجلى له بنور عظيم أعظم بهاء ولمعاناً من نور الشمس، حتى إنه أصيب بالعمى لمدة ثلاثة أيام من شدة بهاء نور المسيح (أعمال الرسل ٩: ٣، ٨، ٩)، (٢٢: ٦، ١١)، (٢٦: ١٣) لم يؤمن فقط بالمسيح أنه ابن الله، بل صار يكرز بهذه الحقيقة فى معابد اليهود ومجامعهم وفى كل مكان فى المسكونة «وللوقت أخذ يكرز فى المجامع بيسوع بأنه هو ابن الله» (أعمال الرسل ٩: ٢٠)، (١٣: ٣٣)، (رومية ١: ٤)، (العبرانيين ١: ٥، ٨)، (٥: ٥).

وجاء فى رسالة القديس يوحنا الرسول الأولى «فكل من اعترف بأن يسوع هو ابن الله، أقام الله فيه، وهو يثبت فى الله» (١ . يوحنا ٤ : ١٥) وأيضاً «من ذا الذى يغلب العالم إلا ذاك الذى يؤمن بأن يسوع هو ابن الله... إن كنا نقبل شهادة الناس، فشهادة الله أعظم، لأن هذه هى شهادة الله التى قد شهد بها لابنه... من يؤمن بابن الله، فعنده شهادة الله فى نفسه. ومن لا يؤمن بابن الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التى قد شهد بها الله لابنه. وهذه هى الشهادة أن الله أعطانا الحياة الأبدية، وأن هذه الحياة هى فى ابنه. من كان له ابن الله كانت له الحياة، ومن لايكون له ابن الله فلا تكون له الحياة. قد كتبت إليكم بهذا لتعلموا أن الحياة الأبدية لكم، أنتم الذين يؤمنون باسم ابن الله» (١ . يوحنا ٥ : ٥ - ١٣).

١٣ - لاهوته لم يفارق ناسوته

سؤال : من أحد القراء .

نعتقد نحن المسيحيين الأرثوذكسيين بأن لاهوت المسيح لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين، فكيف نفسر ذلك فى موت المسيح ودفنه، ونحن نعلم أنّ اللاهوت لا يمكن أن يُدفن فى القبر؟

الجواب :

إن الإتحاد بين لاهوت المسيح وناسوته، أى إنسانيته، إتحاد تام وحقيقى وكامل، ولذلك فإنه لا يقبل المفارقة أو الافتراق لحظة واحدة أو طرفة عين كما قررت المجامع المسكونية، وكما جاء فى القداس الإلهى، فى الاعتراف الأخير الذى يتلوه الكاهن فى كل قداس.

وإذا كان السيد المسيح قد فاه على الصليب بما جاء فى مطلع المزمور الواحد والعشرين «إلهى إلهى لِماذا تَخَلَّيْتَ عنى» (متى ٢٧ : ٤٦)، (مرقس ١٥ : ٣٤) فليس معناه أن اللاهوت قد فارق الناسوت، إنّما معناه أنه خلّى بينه وبين الألم، ولم يتدخل لتخفيف الألم أو إنقاصه، بل جعله يعانى الآلام كاملة غير منقوصة. وهذا بيّنة ودليل على شدة الآلام التى تحمّلها المسيح الفادى، وأنّها **آلام روحية ، ونفسية ، وجسدية ، كاملة .**

هى **آلام روحية** لأنّ المسيح «الذى لم يعرف خطيئة، صار خطيئة لأجلنا لنصير نحن بِرّ الله فيه» (٢ .كورنثوس ٥: ٢١) . فإذا كان قد صار خطيئة لأجلنا، فقد حل عليه الغضب الإلهى الذى يقتضيه العدل الإلهى على البشرية كلها، لأن المسيح على الصليب كان هو الفادى، ومن ثَمَّ كان ممثلا للبشرية، ونائبا عنها.

ويقول عنه إشعياء النبى بروح النبوءة «لكنّ أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمّلها، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه... والربُّ وضع عليه إثم جميعنا» (إشعياء ٥٣: ٤ – ٦) .

ويقول القديس بطرس الرسول «الذى لم يفعل خطيئة... حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكى نموت عن الخطايا، فنحيا للبر، الذى بجلدته شفيتم» (١ .بطرس ٢ : ٢٢ – ٢٤) ويقول القديس بولس الرسول أيضا «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا» (غلاطية ٣ : ١٣)

ذلك هو معنى الآلام الروحية التى تحمّلها المسيح كاملة، فهو بصفته الفادى صار بدلا عنا فى خطيئتنا، أى أنه صار هو الخاطئ والملعون أمام العدل الإلهى، من أجلنا، فكان لابد ليفدينا أن يحتمل الغضب الإلهى كاملا، نيابة عنا، حتى يرتفع عنا العقاب الذى نستحقه. هنا الآلام الروحية ليست هى آلام الصليب فى جسد المخلّص، لكنّها آلام القصاص الإلهى فى نائب البشرية وفاديها الذى وضع ذاته بديلا عنها.

وأمّا **الآلام النفسية**، فهى آلامه كإنسان خانه تلميذه وأسلمه لأعدائه، وأنكره تلميذه الآخر الذى زعم قائلا «إن شكّ فيك الجميع فلن أشك أنا أبداً.. إنّنى ولو اضطررت أن أموت معك لن أنكرك»، فأنكره ثلاث مرات أمام جارية، «وأخذ يلعن ويحلف قائلا: إنّى لا أعرف هذا الرجل...»، ورؤساء الكهنة قادة اليهود الروحيون حاكموه محاكمة ظالمة خلت من كل مبادئ روحية وإنسانية، والجماهير التى أحسن إليها وشفى مرضاهم وأقام موتاهم، كانوا يهتفون، «اصلبه اصلبه»، وآثروا عليه باراباس اللص وكان من المشاغبين الذين ارتكبوا جرائم قتل.. إلى غيرها من صنوف الآلام النفسية ولا سيما أنه كان يراها سابقا ويعلمها مسبقا.. «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما سيأتى عليه» (يوحنا ١٨ : ٤).

هذا إلى **الآلام الجسدية** من صراع فى بستان جثسيمانى حتى صار عرقة يتصبب كقطرات الدم نازلة على الأرض.. إلى ستّ محاكمات مرهقة طوال الليل، ثلاث منها دينية، وثلاث منها مدنية، إلى الجلد والضرب وإكليل الشوك وحمل الصليب، ودقّ المسامير فى يديه ورجليه، ورفعه فوق الصليب، ونزف دمه، ويبوسة حلقه وجفاف الماء من جسمه حتى قال أنا عطشان.. إلى غيرها من الآلام التى شاء أن يتحمّلها كاملة حتى إنهم أعطوه خمرا ممزوجة بمرارة ليشرب، فلما ذاقها أبى أن يشربها (متى ٢٧ : ٣٤) ذلك أن هذا الشراب كانوا يعطونه للمصلوبين بمثابة مخدّر، ليخفف عنهم آلام الصلب. أمّا المسيح فأبى أن يشرب حتى هذا المخدّر، لكى يشرب كأس الألم كاملة حتى الثمالة.

تلك الآلام الروحية والنفسية والجسدية احتملها المسيح كاملة، ولم يشأ أن يتدخل لاهوته لينقص منها حتى يأخذها كاملة غير منقوصة. وهذا هو معنى قوله «إلهى إلهى لماذا تخلّيت عنى»، وهو تعبير عن قسوة الآلام التى تحمّلها، والتى لم يتدخل اللاهوت لتخفيفها أو إنقاصها.

وإذن فلم يفارق اللاهوت الناسوت، ولو حدثت المفارقة جدلا، لكان الخلاص ـ الذى من أجله جاء المسيح ـ لم يتم، ولكان الصلب قد وقع على إنسان ـ مجرد إنسان ـ وفى هذه الحالة لا يفدى بالجهد غير واحد فقط. يقول الرسول بولس «فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضا أن يموت» (رومية ٥ : ٧) . إنَّما الذى أعطى موت المسيح قيمته اللانهائية لفداء جميع البشر، هو اتّحاد اللاهوت بالناسوت، فصار الدم ثمينا، وقيمته لا نهائية، هى قيمة الله ذاته، حتى جاز للرسول بولس أن يُسمى دم المسيح دم الله ذاته، فقال عن الكنيسة «إن الله اقتناها بدمه» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨) . فلو لم يكن اللاهوت متحّدا بالناسوت عند الصلب لما جاز أن يُسمّى دم المسيح دم الله ذاته. فاللاهوت ليس له دم، بل الدم دم الناسوت، لكن لأنّ اللاهوت متّحد بالناسوت اتحادا تاما، فقد صار ما ينسب إلى الناسوت ينسب إلى اللاهوت، وما ينسب إلى اللاهوت ينسب إلى الناسوت، بطبيعة الاتّحاد القائم بينهما.

فلو أن اللاهوت فارق الناسوت عند الصلب لأمسى تجسد الكلمة خرافة، ولصار عمل الفداء هراء ومهزلة. لأنه كيف يفارق اللاهوت الناسوت فى اللحظة الحاسمة التى من أجلها كان تجسد الكلمة. ولقد قال المسيح له المجد «يا أبتاه نجّنى من هذه الساعة، **ولكننى من أجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة**» (يوحنا ١٢ : ٢٧) . وطلب النجاة كان نظير صلاته فى بستان جثسيمانى لبيان شدة الآلام، وحقيقة ناسوته، وأن المسيح كإنسان كان لابدّ أن يُعَبر عن قسوة الآلام بطلب النجاة منها، لكنه فى نفس الوقت قبلها بإرادته لأنه جاء من السماء، وتجسد، لأجلها، لأنها طريق الخلاص لآدم وذريته.

إنّ الذين يقولون بمفارقة لاهوت المسيح لناسوته يهينون تدبير التجسد، ويهدمون تدبير الفداء، ويجعلون آلام المسيح بلا قيمة، ويهدرون خلاص الإنسان.

فإذا قالت ديانتنا أنّ المسيح مات لأجلنا (رومية ٥ : ٨) فاللاهوت فى المسيح لا يموت. وتوكيدا لهذه الحقيقة الإيمانية نردد نحن فى القداس هذه الترنيمة «قدوس الله، قدوس القوى، قدوس (**الحىّ**) **الذى لا يموت**. يامن صلب عنا ارحمنا»، أى أننا فيما نقرر أنّ المسيح قد ذاق الموت بالجسد، نقرر أيضا أن اللاهوت لا يموت.

أما موت المسيح فمعناه أن الروح الإنسانية فى المسيح قد فارقت الجسد مع استمرار اتحّاد كلّ منهما باللاهوت... أى أن موت المسيح هو انفصال بين الروح والجسد المكونين لناسوت المسيح أو إنسانيته. أمّا لاهوته فلا يموت، ولم يفارق لا الروح، ولا الجسد.

وهذا ما نقوله فى القداس الإلهى، فيما يعرف بالقسمة السريانية: «هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد، وذُبح، وانحنى بالصليب، **وانفصلت نفسه (روحه الإنسانية) من جسده. إذ لاهوته لم ينفصل قط، لا من نفسه (روحه)، ولا من جسده**»، وبعد أن قام بسلطان لاهوته، «**أتت نفسه (روحه) واتحدت بجسده**».

وعلى الصليب ظهرت آية عظيمة برهنت على أنّ لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين.

ذلك أنّ المسيح بعد أن أسلم الروح الإنسانية فيه على الصليب، (متى ٢٧: ٥٠)، (مرقس ١٥: ٣٩)، (لوقا ٢٣: ٤٦)، (يوحنا ١٩: ٣٠) وبذلك يكون قد مات، بانفصال روحه من جسده (يوحنا ١٩: ٣٣) طعن أحد العسكر جنبه - بعد موته - بحربة، «وللوقت خرج دم وماء» (يوحنا ١٩: ٣٤).

ولقد اهتم الإنجيل بذكر هذه الحادثة لأهميتها، ولدلالتها اللاهوتية.

قال الإنجيل «فجاء الجند وكسروا ساقى أول اللذين كانا مصلوبين معه ثم كسروا ساقى الآخر. وأما يسوع فلما جاءوا إليه وجدوه قد مات فلم يكسروا ساقيه. إلاّ ان واحدا من الجند طعن جنبه بحربة **فخرج منه على الفور دم وماء**. والذى أبصر ذلك قد شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه قال الحق لتؤمنوا أنتم» (يوحنا ١٩: ٣٢ - ٣٥).

وأهمية هذه الحادثة هى فى غرابتها عن المألوف، لأنه من المعروف أن الإنسان إذا مات هرب دمه من عروقه، وتجلّط فى القلب. ولذلك فإنّ الأطباء إذا أرادوا أن يتثبتوا من موت إنسان غرسوا فى جسمه إبرة فإذا خرجت وبها دم استدلّوا على أنّه مازال حياً. أما إذا لم يخرج فيها دم تحققوا من موته. فكيف إذن يجرى من جنب المخلّص بعد موته دم وماء منفصلين؟ إنّ هذه الحادثة دليل على أنّ المسيح فيما كان ميتا كان أيضا حيا.. نعم، كان ميتا بانفصال روحه من جسده، ولكنّه كان حياً بلاهوته. ولذلك خرج من جنبه بعد موته دم وماء. وهذا دليل على أنّ اللاهوت لم يفارق الناسوت حتى بعد الموت.

ولأهمية هذه الحادثة ودلالتها اللاهوتية أوردها القديس يوحنا فى إنجيله، وعقَّب عليها تعقيبا يؤكد دلالتها اللاهوتية. قال: «والذى أبصر ذلك قد شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه قال الحق، لتؤمنوا أنتم» (يوحنا ١٩: ٣٥) وبخاصة لأنه الإنجيلى الذى كتب إنجيله ليبرهن بما أورده من حوادث ومعجزات، على لاهوت المسيح، وأنه ابن الله: يقول «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب فى هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا بأن **يسوع هو المسيح ابن الله** ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» (يوحنا ٢٠: ٣٠، ٣١).

ولأهمية هذه الحادثة ودلالتها اللاهوتية أوردها القديس يوحنا مرة أخرى فى رسالته الأولى مؤكدا على أهميتها وقيمتها، قال «من ذا الذى يغلب العالم إلاّ الذى يؤمن بأن **يسوع هو ابن الله. هذا هو الذى أتى بالماء والدم، يسوع المسيح، لا بالماء فقط، بل بالماء والدم**» (١. يوحنا ٥: ٥، ٦).

ولأهمية هذه الحادثة ولدلالتها اللاهوتية، أمرت الكنيسة **بمزج الخمر بالماء** فى كأس سر القربان، توكيدا وتخليدا لما حدث عند الصليب، إذ خرج من المسيح بعد موته «ماء ودم».

وقد كتب آباء الكنيسة فى هذا الموضوع كثيرا وعلقوا عليه تعليقات روحية، ومنهم البابا كيرلس الأول عمود الإيمان الذى رأى فى خروج الماء والدم دلالة خلاصية، **فالماء يشير إلى المعمودية، والدم يشير إلى دم المسيح** فى سر القربان.

والبينّة الأخرى على اتّحاد اللاهوت بالناسوت وعدم إفتراقهما لحظة واحدة ولا طرفة عين، أنّ جسد المسيح وقد دُفِن فى القبر لم يتعفن ولم يفسد. وذلك بقوة اللاهوت المتّحد به.

ولقد اهتم بهذه البينة الكتاب المقدس، وأوردها القديس بطرس الرسول فى خطابه العظيم يوم الخمسين أمام اليهود الذين كانوا قد جاءوا من كل أمة تحت السماء. قال: «أيُّها الرجال الإسرائيليون اسمعوا أقوالى هذه: إنّ يسوع الناصرى وهو إنسان أظهره الله لكم بمعجزات وعجائب وآيات... قد أقامه الله ففك إسار أوجاع الجحيم لأنه لم يكن ممكنا للجحيم أن يستبقيه أسيرا له، إذ يقول داود عنه: إننى كنت أرى الرب أمامى فى كل حين... لأنك لن تترك نفسى فى هاوية الموتى، **ولن تدع قدوسك ينال منه الفساد**... أيُّها الرجال الأخوة، ينبغى أن يقال لكم صراحة أن رئيس الآباء داود قد مات ودُفِن ولا يزال قبره عندنا إلى هذا اليوم. فإذ كان

نبيًا وعلم أن الله أقسم له بيمين أنّه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على عرشه، قد سبق فرأى وتكلّم عن قيامة المسيح قائلا إن روحه لن تترك فى الهاوية، وأن جسده لن يناله الفساد. فيسوع هذا أقامه الله. ونحن جميعا شهود بذلك» (أعمال الرسل ٢ : ٢٢ – ٣١)، (مزمور ١٥ : ١٠).

فالقديس بطرس الرسول يبين فى هذا النص أن نبوءة داود النبّى إنّما قيلت عن المسيح ولا تنطبق إلا عليه وحده. ولا شكّ أن إهتمام الرسول بطرس بهذه الواقعة إنّما هو بالنظر إلى دلالتها اللاهوتية، **لأن الذى حفظ جسد المسيح بغير فساد هو لاهوته المتّحد به.**

ونظرا لأهمية هذا الموضوع وتوكيدا لدلالته اللاهوتية، أورده الرسول القديس بولس فى خطابه إلى اليهود فى أنطاكية بيسيدية،حيث قال: «أيُّها الرجال الإسرائيليون والذين يتّقون الله، اسمعوا... أقام الله لإسرائيل مخلّصا، يسوع... ولما تمموا كل ما كتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه فى القبر. ولكن الله أقامه من بين الأموات... إنه أقامه من بين الأموات غير عتيد أن يعود أيضا إلى فساد... ولذلك قال أيضا فى مزمور آخر: **لن تدع قدوسك ينال منه الفساد**. لأن داود بعد ما خدم جيله بمشورة الله رقد وانضم إلى آبائه ورأى فسادا. **وأمّا الذى أقامه الله فلم ينله الفساد**» (أعمال الرسل ١٣ : ١٦ – ٣٧).

إن اللاهوت لا يموت، ولا يدفن، ولكنه باتّحاده بالجسد، حفظ الجسد من أن يناله فساد أو تعفن أو تحلل. ولولا هذا لما اهتم الكتاب المقدس بهذه الحادثة ولما أولاها كل هذا الاهتمام ولما خصها بالذكر كل من الرسولين القديس بطرس، والقديس بولس، فى خطابين مهمين إلى اليهود، أحدهما فى أورشليم والثانى فى أنطاكية بيسيدية، مع بعد الحقبة الزمنية بينهما.

١٤ - للمسيح وهو كلمة الله المتجسد روح إنسانية أيضا

سؤال: من السيد / ادمون وليم جوده - بنى سويف.

يقول، إن الله روح، وهو بذاته الروح القدس، والروح الأعظم. فلما تجسد فى المسيح، فهل كان للمسيح روح إنسانية؟ أو كيف نميّز فى المسيح بين روح الله وروح الإنسان؟

الجواب :

نعم، إن «الله روح» (يوحنا ٤ : ٢٤)، «وأمّا الرب فهو الروح» (٢ . كورنثوس ٣ : ١٧) وهو أيضا «الروح القدس»، لأن الله قدوس «لأنى قدوس أنا الرب» (اللاويين ٢٠ : ٢٦)، (١٩ : ٢)، (مزمور ٩٨ : ٩، ٣، ٥)، (١ . بطرس ١ : ١٦).

وحيث أن «الله الكلمة» (يوحنا ١ : ١٤)، «قد أخلى ذاته متّخذا صورة العبد صائرا فى شبه الناس وظهر بهيئة إنسان» (فيلبى ٢ : ٧، ٨)، لهذا السبب صار يعرف بأنه «الإنسان يسوع المسيح» (١ . تيموثيئوس ٢ : ٥)، كما يعرف أنه «ابن الإنسان» (متى ٨ : ٢٠) من حيث هو ابن مريم.

وحيث أنّه قد اتّخذ إنسانية كاملة، والإنسانية فى الإنسان تتألف من روح ومن جسد، فقد انبنى عليه أن يكون للمسيح من حيث هو إنسان، روح إنسانية.

هذه الروح الإنسانية فى المسيح هى التى قال عنها الإنجيل «تألم بالروح واضطرب» (يوحنا ١١ : ٣٣) و «اضطرب بالروح» (يوحنا ١٣ : ٢١) وهى هذه الروح الإنسانية التى أسلمها على الصليب بموته. قال الإنجيل «ثم صرخ يسوع بصوت عظيم، وأسلم الروح» (مرقس ١٥ : ٣٧)، (متى ٢٧ : ٥٠)، (لوقا ٢٣ : ٤٦)، (يوحنا ١٩ : ٣٠)، (١٠ : ١٨).

وعلى ذلك فالمسيح - وهو الله الكلمة متجسدا - جمع بين كونه «الروح الأعظم» وبين كونه إنسانا، ذا روح إنسانية.

أمّا الروح القدس فبصفته الأقنومية هو كائن فى الذات الإلهية مع الآب والابن منذ الأزل (متى ٢٨ : ١٩)، ولقد نزل على يسوع المسيح بعد عماده فى نهر الأردنّ، متّخذا هيئة جسمية فى شبه حمامة (متى ٣ : ١٦)، (مرقس ١ : ١٠)، (لوقا ٣ : ٢٢) لينال كإنسان لقب (المسيح)، وألقاب (ملك ونبّى وكاهن).

١٥ ـ طهارة جسد المسيح من لوثة الخطيئة الأصلية (١)

سؤال : من السيد / الدكتور فهيم زكى إبراهيم ـ بالأسكندرية.

يقول : نريد إيضاحا لهذه الحقيقة، أن جسد السيد المسيح إلهنا، كان طاهراً من الخطيئة الأصلية التى ورثتها العذراء مريم بالطبيعة عن طريق الوراثة؟

الجواب :

نعم، إن جسد المسيح يسوع، له المجد، كان طاهرا من الخطيئة الأصلية، أو الجدية، وهذا هو السبب الحقيقى فى أن المسيح ولد من عذراء بغير زواج، عذراء لم يعرفها رجل معرفة الأزواج، لأن هذا كان هو الطريق الأوحد لضمان عدم سريان الخطيئة الجدية إلى المسيح يسوع الذى حملت به العذراء وولدته مثلنا فى كل شئ (العبرانيين ٤ : ١٥) إلا فى خلوه تماما من لوثة الخطيئة الأصلية (٢ . كورنثوس ٥ : ٢١) ، (العبرانيين ٤ : ١٥) ، (٧ : ٢٦) ، (١ .بطرس٢ :٢٢) ، (١ . يوحنا ٣ : ٥).

فجميع الناس يولدون ملوثين بالخطيئة الأصلية الجدية، إلا المسيح يسوع وحده.

نعم إن المسيح وحده هو الذى حملت به العذراء مريم من غير زرع بشر، أى بلا رجل أب يعطى زرعا. وهذا هو السبب فى اهتمام الكتاب المقدس بالتوكيد على بتولية العذراء مريم قبل حملها بالمسيح يسوع، وقوله عن مريم ويوسف : «أما ميلاد يسوع المسيح فكان هكذا : كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من روح القدس» (متى ١ : ١٨).

وقد أبان الوحى الإلهى بهذا النص القدسى أن الحبل بيسوع المسيح قد تم بعمل الروح القدس، ولم يكن ثمرة الاجتماع بين يوسف ومريم. وفى هذا البيان العظيم من جانب الوحى المقدس، إثبات وإعلان عن خلو المسيح يسوع من وصمة الخطيئة الأصلية التى تنتقل عادة من الآباء إلى الأبناء عن طريق التوالد بالزواج. هكذا يقول النبى داود «بالإثم حبل بى، وبالخطيئة اشتهتنى أمى» (مزمور ٥٠ : ٥) . ويقول المزمور أيضا «زاغ الخطاة من الرحم، ضلوا من البطن» (مزمور٥٧ : ٣) ، ويقول الله بفم إشعياء النبى «ومن البطن سميت عاصيا» (إشعياء ٤٨ : ٨).

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ٣ من ديسمبر ـ كانون أول لسنة ١٩٧٨م – ٢٤ من هاتور لسنة ١٦٩٥ش.

ويقول العلامة القديس ديديموس الضرير رئيس مدرسة الأسكندرية اللاهوتية فى القرن الرابع (٣١٣ – ٣٩٨) : «إن خطيئة الأبوين الأولين (آدم وحواء) هى الخطيئة القديمة التى طهرنا منها يسوع المسيح فى معموديته... إن جميع أولاد آدم قد ورثوها، وانتقلت إليهم بالخلفة والتوالد عن طريق المعاشرة الجنسية بين الوالدين. وهذا هو السبب فى أن المسيح ولد من عذراء لم تتلوث أو تتلطخ بها. وبالمعمودية يتطهر الإنسان من الخطيئة الأصلية» (١).

فالجسد الذى اتّخذه الله الكلمة، من مريم، لم يكن من زرع رجل، بل من عمل الروح القدس رأسا. وهذا هو معنى قوله تعالى «لذلك عند دخوله إلى العالم، يقول : ذبيحة وقربانا لم ترد، ولكن هيأت لى جسدا» (العبرانيين ١٠ : ٥) ، (١ : ٦) ، (مزمور ٣٩ : ٦) أى أن الله الكلمة عندما أراد أن يدخل إلى عالم الأرض، بالتجسد، لم يأخذ بذرة هذا الجسد من أب بشرى (كما هو الحال بالنسبة لكل إنسان) لكن هذه البذرة التى حملتها العذراء مريم ومنها تكون جسد المسيح يسوع، كانت من صنع الروح القدس، ولم تكن من رجل.

وهذا هو المعنى من قولنا نحن المسيحيين فى (قانون الإيمان) : «وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس».

وجاء فى القداس الباسيلى : «وفى آخر الأيام، ظهرت لنا نحن الجلوس فى الظلمة وظلال الموت، بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. هذا الذى من الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم».

وجاء فى القداس الإلهى الغريغورى «أنت الكائن فى كل زمان، أتيت إلينا على الأرض، أتيت إلى بطن العذراء».

وعندئذ يأخذ الكاهن من حق البخور، يد بخور واحدة، بالمستير (ملعقة الكأس) ويضعها فى المبخرة (أو المجمرة)، بيانا عن حلول الله الكلمة فى بطن العذراء مريم. فهو (الكلمة) البخور العطر، وهى العذراء المجمرة حاملة البخور (المجمرة الذهب النقى الحاملة جمر النار المبارك - المجمرة الذهب هى العذراء، وعنبرها هو مخلصنا، ولدته وخلصنا، وغفر لنا خطايانا) ثم يمسح الكاهن المستير (ملعقة الكأس) ويردها إلى مكانها.

(١) من كتا ب القديس ديديموس الضرير «فى الثالوث» ٢ : ١٢.

والمغزى الروحى العظيم من هذا، هو أن جسد المسيح لم يكن من زرع أب جسدى، لكنه وهو (الكلمة) حل فى أحشاء العذراء مباشرة. ومنها، ومن الروح القدس اتّخذ له جسدا ظهر فيه «والكلمة اتّخذ جسدا» (يوحنا ١ : ١٤).

ومن الإنجيل نعلم أن يوسف النجار إذ رأى أن العذراء حملت، ولكن ليس منه، شك فى أمرها، واعتقد أنها حملت سفاحا، ولما كان رجلا صديقا وبارا لم يشأ أن يفضح أمرها، فرأى أن يخلى سبيلها سرا، وبينما هو يفكر فى ذلك ظهر له ملاك الله وأعلمه أن الحمل ليس من زرع رجل بل من الروح القدس.

قال الإنجيل المقدس : «أما ميلاد يسوع المسيح فكان هكذا : كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا، وُجِدَت حُبْلى من روح القدس. وإذ كان يوسف رجلها بارا، ولم يشأ أن يشهر أمرها، أراد أن يخلى سبيلها سرا. ولكنه فيما كان يفكر فى ذلك، إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا : «يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقى مريم إمرأتك، لأن الذى سيولد منها إنما هو من روح القدس... لأنه هو الذى يخلص شعبه من خطاياهم» (متى ١ : ١٨ – ٢١).

كذلك نعلم من الإنجيل الطاهر أن الملاك جبرائيل إذ جاء يبشر العذراء مريم بالحبل الإلهى منها، اعترضت هى على قوله، منذهلة أن يتم لها حمل بغير زرع رجل، فأجابها الملاك بأن هذا الحمل ليس بالطريق المألوف، المعروف، وأن (جسد) القدوس الذى سيولد منها، ليس من زرع رجل، لكنه من صنع الروح القدس.

«فقالت مريم للملاك : كيف يكون لى هذا، وأنا لا أعرف رجلا؟! فأجاب الملاك وقال لها : إن روح القدس سيحل عليك، وقوة العلى ستظللك، ولذلك فإن القدوس الذى سيولد منك يدعى ابن الله» (لوقا ١ : ٣٤، ٣٥).

ولقد قدم الملاك جبرائيل فى رده على العذراء مريم، تفسيرا بسيطا لتلقيب المسيح يسوع بلقب (ابن الله) ذلك لأن يسوع المسيح ولد كإنسان وليس له أب جسدى، فمن يكون أباه إلا الله؟! إذن هو (ابن الله) لأنه ليس له أب من الناس.

وهذا هو ردنا البسيط على الذين يعترضون على تلقيب المسيح يسوع بأنه (ابن الله) ويقولون إن الله لم يلد ولم يولد، وهذا حق، فالله لا يلد كما يلد الإنسان لأن الله روح، ولكن المسيح يسوع

ولد من العذراء مريم وليس له أب جسدى، فالله إذن هو أبوه. وبهذا المعنى قال المسيح لتلاميذه «إنى أصعد إلى أبى الذى هو أبوكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

والخلاصة أن فى ولادة المسيح يسوع لم يكن هناك رجل يعطى بذرة (الجسد)، لكن كانت هناك إمرأة حملت (البذرة) الآتية لا من رجل، بل من الروح القدس.

وهذا هو السبب فى أن الروح القدس حل على العذراء مريم مباشرة بعد أن قبلت بشارة الملاك لها، وذلك لكى يتولى الروح القدس إعداد (الجسد) فى بطنها حتى يحل الله الكلمة فيه ويتحد به، فيصير المولود منها هو الكلمة المتجسد.

وما حدث فى سر التجسد، يحدث نظيره فى سر القربان على المذبح : يحل الروح القدس على الخبز المهيأ حملا فيتحول إلى جسد المسيح، تماما كما حل الروح القدس فى بطن العذراء، فهيأ منها ومن دمها، جسدا له. وكما حل الله الكلمة فى (التجسد) المتكون من الروح القدس ومن مريم العذراء، واتحد به، فصار المولود من مريم هو الله الكلمة متجسدا، هكذا فى سر القربان يحل الروح القدس على الخبز المهيأ حملا، فيصير بالروح القدس جسدا يحل فيه كلمة الله.

وكما ظهر فى تدبير التجسد تضامن الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس، هكذا يتضح فى سر القربان التدبير المتضامن بين أقانيم الثالوث القدوس.

هذا هو المفهوم الواحد بعينه فى السرين معا... ففى سر القربان نرى تجسد الكلمة مرة أخرى.. وليس هذا تجسدا جديدا مختلفا متباينا عن التجسد الأول، ولكنه التجلى من جديد للتجسد الإلهى بعينه، وإن كان غير منظور، ولا محسوس، إلا أنه تجسد حقيقى كامل. ولذلك يقول الكاهن فى القداس الإلهى، عند بدء تقديس الخبز والخمر وقبل استدعاء الروح القدس للنزول على العناصر لتحويلها وإعدادها لتكون جسد المسيح «ووضع لنا هذا السر العظيم، سر التقوى».

فما هو سر التقوى؟ أليس هو سر التجسد؟ ألم يقل الكتاب المقدس «عظيم هو سر التقوى، الله ظهر فى الجسد» (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦) ؟

إذن فى سر القربان يحدث تجسد أيضا.. أى أننا فى كل مرة نقيم القداس يحدث تجسد لله الكلمة، وإن كان غير منظور. وهذا هو السبب فى أننا بعد التقديس، وقبيل حلول الروح القدس لنقل العناصر، يردد الكاهن عبارة على فم السيد المسيح «لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتى، وتعترفون بقيامتى، وتذكروننى إلى أن أجئ».

ويجيبه الشعب بعد ذلك مباشرة : «آمين (حقا) آمين (حقا) آمين (حقا)، بموتك يارب نبشر، وبقيامتك المقدسة، وصعودك إلى السماوات نعترف...» وهذا معناه أن سر القربان هو تجسد لله الكلمة. وكلما أقمنا القداس تكرر فى أذهاننا تجسد الكلمة.. وليس هذا من قبيل التذكر الذهنى لحدث مضى وانتهى، وإنما هو من قبيل التذكر الذهنى لحدث يتكرر وقوعه وحدوثه. وفى كل مرة يقع، نذكر كل ما يتصل به عند حدوثه لأول مرة وذلك بمناسبة حدوثه ووقوعه جديداً... وهو ما يتضح مما يرد فى جميع القداسات.

جاء مثلا فى القداس الغريغورى قوله :

«وأيضا يا سيدنا، فيما نحن نصنع ذكر (نزولك على الأرض) وموتك المحيى وقبرك ثلاثة أيام، وقيامتك من بين الأموات، وصعودك إلى السماوات.. نقرب لك قرابينك مما لك...».

وإذن ففى إقامة القداس يتم تجسد حقيقى كامل فى سر القربان، باتحاد الكلمة الإلهى بالخبز المتحول بالروح القدس إلى جسد، وبهذا نذكر من جديد (نزولك على الأرض)، وما تم بعد ذلك من صلب وموت وقيامة وصعود إلى السماء.. فالتجسد يتم إذن فى سر القربان تماما كما تم من الروح القدس ومن العذراء مريم، وإن كان فى سر القربان يتم بطريقة سرية غير منظورة. وهذا هو الفارق بين هذا التجسد وبين التجسد الذى تم فى ملء الزمان من إمرأة (غلاطية ٤ : ٤) هى العذراء القديسة مريم ـ ذاك تجسد سرى غير منظور، أما هذا فتجسد منظور «الله ظهر فى الجسد» (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦).

وتوكيدا لهذا المفهوم، وبيانا لتضامن الأقانيم الثلاثة فى سر القربان المقدس، أسوة بتضامن الأقانيم الثلاثة فى سر التجسد من الروح القدس ومن العذراء مريم، يبخر الكاهن يديه على المجمرة، عند بدء تقديس العناصر، ثلاث مرات، أى أن التبخير ثلاث مرات فى عمل سر القربان يشير إلى تضامن الأقانيم الثلاثة، فالكلمة هو الذى يحل بلاهوته فى القربان، والروح القدس يحل على الخبز فيعده ويحوله إلى جسد المسيح، والآب مشارك للكلمة والروح القدس فى تدبير الخلاص، تماما كما حدث هذا التضامن بين الأقانيم فى سر التجسد من الروح القدس ومريم العذراء.

١٦ - كيف ولدت العذراء المسيح وهى دائمة البتولية ؟ (١)

سؤال : من الشماس سامى سيدهم عبد المسيح - دير أبو حنس مركز ملوى.

يقول : سمعت أقوالا مختلفة عن كيفية ولادة السيد المسيح من العذراء مريم، ولذلك أريد أن أعرف الحقيقة فى هذا الموضوع. وهل أزالت الولادة بالمسيح بكارة العذراء مريم، أم أنه ولد من غير أن يفضّ بكارتها؟ على نحو ما يحدث فى كل ولادة طبيعية ؟

الجواب :

الحقيقة واحدة كما أعلنها الوحى الإلهى فى الكتب المقدسة فى العهدين القديم والجديد، وفى كتب الكنيسة وأقوال الآباء، والتقليد المقدس.

وهذه الحقيقة هى أن القديسة مريم كانت عذراء قبل ولادتها للسيد المسيح، وظلت عذراء طوال حياتها إلى أن أوفت أيامها وانتقلت بالموت إلى فردوس النعيم. ولذلك فإنها تلقب فى كتب الكنيسة بأنها (العذراء الدائمة البتولية)، و (العذراء الدائمة البكارة) و (العذراء دائما وكل حين) ، و (العذراء العروس التى بغير زواج).

إن كل فتاة لم تتزوج تسمى (عذراء). أما مريم فتلقب بـ (العذراء) معرّفة بالألف واللام، أى أنها وحدها بين جميع العذارى التى عذراويتها استمرت كنية عنها، ولقباً دائما لها، تعرف به على ممر العصور والأجيال.

فكل فتاة غير متزوجة تسمىّ عذراء لكنها قد تتزوج، وقد لا تتزوج. أما مريم فهى وحدها بين جميع العذارى التى لم يكن ولن يكون هناك أدنى احتمال فى تغيرها من عذراء إلى غير عذراء، وإنما هى (العذراء) من غير منازع، ومن غير شك.

ولذلك فإذا قرأت أو سمعت لفظ «العذراء» (معرّفة بالألف واللام) أيقنت أنها (مريم) هى بعينها، حتى لو لم يذكر اسم مريم صراحة.

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ٢٦ من أغسطس - آب لسنة ١٩٧٩م - ٢٠ من مسرى لسنة ١٦٩٥ش.

وكما أن اسم (المسيح - معرفاً بالألف واللام) لا يقال إلا عن واحد أحد، وهو الرب يسوع، كذلك اسم (العذراء) معرفا بالألف واللام - لا يقال إلا عن واحدة، ولا أحد سواها، وهى القديسة مريم والدة الإله الكلمة.

وبهذا اللقب (العذراء) معرفة بالألف واللام، أشار إليها الوحى الإلهى فى العهد القديم على فم إشعياء النبى، فقد ورد قوله : «ها إن (العذراء) تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل» (إشعياء٧ : ١٤) . وأورد العهد الجديد هذا النص عينه مبينا أنه قيل عن العذراء القديسة مريم فى حملها وولادتها للسيد المسيح «وستلد ابنا وتسميه يسوع... وقد كان ذلك كله ليتم ما قاله الرب بفم النبى القائل : ها إن **العذراء** تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل، الذى تفسيره : الله معنا» (متى ١ : ٢١ – ٢٣) .

وأما الولادة فقد كانت ولادة حقيقية بعد حمل استغرق مدة تسعة أشهر كاملة.

ومع ذلك فقد انفردت العذراء مريم بأن ولادتها للسيد المسيح لم تخدش بكارتها. ولهذا اعتبرت ولادتها للمسيح له المجد أمرا لا يمكن إدراكه، وهو يعلو فى سموه عن كل تصور بشرى، وهذا يدخل فى دائرة المعجزات، وهو برهان على قدرة لاهوت المسيح. فليس لمثل هذه الولادة نظير فى كل التاريخ.

أمام هذا السر العظيم وقف آباء الكنيسة حيارى : معلنين عجزهم عن تفسيره بغير قدرة لاهوت المسيح.

ولذلك ورد فى كتب الصلوات، توجيه الخطاب إلى العذراء مريم بقولنا «نمجد ميلادك غير المدرك» (من صلوات قطع الخدمة الثانية لصلاة نصف الليل)، وقولنا «نمجد ميلادك الطاهر فى كل حين من أجل خلاص نفوسنا» (من صلوات قطع الخدمة الثالثة لصلاة نصف الليل) .

ولا شك أن المقصود بقولنا «ميلادك» ليس ميلادها هى من أمها حنة، وإنما المقصود هو ميلادها أو ولادتها للسيد المسيح. فميلادها للسيد المسيح هو الميلاد الطاهر لأنه لم يكن من زرع رجل، وإنما من روح القدس، فهو (**ميلاد طاهر فى كل حين**) ثم هو (**ميلاد غير مدرك**) **لأنه لا يمكن إدراكه بالعقل، ولا يعبر عنه .** ⲡⲉϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ ⲛ̀ⲁⲧⲥⲁϫⲓ ⲙ̀ⲙⲟϥ

PEGINMISSI ENATSSAGI EMMOF

ولا يوصف، إذ لا يمكن أن يتصور العقل أن تلد عذراء بمولود، وتحتفظ مع ذلك ببكارتها مصونة، فقد خرج المسيح من مستودع العذراء مريم كما ينفذ شعاع الشمس من زجاج النافذة دون أن يخدشه.

وقد قال الآباء فى ذلك إن المسيح له المجد خرج من القبر عند قيامته، والقبر مغلق وعليه الختوم (متى ٢٧ : ٦٤ – ٦٦) ، ودخل العلية بعد قيامته وأبوابها مغلقة (يوحنا ٢٠ : ١٩، ٢٦) ، (لوقا ٢٤ : ٣٦ – ٣٩)، ليبرهن أيضا على أنه خرج من بطن العذراء مريم وختوم البكارة مصونة لم تخدش كما ينفذ شعاع الشمس من الزجاج ولا يخدشه.

وقال الوحى الإلهى على فم النبى حزقيال فى نبوءته عن العذراء مريم وولادتها للمسيح له المجد «قال لى الرب : **هذا الباب يكون مغلقا، لا يفتح**، ولا يدخل منه إنسان، **لأن الرب إله إسرائيل دخل منه، فيكون مغلقا»** (حزقيال ٤٤ : ٢).

جاء فى صلاة القسمة التى تتلى فى القداس فى صوم الميلاد المجيد : «أيها السيد الرب إلهنا الخالق، غير المرئى، غير المحوى، غير المتغير، الذى لا تدرك أعماقه».

«الذى أرسل نوره الحقيقى، ابنه الوحيد، يسوع المسيح، الكلمة الذاتى».

«الكائن فى حضنه الأبوى كل حين، أتى وحل فى الحشا البتولى غير الدنس، **ولدته وهى عذراء، وبكارتها مختومة**».

ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم : «فأما السيد المسيح ابن الله مخلصنا الذى ولد من العذراء الطاهرة مرتمريم **ولم يفك بتوليتها، لكنه دخل وخرج والباب مختوم**، كما قال حزقيال النبى» (فى العظة عن دخول العذراء الهيكل).

ويقول القديس يعقوب السروجى «دخل إلى التلاميذ والأبواب مغلّقة غير مفتوحة، ليريهم أنه **لما خرج لم يحل البتولية**. دخل العلية كما خرج من البطن لكى لا يتعبوا بالفحص كيف ولد... صور الحكيم الأبواب المغلّقة ببتولية أمه، وعلّمهم بالقريبات البعيدات... نظر التلاميذ البتولية المختومة بالأبواب المغلّقة **لأنه لم يفتح لما دخل، ولا أباد ختوم البتولية لما خرج**... حل فى العلية والمتاريس مغلّقة عند التلاميذ، **وخرج من البطن وخواتم البتولية مختومة، خرج من البطن جسدانيا وهى مختومة**، وإن تطلب منى لم أعرف أن أفسر

لك هذا أيضا. دخل العلية المغلّقة... ولم يفتحها. ليس روحا دخل من الأبواب، بل جسدا وعظاما كما اعترف هو، (القديس يعقوب السروجى فى عظة على أحد توما).

ويقول مار يعقوب السروجى إن العذراء مريم ولدت مولودها العجيب وهى بتول، بنوع يفوق الناموس الطبيعى، وبشكل لا تستطيع الكلمة وصفه.. إن الطبيعة قهرت بهذه الولادة ووقفت عن بعد حائرة مذهولة، إذ ليس بحسب الطبيعة ولد لعذراء. فمتى ولدت عذراء فمولودها هو الإله. ذلك أن الله وحده يستطيع أن يلج العناصر الصماء وهى مغلّقة، ولا يحتاج إلى فتح الباب متى دخل ولا إلى ترك أثر متى خرج. هكذا دخل الله إلى العالم من باب مغلّق أى بواسطة عذراء مختومة. وظهر فى الجسد ولا يبحث أمره (رسالته فى الإيمان). وقال فى رسالته إلى رؤساء الأديار القسوس مار انطيوخ وصحبه : «فإن الذين ضلوا... يقولون إن مريم لم تلبث بكرا بعد ولادتها دون أن يتبصروا رؤيا حزقيال (النبى) الذى تحدث بجلاء عن أمر الفتاة، مشبها إياها بالباب المغلق... **وبديهى أن الله لا يحتاج إلى فتح الباب عند خروجه**. ولأجل هذا فإن الأشقياء لا يصدقون أن الباب ظل مغلقا، إذ لا يؤمنون بأن الذى خرج منه هو الله نفسه. **وكل من آمن بأنه الله، آمن أيضا بأنه خرج إلى العالم حين جاء إلى العالم، من باب مغلق لم يفتح**». وقال فى رسالته إلى أوطيخين أسقف دارا : «تجسد ابن الله من العذراء... **وظلت العذراء ببتوليتها كنبوءة حزقيال**». وقال فى رسالته إلى القوميس قورا: «الإله صار إنسانا وظل إلها. **وولدته البتول وظلت بتولا**. لذلك تعرف مريم بأنها بتول حقا وأم حقا، وليست إثنتين.. لكنها واحدة، أى أنها أم وبتول معا» (١).

وجاء فى ميمر للقديس كيرلس رئيس أساقفة أورشليم فى القرن الثالث (٣١٥ - نحو ٣٨٦) إنه «عندما شعرت العذراء بقرب وضع الجنين حالا، أخبرت يوسف، فأسرع إلى البلدة ليستحضر قابلة لمساعدتها... ولما وصلا المغارة ودخلا فيها وجدا أن العذراء ترضع ابنها الحبيب.. وسألتها القابلة بقولها : «يا أيتها السيدة ألم ينزل الخلاص (المشيمة) المعتاد للنساء؟ فلم تجاوبها قط، بل ظلت ساكتة ترضع الطفل. فوضعت القابلة يدها لتنظر، **فلم تجد سوى عذراء بكر بتول كما هى**، فتعجبت تلك المرأة وتركتها. وقامت مسرعة لتدخل بيت لحم، وقد صادفتها سالومه

---

(١) انظر كتاب «هبة الإيمان» أو الملفان مار يعقوب السروجى أسقف بطنان، تأليف البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك انطاكية وسائر المشرق، طبعة ١٩٧١ صفحة ٥٨ – ٦٠.

القابلة الشهيرة، فقصت عليها الخبر من أوله. فقالت : إني في شك وعدم تصديق لذلك الخبر الغريب حتى أتوجه وانظر بعيني. وقد كان. وعادتا الإثنتان مسرعتين. وبوصولهما نظرت سالومه الطفل وأمه، وقد تهورت بجسارة، ومدت يدها تريد أن تكشف العذراء، فوقفت يدها، ونشف دمها، وصارت تستغيث، وصرخت بصوت عظيم، وقالت : يا إلهي، ذنبي عظيم. اغفر لي. وسجدت أمام الطفل، ووضعت يدها عليه، فشفيت في الحال» (١).

(١) عن كتاب ميامر وعجائب السيدة العذراء، على حسب ما وضعه آباء الكنيسة الأرثوذكسية - طبعة ١٩٢٧ صفحة ٥٣.

١٧ ـ المسيح هو الله وقد اتخذ جسداً وجسده لايحجب بهاء لاهوته إلا وفقا لمشيئته وإرادته وتدبير حكمته

سؤال: من الابن المحاسب يوسف مكارى ـ طنطا.

أسأل عن جسد الرب يسوع المسيح، هل بعد قيامة الرب من بين الأموات فى اليوم الثالث هل صار هذا الجسد غير محدود، يملأ السماوات والأرض أم أن المقصود أنه يضم المؤمنين فى الكنيسة المنتصرة والكنيسة المجاهدة لأجل تدبير الخلاص؟

الجواب:

إن جسد المسيح له المجد محدود فى حجمه من حيث الطول والعرض، وهو الذى اتّخذه بالميلاد من العذراء القديسة مريم بحلول الروح القدس عليها ونما قليلاً قليلاً مثل البشر. (لوقا ٢ : ٤٠) إلى أن بلغ إلى قامة الإنسان الكامل (أفسس ٤ : ١٣).

فالمسيح له المجد هو بذاته الله العظيم وقد شاء من فيض حبه للبشر الذين خلقهم على مثاله وصورته لكى يردهم إلى الحالة السامية التى خلقهم عليها، وكانوا قد فقدوها بالخطيئة، شاء أن يتخذ له جسداً على شاكلتهم، ليقبل فيه بدلاً منهم، حكم الموت الذى استحقوه، وبذلك يفديهم من الموت، ويعيدهم إلى الحياة الأبدية.

المسيح هو الله وقد اتّخذ جسداً «وحقاً عظيم هو سر التقوى، الله ظهر فى الجسد» (١ . تيموثيوس ٣ : ١٦).

هذا الجسد محدود، فى حجمه لأنه جسد إنسان، أما لاهوت الإله المتحد به ولم يفارقه لحظة واحدة أو طرفة عين، فيملأ بهاؤه السماوات والأرض وكل الكون وسائر الأكوان، ولما كان الله نوراً ونارا (العبرانيين ١٢ : ٢٩)، (التثنية ٤ : ٢٤)، فقد شاء فى زمن تجسده لخلاص البشر، أن يحجب بهاء لاهوته بجسده حتى لا تحترق الأرض وما عليها، ولكنه بمشيئته وإرادته كان يسمح أحيانا ببعض ومضات بهائه أن تظهر لتكشف عن حقيقته الإلهية، وقد حدث ذلك مثلاً على جبل تابور الذى تجلى عليه المسيح يسوع أمام ثلاثة من تلاميذه (متى ١٧ : ١ – ٦)، (مرقس ٩ : ٢ – ٨)، (لوقا ٩ : ٢٨ – ٣٦)، ليتبينوا حقيقة لاهوته،ولكنه عاد فحجب بهاء لاهوته،

ونزل من على الجبل فى هيئة إنسان (متى ١٧ : ٩)، (مرقس ٩ : ٩)، حتى يتمم مهمة الفداء والخلاص للإنسان «ولو عرفوا لما صلبوا رب المجد» (١ . كورنثوس ٢ : ٨).

وفى بستان جثسيمانى عندما جاء الجند والخدام من عند رؤساء الكهنة اليهود والفريسيين، ومعهم المشاعل والمصابيح والأسلحة، ليقبضوا على يسوع المسيح ويسلموه للرومان وحاكم الرومان للموت، سمح المسيح له المجد لبعض البهاء أن يظهر من مجد لاهوته. ولذلك فإنه له المجد خرج إليهم وقال لهم: «من تطلبون؟» أجابوه قائلين: يسوع الناصرى»، فقال لهم يسوع: «أنا هو». فلما قال لهم: «إنى أنا هو» **ارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، وذلك من بهاء لاهوته** (يوحنا ١٨ : ٣- ٨).

فلما تمم المسيح له المجد مهمة الفداء بالصليب، وكان لابد أن يموت بدلاً من الإنسان، وتم له الموت بانفصال مؤقت بين روحه الإنسانية وجسده. أما لاهوته فلم يفارق روحه أو جسده. ولذلك فإنه على الرغم من هذه المفارقة المؤقتة بين الروح الإنسانية والجسد، فإن الدم الذى تدفق من جسد المخلص بفعل الموت أو المفارقة المؤقتة بين الروح الإنسانية والجسد، قد جرى ووصل إلى عين لونجينوس قائد المائة الذى ضرب جنب المسيح بالحربة، فأحيا عين لونجينوس، وكانت من قبل مفقودة، الأمر الذى جعل لونجينوس نفسه ومن معه من الجند، أن يصرخوا قائلين: «**حقا كان هذا الإنسان ابن الله**» (متى ٢٧ : ٥٤)، (مرقس١٥: ٣٩)، (لوقا ٢٣ : ٤٧)، (يوحنا ١٩ : ٣٤، ٣٥).

ونزل المسيح إلى القبر وجسده متحد بلاهوته، ومن القبر دخل إلى العالم السفلى وأخرج آدم والقديسين المؤمنين المنتظرين عمل الفداء، ونقلهم إلى الفردوس فى يوم السبت المعروف بسبت الفرح، كما وعد المسيح اللص وهو على عود الصليب بقوله «**اليوم تكون معى فى الفردوس**» (لوقا ٢٣ : ٤٣). وأما إعلان القيامة فكان فى فجر الأحد «وما المعنى من قوله صعد سوى أنه نزل أولاً إلى أسافل الأرض. فهذا الذى نزل هو نفسه الذى صعد إلى ما فوق السماوات كلها، ليملأ كل شيء» (أفسس ٤ : ٩، ١٠).

على أنه بعد أن صعد المسيح له المجد إلى السماء واستوى على العرش السماوى لم تعد به حاجة إلى أن يحجب بهاء لاهوته. لذلك فإنه وهو على العرش فى السماء كان ولايزال لاهوته يملأ السماوات والأرض، وبالتالى فإن بهاء لاهوته يمتد إلى كل الأرض والسماوات وجميع الأكوان، ذلك لأن بهاء اللاهوت يخترق الجسد، فلا يحجبه الجسد، مثلما يخترق النور جسم

المصباح الزجاجى، فينتشر النور فى المحيط الواسع خارج جسم المصباح الزجاجى ولايعوقه جسم المصباح الزجاجى، لذلك عندما ظهر للقديس يوحنا الرائى فى جزيرة بطمس رأى يوحنا وجه المسيح كالشمس وهى تضىء فى أبهى شروقها وقال «فلما رأيته وقعت **عند قدميه** كالميت، فوضع **يده اليمنى** علىّ، وقال: «لاتخف، أنا الأول وأنا الآخر» (الجليان - الرؤيا ١ : ١٦، ١٧)، كان هذا هو بهاؤه وهو فى الجسد ولذلك جاء قوله «**وجهه... قدميه... يده اليمنى» فبهاء اللاهوت يخترق الناسوت ويمتد إلى الأرض وأقصى السماوات، ولايحجب الناسوت بهاء اللاهوت.**

إن جسد المسيح فى السماء وهو على العرش يخرج منه النور وينتشر فى السماوات والأرض وماوراء السماوات وكل الأكوان، لأن الله نور السماوات والنور لايحجبه ولا يحده الجسم مهما كانت صلابته وكثافته.

المسيح فى لاهوته نور ونار - كان ولا يزال وسيظل إلى الأبد نور السماوات والأرض وكل الكون بل وجميع الأكوان - له المجد والعظمة والسلطان فى كل مكان وكل زمان الآن وكل أوان وإلى أبد الدهور كلها، آمين.

١٨ ـ جسد المسيح مخلوق
لكن لاهوته أزلى غير مخلوق

سؤال: من الابن مجدى عزيز ـ القاهرة.

يقول إن السيد المسيح له المجد «مولود غير مخلوق» من حيث لاهوته كما ورد فى قانون الإيمان. وجسد المسيح قد تكوّن بالروح القدس من مريم العذراء من دمها ولحمها.

وهنا سؤال: هل جسد المسيح مخلوق؟ وإن كان مخلوقا فهو محدود، فلذلك يقول عند دخوله العالم «ذبيحة وتقدمة لم تشأ، لكنك هيأت لى جسداً».

الجواب:

نعم، إن جسد المسيح مخلوق، وهو حادث فى الزمان، ذلك لأنه لم يكن سابقاً موجوداً ثم وجد فى زمن التجسد. فجسد المسيح ليس أزليا، أما الأزلى الأبدى فهو لاهوته.

نعم إن جسد المسيح قد خلق فى الزمان، وذلك بحلول روح القدس فى بطن العذراء، فصاغ من دمها هذا الجسد ليكون للاهوت ستاراً وحجاباً، وإلا فإن العذراء كانت ستحترق بحلول اللاهوت فيها، لأن الله نار آكلة (العبرانيين ١٢ : ٢٩)، فكيف يحل اللاهوت فى مريم، ثم تبقى مريم حية دون أن تحترق. فالجسد إذن مخلوق، لأنه لم يكن موجودا من قبل ثم أوجده الله فى الزمان المحدود. وهذا هو المعنى من قوله «أعددت لى جسدا» (العبرانيين ١٠ : ٥).

ومع ذلك اتحد اللاهوت بالجسد اتحادا لايقبل الانفصال، مثله مثل الفحم الذى يتحد بالنار، ويصير الفحم متوهجاً بالنار بحيث لا يمكن الفصل بين الفحم والنار.

كذلك كما يقول البابا كيرلس عمود الإيمان، إذا وضع الحديد فى النار، فيتوهج الحديد، وصار متحدا بالنار بحيث لايمكن الفصل بينهما.

لذلك يقول البابا كيرلس الأول عمود الإيمان إنه باتحاد اللاهوت بالناسوت اتحادا تاما بغير اختلاط ولا امتزاج ولاتغيير، ومن ثم فإن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، طبيعة واحدة لها خصائص الطبيعتين معاً.

١٩ - هل كان يأكل السيد المسيح كما يأكل البشر؟ (١)

سؤال: من الابن ميشيل جرجس عبد المسيح - طما - سوهاج.

يقول: يشغل فكرى كثيراً ويراودنى فى كل حياتى ما جاء فى الكتاب المقدس عن السيد المسيح، أنه (جاع أخيراً) (متى ٤ : ٢) وقوله (إنى منذ الآن لن أشرب من نتاج الكرمة هذا حتى اليوم الذى فيه أشربه جديداً معكم فى ملكوت أبى) (متى ٢٦ : ٢٩)، بينما أن ملكوت الله ليست أكلاً وشرباً، وقوله عن شجرة التين «وفيما كان عائداً فى الصباح إلى المدينة جاع، وإذ رأى شجرة تين فى الطريق دنا منها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط. فقال لها: لا يخرج منك ثمر بعد إلى الأبد، ففى الحال جفت شجرة التين» (متى ٢١ : ١٨، ١٩)، (مرقس ١١ : ١٢-١٤) وقوله على الصليب (أنا عطشان) (يوحنا ١٩ : ٢٨).

أفهل كان السيد المسيح يأكل كما يأكل البشر؟ وهل كان فى حاجة إلى الأكل والشرب؟ ثم ما هو مصير هذا الأكل والشرب بالنسبة للسيد المسيح؟ أرجو شرح هذا الموضوع بالتفصيل؟

الجواب:

(وحقاً عظيم هو سر التقوى. الله ظهر فى الجسد) (١. تيموثيوس ٣ : ١٦). إن السيد المسيح فى إيماننا واعتقادنا وكما جاء فى الكتب المقدسة هو الله ذاته وقد استتر فى جسد. (**الذى إذ هو الكائن فى صورة الله لم يحسب مساواته لله خلسة أو غنيمة له، لكنه تخلى عن مجده، واتّخذ صورة العبد، وصار فى شبه البشر، وظهر بهيئة إنسان، وضع نفسه**، وأطاع حتى إلى الموت، الموت على الصليب) (فيلبى ٢ : ٦-٨).

انظر (يوحنا ١ : ١، ٢)، (١٧ : ٥)، (٢. كورنثوس ٤ : ٤)، (كولوسى ١ : ١٥)، (العبرانيين ١ : ٣)، (يوحنا ٥ : ١٨)، (١٠ : ٣٣)، (يوحنا ١ : ١٤)، (رومية ١ : ٣)، (٨ : ٣)، (غلاطية ٤ : ٤).

وقال الكتاب المقدس ايضاً:

(وإذن لما كان الأبناء شركاء فى الدم واللحم، **شاركهم يسوع كذلك فيهما** ليقضى بموته على ذاك الذى فى يده سلطان الموت، أى أبليس، ويحرر جميع الذين كانوا طوال حياتهم فى

---

(١) كتب فى ٢٤ من يونيه لسنة ١٩٩٢م - ١٧ من بؤونه لسنة ١٧٠٨ش.

العبودية خوفاً من الموت. **فإنه حقاً لم يتخذ طبيعة الملائكة، فقد جاء ليساعد نسل إبراهيم. فمن ثم كان عليه أن يشابه إخوته في كل شيء**، حتى يكون رئيس كهنة رحيماً أميناً في خدمة الله، فيكفر عن خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألم وتجرب يمكنه أن يعين المجربين) (العبرانيين ٢ : ١٤-١٨).

وقال عنه الوحي المقدس:

(فليس لنا حبر لا يستطيع أن يرثى لضعفاتنا، بل لقد **جرب في كل شيء مثلنا ماعدا الخطيئة**) (العبرانيين ٤ : ١٥).

انظر (٢. كورنثوس٥: ٢١)، (العبرانيين ٧: ٢٦)، (١. بطرس ٢: ٢٢)، (١. يوحنا ٣: ٥).

وعلى ذلك، ولما كان المخلص وهو الرب يسوع المسيح، قد نزل من السماء ليخلص آدم وبنيه، فقد اتّخذ جسداً وصار في شبه الناس، وظهر بهيئة إنسان.

وتوكيداً لحقيقة إنسانيته كان يأكل ويشرب كما يأكل الناس، ويشربون، لأنه شابهنا في كل شيء فيما عدا الخطيئة.

لذلك ورد عنه في الإنجيل أنه أكل.

(وفيما **كان يجلس إلى مائدة الطعام** في بيته (بيت متى)، كان كثيرون من العشارين والخطاة جالسين مع يسوع وتلاميذه، لأن كثيرين منهم كانوا هناك وكان قد تبعه الكتبة والفريسيون، فلما رأوا **أنه يأكل مع العشارين والخطاة** قالوا لتلاميذه: (**ما بال معلمكم يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة؟**) . فلما سمع يسوع قال لهم: (لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، فما جئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة) (مرقس ٢: ١٥-١٧)، (متى ٩: ١٠-١٣).

وجاء عن المسيح له المجد (وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين: (إن هذا يقبل الخطاة **ويأكل معهم**) (لوقا ١٥: ١، ٢).

بل إن المسيح له المجد قال عن نفسه إنه يأكل.

جاء في الإنجيل وقال الرب: (بماذا أشبه أناس هذا الجيل؟ من يشبهون؟ إنهم يشبهون صبية جالسين في السوق ينادى بعضهم بعضاً قائلين: زمرنا لكم فلم ترقصوا نحنا لكم فلم تبكوا. فقد

جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم إن به شيطاناً. **وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب** فقلتم هوذا رجل أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة) (لوقا ٧: ٣١-٣٤)، (متى ١١: ١٦-١٩).

وجاء أيضاً فى الإنجيل أنه عندما ذهب المخلص المسيح يسوع إلى السامرة، وجلس على البئر فى سوخار (وكان تلاميذه قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً، فلما جاء تلاميذه يقول الإنجيل (طلب إليه تلاميذه قائلين: (**يا معلم قم تناول الطعام**). فقال لهم: (إن لى طعاماً آكله لا تعرفونه أنتم) فقال تلاميذه فيما بينهم: (ألعل أحداً جاءه بما يأكل) مما يتبين معه أن التلاميذ كان مألوفاً لديهم أن يروا معلمهم **يأكل من الطعام الذى يأكلونه هم**. انظر (يوحنا ٤: ٨، ٣١-٣٣).

بل إنه بعد أن قام من بين الأموات، أكل أمام تلاميذه ليؤكد لهم حقيقة قيامته بذات الجسد الذى اتّخذه من العذراء مريم.

قال الإنجيل إن المسيح له المجد ظهر بعد قيامته لتلميذى عِمّاوسُ، لوقا وكليوباس، (حتى إذا اقتربوا من القرية التى كانا يقصدان إليها، بدا كما لو كان متجهاً إلى مكان أبعد. فتشبثا به فى قوة قائلين: (امكث معنا، لأنه حان المساء وقد انقضى النهار). فدخل ليمكث معهما. ولما جلس معهما **تناول الطعام** أخذ الخبز وباركه وقسمه وناولهما) (لوقا ٢٤: ١٣، ٢٨-٣٠).

ومرة أخرى شهد عنه الإنجيل أنه بعد قيامته ظهر لتلاميذه الأحد عشر والذين معهم مجتمعين... (وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم، وقال لهم: (السلام لكم) ففزعوا وارتعبوا، وقد ظنوا أنهم يرون روحاً. فقال لهم. (ما بالكم مضطربين... انظروا إلى يدىّ وإلى قدمىّ إنى أنا هو بنفسى. جسونى وتحققوا، فإنه ليس للروح لحم ولا عظام كما ترون لى). وفيما كان يقول هذا أراهم يديه وقدميه. وإذ كانوا لا يزالون غير مصدقين أنفسهم من فرط الفرح والدهشة. قال لهم: (**أعندكم هنا ما يؤكل؟**) ... فقدموا له بعضاً من السمك المشوى وشهد العسل. **فأخذ وأكل أمامهم**) (لوقا ٢٤: ٣٦-٤٣).

ومرة ثالثة يروى الإنجيل أن المسيح أظهر ذاته لسبعة من تلاميذه على بحر طبرية وقال لهم: (**يا فتيان ألديكم شىء يؤكل؟**) أجابوه (لا) فقال لهم (ألقوا الشبكة من الجانب الأيمن للسفينة فتجدوا)، فألقوها، وعندئذ لم يستطيعوا أن يجذبوها إلى فوق من كثرة السمك... ثم أخذوا يجرون شبكة السمك. فلما جاءوا إلى الأرض تطلعوا فرأوا جمراً وسمكاً موضوعاً عليه وخبزاً.

وقال لهم يسوع: (قدموا من السمك الذى اصطدتم الآن)... ويقول الإنجيل (فقال لهم يسوع: (هلموا تناولوا الطعام)... ثم تقدم يسوع، **وأخذ الخبز وناولهم، وكذلك السمك... وبعد تناول الطعام** قال يسوع لسمعان بطرس...) (يوحنا ٢١: ١، ٥، ٦، ٨-١٠).

وجاء فى سفر أعمال الرسل شهادة الرسول سمعان بطرس عن المسيح يسوع له المجد (ونحن شهود على كل ما فعل... **نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من بين الأموات)** (أعمال الرسل ١٠: ٣٩-٤١).

والخلاصة أن السيد المسيح له المجد كان يأكل مثلنا ويشرب، لأنه اتّخذ جسداً، من طبيعة جسدنا، صاغه وكونه من دم العذراء مريم، وتلك هى حكمته فى التجسد، من أجل الفداء والخلاص لآدم وذريته، **فكان لابد أن يتخذ جسداً مطابعاً لجسدنا** يقبل فيه الحكم بالموت الذى صدر ضد آدم وذريته بسبب خطيئه آدم (من أجل ذلك، كما أن الخطيئة دخلت فى العالم بإنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، هكذا سرى الموت إلى جميع الناس، لأنهم جميعاً خطئوا فيه) (رومية ٥: ١٢).

ولقد حرص المسيح له المجد على **أن يأكل ويشرب** أمام تلاميذه وأمام الناس **توكيداً لحقيقة إنسانيته**. وفى هذا رد على بعض الهراطقة، وخصوصاً أوطاخى الذى زعم أن المسيح أخذ جسداً خيالياً لا حقيقياً، وذهب أيضاً إلى أن ناسوته أو إنسانيته ذابت وغاصت فى لاهوته كما تذوب نقطة من الخل فى بحر أو محيط من الماء.

لذلك وبوصف المسيح هو حمل الله الذى حمل خطيئة العالم، عانى الاكتئاب والآلام فى بستان جثسيمانى ليلة آلامه حتى نزل عرقه كقطرات الدم على الأرض، فلم يتدخل لاهوته لانقاص آلام ناسوته حتى يأخذ الآلام كاملة، فيكون فى صلبه وآلامه وموته، الفداء والخلاص لآدم وذريته (وإذ كان يكابد آلاماً عنيفة، أخذ يصلى بأشد حرارة وهو جاث على ركبتيه، وكان عرقه كقطرات الدم يتساقط على الأرض) (لوقا ٢٢: ٤٤).

وحتى يقبل الآلام كاملة (حتى إذا بلغوا موضعاً يسمى الجلجثة، أى موضع الجمجمة، أعطوه خمراً ممزوجة بمرارة ليشرب، فلما ذاقها أبَى أن يشربها) (متى ٢٧: ٣٣، ٣٤)، (مرقس ١٥: ٢٢، ٢٣) ذلك لأن الخمر الممزوجة بمرارة كانوا يعطونها لمن يصلبونه لتكون بمثابة مخدر فتخفف عنه الألم. أما المسيح الفادى فأبى أن يشرب هذا المخدر حتى يقبل الآلام كاملة فى جسده.

كذلك عانى العطش وقال على الصليب (أنا عطشان) (يوحنا ١٩ : ٢٨) ولم يتدخل اللاهوت لينقص ألم العطش حتى يأخذ المسيح الفادى الآلام كاملة. ولهذا ولبيان عدم تدخل اللاهوت لإنقاص آلام المسيح الفادى صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: ايلى ايلى لما شبقتنى، أى، (إلهى إلهى لماذا تخليت عنى؟) (متى ٢٧ : ٤٦)، وهذا تعبير عن عدم تدخل اللاهوت لإنقاص آلام الناسوت ليأخذ المسيح الآلام كاملة، فيفدى الإنسان بإحتماله كل الآلام والموت فى جسده.

أما أن يقال عن المسيح يسوع أنه جاع (متى ٤ : ٢) فهو ما يسمى بالجوع التدبيرى، أى أنه وهو الإله بحكمته قصد أن يدخل على ذاته الجوع ليعطى لإبليس فرصة ليتقدم فيجربه.

كذلك عندما قال للمرأة السامرية (أعطينى لأشرب) (يوحنا ٤ : ٧)، كان عطشه أيضاً تدبيرياً، أى أنه أدخل على ذاته العطش ليخلق تبريراً مناسباً حتى يدخل مع المرأة السامرية فى حوار، ليكسبها ويكسب شعب السامرة من بعدها للخلاص... ومما يجدر ملاحظته أن المسيح قال للمرأة السامرية (أعطينى لأشرب)، ومع ذلك لم يشرب، بل إنه كشف للمرأة بسؤاله لها عن حقيقة شخصيته الإلهية، إذ ظنت هى أنه فى حاجة إلى أن يشرب من ماء البئر، (فأجاب يسوع وقال لها: (لو كنت تعرفين عطية الله، **ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب، لطلبت أنت منه، فأعطاك ماء حياً)** (يوحنا ٤ : ١٠).

أما عن السؤال: **ما هو مصير الأكل بالنسبة للسيد المسيح؟** فجوابنا عليه: إنه مصير الأكل فى كل إنسان. لأن المسيح أخذ جسداً مطابعاً لجسدنا، ومن ثم يخضع لكل العمليات البيولوجية التى يخضع لها الأكل فى جسم الإنسان، فالمسيح شابهنا فى كل شيء، فيما عدا الخطيئة. فهو ولد كإنسان، ونما فى القامة كإنسان، وختن فى اليوم الثامن كإنسان، وتعمد كإنسان، وصام كإنسان، وتألم كإنسان وصلب ومات كإنسان، لكنه قام من بين الأموات بسلطان لاهوته.

إنه من أجل الإنسان، ومن أجل عمل الفداء والخلاص، اتّخذ جسداً مطابعاً لجسدنا، وشابهنا فى كل شيء، فيما عدا الخطيئة.

٢٠ ـ المسيح هو الله وقد اتخذ جسداً، وظهر فى الهيئة كإنسان

سؤال : من الابن أ. فؤاد الياس.

يقول : جاء فى الإنجيل للقديس لوقا : «أما يسوع فرجع من الأردن وهو ممتلئ من الروح القدس، وكان يقتاد بالروح فى البرية» (لوقا ٤ : ١) فما معنى أن يسوع رجع من الأردن ممتلئا من الروح القدس، ونحن نقول إن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة، فما معنى أنه امتلأ منه والروح القدس بداخله مع الآب منذ ميلاده حتى صعوده له المجد إلى السماء، فكيف يمتلئ منه وهو فيه ؟

الجواب :

إن يسوع المسيح هو الله ذاته وقد اتّخذ جسداً، على أنه من حيث هو إنسان سلك أمامنا وأمام الناس كنموذج ومثال لنتبع خطواته «فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا، وجعل لنا من نفسه قدوة لنسير على خطاه» (١ . بطرس ٢ : ٢١) «إنّ من يقول إنه ثابت فيه، فقد وجب عليه أنه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضا» (١ . يوحنا ٢ : ٦) ، (متى ١١ : ٢٩) ، (يوحنا ١٣ : ١٥) فهو الله من حيث لاهوته، وهو آدم الثانى من حيث ناسوته. لذلك، فإنه اعتمد من يوحنا وهو فى غير حاجة إلى المعمودية، لأن المعمودية هي لغفران الخطايا، والمسيح لم يكن فى حاجة إلى غفران الخطايا ـ ولذلك لما جاء المسيح يسوع إلى يوحنا المعمدان فى الأردن ليعتمد منه، اعترض يوحنا قائلاً : «أنا محتاج أن أنال المعمودية منك وأنت تأتى إلىّ؟» فأجاب يسوع قائلا له: «اسمح بهذا الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نتم كل بر» «ومن ثم طاوعه» (متى ٣ : ١٣ – ١٥) .

كذلك **حل عليه الروح القدس بصفته إنسانا تماما كما يحل على كل معتمد من المؤمنين، وهذا هو (سر المسحة) الذى يمسح به المؤمن بعد المعمودية مباشرة، فيمتلئ بموهبة الروح القدس.**

على أن المسيح من حيث لاهوته كائن مع الآب والروح القدس منذ الأزل. لذلك سمى عماد المسيح فى المصطلح الكنسى بعيد (الظهور الإلهى)، **فالعماد كان للمسيح من حيث ناسوته**، لكنه هو عيد الظهور الإلهى «حتى إذا اعتمد يسوع صعد تواً من الماء، وإذا السماوات

قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة ومقبلاً عليه. وإذا صوت يجئ من السماء، قائلاً: «هذا هو ابنى حبيبى الذى به سررت» (متى ٣ : ١٦، ١٧).

والخلاصة إن المسيح له المجد هو الله ذاته وقد اتَّخذ له جسداً، «تخلى عن مجده، واتَّخذ صورة العبد، وصار فى شبه البشر، وظهر بهيئة إنسان» (فيلبى ٢ : ٧، ٨). ليكون نموذجا ومثالاً للإنسان لكى نتبع خطواته. فهو على الأرض بمثابة آدم الثانى، صنع ما يجب أن يصنعه الإنسان ليرد آدم إلى رتبته الأولى التى فقدها بالخطيئة.

نعم إنه ولد كإنسان، وسكن فى بطن العذراء تسعة أشهر كإنسان، وختن فى اليوم الثامن لميلاده، كإنسان، واعتمد من يوحنا المعمدان كإنسان، **ومسح بالروح القدس كإنسان، وامتلأ بالروح القدس كإنسان.**

كل ذلك لأن المسيح هو ابن الله وهو أيضا ابن الإنسان. هو ابن الله من حيث لاهوته وهو ابن الإنسان من حيث ناسوته أو إنسانيته.

هو ابن الله بمعنى أنه صورة الله الغير المنظور «عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد» (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦)، وهو ابن الإنسان لأنه اتَّخذ جسداً وظهر بهيئة إنسان، ولأنه ولد من مريم «لما تم الزمان، أرسل الله ابنه مولودا لإمرأة، مولودا فى حكم الشريعة» (غلاطية ٤ : ٤).

٢١ ـ الروح الناسوتية للسيد المسيح

سؤال:

هل الروح الناسوتية للسيد المسيح خلقت عندما تجسد فى بطن العذراء؟

الجواب:

طبعاً الروح الناسوتية مخلوقة، فالروح الناسوتية غير اللاهوت، لأن المسيح وهو الإله اتخذ إنسانية كاملة، والإنسانية الكاملة لابد أن يكون فيها الروح والجسد، لأنه كنائب عن البشرية لابد أن يكون روح وجسد. إذا كان الله أخذ جسد إنسان ولم يأخذ روحاً، يكون المسيح بهذا صار فادياً عن الحيوان، إنما إذا كان المسيح جاء لفداء الإنسان، فالإنسان كله يتركب من روح وجسد، فعندما نقول «الناسوت» أو «الإنسانية» معناها أن المسيح أخذ إنسانية كاملة، من روح ومن جسد. هذه الروح الناسوتية غير اللاهوت، وهى التى قال عنها الكتاب أنه على الصليب أسلم الروح. هنا الروح الإنسانية هى التى أسلمها على الصليب، لأنه حصل فصل ما بين الروح والجسد الإنسانى، أما اللاهوت فمازال متحداً بكل من الروح والجسد.

٢٢ - ناسوت السيد المسيح

سؤال :

واحد يقول من ناحية ناسوت المسيح له المجد هل كان يفعل كإنسان، هل كان يمرض كإنسان، هل كانت له رغبات مثل سائر البشر؟ أم كان جسده مماثل لجسد آدم قبل الخطيئة؟

الجواب :

الكلام الذى قاله الكتاب المقدس، «شابهنا فى كل شئ ما خلا الخطيئة وحدها»، وهذا هو الذى نقوله فى القداس الغريغورى، شابهتنا فى كل شئ ما عدا الخطيئة وحدها»، الناسوت فعلاً شابهنا فى كل شئ فكان فى البطن تسعة أشهر، وأخضع نفسه لكل شئ، الميلاد فى الموعد المحدد، والغطاس فى سن ٣٠ سنة. والختان فى اليوم الثامن. ولما تعب جلس على البئر، كل هذه الأشياء، وفى الصليب دخل الشوك فى جبينه وأدماه، ولذلك المسيح فعلاً تألم آلاماً حقيقية لم تكن آلاماً تمثيلية ظاهرية، لذلك قال «نفسى حزينة حتى الموت» فعلاً كانت أحزان شديدة جداً على قلبه من الناحية النفسية أيضاً غير الناحية الجسدية، ولذلك لولا مساندة اللاهوت للناسوت كان المسيح سيموت قبل الصليب، لأن العرق كان ينزل من جبينه مثل قطرات الدم، وهذا معناه أنه حصل اضطراب فى الغدد الصماء أدى إلى أن العرق ينزل كقطرات دم، فالمسيح أخذ جسد حقيقى مطابع لجسدنا مثل ما يقول الآباء. جسد قابل للتعب وللألم ولكل شئ لكن فيما عدا الخطيئة. وأيضاً خضع للحرب وسمح أن الشيطان يحاربه لكن يحاربه من الخارج، عن طريق الفكر مثل ما قاله له ارم نفسك من فوق إلى أسفل لأنه مكتوب، ويقول الكتاب «فيما هو قد تألم مجرباً قادر أن يعين المجربين» المسيح شابهنا فى كل شئ وشاركنا مثل ما يقول الرسول بولس فى العبرانيين شاركنا مشاركة لكن طبعاً ما عدا الخطيئة، لأن الجسد الذي أخذه جسد حقيقى وليس جسد خيالى، وهذا رد على أوطاخى لأن أوطاخى زعم إن جسد المسيح كان جسداً خيالياً، وطبعاً الكنيسة رفضت الأوطاخية، ولذلك نقول أن المسيح أخذ جسد مطابع لجسدنا وشابهنا فى كل شئ، وكل الآلام تحملها لذلك اللاهوت ساند الناسوت لأنه لولا مساندة اللاهوت للناسوت، لكان المسيح انهار ومات قبل الصليب كإنسان، لأن الآلام كانت شديدة جداً عليه، آلام جسدية وآلام نفسية وآلام روحية، لأنه كان فى موضع المغضوب عليه، لأنه أخذ وضع الإنسان والرب وضع عليه إثم جميعنا، والذى لم يعمل خطيئة صار خطيئة، هذا التعبير صعب جداً، أن المسيح صار خطيئة فطبعاً أكيد أنه كانت هناك آلام روحية إلى جانب الآلام النفسية والآلام الجسدية وآلام نتيجة إنكار يهوذا، وإنكار بطرس، واليهود الذين صنع معهم الخير، فهو شابهنا فى كل شئ ما عدا الخطيئة.

٢٣ - جسد السيد المسيح

سؤال : الله قبل التجسد كان بلا جسد، والله بعد التجسد كائن بجسده، فهل سيظل الله بجسد السيد المسيح له المجد إلى الأبد، لمجرد أخذ الجسد ليفدينا على الصليب أم أن الجسد المقدس انتهت خدمته بالفداء العظيم ؟

الجواب :

المسيح لما صعد إلى السماء صعد بجسده، وهذا هو السبب أو أحد الأسباب - لماذا صعد المسيح صعودا جهارياً علانياً أمام الجميع؟ صعد بجسده الذى هو من طبيعة جسدنا، ودخل به إلى السماء فوجد فداءاً أبدياً، وهذا هو الجمال فى أن المسيح بصعوده إلى السماء بهذا الوضع الجهارى العملى، أثبت أنه كفادٍ دخل إلى السماء بذبيحة نفسه، فالمسيح جسده مازال مرتبطا به، وحينما رآه يوحنا الرائى رآه فى الجسد، ولذلك أخذ فى سفر الرؤيا والأصحاح الأول يصف جلاله ووجهه ورأسه، ويصف عينيه أنهما كلهيب نار، ويصف يديه ورجليه كأنهما محميتان فى أتون، وبعد ذلك يقول «سقطت عند رجليه كميت» فهنا يصف أنه سقط عند رجليه، فله رجلان، ثم وضع يده اليمنى على رأسى، وقال لى لا تخف أنا هو الأول والآخر الألف والياء، البداءة والنهاية، الحى وقد مت فها أنا حىّ إلى أبد الآبدين، فرآه فى شكل إنسان له رأس وله وجه منير كالشمس وقت اشتدادها، وله عينان وله يدان، وله رجلان، ومتسربل بثوب من نور حتى قدميه، وهناك منطقة من ذهب عند ثدييه، فوصف كل الصورة الجسدانية التى له. وهذا هو المجد الذى أبقاه المسيح على طبيعتنا، أنه أخذ طبيعتنا الترابية واتحد بها وصعد بها إلى المجد وأجلسها على العرش. وهذا هو معنى ما جاء فى القداس الإلهى «أصعدت باكورتى إلى السماء» فجسد الإنسان الذى لم يكن له أن يدخل إلى السماء صار جسد المسيح، وهو من طبيعتنا، وهو الباكورة التى دخلت إلى السماء. وبعد ذلك يدخل البشر بعد يوم الدينونة والحساب. أصعدت باكورتى إلى السماء، ويعتبر أننا نحن الآن فى المسيح جالسين عن يمين الآب. لأنه أخذ طبيعتنا وجلس بها. ولكن ما نود أن نقوله أن هذا الجسد لا يحصر بهاء اللاهوت، ولو أن الله ليس له شبيه ولا مثال، إنما يمكن أن نقول أن مثل ذلك مثل ضوء المصباح، مع العلم أن هناك جسم زجاجى وهذا الجسم الزجاجى له طول وله عرض وله حدود، إنما النور يخرج من الجسم الزجاجى وينتشر فى أضعاف المساحة التى يشغلها الجسم الزجاجى فالمسيح على الأرض كان يحجب لاهوته فى ناسوته «لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد» إنما على جبل التجلى سمح للبهاء أن يظهر وكان

قدر البهاء ضئيل جدا بالنسبة للبهاء الحقيقي الكامل الذى هو عليه فى السماء، بدليل أن شاول (بولس) عندما رآه ووصف مجده قال: وهو فى رائعة النهار أنه رآه فى لمعان أكثر من لمعان الشمس، ولذلك أصيب بالعمى ثلاثة أيام من شدة البهاء، وهذه الصورة رآها الأنبياء قبل التجسد من مريم : حزقيال عندما رأى المسيح على جبل التجلى قال «رأيت السيد الرب جالسا على كرسى عال وأذياله تملأ الهيكل» أولا جالس على كرسيه (العرش)، وفى كل الأديان ينسب إلى الله أنه يجلس على عرش ثم يصف حزقيال النبى الكاروبيم وبهاء الكاروبيم وفوق الكاروبيم مقبب مثل البلور وفوق المقبب عرش أو شبه عرش. وفوق العرش شبه إبن إنسان أو شبه إنسان. وكلمة شبه هنا معناها أنه من كثرة البهاء والنور الشديد جدا، فالخطوط الخارجية حدود الجسد أو حدود العرش لا تكاد ترى من كثرة البهاء، وكذلك دانيال النبى يرد فى الأصحاح السابع من سفره أنه رآه شبه ابن إنسان فهذه أيضاً رؤيا للتجسد سابقة على التجسد من مريم العذراء وهذا ما نسميه التجسد، قبل التجسد.

٢٤ ـ يسوع بن يوسف (يوحنا ١ : ٤٥)

إنه ابن يوسف النجار على مقتضى التدبير الإلهى الذى شاء أن يتم بين يوسف ومريم عقد زواج رسمى عقده الكهنة بينهما قبل أن تنتقل مريم من بيت النذيرين فى الهيكل إلى بيت يوسف، وبالتالى قبل أن يبشرها الملاك جبرائيل بالحبل الإلهى منها. على أن هذا الزواج كان من نوع الزواج البتولى الذى لا يجرى فيه اختلاط جسدى بين الرجل وزوجته بدليل أن العذراء مريم اعترضت على قول الملاك لها «وها أنت ذى ستحبلين وتلدين إبنا تسمينه يسوع» (لوقا ١ : ٣١) قائلة «كيف يكون لى هذا وأنا لا أعرف رجلا ؟» (لوقا ١ : ٣٤) على الرغم من أن بشارة الملاك لها كانت بعد أن عقد الكهنة عليها وعلى يوسف، وبعد أن أخذها يوسف إلى بيته، مما يدل على أنها كانت معتزمة على حفظ بكارتها على الرغم من العقد الرسمى بينها وبين يوسف، حتى أن الملاك ظهر ليوسف فى الحلم وقال له يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقى مريم إمرأتك، لأن الذى سيولد منها إنما هو من روح القدس... فلما نهض يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب واستبقى مريم إمرأته (متى ١ : ٢٠ – ٢٤).

ولو لم تكن مريم قد انتقلت بالفعل إلى بيت يوسف بعد إتمام عقد الزواج الرسمى، ثم قبلت بشرى الملاك لها هناك، لما قال الإنجيل عن يوسف «وإذا كان يوسف رجلها بارا، ولم يشأ أن يشهر أمرها، أراد أن يخلى سبيلها سرا» (متى ١ : ١٩) فهو إذن رجلها، ثم بعد أن رأى علامات الحمل عليها وهى فى بيته، وهو يعلم أن هذا الحمل ليس منه، أراد أن يخلى سبيلها سراً لأنه لم يشأ أن يشهر أمرها، وذلك بأن يخرجها من بيته خفية من دون أن يعلم أحدا بموضوعها حتى لا ترجم بموجب الشريعة. ثم يذكر الإنجيل بعد ذلك «ولكنه فيما كان يفكر فى ذلك إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا : يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقى مريم إمرأتك لأن الذى سيولد منها إنما هو من روح القدس» (متى ١ : ٢٠).

وإذن فمريم زوجة رسمية ليوسف بموجب العقد الرسمى الذى بينهما وبناء عليه انتقلت بالفعل إلى بيت يوسف، وبعد ذلك ظهر لها الملاك جبرائيل وبشرها بالحمل الإلهى. وقد ذكر الإنجيل ذلك صراحة أن يوسف رجل مريم، وأن مريم إمرأة يوسف. يقول «ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح» (متى ١ : ١٦)، وأيضاً «وإذ كان يوسف رجلها بارا» (متى ١ : ١٩)، ثم «يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقى مريم إمرأتك» (متى ١ : ٢٠)

وكـذلك «فلمـا نهض يوسف من النـوم، فـعل كـمـا أمـره مـلاك الرب، واسـتبـقى مـريم إمـرأته» (متى ١ : ٢٤).

أما اعتراض مريم على بشرى الملاك لها وقولها له «كيف يكون لى هذا وأنا لا أعرف رجلا» (لوقا ١ : ٣٤) فيدل ليس فقط على أنها كانت بتولا قبل الحبل بيسوع المسيح (متى ١ : ١٨) وإنما أيضاً على أنها كانت قد نذرت البتولية لتظل بتولا كل أيام حياتها مقدسة جسدا وروحا، إذ كيف لفتاة عقد عليها عقد زواج رسمى، وانتقلت إلى بيت رجلها بالفعل، وقد ذكره الإنجيل صراحة أنه رجلها وهى إمرأته - كيف لفتاة هذا وضعها تعترض على بشرى الملاك مع أنه يكلمها بلغة المستقبل قائلا «وها أنت ذى ستحبلين وتلدين إبنا» (لوقا ١ : ٣١) وتقول بلغة الحسم «كيف يكون لى هذا وأنا لا أعرف رجلا» لو لم تكن قد نذرت نفسها للبتولية الدائمة والعفة الكاملة كل أيام حياتها؟!

ثم أن الملاك جبرائيل لم يوبخها على هذا الاعتراض ولم يلمها، ولكنه فى احترام وفى أدب جم أدرك مغزى إعتراضها مبينا لها أن هذا الحبل سوف لا يتعارض مع إحتفاظها ببتولتها، لأنه سوف يكون بالروح القدس، لا بزرع رجل «أن روح القدس سيحل عليك وقوة العلّى ستظللك» (لوقا ١ : ٣٥). فلما اقتنعت بأنها فيما ستكون أُماً ستظل عذراء دائما، عذراء دائمة البتولية، خضعت لمشيئة الله وإرادته وقالت على الفور «ها أنا ذا أمة الرب، فليكن لى حسب قولك» (لوقا ١ : ٣٨).

٢٥ ـ سر التجسد وضرورته

فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (ويقابل الآن السابع من يناير) تحتفل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وجميع الكنائس التى تتبع التقويم الشرقى (ومنها اثيوبيا، وروسيا) بعيد الميلاد المجيد، وتحتفل به الكنائس التى تتبع التقويم الغربى فى الخامس والعشرين من ديسمبر ـ كانون أول ـ فقد جعلوه فى عيد الشمس، وبدلا منه، لأن المسيح هو «شمس البر والشفاء فى أجنحتها» كما جاء فى سفر ملاخى (٤ : ٢)، ومن عيد الميلاد تظهر ضرورة التجسد الإلهى.

قال آباء الكنيسة، ومنهم على الخصوص القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه «تجسد الكلمة»...

إنّ البشرية قد فسدت بالخطيئة فسادا تاما فلم يعد ثمت سبيل إلى إصلاحها. لذلك كان لا مفر من تغييرها تغييرا كاملا، وهذا ما تم بالفداء. وهو بعينه ما علم به أيضاً القديس أوغسطينوس مبرهنا بدوره على أن التجسد الإلهى كان ضرورة إقتضاها التدبير الإلهى لخلاص الإنسان.

فالمسيح له المجد فى حقيقته هو «الله الظاهر فى الجسد». (١. تيموثيئوس ٣ : ١٦) وفيما هو ابن الله هو فى نفس الوقت ابن مريم أو ابن الإنسان. وهو ابن الله لا بمعنى أن الله يلد كما يلد الإنسان، لكنه ابن الله بمعنى أنه من طبيعة الآب ومن جوهره، ثم لأنه كلمة الله المتجسد، ولأنه صورة الله الغير المنظور. (كولوسى ١ : ١٥).

أما أنه ابن الإنسان، فلأنه أخذ صورة الإنسان وشكل الإنسان، وولد من مريم بحسب الجسد... على أنه وإن أخذ شكل الإنسان لكنه لم ينحصر بلاهوته فى ناسوته، وإنما مثله مثل النور فى المصباح الكهربائى، فالجسم الزجاجى لا يحدّ النور ولا يحصره، كذلك بهاء اللاهوت لم يحجبه الناسوت ولم يحصره الجسد الذى اتخذه الله الكلمة.

على أن اللاهوت اتحد بالناسوت فى المسيح إتحادا كاملاً وتاما، ولكن بدون إختلاط أو امتزاج أو تغيير.. فصار المسيح واحدا لا إثنين، طبيعة واحدة من طبيعتين، طبيعة واحدة لها خصائص الطبيعتين من دون إختلاط.. هذا الإتحاد التام ليس له نظير فى عالم المادة، لكنه يشبه من بعض الوجوه إتّحاد الروح بالجسد فى الإنسان، هذا الاتحاد الذى يجعل من الإنسان طبيعة واحدة تجمع صفات الروح وصفات الجسد فيما يسمى بـ «الطبيعة البشرية»، وهى لذلك طبيعة واحدة ولكنها طبيعة تتميز بأن فيها خصائص الروح وخصائص الجسد متحدة معا من دون إنقسام ومن دون إنفصال أو إنفصام.

واتحاد اللاهوت بالناسوت فى المسيح هو على غرار اتحاد النار بالحديد فيما لو وضعنا فى النار قضيبا من الحديد إلى أن صار الحديد متوهجا بالنار.. فالقضيب المتوهج يجمع بين النار وهى لها طبيعتها، والحديد وله طبيعته، لكنه صار يجمع بين خصائص الطبيعتين جمعا لا يمكن فيه الفصل بين النار والحديد، وهو جمع لا من قبيل المزج أو الإختلاط، ولا من قبيل التحول الكيميائى، لكنه اتحاد تام يعسر بل يستحيل معه الفصل بين النار والحديد.

ومع ذلك يجمع بين خصائص النار وهو التوهج والإضاءة والإحراق وبين خصائص الحديد وهى الصلابة والكتلة والوزن وما إليها من صفات..

هذا الموضوع جد مهم وخطير ويحتاج إلى جهد فى شرحه وتبيانه، للمسيحيين وغير المسيحيين، حتى يتحققوا أن التجسد سر عظيم، لكنه أيضاً يحمل معنى حب الله العظيم لخليقته. إنه من أجلنا ومن أجل خلاصنا اتخذ الله جسدا وحل بيننا (يوحنا ١ : ١٤) كما أنه حل فينا أى حل فى طبيعتنا، فصرنا نحن فى المسيح «شركاء الطبيعة الإلهية». (٢. بطرس ١ : ٤).

إنّ سر التجسد هو أيضاً سر الحب العظيم الذى أحبنا الله به «إلى هذا المدى أحب الله العالم» حتى إنه «نزل من السماء» (يوحنا ٣ : ١٣، ١٦)، (٦ : ٣٨، ٤٢، ٣٣، ٥٠) و «شاركنا فى اللحم والدم» (العبرانيين ٢ : ١٤)، وشابهنا فى كل شئ (رومية ٨ : ٣، ٢٩) ، (فيلبى ٢ : ٧) ، (العبرانيين ٢ : ١٧) ما خلا الخطيئة وحدها، لذلك «نحبه لأنه هو الذى أحبنا أولاً» (١ .يوحنا٤ :١٩).

ولا مراء فى أن الكلمة الإلهى فى تجسده لم يتخذ جسدا فقط، ولكنه اتخذ أيضاً معه روحا أو نفسا ناطقة متحدة بهذا الجسد. ولكن الإنجيل للقديس يوحنا بقوله «والكلمة اتخذ جسدا» (يوحنا ١ : ١٤) أراد أن يتحدث عن مظهر التجسد البارز والذى يتمثل فى الجسد. ولعل السبب فى ذلك، على ما نعلم، أن الرسول كتب إنجيله يرد به على بدع وتعاليم ضالة روج لها قوم مفسدون ضد التعليم الأرثوذكسى المستقيم، ومنها أن جسد المسيح لم يكن إلاّ خيالا وظهورا فقط. ولما كانت مثل هذه البدعة خبيثة هدامة، تلغى عمل الفداء الذى قام به المخلص فى جسده الذى سمرّ بالصليب، (كولوسى ٢ : ١٤) وتفوت على البشر حكمة الله فى التجسد، فقد عبر الرسول يوحنا عن ظهور الكلمة بعبارة يؤكد فيها حقيقة الجسد الذى اتخذه المسيح واتحد به فصار مع لاهوته طبيعة واحدة.

على أن عبارة الإنجيل «والكلمة اتخذ جسدا» (يوحنا ١ : ١٤) لا تفيد إندماج اللاهوت فى الناسوت أو اختلاطه به على ما يذهب أوطاخى، بدليل قوله بعد ذلك مباشرة «وحل بيننا ورأينا مجده» وإنما هى عبارة قوية الدلالة على مبلغ الاتحاد التام بين اللاهوت والناسوت بحيث «أصبحا» طبيعة واحدة بغير إمتزاج ولا تداخل ولا إختلاط ودون إنفصال أو إفتراق أو إنقسام.

ولعل هذه الآية وحدها كافية للبرهنة على خطأ ما يذهب إليه النساطرة من القول بالفصل بين الطبيعتين فى المسيح، وصحة ما يصر على القول به، آباء الكنيسة وعلى رأسهم البابا كيرلس الأول عمود الإيمان : «طبيعة واحدة للكلمة المتجسد».

٢٦ ـ لماذا يارب... لماذا؟ (١)

لماذا ولدت يارب فى بيت لحم..؟ هل كان ذلك صدفة؟ كلا، فنحن نؤمن أن شيئا ما ـ خصوصا بالنسبة لك ـ لا يمكن أن يقع مصادفة واتفاقا، فأنت يا مخلصى وخالقى ضابطُ الكون ومدبره.

إذن لماذا ولدت فى بيت لحم، ولماذا لم تولد فى الناصرة وهى موطن العذراء، أمك بالجسد... وموطن البار يوسف النجار الذى اتخذته لك أبا اعتباريا وهو ليس أباك على الحقيقة؟ لماذا؟

أكان ذلك لأن النبى ميخا تنبأ عن مولدك أنه سيكون فى بيت لحم؟

فى يقينى إنه لو لم يكن مقرراً من لدنك أن تولد فى بيت لحم لما كان النبى أنبأ عن ذلك... إذن فقرارك بمولدك فى بيت لحم كان أسبق من قول النبى بقرون وأجيال... بل لعله كان أيضاً قبل كل الدهور...

أحقا كان السبب، كل السبب، هو المرسوم الذى أصدره أوغسطس AUGUSTUS قيصر بإجراء تسجيل لسكان العالم كله، وأنه كان لابد لمريم ويوسف أن يسجلا اسميهما فى بيت لحم التى يصعد نسيبهما إليها وأنك وقد أخضعت ذاتك بإرادتك لكل نظام عام، إحتراماً للنظام وتقديساً له، شئت أن تتم ولادتك فى ظروف ضيقة عسيرة كهذه، حتى تعطى لنا مثالا عمليا فى الخضوع للنظام المرسوم والمقرر والموضوع سابقا، وأنه واجب مقدس ينبغى أن يخضع له الجميع بغير إستثناء لأحد حتى لو كان هو الرب يسوع ذاته ؟

ومع ذلك يبقى، يا إلهى، السؤال قائما : لماذا شئت أن تولد فى زمن التسجيل الذى أمر به مرسوم أوغسطس قيصر.. إذ لولا هذا المرسوم لكان ميلادك جرى فى الناصرة؟ لماذا إذن لم تولد قبل ذلك أو بعد ذلك ؟

هل هناك قصد فى أن تولد بعيدا عن البلدة التى تقيم الأسرة فيها، حتى تتم ولادتك فى هدوء بعيداً عن الأهل والأقرباء والجيران... غريبا عن كل أحد... فتعانى الغربة والعزلة.... وتشارك المغتربين عزلتهم ووحدتهم وإهمال الناس لهم ؟

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ٥ من يناير ـ كانون ثان لسنة ١٩٧٥م ـ ٢٧ من كيهك لسنة ١٦٩١ش.

لابد إذن أن يكون لك قصد، يا إلهى، فى أن يكون مولدك فى بيت لحم، لا فى الناصرة، ولا فى أورشليم.. وأن يقع ميلادك فى الزمن الذى تم فيه بالضبط، لا قبله بوقت، ولا بعده بوقت.. لابد أن يكون لك غرض فى إختيار مكان ميلادك وزمانه...

ثم لماذا ياربى، شئت أن تولد فى الليل، لا فى النهار ؟ أما كان النهار أفضل وأليق حيث الشمس ساطعة والناس فى صحو يغدون ويروحون؟ لماذا اخترت أن تحين ساعة ميلادك فى ظلام الليل حيث كل شئ راقد خامد هادئ... لماذا ؟

لماذا آثرت، ياسيدى، أن لا تعلم بمجيئك أحدا من كبار الناس وعظمائهم ؟

ثم لماذا لم يعلم بمجيئك هيرودس أو بيلاطس... وهم من حكام بلاد فلسطين.. وإنما علم به مجوس فى بلاد المشرق، فجاءوا من بعيد ليسجدوا ويقدموا لك هداياهم...؟

لماذا لم يعلم به رؤساء كهنة اليهود والكتبة وعلماء الشريعة، مع أنهم كانوا يتوقعونه قبل غيرهم، ويعرفون قبل كل الشعب أنه لابد آت، حتى إن هيرودس عندما جاء المجوس يسألون : «أين هو المولود ملك اليهود؟» جمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب، وسألهم : «أين ينبغى أن يولد المسيح؟» كانت إجابتهم حاضرة ومستعدة فقالوا له : «فى بيت لحم، بإقليم اليهودية لأنه هكذا كتب بواسطة النبى».

لماذا لم يعلم أولئك العلماء بمجيئك، وعلم به الرعاة البسطاء ؟

ثم لماذا شئت أن تولد فى ظروف قاسية ضيقة فلا يتوافر لك بيت ولا خان... فاستضافك الحيوان، ونزلت ضيفاً فى مذود للأبقار والأغنام؟

أى ربى!، أهذا منك إحتجاج أم زهد؟ أم هو عزاء للمتعبين والمضطهدين والمشردين والمظلومين من بنى الناس حتى يتبينوا أنه مهما أصابهم من ضيق ومن ضغوط فلن تبلغ بحال إلى مثل هذه الصورة الجافة القاسية التى رسمتها لنا فى مولدك ؟

لكن لماذا يا إلهى، لم تشفق حتى على جسدك الغض الذى اتخذته وتلبست به لتظهر فيه بيننا...؟ كيف رقدت فى مذود للبهائم، على العشب والقش والحَب الخشن؟ إن الأُرض الجرداء لأرق على طفل، لحمه طرى، من هذا المذود الجاف المتعظم... فلماذا كل هذه المعاناة ؟

ألعلك تريد أن تعزى الفقراء والمعوزين والمساكين والمسجونين والمأسورين والمنفيين والمعذبين فى الأرض ممن يعانون ضنك الحياة وقسوتها، بأنك قد بلغت فى شظف العيش

وجفاف الحياة ما لم يبلغه إنسان فى الوجود، فلن يتصور أحد أن يولد طفل لأفقر فقير فى مثل هذه الظروف الجافة القاسية التى ولدت أنت فيها.

نعم، هذا درس ثمين فى الإحتمال والصبر، درس فى المعاناة والألم،.... درس فى الزهد والحرمان، درس فى العزوف والصدوف عن أبسط صور الرفاهية.

ثم لماذا يارب، هربت من وجه هيرودس، حين بحث عنك ليقتلك ؟ هل خفت منه ومن غدره؟ أما كان فى مقدورك أن تأمر الأرض فتفتح فاها وتبتلعه؟ أما كان فى استطاعتك أن تتخلى عنايتك عنه، فيهجم عليه الكارهون له ـ وهم كثيرون ممن عانوا من ظلمه وجوره ـ فيقتلونه ويخلصون الناس من شره؟ أما كان فى إمكانك ـ على الأقل ـ أن تخلى رعايتك عنه، فتنال منه ميكروبات الأمراض، فيخر صريعا للمرض والموت ؟

لماذا يارب.. تترك الأمر إلى هذا الحد، فيطمع فيك أعداؤك..؟ لماذا تترك شر الرجل يستشرى ؟... فيشقى بشره الآخرون.. ألا تصنع يا إلهى معجزة فيؤمن الناس بقدرتك وأنت فى صورة طفل رضيع؟... ويتنفسون الصعداء من ملك غادرشرير أشبع سيفه بالقتل، وأغرق الأرض بالدماء؟.

لكنك يا مخلصى آثرت الهرب على البقاء... والهرب ليلا فى جنح الظلام... فطمع فيك هيرودس أكثر فأكثر، وقوى قلبه وتشجع، ووثق بنفسه وتجبر.. ولما تحقق أنك هربت من وجهه فرح ثم عاد فحزن... فرح لأنك بهربك منه اعتقد فى نفسه أنه انتصر.. وإلا فلماذا هربت؟.. وفرح لأنه اطمأن إلى قوته.. وصدق نفسه أنه ملك إلى الأبد! ثم حزن لأنه كان يريد أن يشبع رغبته فى الإنتقام، فأفلت غريمه من بين يديه... يا للخسارة! إذن كيف يترك الأمر هكذا... إنه لن يهدأ له بال، ولن يغمض له جفن حتى يرى غريمه وقد مات.. وكيف يستطيع أن يرقد على فراشه هانئا، وغريمه حى؟!.

لكن غريم هيرودس قد هرب إلى مصر وإلى برارى مصر... ومصر وبراريها ليست فى حدود مملكته، ولا تدخل ضمن نطاق إختصاصاته، ومع ذلك فليمض به غروره إلى ما هو أبعد.. ليرسل إلى مصر جواسيس من لدنه يرقبون ويتربصون بغريمه الدوائر، لعلهم يعثرون به ويقبضون عليه حيا، ويأتون به إليه.. فيتشفى به، ويضحك مِلءَ شِدْقَيه لأنه بهذا يكمل إنتصاره.

مسكين هيرودس، مسكين لا لأنه غبى... بل مسكين لأنه ذكى... إنه وضع تخطيطا محكما ليقتل المسيح، وأتاح له مركزه كملك أن ينجح فيما قصده، فتحت يده كل شئ... كل شئ... تحت يده الناس لأنه ملك، فإذا تكلم قال الناس : آمين. وتحت يده جند كثير... يأتمرون بأمره، ويتشرفون بتنفيذ إشارته لأنه ملكهم، ولأن واجبهم يقتضيهم أن يخضعوا لملكهم.. والمال ينساب بين يديه حلالاً لكل من يخضع.. وأهم من هذا كله أن بيده سلطان الأمر والنهى، ثم بيده السيف أيضا... لا سيف واحد بل سيوف وأسياف... يكفى أن يرتفع سيفه هو... لترتفع بإشارته كل سيوف جنوده من تحته...

مسكين هيرودس.. لأن ذكاءه الخارق قد أملى عليه أن يمسك سيفاً على طفل أعزل من كل سلاح.. طفل لا يملك غير اسمه.. مسكين هيرودس لأنه منزعج القلب مضطرب الفؤاد على الرغم من سلطانه، وعلى الرغم من أمواله، وعلى الرغم من سيفه، وعلى الرغم من سيادته على الناس بحكم مركزه ومنصبه... مسكين لأن طفلا ولد فى ظروف قاسية قد أقض مضجعه... ولكى يطمئنه أكثر هرب من أمام وجهه فى جنح الليل ليؤكد له أنه لا يريد من الدنيا شيئا.. وحتى بيت لحم التى يحسبها هيرودس أنها من نطاق مملكته... تركها له بالكلية.. بل ترك له بلاد فلسطين بأسرها.

فليس لهذا الطفل الإلهى مطمع فى أرض ولا فى ثراء ولا فى منصب، ولا فى شئ مما يحرص عليه هيرودس.. إن هذا الطفل الإلهى جاء من السماء لهدف كبير سام لا علاقة له أصلاً بمملكة هيرودس.. وإذن فليبق هيرودس حيا إلى أن تنطفئ شمعة حياته من ذاتها، وليبق لهيرودس ملكه وصولجانه، ولتبق له جنوده والناس من حوله.. ما شاء وما شاءوا،... وليضعوا على رأسه لا تاجا بل تاجين... أما أنت يارب، فما جئت لتدخل فى صراع رخيص مع هيرودس المسكين.. وإنما جئت لتعينه على أمره، لو كان يفهم.. ما أتيت لتهدمه بل أتيت لتبنيه لو كان يعقل.. إن ذكاءه من الأرض، لأنه من الأرض جاء.. وكذلك تخطيطه الذكى من تحت.. لأنه أرتضى لنفسه أن يكون مع الذين هم من تحت..

شكراً لك ياربى، وإلهى ومخلصى، لأنك قد ارتفعت فوق عداوة هيرودس... وحولت شره إلى خير... هربت منه فجعلته يفرح بهربك ويعتقد أنه تخلص منك، ولم تمسسه بسوء..

نعم لقد حولت، ياسيدى شره إلى خير... لأنه لولا شر هيرودس لما تباركت بلادنا مصر بمجيئك. إن هربك إذن لم يكن عن جبن واستخذاء، إنما هو عن حكمة إلهية تفوق عقل

هيرودس وعقول الناس جميعا... وليس فى هربك إنعزالية ولا سلبية لكنه سبيل الذى لا يقاومون الشر بالشر.. لقد تركت هيرودس فى عاصمة ملكه يشهر سيفه يريد أن يقتل... وهربت.. فظل سيفه واقفا فى الهواء... ثم تعب المسكين من حمل سيفه فهوى، وهوى سيفه على رقبته. مسكين هيرودس.. أما أنت يارب فعظيم ومجدك ملء كل الأرض.

٢٧ - فى ميلادك يارب نتأمل فنتعلم (١)

هل رأت البشرية ميلاداً مشرقاً بالنور والطهر مثل ميلادك؟ يوم أن شئت أن تجئ إلينا، فى أرضنا، وتحل بيننا، وفينا أى فى طبيعتنا، وفى جسم بشريتنا، وتتلبس بإنسانيتنا كأنك منا، وواحد من بيننا، رغبت عن كل مظهر فى مظاهر الحفاوة المادية، ونافست فى زهدك وفقرك، جميع الزهاد وأفقر الفقراء، فلم يكن حتى فى الخان مكان، فاستضافك الحيوان.

ومع ذلك الإغفال من جانب الناس، تحركت الملائكة من السماء فى شبه مظاهرة روحانية، أضاءوا بنورهم ظلمات البيداء، وذهبوا يبشرون رعاة الأغنام.

وكان فى تلك الناحية رعاة بالبادية يتناوبون السهر بالليل فى حراسة قطعانهم. وإذا بملاك الرب يظهر فجأة قبالتهم، ومجد الرب يضئ من حولهم، فارتعبوا ارتعاباً شديدا. فقال الملاك لهم: «لا تخافوا فهاأنذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب».. ثم ظهرت بغتة مع الملاك كوكبة من جند السماء يسبحون الله قائلين : «المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته» (لوقا ٢ : ٨ - ١٤).

لقد كان أمراً رائعاً، بل أكثر من رائع، أن ملائكة السماء هم أول من حمل بشرى ميلادك إلى البشر. حدث هذا فى وقت كان الملك والحكام وجميع الناس نياما غافلين عن أعظم حدث غيّر وجه التاريخ.

وهنا يقف الإنسان مبهوراً ليسأل : هل جاءت الملائكة أو واحد منها ليبشر بميلاد نبى من قبل، أيا كان هذا النبى؟ إبراهيم الخليل؟ أو موسى الكليم رئيس الأنبياء؟ أو صموئيل الرائى ؟ أو داود مرنم إسرائيل الحلو ؟ أو إيليا الجبار الذى رفعته إلى السماء مركبة من نار؟ أو أليشع المكشوف العينين الذى كان يخبر ملك بنى إسرائيل بما يتحدث به ملك أرام وهو فى مخدع فراشه؟ أو إشعياء الذى رأى السيد الرب فى بهاء عظيم مستويا على عرش عال ومرتفع، وأذيال ثوبه تملأ الهيكل، والسارافيم واقفون من حوله..؟ أو إرميا النبى الذى كلمه الرب قائلا : «قبل أن أصورك فى البطن عرفتك، وقبل أن تخرج من الرحم قدستك، وجعلتك نبيا للشعوب..؟، أو حزقيال الذى تأهل أن يرى، فى رؤياه، الكروبيم حملة العرش الإلهى فى نار متواصلة ولمعان

---

(١) نشر فى جريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد - ٤ من يناير - كانون ثان لسنة ١٩٧٦م - كيهك لسنة ١٦٩٢ش.

رهيب ومن فوقهم يستوى الرب شبه إنسان..؟ أو دانيال كاشف الرؤى والأحلام الذى ناداه الملاك جبرائيل «يا دانيال أيها الرجل المحبوب..».

مَنْ مِنْ كل أولئك، أو غيرهم فى سلسلة الأنبياء جاءت ملائكة السماء تحمل البشرى بميلاده يوم ميلاده؟ من ؟

مَنْ مِنْ الملوك من قبل، أو من الكهان، جاء ملاك من السماء متهللا يبشر أهله أو غيرهم كما فعلت الملائكة يوم ميلادك، أيها المسيح الرب.. هل صنعت الملائكة ذلك يوم ميلاد داود أو فرعون أو الأسكندر المقدونى، أو كسرى أنّو شروان، أو داريوس أو هانيبال، أو نبوخذ نصر، أو حامورابى أو غيرهم من عظماء التاريخ أو الأباطرة أو القواد أو الفاتحين، ممن سجل التاريخ أسماءهم، وحسبوهم فى سجل الخالدين..؟

مَنْ مِنْ كل أولئك فرحت السماء بميلاده قبل الأرض، وجاءت الملائكة تحمل بشرى مولده إلى البشر، بمثل تلك المظاهرة النورانية الروحية التى أضاءت البيداء الغارقة فى ظلام دامس وسكون رهيب، كمثل ما فعلت الملائكة يوم ميلادك ؟

ولكن الملائكة لم تصنع ذلك يوم ميلادك فقط، لكنها رافقتك فى المذود من حولك ومن فوقك ومن تحت قدميك، وتابعتك فى هربك من وجه هيرودس، إلى مصر، وفى دخولك المبارك إلى أرض بلادنا حيث شرفتنا وباركت شعبك فى مصر، فذاب قلب مصر فى داخلها، وتحطمت تحت قدميك أوثانها وأصنامها، وهربت من وجهك شياطينها، وشاهدت بلادنا وأهلها آيات وعجائب لم يزل أثرها بل آثارها باقيا على الأيام فى كل محطة، حط فيها رحالك مع العذراء مريم والصديق البار يوسف خادم سر التجسد الإلهى..

فعندما انتوى هيرودس الملك أن يقتلك، ظهر الملاك ليوسف فى حلم قائلا : «قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر، وأمكث هناك حتى أقول لك، فإن هيرودس سيبحث عن الصبى ليهلكه». فلما مات هيرودس، إذا ملاك الرب يظهر فى حلم ليوسف فى مصر، قائلا : «قم وخذ الصبى وأمه وأذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات الذين كانوا يبتغون قتل الصبى» (متى ٢ : ١٣ –٢٠). وبعد العماد، وهو يوم الظهور الإلهى، صعدت إلى جبل التجربة حيث أتحت لإبليس فرصة ليقترب منك ويجربك، فلما انتهى من محاولاته الفاشلة، وارتد مدحورا مهزوما مبهورا أمام جلالك جاءت ملائكتك وراحوا يخدمونك (متى ٤ : ١١) ، (مرقس ١ : ١٣).

وتابعتك الملائكة تخدمك في صورة منظورة أحياناً، وفي صورة غير منظورة أحياناً أخرى، حتى إنه يوم أن تكلمت مع الآب مناجيا إياه على مسمع من تلاميذك ومن جماهير الشعب وقلت للآب : «يا أبتاه مجد ابنك» . فجاء صوت من السماء يقول : «مجدت وسأظل أمجد» فلما سمع الجمع الذين كانوا واقفين قالوا : «إنه رعد قد أرعد» . وقال أخرون : «إن ملاكا هو الذى كلمه» (يوحنا ١٢ : ٢٨ ، ٢٩) مما يدل على أن خدمة الملائكة لك، يا سيدى، كانت أمرا مألوفا عند الجماهير التي عرفتك.

وتتابعت خدمة الملائكة لسيادتك الربانية، حتى إنه عندما هجم عليك، قواد جند الهيكل يصحبهم جمع عظيم بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب اليهودى، وأنت في بستان جثسيماني ليقتادوك إلى المحاكمة أمام مجمع السنهدريم - أعلى محكمة دينية عند اليهود - مد تلميذك بطرس يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى، قلت لتلميذك في الحال «رد سيفك إلى مكانه، لأن كل من يأخذ بالسيف، بالسيف يهلك. أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي في الحال أكثر من إثني عشر جيشاً من الملائكة ؟» (متى٢٦ :٥٢، ٥٣) .

ثم في بستان جثسيماني وقبل أن يهجم عليك قواد جند الهيكل ليعتقلوك، ظهر لك، في البستان ملاك من السماء يقول لك : «لك القوة» (لوقا ٢٢ : ٤٣) .

نعم لك القوة، ولك المجد. وعنك قال الأنبياء : «متى أدخل ابنه البكر إلى العالم يقول ولتسجد له جميع ملائكة الله» (العبرانيين ١ : ٦) ، (التثنية ٣٢ : ٤٣) (مزمور ٩٦ : ٧) .

وبعد أن أتممت تدبير الفداء للبشرية، قمت من بين الأموات بسلطان لاهوتك، وصعدت إلى السماء بقدرة ذاتك، واستويت على العرش. وفي هذا يقول الوحي أيضا إنه «الذى صعد إلى السماء وهو عن يمين الله تخضع له الملائكة والسلاطين والقوات» (١ . بطرس ٣ : ٢٢) .

مع الملائكة نسجد ممجدين لاهوتك، ومع المجوس على الأرض نسجد طالبين رحمتك علينا وعلى كل بشر، وعلى مصرنا، بلدنا المحبوب، وعلى كل بلاد المعمور، فإن الأرض كلها وما عليها لك إلى الأبد، آمين.

٢٨ ـ ترتيب قراءات فصول الإنجيل (١)

عجيب وجميل ترتيب قراءات فصول الإنجيل فى كنيستنا الأرثوذكسية فى ليلة عيد الميلاد المجيد. كان من المتوقع أن يُقرأ فى هذه الليلة العظيمة، فصل الإنجيل الذى يروى كيف ولدت العذراء مريم إبنها وأضجعته فى مذود البقر، إذ لم يكن لهما مكان فى الفندق. وفى الوقت نفسه ظهر الملاك لرعاة يتناوبون السهر بالليل فى حراسة قطعانهم، فارتعبوا إرتعابا شديداً، فقال الملاك لهم : «لا تخافوا فها أنا ذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إذ ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب. وإليكم هذه العلامة : إنكم ستجدون الطفل مقمطا ومضجعاً فى مذود». ثم ظهرت بغتة مع الملاك كوكبة من جند السماء يسبحون الله قائلين : المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس مسرته» (لوقا ٢ : ١ - ٢٠).

ذاك الفصل من الإنجيل الذى يروى قصة الميلاد، فى أوانها والأحداث التى صاحبتها لا تقرأه الكنيسة ليلة عيد الميلاد، كما هو متوقع، وإنما يقرأونه فى يوم آخر، يقرأونه فى اليوم السابق على ليلة العيد، وهو المسمى ببرمون الميلاد. أما فى ليلة عيد الميلاد وهى الليلة العظيمة التى نحتفل فيها بالميلاد فعلا، فيقرأون فصولا أخرى تباعد بين المحتفلين بالعيد وبين وقائع ليلة الميلاد ذاتها.

فما معنى هذا؟ ولماذا كان هذا؟

فى ليلة العيد، يقرأون من الإنجيل فصلين : فصلاً من القسم الأول من طقوس العيد المسمى رفع بخور باكر، وفصلا فى نهاية قراءات القداس نفسه.

أما فى رفع بخور باكر، فيتلون فصلاً من الإنجيل للقديس يوحنا مطلعه : «**والكلمة اتخذ جسداً، وحل بيننا**، وقد أبصرنا مجده، **مجد الابن الوحيد لأبيه**، الممتلئ من النعمة والحق. وقد شهد يوحنا (المعمدان) له ونادى قائلاً : «هذا هو الذى قلت عنه، **إن الذى يأتى بعدى قد تقدمنى، لأنه كان قبلى**. ومن ملئه جميعنا أخذنا. ونعمة أخذنا بدلاً من نعمة، لأن الشريعة بموسى أعطيت، وأما النعمة والحق فبيسوع المسيح كانا. الله لم يره أحد قط. **الابن الوحيد الذى فى حضن الآب** هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٤ - ١٨).

---

(١) نشر بجريدة (وطني) في عددها الصادر صباح الأحد ـ ٩ من يناير ـ كانون ثان ١٩٧٧م ـ ٢ من طوبة لسنة ١٦٩٣ش.

وكأن الكنيسة بقراءتها لهذا الفصل من الإنجيل للقديس يوحنا فى ليلة عيد الميلاد، تريد أن تعلمنا أن **المسيح لم يولد كما يولد أى نبى أو بشر**. فالأنبياء، والبشر عموما، يولدون وبميلادهم يوجدون، وقبل ميلادهم لم يكن لهم سابقا وجود. **أما المسيح فغيُرهم جميعا**.

المسيح له وجودان : وجود قبل الزمان وقبل كل الدهور، ووجود فى الزمان بتجسده من العذراء مريم. أما وجوده السابق على ميلاده الزمنى من العذراء فهو وجوده الأزلى «فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، **وكان الكلمة هو الله. كان منذ الأزل لدى الله. كل شئ به كان. وبغيره لم يكن شئ مما كان...** كان فى العالم. **وكان العالم به»** (يوحنا ١ : ١ - ١٠).

وإذن فلئن كان المسيح قد ولد فى الزمان فى صورة إنسان، لكنه كان كائنا بوجوده منذ الأزل. وأما ما نسميه بالميلاد، فى عيد الميلاد، **فهو فى حقيقته عيد تجسده: «والكلمة اتخذ جسداً»** (يوحنا ١ : ١٤)، أو صار له جسد. **وإذن فالمسيح كان ولم يزل إلها**، كما يقول القديس أثناسيوس الرسولى. **أى أنه كان إلها قبل ميلاده الزمنى، ولم يزل إلها بعد ميلاده الزمنى**.

إن الإنجيل للقديس يوحنا لم يورد شيئا عن قصة الميلاد من العذراء مريم، تلك القصة التى رواها الإنجيل للقديس متى والإنجيل للقديس لوقا، ليس فقط لأنه أكتفى برواية متى ولوقا، ولكن لأنه أراد أن يحول النظر إلى الحقيقة الأعظم والأهم، وهى أن **ميلاد المسيح من العذراء مريم هو فى حقيقته ظهوره متجسدا. أما وجوده فأزلى قبل الزمان**. وهى الحقيقة التى وكَّد عليها الإنجيل للقديس متى أيضا، عندما أورد شهادة الوحى على فم أحد أنبياء العهد القديم، وهى شهادة تنطق **بأزلية الكلمة قبل التجسد**. لأنه هكذا كتب بواسطة النبى : «وأنت يابيت لحم بأرض يهوذا، لست الصغرى بين ولايات يهوذا، لأن منك يخرج الحاكم الذى يرعى شعبى إسرائيل، **ومخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل»** (متى ٢ : ٦)، (ميخا ٥ : ٢).

وبهذا أيضا شهد يوحنا المعمدان عن سيده المسيح. فعلى الرغم من أن يوحنا ولد قبل أن يولد المسيح جسديا بستة شهور، إلا أن يوحنا «نادى قائلا : «هذا هو الذى قلت عنه **إن الذى يأتى بعدى قد تقدمنى، لأنه كان قبلى»** (يوحنا ١ : ١٥) أى أن المسيح ظهر فى الجسد وفى خدمته بعد يوحنا بزمن، لكنه مع ذلك **يتقدمه فى الكرامة وفى الزمن : «لأنه كان قبلى»**.

والمسيح له المجد قد أكد على حقيقة أزليته مرارا، فقد قال لليهود مرة «لقد تهلل إبراهيم أبوكم مشتهيا أن يرى يومى، وقد رأى وفرح»، فقال له اليهود : «إنك لم تبلغ الخمسين بعد، أفرأيت إبراهيم؟» قال لهم يسوع : «الحق الحق أقول لكم : قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يوحنا ٨ : ٥٦ – ٥٨) وكلمة «**كائن**» هنا لها رنين الكينونة الدائمة التى لا يتصف بها غير الله وحده. وهذا هو التعبير المستعمل فى سفر الرؤيا كثيرا.

«النعمة لكم والسلام من لدن **الذى هو كائن، والذى كان والذى سيأتى**» (الرؤيا١ :٤).

«أنا الألف والياء، البداءة والنهاية، يقول الرب الإله **الكائن والذى كان والذى سيأتى** القادر على كل شئ» (الرؤيا ١ : ٨).

«ولكل من الحيوانات الأربعة ستة أجنحة... ولا تزال ليلاً ونهاراً تقول : قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شئ، **الذى كان والكائن والذى سيأتى**» (الرؤيا ٤ : ٨).

«فَخَرَّ الأربعة والعشرون شيخا الجالسون أمام الله على عروشهم، وسجدوا على وجوههم لله قائلين : «نشكرك أيها الرب الإله القادر على كل شئ، **الكائن والذى كان والذى سيأتى**» (الرؤيا ١١ : ١٦، ١٧).

وفى مواضع أخرى من الإنجيل يتكلم المسيح مناجيا الآب متحدثا عن «**المجد الذى كان لى عندك من قبل كون العالم**» (يوحنا ١٧ : ٥) كما يقول للآب «**لأنك أحببتنى قبل إنشاء العالم**» (يوحنا ١٧ : ٢٤).

هذا هو السبب الحقيقى فى اختيار الكنيسة لفصل الإنجيل للقديس يوحنا، الذى يتحدث عن تجسد الكلمة فى ليلة عيد الميلاد، واستبعاد الفصل الذى يتحدث عن ميلاده الزمنى، حتى لا تنسحب أفكار المحتفلين بالعيد إلى أن المسيح بدأ وجوده بميلاده من مريم، بل بالأحرى **يتعلمون أن ميلاده هو فى حقيقته، ظهوره فى الجسد الذى اتخذه من مريم ليحتجب به لاهوته**..

وأما الفصل الآخر الذى يتلى ليلة عيد الميلاد فهو المأخوذ من الإنجيل للقديس متى، والذى يروى قصة المجوس الذين جاءوا من المشرق إلى أورشليم، ووصلوا إلى هناك بعد ميلاده

بشهور، قائلين : «أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له» ، ولما رأوه «خروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا من ذهب ولبان ومر» (متى ٢ : ١ – ١٢).

٢٩ - صانع السلام (١)

المسيح له المجد دعى «رب السلام» (٢. تسالونيكى ٣ : ١١)، و «رئيس السلام» (إشعياء ٩ : ٦)، و «صانع السلام» (أفسس ٢ : ١٥)، وقد هتفت ملائكة السماء فى ليلة (ميلاده)، أو بالأحرى (تجسده) قائلة «المجد لله فى الأعالى، **وعلى الأرض السلام**» (لوقا ٢ : ١٤).

لذلك كانت رسالته التى جاء من السماء من أجلها هى رسالة «صنع السلام» و «المصالحة» بين الله الآب وبين الناس. أما الآب فهو الله ذاته من حيث (عدله) غير المحدود وغير المتناهى، الذى حكم على آدم وذريته بالموت الأبدى، والعزل الأبدى عن الله، والنفى الأبدى عن الحضرة الإلهية فى ملكوت السماوات. ولكن لقد رأى الله ذاته من حيث (رحمته) غير المحدودة وغير المتناهية، أن الإنسان تاب واستغفر، ولكنه لا يستطيع أن يقدم لله الآب الترضية الكافية لعدالته غير المحدودة.. **فرأى بمحبته ورحمته أن يقوم هو ذاته بهذه الترضية الكافية، فاتخذ جسدا ينفذ فيه حكم العدل الإلهى بالموت، وبهذا يفدى الإنسان إذ يموت بدلا من الإنسان، لأنه أخذ طبيعة الإنسان. ولما كان المسيح هو الله متأنسا، أو الكلمة الإلهى متجسدا، فقد صار الموت الذى يذوقه فى الجسد الذى اتخذه، ترضيه للعدالة الإلهية غير المحدودة، نظراً لأن اللاهوت المتحد بالجسد هو لاهوت الله الأبدى**، ومن ثم صار دم المسيح المصلوب عن آدم وبنيه دما ثمينا، وقيمته ليست قيمة دم إنسان وإنما قيمة الله ذاته الذى اتحد بالإنسان فى المسيح. **ومن هنا كان دم المسيح كفيلا برفع العقوبة الأبدية التى استحقها آدم ومعه كل ذريته فى جميع الأجيال إلى نهاية الدهر.**

يقول الكتاب المقدس فى سفر إشعياء النبى «فرأى الرب وساء فى عينيه، أنه ليس عدل. فرأى أنه ليس إنسان، وتحير من أنه ليس شفيع، فخلصت ذراعه لنفسه، وبره هو عضدة. فلبس البر كدرع، وخوذة الخلاص على رأسه،... ويأتى الفادى إلى صهيون، وإلى التائبين عن المعصية من يعقوب يقول الرب» (إشعياء ٥٩ : ١٥ – ٢٠)

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ٨ من يناير ـ كانون ثان لسنة ١٩٧٨م ـ ٢٠ من كيهك لسنة ١٦٩٤ش.

ويقول الرب «**فنظرت ولم يكن معين، وتحيرت إذ لم يكن من عاضد، فخلصت لى ذراعى**» (إشعياء ٦٣ : ٥).

إذن الله ذاته الذى حكم علينا بالموت، فصرنا له أعداء، هو «**الذى صالحنا مع نفسه بيسوع المسيح**» (٢. كورنثوس ٥ : ١٨) لأنه هو (المسيح) سلامنا الذى جعل الإثنين - اليهود وغير اليهود - شعباً واحداً، وهدم بجسده حائط السياج الحاجز الذى يفصل بينهما، أى العداوة، وأبطل بجسده شريعة الوصايا وما فيها من أحكام، ويصالح بينهما وبين الله فى جسد واحد بصليبه وقد قضى على العداوة فيه. جاء وبشركم بالسلام أنتم الذين كنتم بعيدين، كما بشر بالسلام الذين كانوا قريبين لأن لنا به جميعا سبيل الوصول إلى الآب فى روح واحد (أفسس ٢ : ١٤ – ١٨)، وفى المسيح، الكلمة المتجسد، تم لقاء السلام بين الله والإنسان «لأن فيه سر الآب أن يحل الملء كله، **وأن يصالح به الجميع مع نفسه، سواء ما فى الأرض أو ما فى السماء، صانعا به السلام بدم صليبه**» (كولوسى ١ : ١٩، ٢٠).

إنه حقاً أمر عجيب أن يتفضل الله فيصالحنا بنفسه، مع نفسه، ويصنع السلام معنا، وبنا، وفينا.

إنه هو الذى تقدم فصنع مبادرة السلام، هو الذى جاء إلينا، ومد يده إلينا ليصافحنا، ويصالحنا بمجيئه، وبعد ذلك بعمل الفداء الذى قام به، كنائب عنا، إذ وضع ذاته عنا، ومن أجلنا.

كيف إذن لا نحبه؟. إننا نحبه لأنه أحبنا فضلا «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولا» (١ .يوحنا٤ :١٩).

منك يارب نتعلم أن نحب إخوتنا. وإخوتنا هم إخوتنا فى الإنسانية وأن نمد أيدينا لهم بالسلام والمصالحة، وبذلك تتحول العداوة إلى وفاق وإلى خير للجميع.

«**وسعداء هم صانعو السلام، فإنهم أبناء الله يدعون**» (متى ٥ : ٩).

٣٠ - السلبية والإيجابية (١)

عندمـا جئت إلينا، يارب، لم نكن لك أحبـاء.. وإنما كنا لك أعـداء.. **فجئت أنت إلينا، بذاتك، لتصالحنا معك**.. لقد أرسلت إلينا قبل مجيئك الوسطاء من الأنبياء، فطردناهم وقتلناهم. ومع ذلك، ومن فيض حبك ورحمتك، أتيت إلينا بنفسك حتى لو كان مصيرك معنا مصير الأنبياء من قبل.

أنت الذى أحببتنا أولاً (١. يوحنا ٤ : ١٩)، وأحببتنا فضلاً وتفضلا، فهل من فضيلة فينا أو من فضل.... إذا أحببناك نحن فى مقابل حبك لنا ورحمتك بنا؟

لقد أحببناك بعد أن أحببتنا مع مافينا من شر وإثم... ولقد أحببتنا لأننا خليقتك، فأنت الذى صنعتنا وجبلتنا وخلقتنا لك... وصنعتنا وخلقتنا لأنك أحببتنا، **فأنت «لا تمقت شيئا مما صنعت، فإنك لو أبغضت شيئاً لم تكونه**. وكيف يبقى شئ لم تُرِدْهُ، أم كيف يحفظ ما لست أنت داعيا له. **إنك تشفق على جميع الأكوان لأنها لك** أيها الرب المحب للنفوس (سفر الحكمة ١١ : ٢٥ – ٢٧).

مددت يدك لمصالحتنا (٢. كورنثوس ٥ : ١٨، ١٩)، ومددتها حتى إلى الصليب.... لتدفع عنا الثمن.... وبعد أن كنا مبيعين تحت الخطيئة (رومية ٧ : ١٤)، مستعبدين تحت أركان العالم (غلاطية ٤ : ٣) اشتريتنا بدمك من جديد، وأطلقتنا أحرارا لأنفسنا حتى لا نكون عبيداً للناس (١. كورنثوس ٧ : ٢٣).

جئت يا سيدى لخير البشرية، ولصالحها، فماذا صنعت البشرية فى مقابل حبك؟

لم يفهموك، فعادوك، وطاردوك... وظنوا أنك مقتحم ومغتصب... جئت لكى تؤسس لك على الأرض ملكاً (لوقا ١٩ : ١٢) ثم تعود... فانزعجوا خوفا على أنفسهم، وعلى نفوذهم، وعلى إختصاصاتهم... نهض هيرودس ملك اليهود، ليقضى على الفتنة فى مهدها... هكذا ظن نفسه مدافعا ومحاميا عن الحدود التى أنت تعديتها كما فهموا، أو كما شاءوا أن يفهموا...

وطردوك، يا سيـدى... فقـد أعلنوا أنهم لا يريدونك... ثم طاردوك... طردوك من بلاد فلسطين، فهربت منها إلى مصر فى جنح الليل... ولما علموا بهربك لم يستريحوا لقرارك فى أن

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد - ٧ من يناير - كانون ثان لسنة ١٩٧٩م - ٢٩ من كيهك لسنة ١٦٩٥ش.

تبقى فى الوجود... لقد أصدر عليك الأغبياء قراراً : أن يلغوا هم وجودك، ووضعوا خطة ذكية محكمة لتنفيذ قرارهم ..... فلما أفلتّ، يا سيدى من بين أيديهم، تميزوا بالغيظ فقرروا أن يطاردوك فى كل مكان... ذهبت إلى مصر، فليذهبوا هم أيضا إلى مصر... بعيونهم وجواسيسهم، يترصدونك ويتتبعونك...

لكن، لماذا يا سيدى هربت؟ وهل مثلك يهرب؟ وممن تهرب؟ هل خشيت هيرودس؟ أما كان فى قدرتك أن تصرعه وتقتله وتلغى من الدنيا وجوده ؟

هل أجرؤ، يا سيدى، أن أقول ما يقوله أهلنا وأبناء عصرنا المثقفون والمتدينون، بلغة العصر العلمانية : لماذا كانت منك هذه السلبية ؟ لماذا؟

أو ماذا هم يتوقعون منك لتكون إيجابيا فى نظرهم؟... هل ينتظرون أن تدخل فى صراع وحرب مع هيرودس.. هل هذه هى الإيجابية؟ إن هيرودس يرى فيك شوكة تقض مضجعه، وتخنق حريته... فلماذا تضايقه؟ لذلك تركت له الجو كله يسرح ويمرح كما يشاء، وليس من يمنع يده أو يقول له : ماذا تفعل؟

إذا تنازع إثنان على أمر، كل يرى فيه رأيا، فرأى أحدهما أن يتركه لخصمه، ويوفر على نفسه جهده وأعصابه ووقته ليبذلها فى أمر نافع، فهل يلام على ذلك أم يشكر؟ ولماذا يتهمونه بالسلبية..؟ إنه بذلك الترك يتجنب الصراع، ويتفادى الخصام، ويشترى السلام... إنه يهرب من الهدم ليتوافر على البناء... يهرب من الشر ليزرع الخير فى جانب آخر من الأرض.. وهذه هى الإيجابية الحقيقية.

ألم يقل الحكيم «الذكى يبصر الشر، فيتوارى» (الأمثال ٢٢ : ٣)، (٢٧ : ١٢). ألم تقل أنت ياربى «ومن أراد أن ينازعك ويأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً» (متى٥:٤٠)؟

إذا كانت هذه، يارب، سلبية، فأنعم بها من سلبية... وياليت الإيجابية كما يفهمها أهل دنيانا تكون كهذه السلبية النافعة المسالمة المترفقة المذعنة والبناءة الفعالة الخلاقة!

لقد كان فى قدرتك، يا سيدى، أن تقتل هيرودس، فإن حياته بيدك، ولكنك لم تشأ أن تعدمه الحياة.. واتخذت عداوته ومطاردته لك ذريعة يبرر بها مجيئك إلى مصر. **وهكذا قصد هيرودس بك شرا، فتحول شره إلى خير لبلدنا مصر، فتباركت بك!**

آه، يارب، هل نقول إن هيرودس صنع بنا نحن المصريين خيرا؟!

نعم، لأنه لو لم يعتزم هيرودس قتلك، هل كنت ستأتى إلى مصر؟ إنك لم تذهب إلى بلد آخر. **هذا شرف لمصر وللمصريين لم ينله شعب آخر أو أرض أخرى..** أليس لهذا صرخ النبى إشعياء قديما بلسان الرب **«مبارك شعبى مصر» (١٩ : ٢٥)** ؟

هل هناك إذن من يجرؤ فى صدق على أن يقول «إن الهرب من وجه الشر» سلبية؟ أليس هو الإيجابية عينها فى الحقيقة والجوهر؟!

وإذا كان ما فعله الرب يسوع سلبية، فالإيجابية كيف تكون؟!

٣١ ـ لماذا ولدت يارب فى بيت لحم ؟ (١)

إذا قلنا (الميلاد) فنحن نعنى (التجسد). فعيد الميلاد هو عيد التجسد الإلهى، إذ كيف يكون للإله ـ وهو أزلى ـ ميلاد بالمعنى المتداول للميلاد بالنسبة لكل بشر؟!

إنما المسيح ولد (بحسب الجسد)، أى أن «**الكلمة اتخذ جسداً**» (يوحنا ١ : ١٤) ... هذا الجسد لم يكن له سابقا وجود، فتكون من الروح القدس ومن دم العذراء مريم، ثم اتحد به (الكلمة) الذى حل به وفيه، **من دون أن يخلى السماء وكل الكون من وجوده وحضوره الدائم**، كما حل فى العليقة وكلم منها النبى موسى (**الخروج ٣ : ٢ – ١٢**) **من دون أن يخلى السماء وكل الكون من وجوده وحضوره الدائم** (الرؤيا ١ : ٨). ولما لم يكن هذا الجسد موجوداً من قبل أن يظهر فيه الكلمة، لذلك جاز أن نقول عن هذا التجسد إنه ميلاد، ونعيّد للتجسد ما يعرف بعيد (الميلاد). «**ذاك الذى كان منذ البدء**. ذاك الذى رأيناه بعيوننا، ذاك الذى تأملناه، ذاك الذى لمسته أيدينا.. **فإن (الحياة) تجلت**. فرأيناها ونشهد **ونبشركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب، وتجلت لنا**. ذاك الذى رأيناه وسمعناه...» (١. يوحنا ١ : ١ – ٣). فالأزلى **الذى كان منذ البدء، وهو «الحياة»** (يوحنا ١١ : ٢٥)، «**ظهر فى الجسد**» (١. تيموثيئوس ٣ : ١٦).

لكن لماذا يا إلهى عندما أردت أن تتخذ جسدا تظهر فيه، اخترت أن يكون ظهورك الأول، أو ميلادك، فى بيت لحم، هذه القرية الصغيرة... ولم تشأ أن يكون هذا الظهور أول ما يكون فى عاصمة كبيرة مثل أورشليم أو غيرها من عواصم العالم حتى يكون ظهورك عيانا لأكبر عدد من الناس، ولأهمهم وأوضحهم وأبرزهم وأغناهم، وأميزهم فى الحسب والنسب والمنصب؟ **لماذا اخترت أن يكون ظهورك الأول فى مكان منزوى، فى قرية لا فى المدينة ؟**

أليس لأن (بيت لحم) هى مدينة داؤد النبى والملك (لوقا ٢ : ٤)، (يوحنا ٧:٤٢) ... وأنت يا سيدى عندما ظهرت فى الجسد، ظهرت فى المكان الذى ينتسب إلى الملك داود (١. صموئيل ١٧ : ١٢، ١٥)، (٢٠ : ٦، ٢٨)، وهو الذى يفخر اليهود بنسبتهم إليه،

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ١١ من يناير ـ كانون ثان لسنة ١٩٨١م ـ ٣ من طوبة لسنة ١٦٩٧ش.

ليس فقط لأنه من سبط يهوذا أو قبيلة يهوذا، بل لأنه أعظم ملوكهم شأنا وأقربهم إلى الله وقد شهد الرب عنه «وجدت داود بن يسى رجلا حسب قلبى الذى يصنع كل مشيئتى» (أعمال١٣ :٢٢) ، (مزمور ٨٨ : ٢٠)، (١. صموئيل ١٣ : ١٤)، وهو الذى وعده الرب قائلا «ومملكتك إلى الأبد أمامك. عرشك يكون ثابتا إلى الأبد» (٢. صموئيل ٧ : ١٦، ١٣) ، (مزمور٨٨ : ٣٦، ٣٧) ، (١٣١ : ١١، ١٢).

ولما جئت يا مخلصى من نسل داود حسب الجسد (رومية ١ : ٣)، (٩ : ٥) ، (متى ١ : ١)، ودعيت لذلك (ابن داود) (متى ٢٢ : ٤٢، ٤٥)، كان لابد أن تجلس ملكا على عرش داود إلى الأبد «**ولن يكون لملكه إنقضاء**» (لوقا ١ : ٣٢، ٣٣) ، (دانيال ٢ : ٤٤).

لقد قال النبى ميخا «وأنت يا بيت لحم أفراته إنك صغيرة، فى ألوف يهوذا. ولكن منك يخرج لى من يكون متسلطاً على إسرائيل. ومخارجه منذ القديم، **منذ أيام الأزل**... ويكون هذا سلاما» (ميخا ٥ : ٢ – ٥) وكانت نبوءة ميخا النبى، هى عنك يا سيدى الرب. فأنت الذى **اتخذت جسدا مع أنك الأزلى الذى لا بداءة له** «مخارجه منذ القديم، **منذ أيام الأزل**» «فى البدء أسست الأرض، والسماوات هى صنع يديك. هى تزول **وأنت تبقى**» (مزمور١٠١ :٢٥) «**منذ البدء.. من الأزل مسحت، من الأول** من قبل أن كانت الأرض... قبل أن أقرت الجبال وقبل التلال..» (الأمثال ٨ : ٢٢ – ٢٤) ثم فى ملء الزمان، وعندما حان الوقت (غلاطية ٤ : ٤) وفقا للتدبير الإلهى، شئت أن تتخذ لك جسدا، من أجل خلاصنا. ولدت كإنسان، وكإنسان صرت رئيس خلاصنا (العبرانيين ٢ : ١٠)، (أعمال ٥ : ٣١) **وملكا متسلطا على إسرائيل القديم وإسرائيل الجديد**. أما إسرائيل القديم فهو اليهود بنو إسرائيل وأنت الملك عليهم كما أنبأتهم أنبياؤهم «أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يوحنا ١ : ٤٩) ، (١٢ : ١٣) ، (متى ٢٧ : ٤٢) ، (مرقس ١٥ : ٣٢). وأما إسرائيل الجديد، إسرائيل حسب الروح، فهى كنيسة المسيح، كنيسة العهد الجديد (رومية ٢ : ٢٧، ٢٨) وأنت بالحقيقة «ملك إسرائيل» الجديد (يوحنا ١٨ : ٣٣، ٣٩) ولذلك جاء المجوس من المشرق عند ميلادك يقولون «أين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له» ومما له دلالة هنا أن المجوس أتوا يقولون أين هو المولود ملك اليهود، فإذا بهيرودس يجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب ويسألهم : «أين ينبغى أن يولد المسيح؟»، مما يدل على أن الملك فى أذهان اليهود إنما هو المسيح بذاته، وفى الوقت نفسه. وقد كان رؤساء الكهنة على علم تام بذلك بحسب ما ورد فى

أسفار الأنبياء السابقين، وكانت الإجابة فى أفواههم حاضرة ومسنودة بأقوال الأنبياء، «فقالوا له : فى بيت لحم التى بإقليم اليهودية لأنه هكذا كتب بواسطة النبى : «وأنت يا بيت لحم بأرض يهوذا، لست الصغرى بين ولايات يهوذا، لأن منك يخرج الحاكم الذى يرعى شعبى إسرائيل» (متى٢ :١- ٦) .

إذن يسوع المسيح هو ملك إسرائيل الموعود به بالأنبياء (زكريا ٩ : ٩)، وملكه أبدى، وليس له إنقضاء (دانيال ٧ : ١٤، ١٨، ٢٧) «ومملكته على الكل تسود» (مزمور ١٠٢ : ١٩) وميلاده فى بيت لحم كان لبيان أنه هو بعينه الملك الذى أنبأ عنه الأنبياء أنه سيولد فى بيت لحم مدينة الملك داؤد، وأنه هو الذى سيقوم على عرش داود الروحى ملكا إلى الأبد.

إذن، كيف بعد هذا كله، يتنكر لك اليهود، ويرفضونك ملكاً عليهم؟ كيف بعد أن شهد الأنبياءعنك، وبعد أن تحقق جميع ما قاله الأنبياء فيك يعود اليهود فينكرون عليك أنك المسيح المنتظر، وملك إسرائيل الحقيقى، وينصرفون عنك إلى آخر ينتظرونه، إلى اليوم ويتوقعون ظهوره فى مستقبل الأيام؟!

كيف عميت عيونهم، واظلمت بصيرتهم، فلم يفهموا، ولم يدركوا أنك أنت بذاتك ملكهم ومسيحهم الذى جاء لخلاصهم وخلاص العالم؟!

لقد أعمى الحسد (متى ٢٧ : ١٨) والحقد قلوب رؤسائهم، لأنك وبختهم على تبلد إحساساتهم وكبريائهم وريائهم، وبكتهم على طمعهم وجشعهم وتحجر عقولهم وإنصرافهم عن جوهر الشريعة وعمق حكمتها إلى شكليات بلا روح، فأساءوا إلى الشريعة من حيث ظنوا أنهم حفاظها وحراسها. وقاوموك وناهضوك وأخيرا ثاروا عليك وصلبوك...

ويبرر يهود اليوم رفض آبائهم لك بأنك لم تخلصهم من نير الرومان، فكيف تكون أنت (المخلص) الذى وعدهم به الأنبياء؟. لقد سألوك : إذا كان يجوز لهم أن يعطوا الجزية لقيصر، فلم تحارب من أجلهم قيصر ولا رفعت نيره عنهم، بل قلت لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله (متى ٢٢ : ٢١)، فاستنبطوا من إجابتك، أو هكذا برروا رفضهم لك، بأنك لست المخلص الموعود به، إذ كان الخلاص فى مفهوم قادتهم هو الخلاص ليس من الخطيئة أو العقوبة الأبدية فى جهنم النار الأبدية كما تشير أقوال الأنبياء، إنما الخلاص كما أرادوه هو الخلاص من أعدائهم الجسدانيين، وهم الرومان...

وهذا هو المفهوم الذى مازال مسيطرا على عقول يهود اليوم. إنهم ينتظرون مسيحا آخر من طراز شمشون الجبار ومن إليه من قضاة بنى إسرائيل وقادتهم الحربيين ليخلصهم من الفلسطينيين بخاصة، ومن العرب بصفة عامة.

هذه هى الصورة الذهنية التى يرى فيها يهود اليوم فى إسرائيل، وخارج إسرائيل، المسيح المنتظر، المسيح المخلص. إنه الذى يعلن ذاته ملكا عليهم، يحارب أعداءهم بالسيف والنار، ويجعل منهم مملكة قوية، ومن فلسطين أرضا لمملكتهم، ومن أورشليم عاصمة لحكومتهم، ومن الهيكل كرسياً للحكم... وهذا هو حلم الصهيونية الكبير: المملكة... والأرض،... وأورشليم القدس عاصمة للمملكة،... ثم الهيكل وفيه الكرسى الذى يجلس عليه وفيه المسيح حاكما وملكا وإلها على الجميع... ليس على الإسرائيليين وحدهم، ولكن على جميع الخلق فى جميع الأمم...

هذا هو المسيح الدجال، وهو حلم إسرائيل اليوم، والمخلص المنشود، وقد وصفه القديس بولس الرسول بأنه «إنسان الخطيئة، ابن الهلاك، المعاند والمترفع فوق كل من يدعى إلها أو معبودا، حتى إنه يجلس فى هيكل الله كإله، مظهرا نفسه أنه هو الله... ويكون مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة، وبالعلامات والعجائب الكاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين، لأنهم لم يقبلوا محبة الحق ليخلصوا... وأما نهاية (الدجال) فستكون على يد الرب يسوع المسيح فهو الذى سيبيد الدجال «بنفخة فمه، ويبطله بظهور مجيئه» (٢. تسالونيكى ٢ : ١ – ١٢).

ومهما يكن من أمر، **فإنك يا سيدى بميلادك فى (بيت لحم) قد جعلت من هذه القرية الصغيرة، والتى كانت تحسب حقيرة بين جميع مدن فلسطين، أشهر بلدة فى العالم...** فليس يعد المكان عظيما وشهيرا بموقعه، ولا بما يتوافر له من أسباب الرفاهية، ولكن بما يناله من شرف من يحل ويقيم فيه. وأى شرف تناله قرية أو مدينة أعظم من الشرف الذى نالته بيت لحم بميلاد الرب يسوع فيها!

بيت لحم، تفسيرها بالعبرانية «**بيت الخبز**» ـ ومازالت بيت لحم هى بيت الخبز، غير أن الخبز هنا ليس هو الخبز المادى، ولا هو المن الذى أكله بنو إسرائيل فى البرية وماتوا.. **إنما الخبز هنا هو الخبز السماوى، هو يسوع المسيح، هو أنت أيها الرب الإله.**

وليس من عندنا أتينا بهذا المعنى، فأنت يا سيدى هو الآتى من السماء، النازل من السماء، والذى يهب الحياة للعالم.

لقد قلت وناديت «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا. أما هذا فهو الخبز النازل من السماء، ليأكل منه الإنسان فلا يموت. أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذى أعطيه أنا هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم... هذا هو الخبز الذى نزل من السماء. وهو ليس كالمن الذى أكله آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يوحنا ٦ : ٤٨ - ٥٨).

نعم، أنت يارب قد نزلت من السماء، لتهب الحياة للعالم، واتخذت لك جسداً، وباتحاد اللاهوت به، صار جسدك ليس حيا إلى الأبد فقط، بل صار أيضاً قادراً على أن يهب الحياة، لقد صار الجسد الحى والمحيى.

والكنيسة، صارت هى (بيت لحم)، بيت الخبز السماوى، لأنه فيها ننال الخبز السماوى، فيها نأكل من المائدة الربانية، ووليمة العرس السمائى.

شكراً يارب لسر التكاثر، سر المائدة الَربِيِّة. لقد كان لبنى إسرائيل فى القديم بيت لحم واحدة يحجون إليها لأنها مدينة الملك داود. أما فى العهد الجديد، فقد صار لنا فى كل كنيسة مقامة بيت لحم، أى صار لنا عدد من بيت لحم بقدر ما لنا من كنائس!

٣٢ ـ لماذا أعطى الله وصية لآدم وهو يعلم أنه سيعصيها

سؤال : من الابن الدكتور الفونس ميخائيل سعد.

يقول لماذا أعطى الله المحب وصية لآدم وهو يعلم بسابق علمه أنه سيعصاها؟

الجواب :

لقد أعطى الله وصية لآدم، وهو يعلم أنه سيعصيها.

إن الله خلق آدم وأعطاه وصية هى لخير آدم ولصالحه، وحتى يحيا آدم سعيداً وناجحاً وسليماً بالروح والذهن والبدن.

ونحن نعلم أن الله خلق الإنسان لخير الإنسان، لأن الوجود خير من العدم. ذلك لأن الله فى ذاته فى غنى عن الإنسان، لكنه خلق الإنسان لخير يعود على الإنسان. وذلك لينعم مع الله، إذ الله هو الخير الأقصى والجمال والكمال، بغير حدود، ولأنه هو تعالى الخير الكامل، فأراد أن يخلق الإنسان ليشاركه سعادته ولكى يسعد هو بالوجود مع الله.

أما الوصية فهى نور للإنسان، ليعرف كيف يحيا بها الإنسان سعيداً، ولا يتعثر أو يضل، فيشقى. فالوصية هى نصح من الحكيم وحده، كلىّ العلم وكلىّ الحكمة. الله الآب، محب البشر، الذى خلق الإنسان لخير الإنسان، فالوصية هى إرشاد وتنوير، فإذا عمل بها الإنسان انتفع بها، وصار بها وجوده سعيداً، فالله الخالق للإنسان يرشده بالوصية وينير طريقه، فهو بمثابة الأب المختبر الحكيم الذى ينصح ابنه نصائح لنفعه وليتجنب بها الزلل والخطأ.

والمتأمل فى جميع الوصايا التى وردت بالكتاب المقدس يتبين أنها جميعها هى ارشادات لخير الإنسان ونفعه ولن تجد وصية واحدة لمجرد التحكم أو لامتحان الإنسان.

خذ مثلاً لذلك الوصايا العشر جميعها واحدة واحدة تجدها كلها إرشادات إذا عمل بها الإنسان يحيا سعيداً وناجحاً ونافعاً لنفسه وللأغيار من الناس بل وأيضاً لجميع الخلائق الحية والجامدة.

ثم بالتأمل أيضاً فى الوصايا الخاصة بالطاهر والنجس، والحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة، جميع الوصايا هى نافعة لصحة البدن والروح، فأكل الدم والمخنوق والجيفة وما إليها هى كلها ضارة بصحة الإنسان روحاً ونفساً وبدناً.

وإذن فالوصية للإنسان هى لخير الإنسان وليست ثمت وصية واحدة فى كل الكتاب المقدس إلا وهى نصيحة حكيمة من أب حكيم يبغى صالح الإنسان ونفعه .

أما أن الله يعلم بأن الإنسان سيعصى الوصية، فهذا العلم السابق لا يمنع ولا يحبس عن الله وصيته إلى الإنسان التى يبتغى فيها وبها خير الإنسان ونفعه وسعادته .

٣٣ ـ هل كان الله ينتظر آدم أن يعترف بخطيئته ؟ (١)

سؤال : يقال أن الله كان ينتظر إعتراف آدم بخطيئته فيصفح عنه. كيف يكون هذا مع أنه لابد من حكم الموت حسب عدله؟

إن هذا القول لا تعلم به كنيستنا، لأنه يتناقض تناقضا تاماً مع نظرية الفداء التى تقوم عليها المسيحية. والتى يمكن أن نقول فيها إنها نقطة الارتكاز التى تدور عليها الديانتان اليهودية والمسيحية معاً.

حقاً إن الله أخذ يسائل آدم بعد السقوط ليمهد له سبيل الإعتراف بخطئه، ولكن الإعتراف لن يكون كافياً أمام العدالة الإلهية، وإن كان لازماً لتجد الرحمة لها سبيلاً للاتفاق مع العدالة فى حل للمشكلة الإنسانية. ويبدو أن آدم وخيرة أبنائه من بعده، قد نجحوا فى هذا الإعتراف والإقرار بحاجتهم إلى الخلاص فى هذه الذبائح التى كانوا يقدمونها ليستدروا مراحم الله عليهم من جهة، ويقروا بحاجتهم إلى شفيع ووسيط يكون فى دمه وسيلة الخلاص والكفارة والفداء. وليس دم الذبائح غير رمز وإشارة للدلالة على دم الذبيح الأعظم الذى يتوقعون ظهوره فى مستقبل الأيام. ولما كانوا ينتظرونه ويترجونه بعين الإيمان، فكان لابد من هذه الذبائح ليكون سفك دمها إلحاحاً مستمراً، وتذكرة دائمة بحاجتهم إلى خلاص المسيح وإيمانهم به وفيه.

فالإعتراف يستدر الرحمة الإلهية، ولكنه لا يرضى العدالة الإلهية. والتوفيق بينهما تم على الصليب حيث «الرحمة والحق تلاقيا، والعدل والسلام تلاثما» (مزمور ٨٤: أو ٨٥: ١٠، ١١).

(١) نشر بمجلة مدارس الأحد لسنة ٣ عدد ٦، ٧ ـ سبتمبر ١٩٤٩م.



سر الفداء

صفحة

القيم الروحية فى عقيدة الفداء

وهذه عقيدة الكفارة التى قدمها كلمة الله المتجسد بموته عن آدم ونسله المحكوم عليهم بالموت لتعديهم فى آدم وصية الله الذى أصدر وعيده بل حكمه قائلاً: «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (١) وفعلاً قد مات آدم (٢) «لأن أجرة الخطيئة هى الموت» (٣) ومات فى آدم جميع ذريته «من أجل ذلك كما أنها بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه» (٤) «وبسبب زلة واحدة (وهو آدم) قد مات الكثيرون» (من ذريته) (٥) «لأن الدينونة هى من زلة واحدة للقضاء علينا» (٦) «وبخطيئة واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة» (٧) «وفى آدم يموت الجميع» (٨).

لذلك تجسد كلمة الله وتأنس ليأخذ حكم الموت فى جسده «الذى إذ هو فى صورة الله لم يكن يعتد مساواته لله إختلاساً. لكنه أخلى ذاته آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه البشر. وإذ وجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (٩) «فالمسيح.. مات مرة من أجل الخطايا، البار عن الأثمة ليقربنا إلى الله مماتاً فى الجسد محيى فى الروح» (١٠) «وحمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكى نموت عن الخطايا فنحيا للبر وبجراحه شفيتم» (١١).

١ ـ فلما مات المسيح عنا بدلاً منا، فدانا بموته من الموت الأبدى، وخلصنا من أسر الشيطان، وأنقذنا من الهلاك ومن عبودية الجحيم، واشترانا لنفسه من جديد، وأحيانا حياة جديدة به وفيه، وصرنا له شعباً وصار هو لنا ملكاً ورباً وفادياً ومخلصاً.

---

(١) التكوين ٣: ١٧، (٣: ٣).
(٢) التكوين ٣: ١٩.
(٣) رومية ٦: ٢٣.
(٤) رومية ٥: ١٣.
(٥) رومية ٥: ١٥.
(٦) رومية ٥: ١٦.
(٧) رومية ٥: ١٨.
(٨) كورنثوس الأولى ١٥: ٢٢.
(٩) فيلبى ٢: ٦ – ٨.
(١٠) رسالة مار بطرس الأولى ٣: ١٨.
(١١) رسالة القديس بطرس الأولى (٢: ٢٤) انظر أيضاً نفس الرسالة (٤: ١)، (عبرانيين ٩: ٢٨)، ثم (إشعياء ٥٣: ٤ ـ ١١).

٢ ـ وعقيدة الفداء توقفنا على محبة الرب الذى افتدانا وعتقنا من حكم الموت، لأنه «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه» (١) «فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت. ولكن الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (٢).

٣ ـ وعقيدة الفداء تثير فينا كذلك محبتنا لله. يقول القديس يوحنا «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (٣).

٤ ـ وعقيدة الفداء تثير فينا محبتنا بعضنا لبعض. «وبهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك قد بذل نفسه من أجلنا، فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الإخوة» (٤).

٥ ـ وعقيدة الفداء تعلمنا أن الله عادل وأن كلمة من فيه لا تسقط. لقد حكم الله بالموت على آدم لو خطئ آدم. وخطئ آدم فحكم عليه بالموت. ولم يعفه من حكم الموت ولو أدى ذلك إلى نزول المسيح وموته بديلاً عن آدم وذريته، وهذا من شأنه أن يثير فينا تقوى الله ومخافته، فلا نستهين بوصاياه ونواهيه، ولا نتعلل بمقدرة الله على الغفران. فالحق أن الله لا يغفر من غير ترضية كافية لعدالته.

٦ ـ وعقيدة الفداء تحل لنا الإشكال الخطير: فالله كلى الرحمة ولا حد لرحمته، والله كلى العدالة ولا حد لعدالته. لقد خطئ الإنسان، فعدل الله يقتضى معاقبة الإنسان بعقوبة تتناسب مع جلال الله وكرامته. ورحمة الله تقتضى غفرانه وصفحه عن الإنسان. فكيف يمكن أن تلتقى رحمة الله بعدله بإزاء خطيئة الإنسان؟ والحل جاء من السماء حينما اتخذ الله صورة الإنسان، وأنفذ فى جسده حكم الموت المحكوم به على الإنسان، فكان فداؤه رحمة وعدلاً معاً. وبذلك تم فى الصليب قول النبى «الرحمة والحق تلاقيا. العدل والسلام تلاثما» (٥).

٧ ـ وعقيدة الفداء تفسر لنا معنى الذبائح والقرابين التى كان يقدمها الأتقياء قديماً بمشورة الله تعبيراً عن حاجتهم إلى الفادى، ورمزاً لإعتمادهم على دمه العتيد أن يسفك من أجلهم، هؤلاء «المنتظرين فداء فى أورشليم» (٦) الذين نظروا المواعيد «وحيوها من بعيد» (٧).

---

(١) يوحنا ١٥: ١٣.

(٢) رومية ٥: ٧، ٨.

(٣) رسالة القديس يوحنا الأولى ٤: ١٩.

(٤) رسالة القديس يوحنا الأولى ٣: ١٦.

(٥) مزمور ٨٤، (٨٥): ١١.

(٦) لوقا ٢: ٣٨.

(٧) عبرانيين ١١: ١٣.

٨ ـ وعقيدة الفداء تفتح أمام المؤمنين باب الرجاء من جديد فى الفردوس المفقود، وتحرك فيهم الاجتهاد والجهاد للفوز بالإكليل السعيد ولنيل الجعالة العليا فى ملكوت السماوات المعد لهم من قبل إنشاء العالم.

* * *

فعقيدة الفداء إذن تثيرنا للتأمل فى محبة الله ورحمته وعدالته، وتحرك قلوبنا نحو مخافته وإتقاء ما ينافى رضاه، وتثيرنا للجهاد والسهر والمثابرة، بعد أن أحيت فينا الأمل من جديد للحياة الأبدية فى فردوس النعيم وملكوت السماوات.

أهمية الفداء فى الديانة المسيحية:

الفداء هو أساس المسيحية كلها، وهو دعامتها التى يقوم عليها كل بنيانها الشامخ. وهذه هى الحقيقة المسيحية العظمى التى علمت وسوف نعلم بها أبداً بالنسبة لله وبالنسبة للإنسان.

أما بالنسبة لله فلأن الفداء:

أولاً: هو إعلان محبة الله التى لا حدود لها، هذه المحبة التى اقتضته أن يدبّر للإنسان خلاصاً من خطاياه حتى يرده إلى رتبته الأولى، ولمّا لم يكن للإنسان من سبيل إلى الخلاص إلا بأن يأخذ الله صورة الإنسان ويموت بديلاً عنه لم يحجم الله عن أن يقوم بهذا العمل المذهل العجيب تعبيراً عن حبه، وبرهاناً على جودته وخيّريته وصلاحه وإهتمامه بالإنسان ورغبته فى أن يرد إليه بنوّته وبالتالى ميراثه الأبدى.

يقول مخلصنا «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به» (١).

ويقول ماربولس الرسول «لكن الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن خطاة مات المسيح لأجلنا» (٢) ويقول «لكن الله لكونه غنياً بالرحمة ومن أجل كثرة محبته التى أحبنا بها، حين كنا أمواتاً بالزلات أحيانا مع المسيح فإنكم بالنعمة مخلصون» (٣).

ويقول ماريوحنا الرسول «بها تتبين محبة الله لنا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به، وإنما المحبة فى هذا لم تكن نحن أحببنا الله، بل هو أحبنا فأرسل ابنه كفارة عن خطايانا» (٤).. ويقول أيضاً: «يسوع المسيح الشاهد الأمين، وبكر الأموات ورئيس ملوك الأرض الذى أحبنا وغسلنا بدمه من خطايانا» (٥).

ثانيا: وفى الفداء إعلان لعدالة الله.. التى لا حد لها، ودليل على احترامه لكلمته والحكم الذى صدر من فيه على الإنسان. فالله عظيم عظمة بغير حدود، وكلامه لذلك لا يسقط ولا يزول، ولن يتغير حكمه بغير ترضية كافية لعدالته، ولن يكون غنى جوده على حساب

---

(١) يو ٣: ١٦.
(٢) رومية ٥: ٨.
(٣) أفسس ٢: ٤، ٥.
(٤) يوحنا الأولى ٤: ٩، ١٠.
(٥) الرؤيا ١: ٥.

عدالته الكاملة. ومع أن هذه الترضية لعدالته اقتضته أن يقوم هو ذاته بها لكنه لم يبخل بذاته وفى هذا الحب كل الحب.. كما أن فيه العدل كل العدل.

ثالثاً: وفى الفداء إعلان لسرّ الواحد فى الثالوث والثالوث فى الواحد.. الآب والابن والروح القدس .. ثلاثة الأقانيم التى اشتركت جميعاً فى عمل الفداء. كل أقنوم منها حسب خاصيته فى الجوهر الواحد.

وأما بالنسبة للإنسان، فلأن الفداء هو **كفارة لخطيئة الإنسان**، فالإنسان هو الذى أخطأ التصرف وخالف الوصية الإلهية، وهذا دليل حريته، ولما تعدّى الإنسان الوصية أفسد صورة الله فى طبيعته التى خلقها الله كاملة مقدّسة، وفقد الامتيازات العالية على الطبيعة التى كانت له من حيث أن الله خلقه على صورته ومثاله، أما بالفداء فقد ردّ الله للإنسان كل ما خسره بالخطيئة إلا الموت الجسمانى الذى تركه له منبهاً ومحذراً حتى لا يعود للخطيئة مرة أُخرى.. ففى الفداء إذن إعلان لطبيعة الإنسان الروحية فوق الماديّة ومعاملته بصفته كائناً ذا نفس ناطقة عاقلة حرّة مريدة، وخالدة تمتد إلى ما وراء الموت الماديّ الجسمانى.

ولما كان الفداء هو عمل الله لخلاص الإنسان، حتى ينعم من جديد بالفردوس المفقود وبميراثه الأبدى فى ملكوت السماوات، فالفداء حقيقة ضرورية بالنسبة للإنسان، لأنها تتعلق بمصيره الأبدي.

لهذا كله كان الفداء هو الحقيقة الدينية الكبرى التى تعلّم بها المسيحية لأن فيها إعلاناً لجميع الحقائق المسيحية التى تتصل بالله، ولجميع الحقائق الأساسية التى تتصل بالإنسان.

قلنا أن الفداء هو الحقيقة الدينية الكبرى.. لأن جميع الحقائق الأُخرى منطوية فى حقيقة الفداء ومستورة فيها، والفداء يدل عليها ويشير إليها ويكشف عنها. فوجود الله وطبيعته وصفاته ووحدانية جوهره وتثليث أقانيمه وعنايته بالإنسان. وكذلك طبيعة الإنسان وحقيقة نفسه الحرّة الخالدة ومصيرها الأبدى هذا وذاك كله ينطوى عليه مفهوم الفداء العجيب.

وحتى سرّ التجسد مع ما فيه من جلال.. محيّر لعقل الإنسان. وما فيه من خير وبركة لكل جنسنا. ما كان ليكون لولا سرّ الفداء.. لأن الله الكلمة تجسد من أجل خلاص الإنسان.. فقد كان التجسد وسيلة لغاية .. وكانت الغاية هى الفداء .. فلولا الفداء ما كان التجسد، ولولا الفداء لما عرفنا حقيقة الذى تجسد ومقامه الإلهى.. لأنه تبعاً لمنطق الفداء وضرورته كان لابد للفادى أن يكون هو الله نفسه، فإنه ليس لأحد بغيره الخلاص.

وليس فى تقريرنا لأهمية الفداء بالنسبة لله وبالنسبة للإنسان.. مبالغة إذا وكّدنا مرة أخرى ما قلناه أولاً.. إن الفداء هو أساس الديانة المسيحية ودعامتها التى تقوم عليها وتستند إليها.

لهذا لا نقبل فى هذه الحقيقة مساومة.. وإذا لم تبق هذه الحقيقة فى مكانها الأول بين حقائق ديانتنا العظمى، نكون قد حوّلنا النظر عن بؤرة الشعور فى كل كياننا الدينى المسيحى، ولابد للبناء كله من أن ينهار وتمسى مسيحيتنا ديانة أخرى غير ديانة المسيح الذى جاء من أجل خلاصنا.

ومن هنا كان الصليب ضرورة ولا يمكن أن نقبل بغير الصليب ديناً، كما لا يمكن أن نقبل للصليب بديلاً.. فى الصليب إيماننا.. وفى الصليب رجاؤنا .. وفى الصليب مصيرنا.

والذين يشفقون على المسيح من الصليب، استنكاراً أو إعلاء، ليسوا أصدقاءنا، وإنما هم أعداء لنا ونفوسهم أولاً.

إن المسيحى لا يخجل من الصليب ولا يحاول أن ينكره أو حتى أن يستره بل بالأحرى أن يفخر به ويعتز، وهو يدرك معنى قول الرسول: «وأما من جهتى فحاشا لى أن أفتخر إلاّ بصليب ربنا يسوع المسيح، الذى به قد صلب العالم لى وأنا للعالم» (١).

ما هى الخطيئة ؟

الخطيئة والخطأ من أصل اشتقاقى واحد. أما الخطأ فهو ضد الصواب وبمعنى آخر، هو ما جانب الصواب وحاد عنه.. ويقال فى اللغة أخطأ فلان الهدف أو المرمى أو الغرض بمعنى أنه لم يصبه.

والخطأ قد يكون عمداً أو غير عمد، ولو أنه ينصرف فى الغالب إلى ما لم يتعمد منه.

والخطأ أوسع شمولاً من الخطيئة.. فهو ما جانب الصواب من أى نوع وما حاد عن الحق فى أى مجال، وليس يقتصر على الدائرة الدينية، ويشمل الخطأ الظاهر كما يشمل الباطن.

وأما الخطيئة .. فهى مخالفة الشريعة الإلهية.. وغالباً ينصرف المعنى إلى المخالفة التى تصدر من باطن الإنسان عن اختيار وتعمّد.. وهى تشمل كل فعل أو قول أو فكر تعدّى الشريعة أو تجاوزها أو انحرف عنها.. ولا ينحصر كلامنا هنا عن الشريعة الإلهية على الشريعة المكتوبة والمسطورة فى الكتب المقدسة، ولكنه يمتد كذلك إلى الشريعة الطبيعية المستورة فى ضمير الإنسان.

---

(١) غلاطية ٦ : ١٤.

ويمكن أن نصف الخطيئة فى طبيعتها.. بأنها فشل الإنسان عن التحقق بمصيره وخيبة أمله فى البلوغ إلى الغرض الحقيقى من وجوده.. حيث أن الغاية من وجود الإنسان هى أن يصير كالله، وأن تطابق إرادته إرادة الله مطابقة تامة ومن ثم ينعم بوجوده معه إلى الأبد.

والخطيئة تعدّ على ناموس الله، كما أنها تمرّد على الله بصفته أباً للجنس البشرى، وحاكماً على شعبه، فهى خروج على طاعته، وعدم ولاء له، وعصيان لوصاياه، وتحدّ لإرادته وإهانة لاسمه القدوس..

والخطيئة لذلك تنطوى على شك فى الله وارتياب، ورغبة فى مخادعته وخيانته.

وبالنسبة لنا، الخطيئة ضلال وانحراف عن الحق والخير والواجب، بل هى إفساد لطبيعتنا، وإتلاف لها وتعويج، وهدم للتوازن بين قواها وقدراتها، وهى تجعلنا ميالين للشر.

والخطيئة هى التى تقذف بالإنسان خارجاً عن نفسه، وتزعزع أركان طبيعته. ليست الخطيئة إذن تضيف شيئاً جديداً على طبيعة الإنسان، وإنما هى فى حقيقتها تشويش لعناصره وإحداث للاضطراب والاختلال فيما بينها.

فالخطيئة قلق واضطراب وكأنها أمواج البحر تقذف بطبيعة الإنسان وتدفع بها على الدوام، وتجعلها فى اضطراب متصل، فالجسد ضد الروح ، والعقل ضد الميول، والرغبات متضادة الواحدة منها ضد الأخرى، وهناك حب التغير والإثارة والتهييج، فضلاً عن أنه ليس ثمت رضى، والحق أن الإنسان لا يمكن أن يجد الراحة إلا فى الله فإذا لم يكن الله مركز الدائرة عنه فسيظل متردداً شارداً ضالاً، وكأنه نجم تائه، أو كغمامة بلا ماء.. أو كزبد يغلى...

والخطيئة مشقّة وتعب، والشر عمل شاق وكدّ بلا ثمر، وعناء مؤلم مكدّر، فهى حزن وهمّ، ولا فائدة من كل الجهود التى تبذل فى سبيل الخطيئة، إذ أن أعمال الظلمة هى بلا ثمر، والخطيئة زهو وغرور وفراغ وعدم، والأشرار كما يقول الوحى عصافة تذروها الريح، ولا يحصدون من كل تعبهم شيئاً.

وأخيراً وليس آخراً .. إن الخطيئة تخريب للنفس وتدمير لها، بل وتحطيم لقواها وتفتيت لقدراتها.. وحيث يكون الإثم، الإيذاء والإضرار، والشر والرداءة والإساءة فهناك العداوة والبليّة والمحنة والشقاء والاضطراب.

وبالإجمال، فإن الخطيئة هى مخالفة إرادية لوصايا الله، تصدر عن شك وإرتياب فى الله، وتؤدى إلى التشويش والقلق والاضطراب.

* * *

خطية الإنسان الأول

حدثنا الوحى الإلهى فى سفر التكوين بأن الإنسان الأول قد سقط فى الخطيئة، فقد أعطاه الله وصيّة وخالف هو هذه الوصية، قال الله للإنسان الأول الذى أقامه فى جنّة عدن وصنع له معيناً، وهى المرأة التى خلقها له من أحد أضلاعه بعد أن أوقع عليه سباتاً «من جميع شجر الجنّة تأكل (أكلاً) . وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (١) .. وجاء على لسان حواء «من ثمر شجر الجنّة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه كيلا تموتا» (٢) .. وعندما أكل آدم وإمرأته من الشجرة المحرّمة وعلما أنهما عريانان سمعا صوت الرب الإله يقول لآدم: «هل أكلت من الشجرة التى نهيتك عن أن تأكل منها» (٣) .. فلما حكم الله على آدم بالعقوبة أعاد كلامه عن الوصية، وقال لآدم: «لأنك سمعت لصوت إمرأتك فأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، فملعونة الأرض بسببك» (٤) فقد كانت خطيئة آدم وإمرأته حواء هى خطيئة المخالفة لوصيّة الله تعالى وواضح من الكتاب المقدس أنهما خالفا الوصيّة بإرادتهما وأكلا من الثمرة المحرّمة باختيارهما، حقاً كان للشيطان دور، هو دور التشكيك ثم الإغراء، فقالت (الحيّة) للمرأة: «أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة» (٥) ولما أجابتهما المرأة بالوصيّة على حقيقتها عادت الحيّة تقول «لن تموتا، إنما الله عالم أنكما فى يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كالله (٦) عارفى الخير والشر» فرأت المرأة أن الشجرة طيّبة للمأكل وشهيّة للعيون، وإن الشجرة منية للعقل» (٧) على أنه : لا الشيطان ولا الحيّة أجبرا حواء أو آدم على المخالفة لكن حواء وآدم خطئا بإرادتهما واختيارهما وكان فى مقدورهما أن يصمدا أمام الإغراء أو يدفعا أفكار الشيطان كما فعلت حواء فى مبدأ الأمر عندما سألتها الحية فى خبث «أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة»، فقالت المرأة للحيّة: «من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه كيلا تموتا» (٨).

---

(١) تك ٢ : ١٦، ١٧.
(٢) تك ٣ : ٢.
(٣) تك ٣ : ١١.
(٤) تك ٣ : ١٧.
(٥) تك ٣ : ١.
(٦) أو كآلهه.
(٧) تصير الواحد حكيماً، التكوين ٣ : ٤ – ٦.
(٨) تك ٣ : ١ – ٣.

وإذن فخطيئة آدم هى مخالفة لوصية الله وعصيان لأمره تعالى، وقد انطوت فيما انطوت على مجموعة خطايا أخرى منها الشك والارتياب فى محبة الله كأب وفى صدقه وإخلاصه ودقة أحكامه، وفى هذا إهانة بالغة لجلاله ومنها الاستهتار بأوامر الله وعدم الثقة فى جدّيتها وصرامتها، ومنها عدم الولاء لربوبيته والوفاء لأفضاله وآلائه، ومنها الفضول والاشتهاء الأثيم والطمع والتطلع إلى ما لا ينبغى التطلع إليه، وإلى فوق ما ينبغى، وهذا هو الكبرياء والغرور والإدعاء وما إليها من صفات يسلب فيها الإنسان حقوق الله ويدعى لنفسه ما ليس له متجاوزاً حدوده كإنسان مخلوق محدود، ولهذا كله اعتبرت خطيئة الكبرياء أول خطيئة فى تاريخ البشرية، وقالت الآباء إذا كانت الكبرياء أول خطيئة فإن التواضع هو أول فضيلة.

ولسنا فى حاجة إلى إيراد النصوص الكثيرة التى سجّلت على آدم وحواء تلك الخطيئة العظمى التى جلبت الموت والشقاء عليهما وعلى الجنس البشرى كلّه، ففى الكتاب المقدس إشارات لا حصر لها إلى هذه الخطيئة، ويكفينا على سبيل المثال قول الوحى: «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم» (١) وقوله «بخطيئة الواحد قد ملك الموت بالواحد» (٢).

* * *

لماذا أعطى الله وصيّة لآدم؟

كثيراً ما يثير الناس هذا السؤال، أما كان الله يعلم بأن آدم سيعصى أمره، فلماذا يعطيه وصيّة يعلم الله سابقاً أن آدم سيخالفها؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول:

أولاً: إن الله يبعدُ أن يعطى وصيّة لمجرد امتحان طاعة الإنسان، لأنه فى هذه الحالة يكون قد أعطى وصيّة للتحكم. ونحن لم نلاحظ فى أيّة وصية أخرى جاءت فى الكتاب المقدس أنها كانت لمجرد الامتحان أو التحكم، لأن الله خيّر وصالح وهو أبونا الذى خلقنا لا لخير يعود عليه هو، وإنما لنتمتع نحن بخيره الذى لا يستقصى وغناه الذى لا يفرغ فكل وصيّة لابد أن يكون فيها ذاتها خير للإنسان، ومثل الله فى ذلك مثل أب ناصح يأمر ولده بألاّ يأكل من شئ يضرّه أو لا يمس شيئاً فيه هلاكه، وعلى ذلك فالثمرة المحرّمة هى شئ فى ذاته ضار بالإنسان وكان لابد له كأب أن يوصى آدم وحواء بألاّ يأكلا من ثمرة الشجرة، ولا يمسّاه لئلا يموتا.

---

(١) رو ٥: ١٢.

(٢) رو ٥: ١٧ انظر أيضاً (يوحنا ٨: ٤٤)، (كورنثوس الثانية ١١: ٣)، (تيموثيئوس الأولى ٢: ١٤).

ثانياً: أن الله أعطى الإنسان وصيّة يعلم أن في مقدور الإنسان أن يطيعها فينتفع بحكمتها.. وكان الإنسان مزوداً بالنعمة كما كان مزوداً بالحكمة والعقل والحرّية، ولم تكن فيه شهوة بعد تميله إلى الشر، بل كان على صورة الله فى الحكمة والقداسة والقدرة، فالوصية إذن أمر نافع للإنسان ولم تكن فوق قدرة الإنسان.

ثالثاً: إن معرفة الله السابقة بأن الإنسان سيعصاه لا تمنعه تعالى من أن ينصح الإنسان وينهاه عما يضرّه ويؤذيه، وإلا كانت معرفة الله السابقة قيداً على كل أعمال الله مع أنها كلها لخير الإنسان. ومثل المعترضين بمعرفة الله السابقة مثل من يقول للوالدين والمربين والمصلحين أن عليهم أن يوفّروا جهودهم لأن من الناس من لا يأبه بنصائحهم ووصاياهم، ولا ينتفع بنداءاتهم وتحذيراتهم. إن الوصيّة فى ذاتها خير، وهى بيّنة على محبة الله لخليقته وعنايته بها ورعايته لها واهتمامه بخيرها ونفعها، وليس لمعرفة الله السابقة أن تعطل محبّته التى لا حدّ لها.

رابعاً: ولو أن الله امتنع عن الوصية نظراً لسبق علمه بأن الإنسان يعصاه لكان معناه أن الله لا يصنع الخير لأنه يخشى الشر، وفى هذا المنطق ما ينسب لله الخوف من الشر، والضعف عن أن يحوّل الشر إلى خير.

خامساً: إن الله أعطى للإنسان وصيّة يعلم تعالى أن الإنسان سيعصاها ومع ذلك أعطاه الوصيّة. وحقاً أن الإنسان سقط فى الشر، لكنه مع ذلك عرف أن يقوم من سقطته وينتفع من غلطته ويعود مرة أخرى إلى الفردوس الذى فقده بخطيئته ومعصيته، ثم أن الله الذى تفضل فأوجد منفذاً للإنسان وأتاح له سبيل الخلاص صار صاحب فضل جديد على الإنسان زاد من حب الإنسان له وتقديره لصنيعه، ولذلك تغاير بنو آدم على أعمال الصلاح والعبادة والشكر وازدادت رابطتهم بالله ومحبتهم له وتفانيهم فى خدمته بعد أن لمسوا حنانه بافتقاده لهم ورحمته بهم، مما جعل بعض القديسين كبولس الرسول وأوغسطينوس يرون فى خطيئة الإنسان الأول فضيلة، لأنها قادت البشرية إلى خيرات العهد الجديد التى ما كان للبشرية أن تحصل عليها لولا خطيئة آدم وحواء.

سادساً: ثم أن الوصيّة ليست امتحاناً فقط لكنها فرصة للتدريب .. وإعداد الإنسان لمسئوليات أعظم يقام عليها إذا نجح فى الجولة الأولى لكنه لم يفشل نهائياً، ولم يدعه الله يفشل، بل أعانه وقدّم له وسائط الخلاص بعد أن طلب بنفسه الخلاص، وعبّر عن ندامته وتوبته، فلو أن سبق علم الله بمعصية الإنسان عطّل الوصيّة، لكان الإنسان قد حرم من تدريب قواه وطاقاته النفسية والعقلية وقدراته بما ينميها ويغذيها ويشحذها ويستحثها للعمل، فتقوى وتنشط وتنتعش.

* * *

ولماذا لم يخلق آدم معصوماً من الخطيئة؟

العصمة من الخطأ صفة من صفات الكائن غير المحدود، وهو الله، فليس يمكن أن يكون آدم معصوماً من الخطأ أو الخطيئة.

ثم إن الكائنات العاقلة كالملائكة والبشر لا تعصم من الخطأ لأنها وهبت عقلاً به يمكن أن تميّز بين الصواب والخطأ، فليست فى حاجة إلى عصمة، لأن العصمة فى هذه الحالة هبة تتعارض مع هبة العقل.

كذلك العصمة تتعارض فى الكائنات المحدودة مع الحرية الموهوبة لها، وإلاّ أصبحت الحرّية غير ذات موضوع، وهذا هو السبب فى أن العجماوات لا تخطأ لأنها تحكمها الغريزة ولا يحكمها العقل وليس لها حرّية، وبالتالى فلا تستحق ثواباً أو عقاباً، ولا يحكم لها أو عليها ولا يقال عنها أنها فعلت خيراً أو شراً.

ولهذا كان مما يشرف الإنسان أن الله خلقه عاقلاً حراً مريداً، ولم يخلقه معصوماً من الخطأ، حتى يكون مناط أمره بيده وليكون مستحقاً للثواب إذا أصاب وللعقاب إذا أخطأ، ولأنه مزوّد بالعقل الذى خلق له نوراً يرشده ويكشف أمامه الطريق ويبصره بالخير والحق ويجنبه الخطأ والعثار.

* * *

ولماذا خلق الله آدم حراً مع علمه السابق بأن آدم سيعصاه؟

ذلك أن الحرية خير، والله كلى الخيرية والجودة، فكان أن خلق الإنسان حراً، ولو كان الله يغيّر إرادته الخيّرة نحو الإنسان بسبق علمه بسقوط الإنسان لكان معناه أن الله يخشى الشر ويتقيه، ولكان معناه، أن الشر يمكنه أن يبطل الخير الذى يريده الله، ولكان معناه أيضاً أن علم الله يتدخل فيما هو من شأن الإنسان، والله تعالى لا يخشى الشر إذا وقع من جانب الإنسان، كما أن الشر لا يمكنه أن يبطل الخير الذى يريده الله لأن الله يستطيع أن يحوّل الشرّ إلى خير، كذلك لا يتحكم علم الله السابق فيما هو من شأن الإنسان، لأن الله خلق الإنسان حراً، ولا يشاء الله أن يلغى حرّية الإنسان أو يبطلها، خاصة وإن الله قد هيأ للإنسان كل الأسباب التى تكفل له استخدام حرّيته فيما يحقق له السعادة التامة، فلا لوم على الله إذا أساء الإنسان استخدام حرّيته وسقط فى الخطيئة، بل يلام الإنسان وحده على ذلك.

هذا، وقد كان لابد أن يخلق الإنسان حراً، وإلاّ فلا معنى لأن يعطيه وصيّة وأن يرتب على

مخالفتها نتائج سيئة، فحيثما يكون جزاء للفعل لابد أن تكون هناك حرّية لأداء الفعل، لأن الجزاء مرتب على الفعل.

* * *

وقد يقال إذا كان الله يعلم علماً سابقاً بأن الإنسان سيعصاه.. فلماذا لم يمنعه عن ذلك ؟

ونجيب على ذلك، بأن تدخل الله لمنع الإنسان عن فعل العصيان انتقاص لحرية الإنسان لا يرتضيه الله نفسه ولا يرتضيه الإنسان، ولا يمكن أن تكون الطاعة فضيلة ما لم يصنعها الإنسان بحريته واختياره.. كما أن منع الإنسان من العصيان يزيد رغبة الإنسان فيه.

فإذا قيل: لماذا لم يمنع الله آدم من العصيان مع إحتفاظه بحرّية إرادته ؟

قلنا، أن هذا الافتراض غير منطقى، أو هو محال لا يقبله العقل، فكيف يكون آدم حراً حرية حقيقية، وفى نفس الوقت يجبره الله على طاعته أو يمنعه من العصيان؟ .. إن الله الذى خلق آدم حراً يأبى أن يجبر آدم على فعل يتعارض مع الحرّية التى سبق فمنحها له، وإلاّ فلا تكون هذه الحرّية كاملة ولا حقيقية.

وقال بعض الناس: إذا كان لابدّ من أن يعطى آدم وصيّة.. فلماذا لم يسهل الله له سبل الطاعة والفوز فى هذا الإمتحان ؟

ونقول نحن، إن هذا ما حدث بالفعل.. فالله قد خلق الإنسان فى طبيعة طاهرة خيِّرة على صورة الله ومثاله، كما أنه خلقه بعد أن وفَّر له كل أسباب الحياة الرخيّة الهنيّة، وجعله فى جنّة عظيمة مليئة بالأشجار ولم تكن الشجرة التى نهاه عن الأكل منها هى وحدها دون غيرها، ثم أن الله لم يدعه فى ظروف تضطره إلى الأكل من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها، ولا سمح لكائن ما أن يقهره على ذلك، فالشيطان أغراه عن طريق الحيّة ولكنه لم يضع الثمرة فى فمه على الرغم منه، وإنما أخذ آدم بمشيئته وبإرادته، وتناول الثمرة المحرّمة بيده وأكل منها برغبته ولم يضطره أحد إلى ذلك. بل كانت كل الإمكانيات متوافرة لآدم حتى يصمد أمام إغراء الخطيئة .. وكان له مع ذلك تحذير كاف ومعرفة سابقة.. فلا حجّة له ولا عذر فى سقطته، ثم كان له من الحرّية والعقل ونور البصيرة ما يكفل له الفوز والانتصار.. هذا ولم تكن له شهوة ولا ميل ولا جهل يطغيه أو يسوقه إلى الخطيئة.

لقد أعطاه الله وصيّة ولكنه أعطاه قبل ذلك.. كل الإمكانيات .. وكل المواهب.. التى تكفل له الظفر والفوز فى إمتحان طاعته لله، لكنه سقط، من تلقاء ذاته، فكان سقوطه عظيماً.

* * *

نتائج خطية آدم

خطىء آدم وسقط فى عصيان الوصيّة المقدسة فكان لابد لخطيئته من نتائج أدركته وأدركت كل جنسه معه.

.. فماذا أحاق بآدم رأس الجنس البشرى؟؟؟

أولا: لقد فقد آدم إمتيازات الحياة فوق الطبيعية

وهى الإمتيازات التى منحه الله إياها، وهى ما تسمى بحياة النعمة...

فالصورة التى يقدمها لنا سفر التكوين عن خلقة الإنسان الأول الممتازة والحياة التى كان ينعم بها قبل السقوط فى الخطيئة، صورة جميلة مشرقة. لكن آدم قد فقدها بسقوطه ومخالفته للوصية الإلهية.

لقد خلق الله من الماء (١) الأسماك والطيور، ومن الأرض (٢) خلق البهائم والدواب والوحوش. وأما الإنسان فقد تميّز فى خلقه عن سائر الكائنات الحيّة من نبات وحيوان فى مسألتين.

الأولى فى كيفية الخلق...

الثانية فى طبيعة الخلق...

أما عن كيفية الخلق، فكما يروى سفر التكوين «وجبل الرب الإله آدم (أو الإنسان) تراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم (الإنسان) نفساً حية» (٣).

وهذا نص قدسى يشهد بأن الإنسان يتألف من جوهرين أحدهما مادّى وهو الجسم أو البدن، والثانى روحى وهو النفس أو الروح. الجوهر الأول من التراب أو من الأرض (٤)، أما الجوهر الثانى فمن الله (٥). بالجوهر المادىّ يشترك الإنسان مع الحيوان. وأما بالجوهر الروحى فيتميز الإنسان عن الحيوان ويسمو عليه.

---

(١) التكوين ١: ٢٠ (٢) التكوين ١: ٢٤.

(٣) التكوين ٢: ٧ انظر كورنثوس الأولى ١٥: ٤٥.

(٤) (التكوين ٣: ١٩، ٢٣)، (أيوب ٣٣: ٦)، (مزمور ١٠٢ (١٠٣): ١٤)، (الجامعة ١٢: ٧)، (كورنثوس الأولى ١٥: ٤٧).

(٥) (أيوب ٣٢: ٤)، (٢٧: ٣)، (الجامعة ١٢: ٧)، (زكريا ١٢: ١)، (أعمال ١٧: ٢٥).

فرواية سفر التكوين تشهد بامتياز الإنسان وسموه عن الحيوان فى خلقته وهذا السموّ يقوم أصلاً وبالذات على نفخة الله التى ألقاها إلى آدم من عنده الأمر الذى لم يحدث بالنسبة إلى الحيوان.

وأما عن طبيعة الخلق، فلأن آدم دون غيره من الكائنات «قد خلق على صورة الله ومثاله». وهذا هو كلام الوحى «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا.. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (١). *συνδρομὴ πρός (εἰς) σάρκα*

26 וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים נַעֲשֶׂה אָדָם בְּצַלְמֵנוּ כִּדְמוּתֵנוּ . . . . .

27 וַיִּבְרָא אֱלֹהִים ׀ אֶת־הָאָדָם בְּצַלְמוֹ בְּצֶלֶם אֱלֹהִים בָּרָא אֹתוֹ

وفى الترجمة السبعينية اليونانية:

....καὶ εἶπεν ὁ Θεὸς ποιήσωμεν ἄνθρωπον κατ᾽ εἰκόνα ἡμετέ ραν καὶ καθ᾽ ὁμοίωσιν·

....καὶ ἐποίησεν ὁ Θεὸς τὸν ἄνθρωπον κατ᾽ εἰκόνα Θεοῦ ἐποί ησεν αὐτόν·

وكلمة صورة وهى بالعبرانية צֶלֶם ، εἰκών تعنى حرفياً «الظل، الخيال». وكذلك كلمة مثال أو شبه وهى بالعبرانية דְּמוּת وباليونانية ὁμοίωμα تعنى حرفياً «الدمية»، وهى المثال أو الشبه، وتشتق فى اللغة العبرانية من דָּם أى الدم.

ومعنى هذا كله أن الله خلق آدم شبيهاً به تعالى، وهذا تعبير لم يرد مثله فى خلقه الحيوان وهو يدل على سمو مرتبة الإنسان وعلى أن الإنسان ظل الله على الأرض يشبهه ولكنه لا يساويه، أى أن بينهما علاقة شبه وتماثل.

---

(١) (التكوين ١: ٢٦، ٢٧). وقد ورد هذا المعنى كثيراً فى الكتاب المقدس، انظر مثلاً (التكوين ٥: ١)، (٩: ٦)، (كورنثوس الأولى ١١: ٧)، (أفسس ٤: ٢٤)، (كولوسى ٣: ١٠)، (يعقوب ٣: ٩).

ففيم يشبه الإنسان الله، وفيم يماثله؟

فى الجسم؟ طبعاً لا، لأنه ليس لله جسم. لأن ما له جسم فهو مركب، وما هو مركب فهو قابل للإنحلال. ومن ثم للفناء. وما يقبل الإنحلال والفناء فهو الحادث، وهو المخلوق. أما الله فهو الخالق الأزلى الأبدى، الذى ليس له بداية كما أنه ليس له نهاية.

وإذا كان يرد فى الكتاب المقدس قول الرب، «يداى نشرتا السماوات» (١) «وستكون **عيناى وقلبى** هناك كل الأيام» (٢)، «فإن **عينى** تكونان مفتوحتين **وأذنى تكونان مصغيتين** إلى صلاة هذا المكان» (٣)، «أولئك (الأشرار) دخان فى **أنفى**» (٤) «السماء عرشى والأرض موطئ **قدمىّ**» (٥) .. إلخ فإنه فى مثل هذه النصوص التشبيهية يشبه الله فيها نفسه بالإنسان، لينقل إليه المعنى الذى يريده باللغة التى يمكن أن يفهمها الإنسان، ولكن ليس لله عينان جسديتان ولا أذنان ولا يدان ولا رجلان ولا أنف، لأنه ليس له جسم.

وإذن ففيم يشبه الإنسان الله؟

والجواب إنه يشبهه فى كيانه الروحى وما يتصف به من صفات، ومن ذلك:

أولاً: الإنسان يشبه الله فى الروحانية:

ذلك أن «الله روح» (٦) كما يقول رب المجد يسوع المسيح، «والرب هو الروح» (٧) كما يقول الوحى على فم الرسول بولس. فالإنسان خلق على صورة الله ومثاله، لأن الله خلق فيه روحاً من عنده «ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار الإنسان نفساً حية» (٨) يقول النبى زكريا فى نبوءته

---

(١) إشعياء ٤٥ : ٢.

(٢) سفر الملوك الأول ٩ : ٣.

(٣) سفر أخبار الأيام الثانى ٧ : ١٥.

(٤) إشعياء ٦٥ : ٥.

(٥) إشعياء ٦٦ : ١.

(٦) يو ٤ : ٢٤.

(٧) ٢ . كو٣ : ١٧.

(٨) تك ٢ : ٧، ١ . كو١٥ : ٤٥.

«يقول الرب باسط السماء ومؤسس الأرض، وجابل روح الإنسان فيه» (١) . ويقول النبى إشعياء «الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض مع ما ينبت منها، الذى يعطى الشعب عليها نسمة، والسالكين فيها روحاً» (٢) ويقول سفر أيوب عن الله «الذى فى يده نفس كل حى وأرواح البشر أجمعين» (٣) لكن فى البشر روحاً (٤) ويقول: «روح الله هو الذى صنعنى، ونسمة القدير أحيتنى» (٥) لذلك سمى الله بأبى الأرواح كما يقول الرسول بولس «أفلا نكون بالحرى خاضعين لأبى الأرواح، فنحيا» (٦) كما يدعى «إله أرواح جميع البشر» (٧) .

ثانيا : الإنسان يشبه الله فى العقل والحكمة :

فالله كلى الحكمة، وأما الإنسان فله بعض الحكمة لأن فيه روحاً عاقلة ترشده إلى الصواب والحق والخير. يقول سفر أيوب «لكن فى البشر روحاً ونسمة القدير تعقلهم» (٨) ويقول الحكيم سليمان «تعقل الإنسان يبطئ غضبه» (٩) ولذلك يمكن أن يوصف الإنسان بالحكيم (١٠) وجاء فى سفر أيوب «الذى رفعنا على بهائم الأرض علماً، وعلى طيور السماء حكمة» (١١) .

ثالثاً: الإنسان يشبه الله فى الحرية:

فكما أن الله حر، يتصرف كيف يشاء.. ولا يوجد من يمنعه أو يقول لله ماذا تفعل (١٢) كذلك خلق الله الإنسان حراً مثله، له أن يريد (١٣)، ويفعل ما يريد (١٤) .

رابعاً: الإنسان يشبه الله في الخلود وعدم الفناء:

كل شئ فانٍ، جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً، ولكن الإنسان وحده من بين الكائنات الأرضية الذى يخلد ولا يموت، وهو خالد بروحه لا بجسده، لأن الجسد أيضاً فانٍ وقابل للموت والفساد والتعفن والتحلل. وهو موجود إما بالحياة الأبدية (١٥) وإما بالعذاب الأبدى (١٦) وقد أقام الله له شجرة الحياة التى يأكل منها فيحيا إلى الأبد (١٧) .

---

(١) زكريا ١٢ : ١ . (٢) إشعياء ٤٢ : ٥ .

(٣) أيوب ١٢ : ١٠، ٢٧ : ٣ . (٤) أيوب ٣٢ : ٨ .

(٥) أيوب ٣٣ : ٤ . (٦) عب ١٢ : ٩ .

(٧) عدد ١٦ : ٢٢، ١٧ : ١٦ . (٨) أيوب ٣٢ : ٨ .

(٩) أمثال ١٩ : ١١ .

(١٠) التكوين ٤١ : ٣٣، ٣٩ ـ الخروج ٣١ : ٦، ٣٥ : ١٠ ـ الملوك الأول ٢ : ٩، ٣ : ١٢، ٥ : ٧ .

(١١) أيوب ٣٥ : ١١ . (١٢) دانيال ٤ : ٣٥ (١٣) يوحنا ٥ : ٦ .

(١٤) لوقا ١٣ : ٣٤، متى ١٩ : ٢٦، مرقس ٨ : ٢٣ . (١٥) يوحنا ٣ : ١٥، ٦ : ٥٤، ١٠ : ٢٨، ١٧ : ٢ .

(١٦) متى ٢٥ : ٤٦ . (١٧) التكوين ٣ : ٢٢ .

خامساً: الإنسان يشبه الله فى القداسة ومحبة الحق والبر:

وهذا ينطبق أساساً على روح الإنسان لا على جسده. لأن الجسد من حيث هو مخلوق من تراب ينجذب طبيعياً إلى الترابيات والحسيات والماديات وأما الروح فلأنها من الله وقد نفخها فى آدم بعد أن جبله تراب من الأرض (١) فهى بطبيعتها روحانية ومقدسة وطاهرة وسامية. وهذا واضح من الصورة التى يقدمها لنا سفر التكوين عن آدم فى طهارته وقداسته الأولى، فقد كان هو وإمرأته عريانين (وهما لا يخجلا) (٢). ومعناه أن فكر الإنسان الأول كان طاهراً، ولكنه بالخطيئة تدنس ولذلك علما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر (٣) وقال سفر الجامعة يصف آدم قبل السقوط «إن الله صنع الإنسان مستقيماً» (٤) وقال عنه الرسول بولس إنه «خلق الإنسان على مثال الله فى البر وقداسة الحق» (٥).

ولم يفقد الإنسان قداسته إلا بالخطيئة، ولكن مخلصنا ردنا إلى تلك الصورة الأولى بعمل الفداء وخلقة الإنسان الجديد (٦) التى تتم فى المعمودية المقدسة (٧)، وتصان بممارسة التوبة اليومية ووسائط الخلاص، وعلى رأسها سر التقوى وهو سر التناول.

سادساً: الإنسان يشبه الله فى إستعداده للعمل بلا توقف، وفى أنه بروحه لا ينام:

فإذا كان الجسد لأنه مركب، ولأنه من تراب الأرض، يحتاج إلى الراحة والتعويض عن التعب بالنوم، فإن الروح لا تتوقف عن العمل، ولا تنام نهاراً ولا ليلاً فالفكر لا يتوقف عن التفكير لحظة واحدة، وإذا أراد أن يتوقف عن التفكير فلا يستطيع بحال ما، وفيما يظن الإنسان أنه يضبط نفسه عن مواصلة التفكير يجد ذاته يواصل التفكير فى كيف يضبط نفسه عن التفكير!!

وفى أوقات النوم يتخدر الجسد وتخمد حركة الأعضاء ولكن الروح مع ذلك تظل متيقظة صاحية، ويقظتها الدائمة تظهر فى الأحلام، إذ الأحلام دليل على يقظة الروح وأنها لا تهدأ ولا تنام، ثم أن الروح تواصل أثناء نوم الجسد التفكير فيما كان الإنسان مشغولاً به قبل النوم، أو فى الأمانى والرغبات والمطامع التى يصبو الإنسان إلى التحقق بها.

---

(١) التكوين ٢: ٧.

(٢) التكوين ٢: ٢٦.

(٣) التكوين ٣: ٧.

(٤) الجامعة ٧: ٢٩.

(٥) أفسس ٤: ٢٣.

(٦) غلاطية ٦: ١٥.

(٧) كولوسى ٢: ١١، ١٢.

وقد قال مخلصنا: «أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف» (١) وأما أن الروح في نشاطها وعملها المتواصل بلا توقف شبيهة بالله، فلأن الله لا ينعس ولا ينام (٢)، وقد قال مخلصنا: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (٣).

أما أن الله استراح (٤) في اليوم السابع من عمله الذي عمله، فليست الراحة هنا بمعنى التوقف عن العمل، لكنها بمعنى الفراغ (٥) من عمل الخليقة الأولى. على أن الله يخلق من جديد في كل يوم كائنات جديدة من نباتات وحيوانات وبشر ثم هو يربي كل خلائقه ويحفظها لأنه ضابط الكون، وعصفور واحد منها لا يسقط على الأرض من غير إذنه (٦). وقد عرفنا أنه لا زال حتى الآن يقوت العصافير والغربان وطيور السماء (٧).

سابعاً: الإنسان يشبه الله في سيادته على الطبيعة وسائر المخلوقات وحق التصرف فيها:

الواضح من سفر التكوين أن الله خلق آدم سيداً على المخلوقات، وأعطاه سلطاناً على تدبيرها وسيادتها والتصرف فيها، وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى جميع الأرض وعلى كل الدبابات الدابة على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال: انمو وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى جميع الحيوان الداب على الأرض.. (٨). ويقول صاحب المزامير عن الإنسان «كللته بالمجد والكرامة، سلطته على أعمال يديك، وأخضعت كل شئ تحت قدميه: الغنم والبقر كلها وبهائم الصحراء أيضاً، وطير السماء وسمك البحر السائر في سبل البحر» (٩).

ويقول يشوع بن سيراخ: خلق الرب الإنسان من الأرض وأعاده إليها، جعل لهم وقتاً وأياماً معدودة، وأتاهم سلطاناً على كل ما فيها. ألقى رعبه على كل ذي جسد، وسلطه على الوحش والطير» (١٠).

---

(١) متى ٢٦: ٤١، مرقس ١٤: ٣٨.
(٢) مزمور ١٣٠ و ١٢١: ٣.
(٣) يوحنا ٥: ١٧.
(٤) التكوين ٢: ٢، ٣.
(٥) التكوين ٢: ٢.
(٦) متى ١٠: ٢٩.
(٧) متى ٦: ٢٦، ١٠: ٢٩، ٣١، لوقا ١٢: ٦، ٧، ٢٤.
(٨) التكوين ١: ٢٦ – ٢٨.
(٩) مزمور ٨: ٥ – ٨.
(١٠) ابن سيراخ ١٧: ١ – ٤.

وكعلامة على سيادة آدم على المخلوقات، وبينة على تسلطه من الله عليها، منحه الله امتياز تسميتها بأسماء، وقد صارت الحيوانات بالاسم الذى أطلقه عليها آدم، وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء، وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها، فكل ما سمّاه به آدم من نفس حية فهو اسمه فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء، وجميع حيوانات البرية بأسماء» (١).

وقد جاء فى صلاة الحجاب بقداس القديس باسيليوس قوله: «أيها الرب إلهنا.. الذى كوّن كل شئ بحكمته، وبحكمتك خلقت إنساناً ليكون رئيساً على المخلوقات التى صنعتها من قبلك، ويسوس العالم بقداسة وبر...».

على أن آدم الإنسان الأول خلق أيضاً رئيساً وسيداً على إمرأته حواء.. ولذلك لامه الرب ووبخه، بل وعاقبه، على سماعه لصوت حواء وخضوعه لمشورتها ولم يفلح اعتذار آدم فى ذلك لأنه أولاً وقبل كل شئ هو المسئول الأول أمام الله «وقال لآدم لأنك سمعت لصوت إمرأتك، فملعونة الأرض بسببك، بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها» (٢).

ووبخ الرب حواء على مخالفتها، وعرفها بسيادة آدم عليها، وقال للمرأة: «لأكثرن مشقات حملك، بالألم تلدين البنين، وإلى بعلك تنقاد أشواقك، وهو يسود عليك» (٣).

ولهذا يقول يشوع بن سيراخ: «غضب ووقاحة وفضيحة عظيمة، المرأة التى تتسلط على رجلها.. إن لم تسلك طوع يدك تخزيك أمام أعدائك» (٤) ... ويقول إشعياء النبى منددا بما صار إليه سوء أحوال بنى إسرائيل: «شعبى سخروه أولاد. والنساء يتسلطن عليه» (٥). وجاء فى سفر الحكمة يصف الحكمة الأزلية قائلاً: «هى التى حفظت أول من جبل أباً للعالم لما خلق وحده وأتته قوة ليتسلط على الجميع» (٦).

وعلى هذا فإن آدم خلق ليكون سيد المخلوقات جميعاً، وليكون سيداً لحواء أيضاً. ولهذا قال الكتاب أيضاً: «لتخضع النساء لرجالهن كما للرب.. لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة... فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك لتخضع النساء لرجالهن فى كل

---

(١) التكوين ٢: ١٩، ٢٠. (٢) التكوين ٣: ١٧ – ١٩. (٣) التكوين ٣: ١٦.

(٤) ابن سيراخ ٢٥: ٢٩، ٣٠، ٣٥. (٥) إشعياء ٣: ١٢. (٦) الحكمة ١٠: ١، ٢.

شئ.. » (١). وقد أوصى الكتاب المقدس الرجال بأن يحبوا نساءهم (٢) ولكنه أوصى النساء بالخضوع لرجالهن فى كل شئ كما تخضع الكنيسة للمسيح، وكخضوع الجسد للرأس (٣) ومما يقوله أيضاً: «وكذلك أنتن أيتها النساء اخضعن لرجالكن.. بمثل ذلك تزينت النساء القديسات اللائى توكلن على الله، وخضعن لرجالهن، كما كانت سارة تطيع إبراهيم وتدعوه سيدها » (٤).

وفى هذه السيادة على جميع الخلائق، يشبه الإنسان الله فى سيادته كخالق على كل الطبيعة، وللإنسان بصفة عامة، وللرجل بصفة خاصة، شرف أيما شرف أن يكون ظل الله على الأرض، فى حكمه وتسلطه على كل الموجودات.

ثامناً: ولهذا كله تشرّف آدم لا بأن يصبح شبيهاً بالله فقط بل بأن يتبناه الله وينسب إليه ويسمى من قبيل التبنى بابن الله:

هكذا جاء فى إنجيل القديس لوقا والأصحاح الثالث وهو يسرد سلسلة النسب الملكى لربنا يسوع المسيح من حيث الجسد، ويبدأ من يوسف بن هالى على ما كان يظن، ويصعد فى سلّم النسب إلى «أنوش بن شيث بن آدم بن الله» (٥) وآدم لا يسمى ابن الله إلا بالتبنى ومن حيث أنه قد خلق على صورة الله ومثاله، وهو فى هذا رمز إلى مخلصنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد، بالطبع لا بالوضع، وبالحقيقة لا بالتبنى...

فلما سقط الإنسان الأول آدم فقد بسقوطه كل تلك الامتيازات العالية على الطبيعة التى جعلت منه شبيهاً بالله تعالى وكما قال القديس غريغوريوس النيسى، «لنرجع كلنا إلى هذه النعمة الإلهية التى زيّن الله بها منذ البدء الإنسان الذى خلقه بقوله نعمل الإنسان على صورتنا كمثالنا». فلقد فقد الخلود والأبدية وصار عرضة للموت، وفقد الحرية لأنه صار عبداً للخطيئة، وفقد نور العقل لأنه أمسى فى ظلام، وفقد سيادته على الطبيعة لأن الطبيعة أخذت تعصى عليه وتنبت له الشوك والحسك، والحيوانات أيضاً صارت تطارده وتعاديه، وفقد القداسة والروحانية أيضاً لأنه صار دنساً بالنفس والجسد وأمسى كائناً مظلماً فاسداً. قال القديس إيريناوس بلسان آدم وهو ينعى حاله «لقد فقدت ثوب القداسة الذى أعطانيه الروح القدس».

فقد آدم كل هذا، بالخطيئة التى سقط فيها، وبذلك شوّه الصورة الطاهرة الجميلة التى خلقه الله عليها بكل إمتيازاتها، وفقدت نفسه صفاءها الأول، نعم لقد اهتزت صورة الله فيه ولم يعد

---

(١) أفسس ٥: ٢٢ – ٢٤، كورنثوس الأولى ١١: ٣.
(٢) أفسس ٥: ٢٥ – ٣٣.
(٣) كورنثوس الأولى ١٤: ٣٤، تيموثيئوس الأولى ٢: ١١، ١٢ تيطس ٢: ٥٢.
(٤) التكوين ١٨: ١٢. بطرس الأولى ٣: ١، ٥، ٦، كولوسى ٣: ١٨.
(٥) لوقا ٣: ٣٨.

آدم متوافقاً مع الله ولم تعد الصورة الجديدة التى صار إليها متطابقة مع الصورة الأولى التى خلقه عليها.

ثانياً: وفقد آدم مشاهدة الجلال الإلهى

كان آدم فى جنة عدن يتمتع بصحبة الله ومعاشرته يتكلم معه ويجيب عليه. ولا نزعم أن آدم كان يرى الله رؤية تامة فى كمال لاهوته، ولكن لا أقل من أنه كان يراه بعض الرؤيا ويتحقق من وجوده. لأنه عندما سقط هو وإمرأته فى الخطيئة «سمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وإمرأته من وجه الرب الإله فيما بين شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ قال إنى سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت» (١) وهذه قصة مثيرة تطالعنا على أن آدم قد ألف أن يرى الله ويسمع صوته ويشعر بوجوده، لذلك فعندما سمع صوته فى الجنة كعادته، اختبأ هو وإمرأته من أمام وجه الرب لأنه تعرّى بسبب خطيئته...

ولقد فقد آدم هذا كله، بل وطرد من حضرة الرب ومن فردوس النعيم وصار ممنوعاً من الاقتراب إليه بقوة الكروبيم ولهيب سيف متقلب (٢) لحراسة طريق شجرة الحياة...

ثالثاً: وفقد آدم بالخطيئة إمتيازات أخرى كثيرة

وكان آدم مصوناً من الشهوة، وبخطيئته صار محارباً من شهوته

لم يكن آدم قبل السقوط يعرف الشهوة أو يحس بها، ولم تكن تجذبه إليها أو تميله نحوها. ولم يكن يشعر بقابلية نحو الشر أو رغبة فى الخطيئة.. ولم تكن للذات الحسّية أشواق عنده، ولا للمتاع الأرضى جاذبية فى قلبه.. كان مجرداً من هذا الميل، ومرتفعاً فوق الرغبة والشهوة. كان كائناً آخر غيره اليوم. كان العقل يُبصّره.. والإرادة الحرّة تُوجهه. أما الشهوة فلم يكن لها وجود عنده ...

حقاً إن الشهوة ليست فى ذاتها شر لكنها على كل حال قابلة للشر.. وانجذاب نحو اللذات الحسية والبدنية والأرضية يسهل لنا الخطيئة والشر..

وهذه فى الواقع هى الصورة الجميلة التى يقدمها لنا الوحى المقدس عن الأبوين الأولين قبل أن يسقطا فى الخطيئة فقد «كانا كلاهما عريانين آدم وإمرأته وهما لا يخجلان» (٣).

(١) التكوين ٣: ٨ – ١٠.   (٢) التكوين ٣: ١٣، ٢٤.   (٣) التكوين ٢: ٢٥.

فلم تكن لآدم قبل السقوط شهوة الجنس أو شهوة الجسد أو شهوة العيون. كان يخلو من ألم الشهوة خلواً تاماً. كان هادئ النفس سعيداً وكان طهر البدن فى حركات الشهوة وشغبها.

فلما سقط آدم وإمرأته فى الخطيئة صارت فيهما الشهوة وتحركت الرغبة وأمست لهما قابليات نحو اللذات الحسّية والبدنية والأرضية وميل أو ميول إلى طلب هذه اللذات وإيثارها على الخيرات الروحية، وبذل الخيرات الروحية فى سبيل اللذات المادية...

فبمجرد أن قبلت المرأة مشورة الحيّة واستسلمت للعصيان «رأت المرأة أن الشجرة طيّبة للمأكل وشهيّة للعيون، وأن الشجرة منية للعقل، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت بعلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما، فعلما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر.. فأخرجه الرب الإله (هو وإمرأته حواء) من جنة عدن... وعرف آدم حواء إمرأته فحملت وولدت» (١).

وصارت الشهوة لا فى آدم وحواء وحدهما وإنما أيضاً فى الجنس البشرى كله المولود حسب الطبيعة من آدم وحواء.

ومع أن المسيح مخلصنا قد عتقنا بموته من خطيئة آدم ومن عقوبتها، لكنّ الشهوة لا تزال فينا.. وهذا يدل على أن خلوّ آدم من الشهوة، وهو فى حال البرارة الأولى كان أمراً لاطبيعياً، لكنه كان إمتيازاً فقده آدم ضمن ما فقد من إمتيازات عالية على الطبيعة كانت له فى بدء الخليقة، ذلك أن الشهوة ليست فى ذاتها شراً لكن «الشهوة إذا حبلت تلد خطيئة، والخطيئة إذا تمت تنتج الموت» (٢).

رابعاً: وكان آدم مصوناً من الجهل، ويخطيئته فقد العلم وصار جاهلاً

وكان لابد لآدم أن يكون مخلوقاً على درجة عالية من العلم والمعرفة كسبها من الله الذى خلقه على صورته ومثاله، وهذه المعرفة وذاك العلم كانا لازمين له بوصفه أيضاً الإنسان الأول فى الخليقة، حتى يفهم نسبته إلى الكون، ويعرف أن يتسلط على الحيوانات ويستغلها للخير والمنفعة، وكبيّنة على ما كان لآدم من علم ومعرفة قال الكتاب المقدس «وجبل الرب الإله من

---

(١) التكوين (٢: ٦ – ٧، ٢٣). (٣: ١).

(٢) يعقوب ١: ١٥.

الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها. فكل ما سماه به آدم من نفس حيّة فهو اسمه. فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء» (١).

ولكن آدم لم يكن سيداً للطبيعة فقط بل هو أب للجنس البشرى أيضاً، فكان لابد له من نصيب وافر من العلم والمعرفة كأب للبشر ومعلّم لهم ورئيس عليهم.

ومن آيات علمه على ما يقول بعض آباء الكنيسة معرفته بأن حواء من عظمه ومن لحمه على الرغم من أنها أخذت من ضلعه بعد أن أوقع الرب عليه سباتاً فنام، كما أنه أنبأ بما ستصير عليه علاقة كل رجل بإمرأته وأنهما سيصبحان جسداً واحداً، قال الوحى الإلهى «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فاستّل إحدى أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم إمرأة، فأتى بها آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي. هذه تُسمى إمرأة لأنها من امرئ أُخذت. ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم إمرأته فيصيران جسداً واحداً» (٢).

غير أننا لا نغالى فنتوهم أن العلم الذى كان لآدم علم مطلق أو كامل وتام فهذا النوع من العلم المطلق هو من صفات الله جلّت قدرته لأنه وحده المطلق وغير المحدود. ومع ذلك فقد كان علم آدم كافياً حتى يدرك به محبة الله التى لا تدرك وخيريته وسائر صفاته وكمالاته الإلهية، ولأن يفهم مركزه بالنسبة لله وما له من إمتياز وسموّ على جميع الخلائق، ولأن يدرك ما جبل عليه من مجد وبهاء وجلال، ولأن يعلم ما هو ضرورى لحياته ونافع لها، ولأن يتصرف فى الخليقة الحيّة والخليقة الجامدة التصرف الحسن ويستغلها الاستغلال المناسب.

ومع ذلك فهذه المعرفة قابلة للازدياد، والنمو بنموّ الخيرات والاحتياجات وذلك لأنه كائن محدود وحرّ وعاقل.

فلما سقط آدم فى الخطيئة سقط عنه علمه ومعرفته وأمسى جاهلاً لأن الخطيئة أظلمت عقله وبصيرته وشوّشت قدراته الخلاّقة، وأذهبت بحدّة ذكائه ولمعان عقله، وأنسته معرفته الثاقبة النافذة، وأفقدته ذاكرته وحافظته وقدرته على التفكير الخصب القوى...

ولا شك أن العلاقة كانت ولا تزال إلى اليوم قائمة بين الفضيلة والبصيرة كما بين الرذيلة والبلاهة والغباوة والعمى وما إلى ذلك. قال الحكيم: «الناس الأشرار لا يفطنون للقضاء والذين

(١) التكوين ٢ : ١٩، ٢٠.

(٢) التكوين ٢ : ٢١ - ٢٤.

يلتمسون الرب يفطنون لكل شئ» (١) ويقول المزمور على المنافقين «أنهم لا يعلمون ولا يفهمون، يسلكون في الظلمة» (٢).

خامساً: وكان آدم مصوناً من الألم والتعب والمشقة ولكنه بخطيئته أمسى عرضة لهم

الألم الطبيعي شئ عادى في حياة الكائن الجسماني، ونحن نعني بالألم الطبيعي كل أنواع التعب الجسماني والإرهاق الناجم عن العمل وكل فنون النشاط، ونعني به أيضاً المرض بأنواعه المختلفة متدرجة حسب خطورتها على حياة الإنسان الطبيعية وما يفضي منها إلى الموت وهو نهاية الحياة المادية.

ومع أن الألم والتعب والإرهاق والمرض والموت كلّها أمور طبيعية في حياة كل كائن حيّ ذي نفس حسّاسة إلا أن آدم الإنسان الأول كان في حال من السعادة بحيث كانت حياته تخلو من الألم بكل أنواعه. كان آدم قوياً لا يتعب وسليماً صحيحاً لا يمرض ولا يجد الإرهاق إليه سبيلاً مع أنه كان يعمل في الجنة يفلحها ويحرسها (٣) وكان يملك على الطبيعة الجامدة والحيّة يحكمها ويتسلط عليها (٤)، ويتصرف فيها (٥) تصرف المالك فيما يملك. كان آدم يعمل في الجنة قبل أن يطرد منها أي أنه كان يعمل قبل أن يقع في الخطيئة (٦) وإذن فليس العمل عقاباً على الخطأ، لكنه في طبيعة الإنسان منذ ابتداء وجوده، بل أن العمل من غايات وجود الإنسان على الأرض.. قال الوحي الإلهي «وأخذ الرب الإله آدم وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها» (٧) فقد كان العمل للإنسان لذة وسروراً، كما كان العمل شرفاً لآدم وتوكيداً لسيادته على الطبيعة، وإثباتاً لحقّه في التصرف فيها.. ولذلك كان آدم يعمل وهو سعيد وهو لا يحس بألم في العمل. وإذا كان الإنسان اليوم عندما يكون سعيداً تطغى سعادته على شعوره بالتعب، فيعمل بسرور من أجل سعادته وسعادة غيره من أعضاء الأسرة البشرية بمعناها الضيّق أو بمعناها الواسع، فكم يمكن أن نتصور أن تكون سعادة الإنسان الأول وهو يعمل من دون أن تكون ثمت منغصات أو مكدرات، ومن دون أن يكون هناك فشل أو توقع للفشل كما حدث للإنسان بعد أن

---

(١) أمثال ٢٨: ٥.
(٢) مزمور ٨١ (٨٢): ٥.
(٣) التكوين ٢: ١٥.
(٤) التكوين ١: ٢٦، ٢٨، ٢٩.
(٥) التكوين ٢: ٢٠.
(٦) قارن التكوين (٢: ١٥)، (٣: ٦).
(٧) التكوين ٢: ١٥.

سقط فى الخطيئة، فأمست الطبيعة متمردة على آدم بعد أن تمرّد على خالقه وسيّده. وصار آدم يتوقع الشر والفشل، ولم يعد مطمئناً إلى شئ، وصارت الأرض تنبت له شوكاً وحسكاً. فتبدلت حالته النفسية، وتبعاً لهذا تبدلت حياته المادية فصار يشعر بالإرهاق والتعب، ودخل الشقاء والشعور بالإخفاق إلى نفسه، وصار يتوقع الفشل والشر وخيبة الرجاء. فقد قال الله لآدم «إذ سمعت لصوت إمرأتك فأكلت من الشجرة التى نهيتك قائلاً لا تأكل منها، فملعونة الأرض بسببك. بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء (أو الحقل). بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها، لأنك تراب، وإلى التراب تعود» (١) قال لامك بعد أن ولد نوحاً «هذا يعزينا عن أعمالنا وعن مشقّة أيدينا فى الأرض التى لعنها الرب» (٢) وجاء فى سفر أيوب تعبيراً عن شدّة شقاء الإنسان الذى أدركه «يولد الإنسان للمشقة كما تولد الجوارح لتحلق فى الطيران» (٣) وقوله «الإنسان مولود المرأة قليل الأيام، كثير الشقاء» (٤) وقال الله للمرأة «لأكثرن مشقات حملك، بالوجع تلدين البنين. إلى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك» (٥).

وإذن فالألم والتعب والمشقة كلها دخيلة على حياة الإنسان وقد كان قبل الخطيئة مصوناً منها.

سادساً: وكان آدم مصوناً من المرض بكل أنواعه ولكنه بالخطيئة أمسى عرضة للمرض

فعندما كان آدم بلا خطيئة كان صحيحاً سليماً فى الروح والنفس والجسد. فالمرض يصيب الروح والنفس أولاً، وبعد ذلك يصيب الجسد. ولذلك كان مخلصنا يشفى النفس أولاً قبل أن يشفى الجسد، وشفاء النفوس يقوم أساساً على خلاص النفس من متاعبها المتسببة عن الخطيئة ولذلك قال للمفلوج المخلع: «ثق يا بنى، مغفورة لك خطاياك» (٦) قبل أن يقول له «قم احمل سريرك (وامش) واذهب إلى بيتك» (٧) وكذلك صنع مع المفلوج المخلّع الذى وجده عند بركة بيت حسدا، قال له بعد أن شفاه من مرضه كلّه، نفساً وجسداً «ها أنك قد عوفيت فلا تخطأ بعد لئلا

(١) التكوين ٣: ١٧ - ١٩.
(٢) التكوين ٥: ٢٨ قارن رومية ٨: ٢٠ - ٢٢.
(٣) أيوب ٥: ٧.
(٤) أيوب ١٤: ١.
(٥) التكوين ٣: ١٦ قارن تيموثيئوس الأولى ٢: ١٥.
(٦) متى ٩: ٢، مرقس ٢: ٥، لوقا ٥: ٢٠.
(٧) متى ٩: ٦، مرقس ٢: ١١، لوقا ٥: ٢٤.

يصيبك أعظم» (١)، مما يدل على العلاقة الوثيقة بين الخطيئة وهى مرض الروح والنفس وبين المرض الجسدانى وكذلك صرّح له المجد عندما شفى إمرأة بها روح مرض منذ ثمانى عشرة سنة وكانت منحنية لا تستطيع أن تنتصب البتة، وقال عنها «هذه إبنة إبراهيم التى ربطها الشيطان منذ ثمانى عشر سنة» (٢) وشهد الآباء الرسل فى كرازتهم بأن مخلصنا يسوع المسيح كان «يشفى جميع المتسلط عليهم إبليس» (٣).

فالعلاقة بين الخطيئة والمرض علاقة وطيدة ومقررة فى إعلانات الوحى الإلهى فبالخطيئة دخل المرض بأنواعه إلى طبيعة الإنسان، وكان قبل الخطيئة مصوناً منه تماماً.

سابعاً: وكان آدم مصوناً من الموت ولكن بخطيئته أمسى محكوماً عليه بالموت

والدليل على أن الموت دخيل على طبيعة آدم أن الله توعده به إذا هو خالف وصيته وأكل من الشجرة التى نهاه عن أن يأكل منها. قال سفر التكوين: «وأمر الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل. وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (٤). وقد رددت حواء للحيّة إنذار الله لآدم ولها قائلة: «من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه كيلا تموتا» (٥) وهكذا «أنتجت الخطيئة الموت» (٦)، «لأن أجرة الخطيئة هى الموت» (٧) ولم يمت آدم وحده بالخطيئة. ففيه مات جميع الناس (٨) الذين ولدوا بالطبيعة من آدم، ولا زالوا يموتون «من أجل ذلك كما أنها بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه» (٩) حتى قال النبى أيضاً: «أى إنسان يحيا ولا يرى الموت (١٠).

---

(١) يوحنا ٥: ١٤.

(٢) لوقا ١٣: ١٦ قارن لوقا ١٣: ١١ - ١٣.

(٣) أعمال ١٠: ٣٨.

(٤) التكوين ٢: ١٦، ١٧.

(٥) التكوين ٣: ٢، ٣.

(٦) يعقوب ١: ١٥.

(٧) رومية ٦: ٢٣ أنظر أيضاً رومية ١: ٣٢، ٦: ٢١، ٨: ٦، ١٣ وتيموثيئوس الأولى ٥: ٦.

(٨) كورنثوس الأولى ١٥: ٢٢.

(٩) رومية ٥: ١٢ انظر رومية ٥: ١٤، ٢١.

(١٠) مزمور ٨٨ (٨٩): ٤٨.

وإذن كان آدم سيخلد نفساً وجسداً لو لم يخطأ. لكن الخطيئة هي التي جلبت الموت إلى طبيعته، يقول سفر الحكمة: «فإن الله خلق الإنسان خالداً وصنعه على صورة ذاته. لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم» (١).

وفى هذا الموضوع أصدرت المجامع قرارات واضحة من ذلك ما أصدره مجمع قرطاجنة عام ٤١٧م بصدد بدعة بيلاجيوس والبيلاجيين، فى قانونه رقم ١٢٠ «من قال بأن آدم الإنسان الأول قد خلق قابلاً للموت سواء أخطأ أو لم يخطأ وأنه كان سيموت بالجسد، بمعنى أنه يفارق الجسد لا لأنه يستحق هذا المصير بسبب الخطيئة، ولكن بسبب ضرورة مجبولة فى طبيعته، فليكن محروماً».

---

(١) سفر الحكمة ٢ : ٢٣، ٢٤ وقد اقتبس هذا النص المقدس فى صلاة الصلح لقداس القديس باسيليوس «والموت الذى دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته»، وهو بيّنة على اعتقاد الكنيسة الأرثوذكسية فى قانونية سفر الحكمة الذى حذفه البروتستانت من الكتاب المقدس طبعتهم.

انتشار الخطيئـــة الأصليـــة

لقد عصى آدم ربه، فأكل من الشجرة التى نهاه عن أن يأكل منها، فجلب على نفسه الموت الذى توعده الله به. ولما كان آدم لا يمثل نفسه فقط، فقد شمل الحكم جميع البشر المولودين من صلبه وصاروا به وفيه خطاة ومستوجبين للموت، من حيث هو أبوهم، وقد ولدوا منه وهو فى حالة الخطيئة، وبعد أن صدر الحكم عليه بالموت...

يقول الكتاب المقدس: «من أجل ذلك كما أنها بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه» (١) وهذا النص المقدس يقرر مبدأ انتشار الخطيئة من الإنسان الأول الذى هو آدم إلى كل الناس، كما يقرر أن هذا الانتشار كان عن طريق آدم أب الجنس البشرى.

ويمتد النص فى تأييد هذا المعنى بقوله «ليست الموهبة على قدر الزلّة لأنه إن يكن بسبب زلة واحد قد مات الكثيرون فبالأحرى كثيراً وفرت نعمة الله وعطيته للكثيرين بالنعمة التى لإنسان واحد هو يسوع المسيح» (٢) ومعناه أولاً أن خطيئة آدم جلبت الموت على كل ذريته وثانياً إنه بنفس القياس قد فاضت نعمة المسيح على جميع الناس كما أن خطيئة آدم شملت جميع الناس.

---

(١) رومية ٥: ١٢ ويلاحظ أن الترجمة البيروتية البروتستانتية قد أوردت هذا النص مبتوراً فقالت «وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» ولكن النص اليونانى والنص القبطى والترجمة اللاتينية المعروفة بالفولجاتا كلها أوردت النص على النحو الذى أثبتناه فى متن الموضوع. فالنص اليونانى يقول:

..........καὶ οὕτως εἰς πάντας ἀνθρώπους ὁ θάνατος διῆλθεν ἐ
φ' ᾧ πάντες ἥμαρτον.

والنص القبطى يقرأ: ⲁⲡⲓⲙⲟⲩ ϣⲉⲉϧⲟⲩⲛ ⲉⲣⲱⲙⲓ ⲛⲓⲃⲉⲛ
ⲫⲏ ⲉⲧⲁⲩⲉⲣⲛⲟⲃⲓ ⲛ̀ϧⲏⲧϥ

والترجمة اللاتينية تقول: in quo omnes peccaverunt

(٢) رومية ٥: ١٥.

ويكرر الكتاب المقدس نفس المعنى مرة أخرى قائلاً: «وليست الهبة كمثل ماجرّت من العواقب خطيئة إنسان واحد، فإذا كان الحكم على إنسان واحد قد أفضى بالبشر إلى الهلاك، فإن هبة النعمة بعد كثير من الخطايا، أفضت بهم إلى التبرير فإذا كان الموت قد ملك على البشر بخطيئة إنسان واحد بسبب ذلك الإنسان الواحد. فبالأولى تسود الحياة بيسوع المسيح وحده، أولئك الذين ينالون فيض النعمة وهبة البر، فإذن كما أن بخطيئة إنسان واحد صار الحكم على جميع الناس بالهلاك، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة. وكما أنه بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطأة كذلك بطاعة واحد يجعل الكثيرون أبراراً... حتى أنه كما أن الخطيئة ملكت للموت كذلك تملك النعمة بالبرّ للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (١).

فلم يكن آدم فى نظر الشريعة الإلهية معزولاً عن الجنس البشرى الذى ولد منه، ولكنه حسب له رئيساً وأباً وولياً ومعلماً ونبياً، فالحكم الذى صدر عليه شملهم جميعاً بدون إستثناء، كما يصدر الحكم على رجل فتصادر أمواله فيصير أولاده جميعاً تحت الحكم بعينه.

ولم يظلم الله البشر فى هذا الحكم لأنه هو الذى خلقهم على هذا النحو بحيث كان آدم هو رأس العائلة البشرية وهو المسئول الأول عنها، وعلى نفس هذا المبدأ نفهم إلى اليوم وإلى الأبد مسئولية كل أب، وكل ربّ أسرة إنها مسئولية تتعدى شخص الأب إلى جميع أفراد أسرته...

لقد خطئ آدم أبو الجنس البشرى وتعدّى وصية الله، فطرد من الجنة، وسرى الحكم إلى جميع ذريته فقد كانوا فى صلبه، فلم يتمكن واحد من كل نسله من الدخول إلى الفردوس أو حتى من الإقتراب إليه لا فى الحياة ولا بعد الموت، إلاّ بعد أن جاء المسيح وفداهم بموته، وظل كل الجنس البشرى مطروداً من الجنة، يشقى فى الأرض التى أمست تنبت له الشوك والحسك، وهو ذات الحكم الذى صدر على آدم أبيهم الأول (٢)، لأنهم ولدوا منه وهو فى حالة الخطيئة، مطروداً من حضرة الله ومن الجنة، مثلهم فى ذلك مثل الأولاد الذين يولدون من أب فقير فيعنون بسببه طفولة فقيرة معدمة محرومة من كل أسباب النعيم الأرضى، وهذا قانون طبيعى، وقد قال الله فى الوصية الثانية من الوصايا العشر: «أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء

---

(١) رومية ٥: ١٦ - ٢١.

(٢) التكوين ٣: ١٨.

فى البنين إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضىَّ (١) . كما يقول فى موضع آخر: «مفتقد ذنوب الآباء فى البنين، وفى بنى البنين إلى الجيل الثالث والرابع» (٢) .

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن آدم إذ قبل غواية الحية، استعبد نفسه للشيطان الذى اقتنصه لإرادته. ولم يملك الشيطان آدم وحده لكنه ملك أيضاً على كل ذريته، لأن من ملك عبداً ملك أولاده أيضاً (٣) وملك الموت أيضاً على آدم وجميع نسله من بعده. يقول مار بولس الرسول «لأنه إذا كان الموت بسبب زلة واحدة قد ملك بواحد» (٤) . وجاء أيضاً هذا المعنى فى قداس القديس باسيليوس «وبذل (المسيح) ذاته فداء عنا إلى الموت الذى ملك علينا، هذا الذى كان مقبوضاً علينا به، ومبيعين بسبب خطايانا» .

وعلى هذا المبدأ أيضاً نفهم قانون التكاثر والوراثة فى كل الخليقة الحية بما فيها النبات والحيوان أيضاً. فكل منها كقول الوحى «يبزر بزراً بحسب صنفه، ويخرج ثمراً بزره فيه بحسب صنفه» (٥) . لقد سقط آدم، فخلّف لذريته من بعده طبيعة بشرية معتلة ورثتها عنه، فصار جميع الناس يولدون بطبيعة فاسدة عاجزة عن الصلاح مثلهم فى ذلك مثل من يولد من أبوين مريضين فيرث عنهما المرض والضعف. وهذا قانون طبيعى لهذا قال النبى داود «إنى فى الإثم ولدت (٦) ، وفى الخطيئة حبلت بى أمى» (٧) فبالولادة انتشرت الخطيئة الأصلية، وبالوراثة صارت الخطيئة فى طبيعة الإنسان، وصارت ذات الطبيعة التى يولد بها الإنسان فاسدة ومن ثم صار فيها الميل إلى الخطيئة والانجذاب نحوها، وأمسى الإنسان محارباً من طبيعته الفاسدة (٨) فهى من جهة تجذبه إلى الخطيئة وتميله نحوها وترغبه فيها، ومن جهة أخرى تعوقه عن عمل الصلاح والخير بسبب الفساد الذى فيها، وبالتالى صارت الرذيلة ميسورة لدى الإنسان مرغوباً

---

(١) الخروج ٢٠ : ٥، التثنية ٥ : ٩ .

(٢) الخروج ٣٤ : ٧ .

(٣) راجع الدر الثمين لإيضاح الدين للأنبا ساويروس أسقف الأشمونين الشهير بالمقفع طبعة القاهرة ١٩٢٥م المقالة الرابعة صفحة ١٣١ ، المقالة الثانية صفحة ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ٩٦ .

(٤) رومية ٥ : ١٧ .

(٥) التكوين ١ : ٢٩ .

(٦) أو صورت، أو كونت، أو شكلت.

(٧) مزمور ٥٠ (٥١) : ٥ .

(٨) مقالة للأنبا بطرس السدمنتى فى اعتقاد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ـ مجلة الكرمة للأرشيدياكون حبيب جرجس ـ السنة ١٢ العدد الخامس (مايو ١٩٢٦) صفحة ٢٣٠ .

فيها، بعكس الفضيلة التى أصبحت صعبة لا يعملها إلا بالجهد والمقاومة ولم يظلم الله البشر فى هذا الحكم، لأنه كما شمل الحكم بالموت جميع ذرية آدم كذلك كان سيشملهم الحكم بالحياة لو أن آدم ثبت فى طاعة الله ولم يعص وصيّته. «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وإنثى خلقهم. وباركهم الله ، وقال لهم أنموا وأكثروا واملأوا الأرض، وأخضوعها وتسلطوا على سمك البحر وطيور السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض. وقال الله ها قد أعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بذراً يكون لكم طعاماً. (١) .. وفعلاً قد صار وإلى اليوم نمو الناس وتكاثرهم، وتسلطهم على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض. مما يدل على أن ذرية آدم قد تمتعت فعلاً بما تمتع به آدم أبوهم وكان يمكن أن يتمتعوا بخيرات أعظم وبحياة أبدية لا تعرف الموت، وبسعادة لا يشوبها الشقاء، لو أن آدم أباهم قد ثبت فى حالة البرارة والقداسة التى خلقه الله عليها.

ولم يظلم الله البشر فى هذا الحكم لأنه كما شمل الحكم بالموت جميع البشر الذين ولدوا من آدم وماتوا فيه، كذلك شملهم جميعاً عمل الفداء الذى قام به المسيح الفادى الذى صار موته موتاً لجميع الناس، وقيامته قيامة لجميعهم.

يقول الرسول فى رسالة أخرى «لأنه بما أن الموت بإنسان، فبإنسان أيضاً قيامة الأموات، فكما فى آدم يموت الجميع، كذلك فى المسيح سيحيا الجميع» (٢) وبهذا يقرر الوحى أن الموت قد انتشر إلى جميع الناس، بآدم وفى آدم. وقد شاء الله أنه كما يموت جميع النلس فى آدم كذلك اقتضى العدل الإلهى أن تكون فى قيامة المسيح حياة لجميع الناس. لأنه على نفس القاعدة كان آدم الأول نائباً عن الجنس البشرى كله من حيث أن آدم أبوهم جميعاً، كذلك صار المسيح نائباً عن البشر وبموجب هذه النيابة صار صلبه فداء عن كل البشر الذين اشترك هو فى طبيعتهم.

---

(١) التكوين ١ : ٢٧ – ٢٩.

(٢) كورنثوس الأولى ١٥ : ٢١، ٢٢.

«لماذا الصليب» ؟

لماذا جئنا اليوم ؟ أجئنا لنقول أن المسيح مات ؟

من هو المسيح ؟ هو الله أولا وقد اتخذ صورة البشر. والله حي لا يموت.

هو الحي الأول، وباعث الحياة في كل الوجود، فهو أصل الحياة، فكيف يموت ؟ لكنه قَبِل الموت في إنسانيته التي لبسها، واتخذها، واصطنعها، واتحد بها.

فالمسيح الذي نكس رأسه وقال الناس عنه إنه مات، كان في نفس الوقت مالكاً كل الحياة، لأنه لا يموت، ولذلك تردد الكنيسة دائماً، وفي جمعة الصلبوت بالذات قولها «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحي الذي لا يموت، يامن صلب عنا، ارحمنا».

فما معنى موت المسيح إذن ؟

لقد اتخذ الله الكلمة ناسوتا له، وناسوته جسد ذو روح عاقلة حية. فللمسيح - وهو الله - جسد وروح إنسانية .. وإلا، فهل جاء الله ليخلص الحيوان، أم جاء ليخلص الإنسان روحاً وجسداً؟ إذن كان لابد أن يتخذ المسيح كل طبيعتنا البشرية، وأن يتحد الإله بجسد ذي روح عاقلة، هذه هي الروح الإنسانية التي أسلمها على الصليب. فإذا قال الإنجيل عن المسيح في ساعة موته إنه «أسلم الروح» (١) فالمقصود بالروح هنا ليس لاهوت المسيح، حاشا، فاللاهوت حي لا يلفظ ولا يسلم، لأنه يملأ السماوات والأرض، ثم أن لاهوت الكلمة قد اتحد بالناسوت إتحاداً جوهرياً حقيقياً كاملاً وتاماً، فلا يمكن أن يفارق الناسوت لحظة واحدة أو طرفة عين. إنما الروح التي أسلمها على الصليب هي الروح الإنسانية التي بها كمال ناسوته وكمال بشريته .. وإذن فموت المسيح معناه إنفصال مؤقت بين عنصري ناسوته، إنفصال بين الروح الإنسانية والجسد .. أما اللاهوت فظل متحداً بكل من الروح والجسد.

والدليل على ذلك، إنه بعد أن أسلم المسيح الروح، وطعنوا جنبه بحربة ليتحققوا من موته، «جرى دم وماء» (٢) من جنبه، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث لميت. فالميت يهرب الدم منه ويتجمد ويتجلط كما هو معروف. ولذلك فإن الطبيب لكي يتحقق من موت إنسان يغرس في جسمه دبوساً، فإذا لم يخرج بدم كان هذا برهاناً على موته. وإذا طعنوا قلبه بخنجر نزف ماء

---

(١) (متى ٢٧ : ٥٠)، (مرقص ١٥ : ٣٧)، (يوحنا ١٩ : ٣٠)، (لوقا ٢٣ : ٤٦).

(٢) (يوحنا ١٩ : ٣٤).

أصفر يسمونه بلازما. أما بالنسبة للمسيح، فعندما طعنوه بعد موته تدفق من جنبه دم وماء متميزين الواحد عن الآخر، وهو دليل على أن المسيح - وقد مات بناسوته - كان حياً بلاهوته، وعلامة حياته الدم والماء اللذان تدفقا وجريا من جنبه الإلهى بعد موته، مما لم يحدث ولن يحدث لكائن بشرى آخر. فلما رأى ذلك قائد المائة الرومانى - وهو رجل وثنى - صاح بالإعتراف المسيحى «حقاً كان هذا الإنسان هو ابن الله» (١) وهذا هو السبب فى أن القديس يوحنا الذى كتب إنجيله من أجل إثبات لاهوت المسيح وقال فى ختامه «وآيات أخرى كثيرة صنع يسوع أمام تلاميذه، لم تدون فى هذا الكتاب، وإنما كتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله» (٢) قد اهتم أكثر من غيره من الإنجيليين بواقعة جريان الدم والماء من جنب المخلص بعد موته، لما لها من دلالة لاهوتية، وقال معقباً عليها «والذى عاين شهد وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (٣).

والذى عاين أى رأى بعينى رأسه هو نفس الرسول يوحنا كاتب الإنجيل، لأنه كان الرسول الوحيد القريب من الصليب وهو الذى أوصاه المخلص بأمه العذراء وقال له «هذه أمك» (٤). وهو الذى شهد تلك الواقعة أى كان من بين شهودها، وكان صادقاً فى شهادته عنها لأنه عاينها بنفسه وقد أوردها فى إنجيله لما لها من أهمية بالنسبة للإيمان المسيحى بأن المسيح ابن الله وهى القضية العظمى التى كتب إنجيله من أجل إثباتها. ولم يهمل الرسول يوحنا أن يؤكد على أهمية تلك الواقعة مرة أخرى، نظراً لدلالتها اللاهوتية، وذلك فى رسالته الأولى حيث يقول: «من ذا الذى يغلب العالم إلا الذى يؤمن أن المسيح هو ابن الله. هذا هو الذى أتى بالماء والدم، يسوع المسيح، لا بالماء فقط بل بالماء والدم» (٥).

لماذا يا يوحنا تعطى لتلك الواقعة كل هذه الأهمية، وتوردها أكثر من مرة وتربط بينها وبين الإيمان بالمسيح أنه ابن الله؟ ذلك أنه لو لم يكن المسيح ابن الله لما جرى من جنبه بعد موته دم وماء متميزين. لو كان المسيح مجرد إنسان لهرب الدم إلى القلب، وجمد وتجلط، وهذا هو برهان الموت عند كل إنسان. أما المسيح فعلى الرغم من موته بإنفصال روحه عن بدنه، لكن لاهوته

---

(١) (متى ٢٧ : ٥٤)، (مرقس ١٥ : ٣٩).

(٢) (يوحنا ٢٠ : ٣٠، ٣١).

(٣) (يوحنا ١٩ : ٣٥).

(٤) (يوحنا ١٩ : ٢٧).

(٥) (رسالة يوحنا الأولى ٥ : ٥، ٦).

لم يفارق لا روحه ولا بدنه، لذلك فإن جسد المسيح وهو على الصليب، كان حياً باللاهوت المتحد به ولم يفارقه لحظة واحدة ولا طرفة عين.

ونظراً أيضاً لأهمية جريان الدم والماء من جنب فادينا، ودلالته اللاهوتية تأمر الكنيسة المقدسة بأن يخلط الماء بالخمر فى الكأس أثناء القداس، تذكيراً للمؤمنين بما جرى عند الصليب وتنبيهاً إلى الدم والماء اللذين تفجرا من جنب المسيح الفادى، وذلك حتى لا ينسوا أنهم فيما يقدمون ذبيحة الشكر فى سر الشكر، أن مسيحهم حى لا يموت، حى بلاهوته، وإن كان قد ذاق الموت فى الجسد.

وهذا هو السبب أيضاً فى أن المؤمنين حينما يتقدمون إلى الأسرار المقدسة، يتناولون من الخبز السماوى ثم من الدم الكريم. ولماذا الفصل بين الإثنين؟ لماذا الفصل بين دم المسيح وجسده؟ أليس جسد المسيح به أيضاً دمه؟ أو هل جسد المسيح يخلو من دمه،؟ حاشا. إذن لماذا نتناول من العنصرين منفصلين؟ الجواب: أن الكنيسة تريدنا أن لا ننسى دم المسيح الذى تدفق من جنبه الإلهى على الصليب، وانسكب على الأرض للخلاص، فتجمعه فى كأس منفصل عن جسده، لأن دمه الذى تدفق من جنبه، جرى خلاصاً لنا، ولازال يجرى، وفى جريانه يخلص كل الذين يتقدمون به إلى الآب، لأنه حى يشفع فينا بكفارته واستحقاقاته الخلاصية لأنه «ليس بأحد غيره الخلاص لأنه ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحاً للناس به ينبغى أن نخلص» (١).

وثمة دليل آخر على أن المسيح فيما كان ميتاً على الصليب، بانفصال روحه من بدنه، كان جسده حياً بلاهوته المتحد به ولم يفارقه على الرغم من الموت، هو أن جسده لم يهمل فى الهاوية، ولم يتعفن ولم يفسد ولم يتحلل كما يحدث لكل جسد آخر، بل ظل مصوناً من كل فساد إلى أن قام من بين الأموات فى اليوم الثالث بقوة لاهوته المتحد به، وبالآب وبالروح القدس. وقد اتخذ القديس بطرس الرسول هذه الحقيقة ليبرهن بها على لاهوت المسيح، وليكشف لليهود بشاعة جريمتهم عندما صلبوا «رئيس الحياة» (٢) ظناً منهم أنهم استطاعوا أن يبيدوه ويستأصلوه. وما أبادوه وما استأصلوه، وإنما قام من بين الأموات «ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يمسكه الموت، لأن داود يقول فيه ... لأنك لا تترك نفسى فى الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً ... أيها الرجال الإخوه، أنه يسوغ أن يقال لكم جهراً عن داود رئيس الآباء أنه قد مات ودفن وقبره عندنا إلى اليوم .. فإذ كان نبياً وعلم ... وتكلم عن قيامة المسيح بأنه لم يترك

(١) (أعمال الرسل ٤ : ١٢). (٢) (أعمال الرسل ٣ : ١٥).

فى الجحيم ولم ير جسده فساداً .. فليعلم يقيناً جميع آل إسرائيل أن الله قد جعل يسوع هذا الذى صلبتموه ربا ومسيحاً. فلما سمعوا نخسوا فى قلوبهم، وقالوا لبطرس ولسائر الرسل ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة. فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا، فتقبلوا موهبة الروح القدس» (١).

إذن المسيح مات، لكنه فى الوقت نفسه هو حى لا يموت. الموت لا يقع على لاهوته، لكنه وقع على ناسوته، ومع ذلك لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. وبعبارة أخرى أن الموت وقع على الناسوت فعلا بانفصال عنصرى الناسوت وهما الروح الإنسانية والجسد، والموت لم يقع على اللاهوت لأن اللاهوت لا يموت، كما أن اللاهوت لا يتألم مادياً ولا فيزيقياً ولكن الألم نسب أيضاً للاهوته إعتبارياً ومعنوياً، بطبيعة الإتحاد التام القائم بين اللاهوت والناسوت، لأن الذى أعطى لموت المسيح وآلامه القيمة اللانهائية لتغطية وكفارة خطايا جميع البشر هو اللاهوت المتحد بالناسوت. ولولا هذا الاتحاد لكان المصلوب عنا مجرد إنسان. وفى هذه الحالة لا يكاد يفدى الإنسان إلا إنساناً واحداً فقط (٢)، إنما اللاهوت المتحد بالناسوت هو الذى أعطى الفداء كل قيمته، وأعطى لدم المسيح ثمناً لانهائياً فى قيمته لتغطية خطايا جميع البشر. وهذا هو السبب فى تجسد الله الكلمة لأن الله الكلمة تجسد من أجل أن يقوم بالفداء، ولولا الفداء لما كان التجسد. وقد كان الفداء ضرورة لخلاص الإنسان، ولم يكن فى مقدور الإنسان أن يخلص نفسه أو يفدى نفسه، فكان لابد من فاد. وإذا لم يكن ممكناً أن يكون هذا الفادى من الناس، فلا يمكن أن يكون من بين الملائكة، لأن الإنسان هو الذى أخطأ وتعدى على الله. ولما كانت خطيئة آدم شنيعة وبشعة لأنها تعد على الله، فكان لابد أن يكون عقابها الموت الأبدى، والنفى إلى الأبد من حضرة الله ومن نعيمه. إن من صفع أخاه ليس كمن صفع أباه، ومن صفع زميلاً له ليس كمن صفع رئيساً، فبقدر مكانة المصفوع تعظم الجريمة، فإذا كانت الإساءة ضد الله، فجريمة الإنسان لانهائية فى بشاعتها مع أن مرتكبها إنسان محدود، لكن لأن اللّه الذى ارتكبت فى حقه لانهائى فى جلاله ومهابته وقداسته، لذلك كانت جريمة الإنسان لا يكفر عنها، ولا يغطيها إلا فاد يمكنه أن يحتمل عقوبة غير محدودة، ليخلص الإنسان من الموت الأبدى، ومن النفى إلى الأبد من حضرة الله ومن نعيمه. فلكى يعفى الإنسان من هذا الموت، ويرد إلى رتبته الأولى، كان لابد لفاد له طبيعة غير محدودة يتحد بالإنسان، ويقبل فى إنسانيته الحكم

---

(١) (أعمال الرسل ٢ : ٢٢ـ ٣٨).

(٢) (رومية ٥ : ٧).

الأبدى الصادر على الإنسان، وهذا ما صنعه الله الكلمة، إذ اتخذ إنسانيتنا، وفى الصليب احتمل فى جسده الحكم بالموت، فـفدانا من الموت بموته، ولولا أنه هو بعينه كلمـة الله لما كان مـوته كافياً لغفران خطيئة آدم وحدها، لكنه إذ هو كلمة الله، فالموت الذى قبله فى جسده كان ذا قيمة أبدية، لانهائية، تكفى لتغطية وغفران لا خطيئة آدم وحدها بل خطايا جميع البشر الذين أخطأوا فى آدم، وغفران جميع الخطايا الأخرى التى ارتكبها الناس جميعاً بعد آدم. فليس للمسيح حـاجة بعد إلى أن يصلب مـرة أخرى عن كل خطيئة أخـرى. بل دمـه الثمين يكفى لتطهـير جـميع الخطايا إذا أقبل الإنسان إليه بتوبة صادقة. فما الذى جعل لدم المسيح كل هذه القيمة اللانهائية؟ لأن الدم هو دم المسيح، كلمـة الله المتجسد. فاتحاد اللاهوت بالناسوت جعل دم المسيح هو بقيمة الله نفسـه. وبهذا المعنى نسب الوحى المقدس دم المسيح إلى الله ذاته مع أنـه ليس للاهوت دم. قال الرسول بولس يعظ الأساقفة: «فخذوا الحذر إذن لأنفسكم، ولجميع الرعية التى أقامكم فيها الروح القدس أساقفة، لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه هو ذاته» (١).

فقد وصـف الرسول بولس الكنيسة بأنها «كنيسة الله التى إقتناها بدمـه هو ذاته» (٢) وبهذا نسب الوحى المقدس دم المسيح إلى الله ذاته.

من هنا لا يمكن أن يكون اللاهوت فارق الناسوت على الصليب، لأنه لو حدثت هذه المفارقة لكان تدبير الفداء قد فشل، ويكون الخلاص للبشرية قد تعطل، وكيف تتم المفارقة فى اللحظة التى نزل كلمة الله من أجلها. ألم يقل المسيح نفسه «من أجل هذه الساعة قد أتيت» (٣). فإذا كان المسيح قد قال وهو على الصليب «إلهى إلهى لماذا تخليت عنى» فهو يعبر بإنسانيته، عن شدة الآلام التى تحملها حقاً فى جسده من دون أن يتدخل اللاهوت لتخفيفها، أى أن المسيح يصرح كإنسان بأن الآلام التى يعانيها على الصليب هى آلام الحكم بالموت الأبدى كاملة غير منقوصة، لأن العدل الإلهى ممثلاً فى الآب قد تخلى عنه كخاطئ إذ «وضع الرب عليه إثم جميعنا» (٤) «وذلك الذى لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة من أجلنا لكى نصير نحن بر الله فيه» (٥).

---

(١) (أعمال الرسل ٢٠: ٢٨) كما فى اليونانى والقبطى.

(٢) (يوحنا ١٢: ٢٧).

(٣) (متى ٢٧: ٤٦)، (مرقص ١٥: ٣٤)، أنظر أيضاً (مزمور ٢٢: ١٠).

(٤) (إشعياء ٥٣: ٦). (٥) (رسالة كورنثوس الثانية ٥: ٢١).

ولذلك كان عمل الفداء حيوياً لخلاص الإنسان. إن المستهينين بكرامة الله وجلاله يظنون الفداء غباوة وجهالة وربما رأوا فيه تعقيداً لا يتناسب مع رحمة الله. لقد ضلوا وأخطأوا. ألم يعط الله للإنسان وصية؟ ألم يكسر الإنسان هذه الوصية؟ ألم يكن عدلاً أن يقع عليه الحكم بالموت الذى أنذره الله به؟ فإذا لم يقع الحكم على الإنسان بالموت بعد أن أخطأ، فمعناه أن الله قد كذب، أو أن كلام الله لا ينفذ، وحكمه يمكن أن يسقط!

وإذا كان الحكم الذى يصدر من قاض أو من ملك أرضى لابد أن ينفذ لأنه لا يمثل نفسه بل يمثل الدولة والأمة، فكيف يصدق عن الله أنه يرجع فى حكمه؟! وحتى لو أمكن للملك أو للقاضى أن يتراجع فلأنه كائن جاهل ينقصه كمال المعرفة أو يعوزه كمال القدرة. أما الله فلا تنقصه المعرفة ولا تعوزه القدرة، فاذا حكم فحكمه لابد نافذ، أنه ليس إنساناً فيكذب، ولا ابن بشر فيندم، هل يقول ولا يفعل أو يتكلم ولا يفى (١). أنه يقول للشئ كن فيكون، وما يقضى به يتم فى حينه «تزول السماء والأرض، أما كلامى فلا يزول» (٢). إذن مادام الله قد حكم على الإنسان بالموت، فلابد أن يموت الإنسان موتاً أبدياً، وأن ينفى من حضرة الله إلى الأبد، وأن يطرد من الفردوس إلى الأبد، ولن يعود إليه مرة أخرى. وهنا تحركت الرحمة الإلهية لتخلص الإنسان، ولكن كيف؟ هل بتراجع الله عن حكمه، حاشا! هل بإلغاء الله قضاءه؟ كلا أيضاً وحاشا!! فما هو الحل.؟ هل يغفر الله من غير ترضية كافية لعدالته؟ حاشا لله أيضاً. الحل قدمه الله نفسه، وقدمه بنفسه.

«فرأى أنه ليس إنسان، وتحير من أنه ليس شفيع، فخلصت ذراعه لنفسه، وبره هو عضده، فلبس البر كدرع، وخوذة الخلاص على رأسه. وتسربل بثياب الإنتقام لباساً، واشتمل بالغيرة كرداء» (٣) «وقد تطلبت من بينهم رجلاً يشيد جداراً ويقف على الثلمة أمامى مدافعاً عن الأرض لكى لا أدمرها فلم أجد. فصببت عليهم سخطى، وأفنيتهم بنار غضبى. وجعلت طريقهم على رؤوسهم، يقول السيد الرب» (٤) «إنى دست المعصرة وحدى، ومن الشعوب لم يكن معى أحد ... وقد نظرت ولم يكن من ناصر، وتحيرت إذ لم يكن من عاضد، فخلصت لى ذراعى» (٥).

---

(١) (العدد ٢٣ : ١٩). (٢) (متى ٢٧ : ٣٥)، (مرقس ١٣ : ٣١)، (لو ٢١ : ٣٣).

(٣) (إشعياء ٥٩ : ١٦، ١٧). (٤) (حزقيال ٢٢ : ٣٠، ٣١).

(٥) (إشعياء ٦٣ : ٣، ٥).

فأخذ الله صورة الإنسان، واتحد اللاهوت بالناسوت واحتمل الله فى ناسوته الحكم الأبدى الذى حكم به على الإنسان، ومات هو بديلاً عن الإنسان، فافتدى الإنسان، وخلص بهذا الإنسان من الحكم الأبدى، فانعتق الإنسان، وتبرأ الإنسان، وتبرأ فى المسيح وبالمسيح، ونعم بالحياة من جديد، وعاد إلى الفردوس الذى طرد منه. وعاد آدم وجميع الأبرار من أولاده ممن مضوا إلى الجحيم لأن الفردوس كان مغلقاً فى وجه بنى آدم حتى فتحه المسيح بصليبه. فمنذ الأصحاح الثالث من سفر التكوين الذى يروى قصة طرد آدم من الفردوس لم يسمع الإنسان كلمة الفردوس إلا على الصليب حيث قالها المسيح للص اليمين «اليوم تكون معى فى الفردوس» (١) كما ورد فى الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل معلمنا لوقا. ولهذا السبب، وتعبيراً عن فرحة الإنسان بعودته إلى الفردوس، وإنفتاح الطريق أمامه بعد اليأس القاتل الذى خيم على البشرية آلاف السنين، رأى قبط مصر أن ينقلوا عيد شم النسيم - وهو عندهم عيد الربيع وعيد الطبيعة - ليجعلوه اليوم التالى لعيد القيامة تعبيراً عن عودة الإنسان إلى الفردوس بصلبوت المسيح وقيامته. فإذا دخلوا الحدائق والجنات بعد عيد القيامة، ذكروا الفردوس الذى فتح أمام الإنسان بعد أن ظل مغلقاً فى وجوه الأبرار والصديقين عشرات المئات من السنين.

هذا هو الحل الذى قدمه الله لخلاص الإنسان.

ففى الصليب إلتقى عدل الله برحمته ومحبته. أما عدل الله فقد برز واضحاً فى أن حكم الموت قد نفذ فعلاً، ولم يتراجع الله عن قضائه إحتراماً لكلمته التى حكم بها على آدم، وأما رحمة الله ومحبته فقد وضحت فى أنه تنازل بذاته وقَبِل أن يتخذ شكل الإنسان، ويموت بديلاً عن الإنسان «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه» (٢). نعم فى الصليب «الرحمة والحق تلاقيا، العدل والسلام تلاثما» (٣).

فالصليب إذن كان ضرورة لا مفر منها لخلاص الإنسان. وفيه إلتقت محبة الله بعدالته. لهذا نحن لا نخجل من الصليب بل نفخر بالصليب «أما أنا فحاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به صلب العالم لى وأنا صلبت للعالم» (٤).

---

(١) (لوقا ٢٣ : ٤٣).
(٢) (يوحنا ١٥ : ٣).
(٣) (مزمور ٨٥: ١٠).
(٤) (غلاطيه ٦ : ١٤).

فى الصليب فخارنا لأن به خلاصنا، وفى الصليب عزنا لأن الذى صلب عليه هو ربنا، وفى الصليب شَرَفُنا لأنه رد المسيح به إعتبارنا، وأعادنا إلى الفردوس لننعم به إلى الأبد. فنحن لا نقبل بالصليب بديلاً، ولا نقبل فيه مساومة. إنه إكليلنا وابتهاجنا، وسلاحنا نرفعه فوق رؤوسنا، ونعلقه فى صدورنا، ونرسمه على جباهنا، ونحمله كسلاح فى أيدينا، نخزى به الشياطين، ونطفئ به قوة النار، وندوس به القائمين علينا والمناهضين لنا. هو علم مملكتنا السمائية، لأن الكنيسة أمنا هى ملكوت السماوات على الأرض، والمسيح هو ملكنا، والصليب هو علامة مخلصنا.

هذا اليوم، يوم جمعة الصلبوت، لا نبكى فيه بل نفرح. وإن كنا نبكى فإنما نبكى خطايانا التى جعلت كلمة الله يقبل صورة الهوان من أجلنا، ويعلق على الصليب كأحد المجرمين. «يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ بل إبكين على أنفسكن وعلى أولادكن» (١) فإذا كنا نجلل الكنيسة بالسواد، فليس حزنا على المسيح ولا حدادا عليه، وإنما ذلك من قبيل تصوير ماضى البشرية التى كانت تحيا قبل الفداء فى الظلمة وظلال الموت، فتبدل الظلام بالنور، وتبدل الحزن بالفرح. لذلك سمى السبت الكبير بسبت النور، وبسبت الفرح، لأن الأرواح التى كانت قائمة فى الجحيم فى الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور المسيح إذ مضى إليهم بعد الصليب وبشرهم بالخلاص، وسباهم سبيا إلى العتق وإلى فردوس النعيم.

لذلك فإن الكنيسة تشفق علينا من أن نظن أن اليوم حزن على المسيح المصلوب، حاشا وكلا، فإنه لذلك تغنى الكنيسة لحن الإنتصار، وتبارك المسيح المصلوب الذى أظهر بالضعف ما هو أعظم من القوة. ولذلك أيضا توجه إليه التسبحة العظيمة التى يتغنى بها الملائكة أمام عرشه السماوى وهو فى المجد، وتناديه «لك القوة، والمجد، والتسبيح، والعزة، إلى الأبد، يا عمانوئيل إلهنا وملكنا».

وعندما نحتفل بذكرى دفنه فى القبر ـ وذلك فى الساعة الثانية عشرة من يوم جمعة الصلبوت ـ نسبحه موجهين إليه كلمات المزمور «عرشك يا الله إلى دهر الدهور» (٢).

إذن إن كنا نبكى، فلنبك خطايانا ولنبك آثامنا. إن المسيح مات من أجلنا لأنه أحبنا. فأى جريمة عظيمة نرتكبها فى حق من أحبنا وبذل نفسه من أجلنا إن كنا نخونه.. إن كنا ننكره.. إن كنا نبيعه من أجل شهوة عارضة.. لماذا تلومون على يهوذا الأسخريوطى الذى باعه بثلاثين

(١) (لوقا ٢٣ : ٢٨).
(٢) (مزمور ٤٥ : ٦).

من الفضة.. إن يهوذا موجود فى كل جيل، وفى كل عصر.. المسيح له فى كل مكان وفى كل زمان من يبيعه بثلاثين من الفضة، ... ربما من أجل شهوة، من أجل رغبة، من أجل مركز.. من أجل منصب.. من أجل مال.. من أجل فتاة يحبها شاب ويتعلق بها ويبيع بسببها مسيحه.. أو من أجل شاب تحبه فتاة وتتعلق به وتبيع بسببه مسيحها ومخلصها.. من أجل أمور زائلة يخون الإنسان المسيح، .. وبعد أن جحد الشيطان فى المعمودية وأعلن إنفصاله من مملكة الشيطان وإنضمامه لمملكة المسيح، يعود فيتردى من جديد فى أحضان الشيطان ويخون سيده الخيانة العظمى... يالها من حماقة، ويالها من غباوة.. لو كان لك النظر البعيد لكنت تنضم إلى الأقوى.. ومن هو الأقوى؟ الأقوى هو المسيح لأنه الرب، ثم لأنه أيضا الديان. وهو الذى سيحاكمك.. هو الذى سيدينك ويحاسبك.. كيف لا تخجل أن تخونه وأنت ستقف أمام منبره المهوب المخوف فى اليوم العظيم حيث «تزول السماوات بدوى قاصف، وتنحل العناصر متقدة وتذوب، وتحترق الأرض وما فيها من المصنوعات» (١).

أخشى أن تقرع على بابه فى ذلك اليوم فلا يفتح لك.. أخشى أن تذكر له اسمك واسم عائلتك، فتسمع صوته من الداخل : اذهب عنى لا أعرفك... «فكل من يعترف بى أمام الناس أعترف أنا كذلك به أمام أبى الذى فى السماوات ومن ينكرنى أمام الناس انكره أنا كذلك أمام أبى الذى فى السماوات» (٢). «صادقة هى الكلمة، إن متنا معه فسنحيا معه. إن صبرنا فسنملك معه، وإن أنكرناه فسينكرنا هو أيضا. إن كنا غير أمناء ظل هو أمينا لأنه لا يمكن أن ينكر نفسه (٣).

أيها الإخوة والأبناء:

ما جئتم اليوم لتحتفلوا بمناسبة تأتى ثم تمضى وتعود إلينا فى كل عام .. ما جئنا هنا لعرض مسرحى .. مهما كان جمال الطقوس فى هذا اليوم العظيم .. ومهما كان أثرها العميق فى جذب العدد الأكبر من المؤمنين .. إنما أتينا لنتذكر ما صنعه المسيح من أجلنا، لنبكى خطايانا بندامة، لنذرف دم القلب قبل دمع العين ندامة وتوبة أمام الله .. ولنعترف بتقصيراتنا وإهمالنا وتعدياتنا.

---

(١) (رسالة بطرس الثانية ٣ : ١٠ - ١٢).

(٢) (رسالة بطرس الثانية ٣ : ١٠ - ١٢).

(٣) (رسالة تيموثيئوس الثانية ٢ : ١١ - ١٣).

بعد قليل، وبعد إتمام صلوات الساعة الثانية عشرة من ساعات يوم جمعة الصلبوت، تقفون جميعا تستمطرون مراحم الرب على العالم بأسره، فتتجهون أولا إلى الشرق، ثم إلى الغرب، ثم إلى الشمال ثم إلى الجنوب.. وفي كل إتجاه تؤدون مائة مطانية أي مائة سجدة .. تطلبون بذلك رحمة الله على جميع الناس في كل مكان...

كانت الكنيسة اليهودية وقفا على الشعب اليهودي الذي كان يرى في ذاته أنه الشعب المختار، وأما سائر الشعوب والأمم فكلاب وأنجاس.. لكن المسيح ركب الجحش النجس في نظر اليهود والذي يرمز عندهم إلى الشعوب والأمم النجسة، ودخل به في يوم أحد الشعانين إلى أورشليم، معلنا بذلك أنه دخل بالأمم الوثنية إلى حظيرة الإيمان إتماما لقوله «ولي خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة، فينبغي أن آتي بها أيضا، وستسمع صوتي، وتكون هناك رعية واحدة وراع واحد» (١).

فلا تنسوا في هذا اليوم حينما نؤدي المطانيات والسجدات أن تذكروا أنفسكم، وعائلاتكم.. بل أذكروا جميع الناس.. أذكروا الضالين والتائهين.. وغير المؤمنين .. صلوا من أجل خلاص الله لكل الشعوب.

والمسيح الذي فدانا بموته، واشترانا بدمه الزكي الثمين نسأله أن يبارك حياة الجميع .. نسأله أن يتلطف بالخطاة .. وأن يقبل توبة التائبين وطلبات المعترفين .. وأن يحفظ بلادنا وسلامها .. وأن يقوي جهود المسئولين، الروحيين والمدنيين، على إختلاف درجات المسئولية .. وأن يجعل لنا نصيبا وميراثا مع القديسين.

له السجود، والمجد، والسبح، دائما، أبديا آمين ..

---

(١) (يوحنا ١٠ : ١٦).

مفهوم الخلاص فى الكنيسة الأرثوذكسية (١)

هذا الموضوع فى غاية الأهمية من حيث أن لكنيستنا المسيحية الارثوذكسية تاريخا طويلا فى هذه المسألة. ومن حيث أيضا أن هناك مفهومات جديدة بدأت تعمل فى وسط شعبنا. مفهومات جديدة لأنها أسلوب جديد وانحراف جديد عن الفهم الصحيح الذى تركز فى كل تاريخنا. ولأول مرة تطرق آذان شعبنا أسئلة جديدة. أناس يسألون عن الخلاص، ويوجهون إلى المؤمنين بالمسيح والعابدين فى كنيسة المسيح أسئلة فى معنى الخلاص، كما لو كان هؤلاء القوم المتسائلون هابطين من السماء، يسألون هؤلاء الكفرة والملحدين وغير المؤمنين أن يلتفتوا إلى خلاص أنفسهم.

بدأ بعض المؤمنين يثار من هذه الجهة ويسأل عن الخلاص، وبدأت تثار مشاكل، وبدأ الناس ينقسمون بازاء هذا المفهوم فى أكثر من اتجاه، وبدأت الحركة تنتقل وتتحرك من مدينة إلى مدينة حتى أصبحت هذه المفهومات المنحرفة تشكل خطرا على كنيسة المسيح، وما لم يكن رجال الدين فى الطليعة دائما، يقودون شعبهم قيادة سليمة ويجيبون على الأسئلة التى توجه إليهم وإلى شعبهم إجابة سليمة تتفق مع الحق الإلهى وتتفق وتقاليد الكنيسة العريقة المجيدة، وتتفق والإيمان المسلم لنا من القديسين والذى عشنا عليه هذه الأزمنة الطويلة، أقول ما لم يكن رجال الدين فى الطليعة فى معرفة هذه الحقائق الأرثوذكسية التى تثار الآن وكأنها موضوع جديد هبط علينا من السماء، وكأن لم تكن له أصول قديمة... ما لم يكن رجال الدين فى الطليعة فكيف يمكنهم أن يشرحوا لشعبهم وأن يجيبوا على الأسئلة التى توجه إليهم فى هذا الموضوع؟. لذلك رأينا أن نتدارس هذه المشكلة، وطبعا قصدنا أولا أن نفتح أبوابا فى هذا الموضوع، وفى نفس الوقت أرجو أن يكون هناك مجال لأسئلة وأن يجاب على هذه الأسئلة. ولهذا أطلب من الإخوة المسئولين عن النظام أن يوزعوا أوراقا بيضاء على أعضاء هذه الدراسات حتى يمكنهم أن يكتبوا ما يعن لهم من أسئلة قد يثيرها كلامنا فى هذا الموضوع أو أسئلة أخرى قد لا نتعرض لها فى هذه المحاضرة.

---

(١) محاضرة ألقيت فى الحلقات الدراسية التى عقدت لخريجى الكلية الإكليريكية فى الفترة من ٦ إلى ٩ فبراير ١٩٦٧، ونشرت بمجلة الكرازة السنة الثالثة ـ العددين الخامس والسادس ـ يونيه ويوليو لسنة ١٩٦٧م.

معنى الخلاص :

كلمة الخلاص فى اللغة معناها **النجاة أو الإفلات من خطر أو من شر ما**. هذا الخلاص نجده فى الكتاب المقدس بثلاثة معان:

المعنى الأول : الخلاص من عدو ظاهر أو من شدة أو من مرض أو من شر مادى، بهذا المعنى نجد نصوصا كثيرة فى الكتب المقدسة. فموسى النبى كان يكلم شعبه حينما خرجوا، وخرج من ورائهم فرعون وكل جنوده وأدركوهم عند البحر الأحمر، وحينئذ خاف الشعب جداً وارتجفوا ولكن موسى أخذ يعزيهم ويقول لهم «قفوا وانظروا **خلاص الرب** الذى يجريه لكم اليوم» (١).

وطبعا الخلاص المقصود هنا هو الخلاص من فرعون وكل جنوده. وقال داود النبى مشيرا إلى هذا الخلاص فى سفر المزامير «خلصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو» (٢). وطبعا يقصد مرة أخرى المبغض والعدو الظاهر.

وبهذا المعنى أيضا يقول نبى الله يحزئيل بن زكريا للملك يهوشافاط ملك يهوذا، عندما هاجمهم بنو موآب وبنو عمون وكان معهم العمونيون وجمهور كثير جداً، حتى خاف الملك يهوشافاط خوفاً شديداً جداً، فجاء يحزئيل بن زكريا النبى إلى يهوشافاط وإلى شعب يهوذا وقال لهم: «لا تخافوا ولا ترتاعوا بسبب هذا الجمهور الكثير لأن الحرب ليست لكم بل لله، وغدا انزلوا عليهم.. قفوا اثبتوا وانظروا **خلاص الرب** معكم» (٣). هنا كلام يحزئيل ابن زكريا نبى الله «اثبتوا وانظروا خلاص الرب معكم»، يقصد به خلاص مادى، خلاص شعب يهوذا والملك يهوشافاط من العمونيين والموآبيين الذين تربصوا بهم وأرادوا أن يبيدوهم ودخلوا معهم فى حرب.

كذلك أيضا يشير إشعياء النبى فى ص ٦٣ من سفره، إلى هذا النوع من الخلاص المادى أو الخلاص من العدو الظاهر بقوله «فصار لهم **مخلصا**، فى كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته **خلصهم**، بمحبته ورأفته هو فكهم (٤).

---

(١) الخروج ١٤ : ١٣.

(٢) مزمور ١٠٥ (١٠٦) : ١٠.

(٣) أخبار الأيام الثانى ٢٠ : ١٥ – ١٧.

(٤) إشعياء ٦٣ : ٨، ٩.

وإشعياء النبى هنا يشير إلى الشدائد وإلى الضيقات والمتاعب البشرية المادية التى لقيها الشعب وإلى خلاص الله لهم منها، بمعنى أن الله افتقدهم وأقام لهم قضاة ورعاة وأقام لهم قادة فى الحرب، وأبطالا فى المعارك الحربية استطاعوا أن ينقذوا هذا الشعب ويخلصهم من مضايقيهم، ومن الأعداء الظاهرين.

كذلك بهذا المعنى أيضا قال الرسول بولس عن نوح النبى «بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تر بعد خاف فبنى فلكا **لخلاص** بيته» (١).

هذا الخلاص لبيت نوح هو أيضا خلاص مادى - فقد نجاهم الرب من الطوفان الذى تعرضت له البشرية فى زمن نوح، وكذلك يقول ماربطرس الرسول «بنى الفلك الذى **خلص** فيه نفر قليل، أى ثمان أنفس بالماء» (٢). هذا الخلاص هو خلاص الشعب - خلاص نوح وزوجته وأولاده ونساء أولاده من الطوفان الذى كان يهدد البشرية.

كذلك يمكن أن يقال إنه بهذا المعنى المادى الواضح كلام مخلصنا حينما تكلم عن الأبرص الذى كان قد شفاه من برصه قال له «قم وامض **إيمانك خلصك**» (٣) وطبيعى أن هذا الخلاص هو من مرض البرص على وجه الإجمال.

هذا هو الخلاص بمعناه الأول - وهذا هو المعنى الأولى من مفهوم الخلاص، إنه خلاص من شر مادى، خلاص من عدو ظاهرى أو من مرض، خلاص من شدة أو من ضيقة، خلاص من شر ما من الشرور المادية.

أما المعنى الثانى للخلاص هو :

الخلاص من الهلاك الأبدى: أو مما يؤدى إلى هذا الهلاك وأعنى به الخطيئة. وينطوى تحت هذا المفهوم، الخلاص من الخطيئة، والخلاص من عبودية الشيطان، والخلاص من الجحيم، والخلاص من جهنم النار الأبدية.

وبهذا المعنى يقول الوحى الإلهى «فى وقت مقبول سمعتك وفى يوم الخلاص أعنتك، هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم **خلاص**» (٤).

---

(١) العبرانيين ١١: ٧.

(٢) بطرس الأولى ٣: ٢٠.

(٣) لوقا ١٧: ١٩.

(٤) كورنثوس الثانية ٦: ٢.

وبهذا المعنى أيضا يقول مار يعقوب الرسول «من رد خاطئا عن ضلال طريقه قد **خلص نفسا من الموت**» (١). فالخلاص من الموت هنا خلاص من الموت الروحى لأنه خلاص من الضلال.

ويقول مار بولس الرسول أيضاً «وسينقذنى الرب من كل عمل ردئ **ويخلصنى** لملكوته السماوى». (٢).

وطبعا من أجل هذه المهمة الخطيرة جاء مخلصنا من السماء. وهذا هو السبب فى أن اليهود لم يفهموا مسيحنا على حقيقته ولذلك رفضوه لأنهم ظنوه مخلصا من الشر المادى ومن الأعداء الظاهرين، من طراز شمشون الجبار أو يفتاح الجلعادى أو باراق بن ابينوعم، ظنوه مخلصا بهذا المعنى، ظنوه بطلا فى الحروب، رجلا يركب الدابة أو الحصان ويقود بنفسه حربا من ذلك النوع الذى قاده يشوع بن نون أو غيره من قضاة إسرائيل، فلما رأوه قد أتى على غير ماكانوا يتوقعونه بحسب فهمهم الضيق ويخلصهم من الرومان أو يرفع عنهم عبء العبودية، بهذا المعنى الضيق المادى، رفضوه.

وإلى اليوم ينتظر اليهود مخلصا من طراز شمشون الجبار، لأن مخلصنا الرب يسوع كما ظهر لا يرضى رغبتهم، ولا يرضى أمانيهم ولا يرضى المفهوم المادى الذى فهموه عن الخلاص.

ومع ذلك كان هناك قوم من اليهود ينتظرون المسيح المخلص بالمعنى الحقيقى للخلاص، وهو الخلاص من العبودية والخلاص من الخطيئة الأصلية، ولذلك نقرأ فى الكتاب المقدس أن الأنبياء الكبار عبروا بتعبيرات واضحة عن توقعهم وانتظارهم لهذا الخلاص. فيعقوب أبو الآباء عندما جمع أولاده فى نهاية حياته حول سريره ليباركهم ولينبئهم بما سيكون لهم فى آخر الأيام قال لرأوبين «أنت بكرى قوتى وأول قدرتى»، وقال ليهوذا أنه «شبل أسد»، «ولا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتى يأتى شيلوه وله يكون خضوع شعوب...» أما عن دان فقال «يكون دان حية على الطريق، وأفعوانا على السبيل». ويبدو أن يعقوب تذكر هنا الحية القديمة فصرخ بعد ذلك مباشرة وقال «**لخلاصك انتظرتك يارب**» (٣).

---

(١) يعقوب ٥: ٢٠.

(٢) تيموثيئوس الثانية ٤: ١٨.

(٣) التكوين ٤٩: ١٨.

وعن هذا الخلاص تكلم سمعان الشيخ حين حمل الطفل يسوع على يديه وبارك الله قائلا «الآن ياسيدى تطلق عبدك بسلام حسب قولك فإن عينى قد أبصرتا **خلاصك** الذى أعددته أمام جميع الشعوب» (١).

وكذلك فعلت حنة بنت فنوئيل، وكانت «أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل متعبدة بالأصوام والصلوات ليلا ونهارا.. ففى تلك الساعة حضرت تعترف للرب وتحدث عنه كل من كان ينتظر خلاص إسرائيل» (٢).

وإذن فليس كل اليهود كانوا يفهمون الخلاص بمعناه المادى، وإنما كانت هناك بعض الشخصيات من اليهود كانت قلوبهم متفتحة وفهمهم من نوع عميق، فلم يكن يعنيهم الخلاص من أعداء ظاهرين وإنما كان يعنيهم الخلاص من العدو الباطن، الخلاص من الشيطان، الخلاص من الخطيئة القديمة، الخلاص من حالة الإنسان المطرود من الجنة، ومن الفردوس والذى أمسى محروما من حضرة الله. وعن هذا الخلاص قال مخلصنا : «أبوكم ابراهيم تهلل أن يرى يومى فرأى وفرح» (٣).

وعن هذا الخلاص قال مار بولس الرسول وهو يعدد بركات الإيمان الذى كان عند الآباء قديماً «فى الإيمان مات أولئك كلهم غير حاصلين على المواعيد بل إنما نظروها وحيوها من بعيد» (٤).

وعن هذا الخلاص أيضا قال النبى زكريا فى نبوءته «وبدم عهدك أنت أيضاً أطلق أسراك من الجب الذى لا ماء فيه» (٥). ولابد أن النبى يتكلم عن الخلاص من الجحيم لأن الجحيم هو «الجب الذى لا ماء فيه» والذى نزلت إليه أرواح البشر جميعا صالحين وأشرارا، لأن الفردوس كان مغلقا فى وجه الإنسان. فابراهيم واسحق ويعقوب وموسى، وصموئيل، وكل قديسى العهد القديم عندما ماتوا، ذهبت أرواحهم إلى الجحيم، وظلت محبوسة فيه إلى أن جاء المسيح

---

(١) لوقا ٢: ٢٩ – ٣١.
(٢) لوقا ٢: ٣٦ – ٣٨.
(٣) يوحنا ٨: ٥٦.
(٤) العبرانيين ١١: ١٣.
(٥) زكريا ٩: ١١.

مخلصنا، ومات بديلا عن الإنسان، لأن المسيح الفادى ذهب بالروح الإنسانية التى أسلمها على الصليب، ونزل إلى الجحيم وأشرق على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت، وبشرهم ونقل الذين كانوا أسرى الرجاء إلى الفردوس.

ويقول مار بطرس الرسول «الذى به (بالروح الإنسانى) انطلق فبشر الأرواح التى فى السجن» (١). وجاء فى القداس الإلهى قوله «نزل إلى الجحيم عن طريق الصليب». ويقول ماربطرس الرسول أيضاً «فإنه لأجل هذا بشر الموتى» (٢).

ويكرر ماربولس الرسول نفس المعنى فيقول: «لما صعد إلى العلا سبى سبيا وأعطى الناس عطايا. فكونه صعد هل هو إلا أنه نزل أولا إلى أقسام الأرض السفلى» (٣).

وهذا هو السبب فى أنه منذ الاصحاح الثالث من سفر التكوين الذى يروى طرد الإنسان من الفردوس لم نعد نقرأ أو نسمع عن الفردوس إلا فى الاصحاح الثالث والعشرين من إنجيل القديس لوقا حيث يرد وعد المسيح على الصليب للص اليمين أن يدخل معه إلى الفردوس، لأن الفردوس كان مغلقا فى وجه الإنسان لم يفتحه إلا سيدنا بموته وتتميمه عمل الفداء والخلاص. ولذلك نقل الأقباط عيد شم النسيم وهو عيد الربيع الذى يذهب فيه الناس إلى الحدائق والفراديس، نقلوه ليقع دائما تالى يوم عيد القيامة للدلالة على أنه بموت المسيح وقيامته فتح الفردوس فى وجه الإنسان، ونقلت النفوس التى كانت محبوسة فى الجحيم إلى الفردوس المفقود.

إذن هذا هو المعنى الثانى للخلاص، أى الخلاص من الخطيئة، والخلاص من عبودية الجحيم، الخلاص من الهلاك الأبدى، وهذا الذى كان يشير إليه مخلصنا باستمرار عندما كان يقول «لأن ابن البشر إنما أتى ليطلب **ويخلص ما قد هلك**» (٤):

بل والملاك نفسه حينما ظهر فى حلم ليوسف خطيب سيدتنا مريم العذراء قال له «وستلد ابنا فتسميه يسوع لأنه هو الذى **يخلص شعبه من خطاياهم**» (٥) محددا معنى الخلاص هنا بأنه خلاص من الخطايا.

---

(١) بطرس الأولى ٣: ١٩.

(٢) بطرس الأولى ٤: ٦.

(٣) أفسس ٤: ٨، ٩.

(٤) (لوقا ١٩: ١٠)، (متى ١٨: ١١).

(٥) متى ١: ٢١.

وقال السيد المسيح فى بيان مهمته المقدسة «فإنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل **ليخلص به العالم**» (١). وقال أيضا «أنا هو الباب. إن دخل بى أحد **فيخلص**» (٢). ويقول ماربطرس الرسول عن سيده وسيدنا «**وليس بأحد غيره الخلاص** لأن ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحا للناس به ينبغى أن **نخلص**» (٣) ويقول مار بولس الرسول عن فادينا الرب يسوع «**الذى خلصنا** ودعانا دعوة مقدسة» (٤).

ويدخل فى هذا النطاق أيضاً كلام المسيح إلى المرأة الخاطئة لما قال لها «**إيمانك خلصك** فاذهبى بسلام» (٥) وهو يقصد بالطبع الخلاص من خطاياها.

كيف تم خلاصنا بالمسيح:

نعلم أن أبانا آدم عندما أخطأ صدر عليه الحكم بالموت (٦). ولم يمت آدم وحده، بل ماتت معه كل ذريته (٧). لأن هذه الذرية ولدت من آدم بعد أن سقط فى الخطيئة، وبعد أن صدر عليه الحكم بالموت، ولذلك فقد ورثت ذرية آدم حالة آدم نفسها، وصارت خاطئة، ومحكوما عليها بالموت. ومثل الخطيئة مثل المرض، فمن يمرض يرث أولاده الذين يولدون منه وهو فى حالة المرض، نفس المرض. ومثل الخطيئة أيضاً مثل الفقر فمن يلد أولادا وهو فقير يرث أولاده عنه فقره لأنهم ولدوا منه وهو فى حالة الفقر. ولهذا السبب لم يستطع أحد من أولاد أبينا آدم أن يدخل إلى الفردوس، وظل الفردوس مغلقا فى وجه آدم وفى وجه أولاد آدم، ولهذا يقول الرسول بولس صراحة «بخطيئة واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة» و«فى آدم يموت الجميع» (٧).

---

(١) يوحنا ٣: ١٧.

(٢) يوحنا ١٠: ٩.

(٣) أعمال ٤: ١٢.

(٤) تيموثيئوس الثانية ١: ٩.

(٥) لوقا ٧: ٥٠.

(٦) التكوين (٢: ١٧)، (٣: ٣، ١٩).

(٧) كورنثوس الأولى ١٥: ٢٢.

هذا هو مبدأ إنتشار الخطيئة الأصلية، وهو عقيدة مسيحية من عقائد ديانتنا، وعلى أساسها يقوم عمل الفداء والخلاص والكفارة بموت المسيح بديلا عنا «لأنه كما فى آدم يموت الجميع، هكذا فى المسيح سيحيا الجميع» (١).

ولقد ولدنا نحن من آدم بعد أن تلوثت طبيعته فورثنا منه طبيعة ملوثة فاسدة، وقد تغلغل الفساد إلى أعماقها ولم يعد فى الإمكان إصلاح الطبيعة البشرية فاقتضى الأمر أن تتغير هذه الطبيعة بكمالها.

فلا مفر إذن من أن تتغير هذه الطبيعة تغيرا كاملا جذريا، وتستأصل استئصالا تاما، وهذا هو ما يتم على نحو حقيقى فى المعمودية المقدسة فى العهد الجديد.

والمسيح تمم الخلاص على عود الصليب. إن المسيح بصلبه جعل نفسه بديلا عن الإنسان، فأصبحت عقوبة الخطيئة ومسئولية الخطيئة التى على الإنسان منقولة على رأس المسيح، وبهذا المعنى يقول إشعياء النبى «الرب وضع عليه إثم جميعنا» (٢).

وهذا هو معنى الفداء : الفداء معناه أن واحدا يكون بالنيابة عن آخر فيفديه ويكون بديلا عنه، فهنا أصبح المسيح بديلا عن الإنسان فنقلت خطيئة البشرية على رأس المسيح، وهذا هو السبب فى أن المسيح فى بستان جثسيمانى عانى آلاما شديدة، وكانت نفسه حزينة جداً حتى الموت (٣).

وتعبير «حتى الموت» لا يمكن أن يفهم بمعنى المبالغة، لأن المسيح لا يبالغ حينما يقول «نفسى حزينة جداً حتى الموت». لقد كان المسيح فعلا حزينا جداً حتى الموت، والمسيح صلى فى بستان جثسيمانى لا لكى يتخلص من آلام الصليب لأنه من أجل الصليب جاء. وقد قال «لكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (٤). وإنما كان هناك خطر أعظم الخطر أن هذه الآلام كانت كافية لأن تقضى على حياة المسيح الجسدية قبل أن يصلب، ولولا مساندة اللاهوت للناسوت لكان المسيح فعلا قد مات قبل الصليب.

---

(١) كورنثوس الأولى ١٥ : ٢٢.

(٢) إشعياء ٥٣ : ٦.

(٣) (متى ٢٦ : ٣٨)، (مرقس ١٤ : ٣٤).

(٤) يوحنا ١٢ : ٢٧.

والمسيح حينما كان يصلى فى بستان جثسيمانى كان يمثل الإنسانية المطرودة، الإنسانية المحكوم عليها بالموت، الإنسانية وهى تحت قضاء الحكم الإلهى، الإنسانية التى بينها وبين الله عداوة، الإنسانية وهى تحت السيف المسلط عليها، سيف العدالة الذى يتطلب موتها عقابا على خطيئتها، وعلى تخطيها إرادة الله السامية.

إن المسيح فى بستان جثسيمانى ليس فى وضع الله وإن كان لاهوته لم يفارق ناسوته، وإنما كان فى وضع الإنسان. وتدخل اللاهوت هنا موقوف بإرادة اللاهوت نفسه ليكون عمل الناسوت كاملا من غير تدخل اللاهوت لإيقاف الألم، وإن كان اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة واحدة ولا طرفة عين.

إن اللاهوت والناسوت متحدان معا، ولكن هناك فى أوقات معينة يظهر عمل اللاهوت واضحا كما عندما يصنع المسيح معجزة، أو حينما يأمر البحر فيهدأ، أو حينما يأمر الريح فتسكن، أو حينما يأمر الأرواح النجسة فتخرج. وفى هذه المعجزات وأمثالها ليس للناسوت مدخل وإن كان الناسوت متحدا باللاهوت.

كذلك حينما يصلى فى بستان جثسيمانى، وحينما يعانى الآلام إنما هنا فى وضع خاص حيث الناسوت متروكا من اللاهوت لا بمعنى المفارقة، حاشا. ولكن متروكا للألم، متروكا لكمال الألم دون أن يتدخل اللاهوت فينقص من آلام الناسوت لكى تكون آلام الناسوت كاملة لكى يتم عمل الفداء والخلاص، لكى يكون اقتصاص العدالة الإلهية من الجنس البشرى كاملا غير منقوص. ومن أجل ذلك كان الناسوت هنا متروكا للألم. قلت وأقول وأكرر القول «متروكا» هنا لا بمعنى المفارقة ولكن متروكا للألم دون أن يتدخل اللاهوت لإنقاص الآلام حتى يكون الفداء للإنسان كاملا. لقد كان يجب أن يكون اقتصاص العدالة الإلهية من الناسوت إقتصاصا كاملا. ولكن ما هى قدرة هذا الناسوت أن يتحمل هذه الآلام العظيمة؟.

كانت آلام المسيح من ثلاثة أنواع فى بستان جثسيمانى: كانت هناك:

(١) **آلام جسدية**، آلام إنسان مرهق ومتعب من هول الصراع حتى تعكر دمه. فصار عرقه يتصبب كقطرات دم على الأرض، وستزداد هذه الآلام أكثر بالشوك الذى على الرأس، وبالطعنات التى فى الجنب، وبالثقوب التى فى اليدين والقدمين، وبحمل الصليب وبالجلد، وبكل أنواع العذاب التى تقبلها المسيح فى جسده.

(٢) ولكن كانت هناك آلام نفسية أيضا، ذلك لأن المسيح كان كإنسان يستقبل الصلب، ولابد أن يكون فى استقبال الصلب عذاب نفسى عجيب كأى إنسان يستقبل حكما بالإعدام، كم تكون نفسه مريضة ومهمومة؟ والمسيح أيضا لقى من تلاميذه، ومن الناس أشياء كثيرة أمرّت روحه، وجعلت نفسه حزينة لأن عمله قوبل بشر. وما أمر على النفس البشرية من أن تصنع خيرا فيقابل صنيعها بشر. ما أعظم الخيانة وما أشد وقعها على الإنسان؟.

المسيح كإنسان عانى هذه الآلام النفسية على أشدها، ولكن كانت هناك فوق ذلك:

(٣) آلام روحية أعظم شأنا من الآلام الجسدية، ومن الآلام النفسية أيضاً وهذه الآلام هى التى قلنا عنها إنها مسئولية البشرية كلها. وهى اقتصاص العدالة الإلهية من الطبيعة البشرية، ومن الإنسانية كلها، كل هذا كان على رأس المسيح.

كانت إذن آلامه فظيعة وشديدة، لذلك كانت نفسه حزينة جداً حتى الموت. وكان من الممكن لولا الصلاة التى صلاها ولولا استجابة هذه الصلاة بتدخل اللاهوت لمساندة الناسوت لكان المسيح قد مات قبل الصليب.

فاللاهوت ساند الناسوت، وقواه، حتى يمكنه أن يتحمل الألم حتى النهاية. ولو كان المسيح قد مات قبل الصليب. لكان تدبير الله كله قد انتهى إلى لا شئ، ويكون الشيطان قد كسب المعركة ويكون خلاص الإنسان قد تعطل.

لذلك صلى المسيح لكى يتقوى باللاهوت، فيستطيع الناسوت أن يتمم عمل الصليب حتى النهاية ولذلك خرج المسيح من معركة جثسيمانى، قويا، ووقف أمام تلاميذه، ووقف أمام الجماهير بجبروت لا يمكن أبداً أن يفهم، لو كان المسيح متروكا بغير مساعدة اللاهوت. ووقف أمام الجماهير ويقول من تريدون، يقولون يسوع الناصرى. قال لهم : أنا هو، وعند سماع كلمة «أنا هو»، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على وجوههم، وكان سقوطهم أمامه دليلا على سلطان لاهوته من جهة، ودليلا من ناحية أخرى على أن المسيح لو كان أراد أن يهرب من الصليب لكانت الفرصة سانحة له أن يهرب حينما سقطت الجماهير على وجوهها من هيبة عظمته. ومرة أخرى يقول لهم من تريدون؟ يقولون يسوع الناصرى، فيقول قلت لكم أنا هو. إن آلام المسيح كانت شديدة وكانت تكفى لأن تجعل

المسيح يموت جسديا قبل أن يتمم الصليب ولكن اللاهوت ساند الناسوت، على أنه سانده إلى الدرجة الكافية، بحيث أنه بعد أن تمم المسيح عمل الصليب مباشرة مات ومات سريعا، ولم يبق على الصليب أكثر من ثلاث ساعات، على الرغم من أن أى مصلوب عادى كان يقضى على الصليب مدة قد تصل أحيانا إلى ٤٨ ساعة، لأن المصلوب يموت عادة بفعل تمزق بطئ فى شرايين القلب، ولا يكفى هذا للموت سريعا وإنما يأخذ هذا النزيف وقتا طويلا حتى تنتهى حياة المصلوب. وهذا هو السبب فى أن اليهود لما أرادوا أن ينزلوا المصلوبين حتى لا تبقى أجسادهم على الصلبان فى عيد الفصح، سألوا بيلاطس أن تكسر سيقانهم، فجاء الجند وكسروا ساقى الأول والآخر اللذان صلبا معه. أما يسوع فلما انتهوا إليه ورأوه قد مات لم يكسروا ساقيه (١). حتى أن بيلاطس لما علم بموت المسيح «استغرب بيلاطس أنه قد مات هكذا سريعاً واستدعى قائد المائة وسأله هل مات؟ (٢).

ذلك أن المسيح مخلصنا كان من الوجهة الجسدية شابا سليما من كل مرض، وكان طبيعيا أن تطول حياته جداً أكثر من حياة اللصين اللذين صلبا معه. وعلى الرغم من ذلك مات المسيح قبل أن يموت اللصان، مما يدل على أن آلامه لم تكن من نوع واحد، وعلى أنها كانت آلاما شديدة ومريعة، وعلى أن اللاهوت لم يتدخل لينقص من هذه الآلام شيئا.

بقى سؤال كيف ينتقل خلاص المسيح إلينا؟

المسيح تمم الخلاص على الصليب، ولكن كيف ينتقل هذا الخلاص إلى كل فرد منا؟ إن مجرد تعليق المسيح على الصليب ليس هو الذى يخلص الإنسان وإلا لكان قايين قد خلص وكذلك عيسو، وسائر الأشرار الذين كانوا مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى الجحيم.

إن المسيح فادينا قد وفى بموته العدل الإلهى، وقبل فى جسده الحكم الذى حكم به الله على آدم وعلى جنسنا، **لكن خلاص الإنسان موقوف على إرادته هو، ولا يمكن أن يفرض الخلاص على الإنسان فرضا، لابد أنه هو يطلب بنفسه هذا الخلاص، ويقبله إذا عرض عليه**، وعلى ذلك فقديسو العهد القديم الذين نظروا المواعيد من بعيد وحيوها وصدقوها اشتهوا الخلاص وطلبوه بإلحاح.

---

(١) يوحنا ١٩: ٣١ - ٣٣.

(٢) مرقس ١٥: ٤٤.

هؤلاء المنتظرون خلاص الله ذهب المسيح إلى الجحيم وبشرهم ففرحوا. أنهم قدموا القرابين فى حياتهم، وقدموا أعمال الطاعة المختلفة، ولكنهم لم يخلصوا بذبائحهم ولا بأعمالهم التى قدموها. ولكنهم بتقديم الذبائح الحيوانية، وبطاعتهم للشريعة وأعمالهم الصالحة برهنوا على استحقاقهم للخلاص عندما يتم، فكان إذن خلاصهم مرجأ إلى يوم صلب المسيح الفادى، وقد برهنوا على استحقاقهم لهذا الخلاص المرجأ. فيوم أن تمم المسيح الفداء، وكان لهم صك بالخلاص أمكنهم أن يصرفوه يوم الفداء، يوم علق المسيح على الصليب.

أما الآخرون الذين جاءوا بعد المسيح فلا يمكن أن نتصور أنهم قد خلصوا إلا بناء على طلب منهم. ولذلك قال مخلصنا «من آمن واعتمد يخلص، ومن لم يؤمن يدان» (١).

فإذا لم يؤمن الإنسان فلا يمكن أن يتم له الخلاص بالمسيح. والإيمان هو الخطوة الأولى التى تفتح القلب لقبول هذا الخلاص، ومع ذلك ليس الإيمان هو الذى يخلص الإنسان. الإيمان هو استعداد القلب لقبول الخلاص لكن ليس هو الذى يحقق الخلاص. أما الذى يخلص الإنسان فهو المعمودية. لماذا؟ لأن الخلاص هو من المسيح، واستحقاقات موت المسيح.

أرجو أن تلاحظوا هذه المسألة لأنها مهمة وضرورية، وهى جديرة بإنتباهنا. ليس الإيمان هو الذى يخلص الإنسان. الإيمان هو الخطوة الأولى لقبول الخلاص، هو البرهان على أن الإنسان طالب هذا الخلاص، البرهان على أن الإنسان لا يفرض عليه الخلاص فرضاً.

الإيمان هو برهان الحرية وبرهان على أن المؤمن قَبِل خلاص المسيح بإرادته، ولكن ليس هو الذى يخلص الإنسان، الذى يخلص الإنسان هو المعمودية. فما دور المعمودية فى الخلاص؟

---

(١) مرقس ١٦: ١٦.

أهمية دور المعمودية فى تحقيق الخلاص :

إن المعمودية هى الواسطة التى وضعها الرب لكى تكون القناة الموصلة بين بحر الخلاص الذى تفجر فى الصليب، وبين الإنسان طالب الخلاص. ليكن البحر عظيما جداً، وليكن محيطاً، لكن ما لم يصل بين هذا البحر وبين قلب الإنسان قناة فكيف يمكن أن يصل خلاص المسيح إلى الإنسان؟

ولكن من الذى يقوم بهذا العمل؟ هو الروح القدس. قال فادينا عن الروح القدس أنه يأخذ مما لى ويخبركم (١) . فنحن فى المعمودية لا ننزل إلى ماء عادى ولكن ننزل إلى ماء حل عليه الروح القدس بناء على استدعاء الكاهن. **والروح القدس الذى كان يرف على وجه المياه قديما (٢) فأكسبها القدرة على أن تخلق الكائنات الحية التى خلقت فى القديم كالزحافات والأسماك والحيتان والطيور، هو بعينه الروح القدس الذى يرف على مياه المعمودية بناء على استدعاء الكاهن ويكسب مياه المعمودية هذه القدرة على أن تسحق الشيطان وكل قواته الشريرة، وعلى أن تلد الإنسان من فوق ميلادا جديدا من الماء والروح،** يقول الوحى «وبه أيضاً ختنتم ختانا ليس من فعل الأيدى بأن خلع عنكم جسد خطايا البشرية بختان المسيح مدفونين معه فى المعمودية» (٣) .

ففى المعمودية تتم عملية نزع واستئصال الإنسان القديم، وفيها أيضاً تتم عملية خلق من جديد، وهى عملية سرية باطنية غير منظورة لكنها مع ذلك عملية خلق حقيقية، ولولا أن الروح القدس ينقل إلينا فى المعمودية استحقاقات المسيح الكفارية لما كان يمكننا نحن أن نخلص. فالمعمودية إذن هى التى تخلص الإنسان من الخطيئة الجدية، ومن الخطايا الفعلية التى فعلها قبل المعمودية إذا كان بالغا عند عماده. يقول الرسول عن فلك نوح «الذى مثاله **يخلصنا نحن الآن أى المعمودية (٤) . فالمعمودية إذن هى التى تخلص وليس الإيمان،**

---

(١) يوحنا ١٦ : ١٤، ١٥

(٢) التكوين ١ : ٢ .

(٣) كولوسى ٢ : ١١، ١٢ .

(٤) بطرس الأولى ٣ : ٢١ .

وإلا لو كان الإيمان هو الذى يخلص لما كانت هناك قيمة للمعمودية، ولكانت المعمودية فضلة زائدة لا قيمة حقيقية فيها كالزائدة الدودية. وهذا هو السبب فى أن البروتستانت وجمعيات خلاص النفوس البروتستانتية لا يجدون فى المعمودية أية فائدة لأنهم يقيمون كل شئ على أساس الإيمان وحده، ويزعمون أن الإيمان وحده هو الذى يخلص الإنسان وبذلك يخطئون المسيح نفسه له المجد. وقد قال مرة أحد زعمائهم أن المعمودية كالقش.. «ولو لم يقل الكتاب المقدس أن المسيح عمد، لما مددت يدى وعمدت أحدا».. وكأنه يريد أن يقول أن المسيح لم يكن مصيبا فى اشتراطه المعمودية لتحقيق الخلاص.. «ولكنى لا أجرؤ على أن أقول أن المسيح مخطئ، ولذلك لا نستطيع أن ننكر نحن البروتستانت المعمودية، ولكنها فى نظرنا لا قيمة لها، إنها كالقش عديمة القيمة ولا فائدة منها».

- أما كنيستنا الأرثوذكسية، التى تعرف قوة كلمات ربنا يسوع المسيح فلا توافق على هذه المزاعم البروتستانتية وتعتبرها هراء فى هراء، وهرطقة وبدعة وتجديفا على الروح القدس، وتعلم أن الإيمان ليس هو الذى يخلص بل المعمودية. إن الإيمان يجعل القلب فى حالة القبول والإستعداد للخلاص، ولكنه لا يخلص. والخلاص لا يتم بغير المعمودية، التى ينقل بها الروح القدس إلينا استحقاقات المسيح الكفارية، وخلاصه الذى تممه فى الصليب، وليس الماء الذى ينزل فيه المعمد عاديا لكنه ماء حل عليه الروح القدس. وكما يحل الروح القدس على الخبز والخمر فيحولهما إلى جسد المسيح ودمه، هكذا الروح القدس يحل على مياه المعمودية فيكسبها القدرة على أن تخلق الإنسان من جديد فيولد بها ميلادا ثانيا من فوق، ولهذا السبب تسمى المعمودية سرا لأن فيها يتم عمل خفى غير منظور، وعمل لا يقع تحت الحواس لا تراه العين ولا تسمع به الأذن، ولا يدخل فى نطاق الحواس الخمس.

وهنا أريد أن أسأل عن معنى كلمة السر عند البروتستانت. يقولون لك أننا نؤمن بسرين: سر المعمودية وسر العشاء الربانى.. فما معنى كلمة «سر» هنا؟

ما معنى السر فى المفهوم البروتستانتى؟ سلهم هل تؤمنون بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح وإلى دمه؟ يقولون لا. الخبز عندنا خبز فقط والخمر خمر فحسب، فأين إذن السر فى هذا؟ سلهم ما قولكم فى المعمودية؟ هل فيها نعمة غير منظورة؟ يقولون لا، وإذن فما معنى استخدامكم لكلمة «سر» بالنسبة إلى القربان وبالنسبة إلى المعمودية؟

لقد أمست المعمودية فى المفهوم البروتستانتى مجرد علامة ظاهرية أو شهادة علنية كما يقولون! ولكن ليس لها من الوجهة الروحية قيمة حقيقية، إنها صارت شيئا لا قيمة له ولا معنى على الإطلاق.

وإذن كان من المنطق الطبيعى عند البروتستانت أن تمسى المعمودية بلا قيمة حقيقية، وتصير فعلا كالقش؟!!!!

ولكن انظروا إلى تعليم مخلصنا، وتأملوا عبارته المقدسة، «من آمن واعتمد خلص» (١). لم يقل من آمن خلص بل قال من آمن **واعتمد** خلص. **وأما قوله من لم يؤمن يدان، فلأن الإيمان هو الخطوة الأولى التى تمهد للخلاص، فإذا لم يوجد للإنسان الإيمان فإنه يدان على عدم الإيمان. ولكن إذا وجد الإيمان فليس بالإيمان يخلص ما لم تأت الخطوة التالية، وهى خطوة المعمودية التى بها ينقل الروح القدس خلاص المسيح إلى الإنسان، لأن الخلاص هو عمل المسيح.**

وإذا وجدتم نصوصاً فى الكتب المقدسة تشير إلى أهمية الإيمان كقول مار بولس لحافظ السجن «آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك» فمعناه أيضاً أن الإيمان هو الخطوة الأولى التى تقود إلى الخلاص لكن ليس معناه أنها الخطوة الأخيرة.

الخلاص النهائى :

لكن هناك خلاص بالمعنى الثالث للكلمة: فقد يؤمن الإنسان بالمسيح ويعتمد باسم المسيح، لكن يمكن بعد دقيقة واحدة أن يقع فى الخطأ من جديد ما لم يثابر، وما لم يحرص بمجاهدات روحية على الخلاص الذى تمتع به بإيمانه بالمسيح وبالمعمودية المقدسة. وهذا هو فضل الجهاد وفضل الكفاح، وفضل

---

(١) مرقس ١٦:١٦.

الحرب، وفضل النضال ضد الخطيئة وضد الجسد، وضد كل عوامل الشر المتلفة للإنسان، لذلك يجب على الإنسان أن يكافح ويناضل فى سبيل أن يتمتع بالخلاص ويحتفظ به. ومن هنا أهمية فضيلة الثبات والمثابرة. إذ من الممكن للإنسان أن يحرم من الخلاص. من أجل هذا يقول سيدنا «من يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (١).

ويقول مار بطرس الرسول «إن كان البار بالجهد يخلص فالخاطئ والفاجر أين يظهران» (٢).

فلولا جهاد الأبرار كان يمكن للإنسان أن يقع فى حالة الخطيئة من جديد ويرتد إلى حالة العبودية.

إن ما صنعه آدم هو أنه خالف وصية الله، وكل منا يمكن أن يقع فيما وقع فيه آدم من قبل. فهل إذا أخطأنا بعد المعمودية نحتاج إلى عمل المسيح الكفارى من جديد؟ كان يمكن أن نحتاج فعلا إلى صلب المسيح من جديد لو لم يكن فى دم المسيح الكفاية لفداء البشر فى كل العصور، لأن دم المسيح دم ثمين وقيمته أبدية هى قيمة الله نفسه، وهذا هو سر اتحاد اللاهوت بالناسوت ليعطى الفداء قيمته اللانهائية، لذلك رتب الروح القدس فى الكنيسة سر التوبة، وهو بالنسبة للمعمودية بمثابة معمودية ثانية كما تقول الكنيسة المقدسة وهو يتخذ كل قوته من استحقاقات دم المسيح الكفارية التى يستند إليها أيضا سر المعمودية وكل أسرار الكنيسة الأخرى. فإذا كنا بسر المعمودية تغفر لنا الخطيئة الجدية والخطايا السابقة على المعمودية إذا وجدت، فبسر التوبة تغفر لنا الخطايا الفعلية التى ارتكبناها بعد المعمودية. إذن لولا سر التوبة لتجددت مشكلة آدم بالنسبة لكل منا فى كل يوم، وصار محتاجا إلى الخلاص بنفس الإسلوب الذى تم به الخلاص الأول.

هذا هو الرد الذى نرد به على الذين يسألوننا: هل يمكن أن يفقد الإنسان خلاص المسيح الذى حصل عليه فى المعمودية؟ أقول نعم لو أنه لم يكافح. لو أنه لم يثابر، لو أنه لم يستمر على طريق الجهاد وطريق الخلاص، وهذا هو

---

(١) (متى ١٠ : ٢٢)، (٢٤ : ١٣)، (مرقس ١٣ : ١٣).

(٢) بطرس الأولى ٤ : ١٨.

السبب فى أن الكتاب المقدس يوصينا بالصحو الدائم وباليقظة المستمرة. ويوصينا بالكفاح والإجتهاد فى الدخول من الباب الضيق، ويقول لا يكفى للخلاص أن يقول الإنسان يارب يارب من دون أن يفعل مشيئة الله الذى فى السماوات. وعلى ذلك فالأعمال الصالحة ضرورية، ولولا الكفاح الذى يحفظ للإنسان حياة النعمة كان يمكن أن يرتد الإنسان من جديد إلى حالة العبودية وإلى حالة الطرد، ويمكن أن يفقد خلاص المسيح الذى حصل عليه فى المعمودية.

هذا هو الخلاص بالمعنى النهائى، ولا يمكن أن نزعم أننا حصلنا عليه الآن. فما دام المؤمن فى الجسد، فلم يخلص بعد هذا الخلاص النهائى. يمكن أن يقول المسيحى أنه خلص بالمعنى الثانى للخلاص الذى تكلمنا عنه باعتباره إنه عمل المسيح الفدائى الذى حصل عليه فى المعمودية. **أما الخلاص النهائى فلا يجرؤ أحد على القول بأنه حصل عليه طالما هو فى أرض هذا العالم.** هب أن دولتين فى حالة حرب فهل يمكن قبل أن تضع الحرب أوزارها نهائيا أن يقال أن هذه الدولة أو تلك قد انتصرت؟ بالطبع لا. إنه يمكن أن تكون هناك بعض مظاهر لإنتصار أحدهما على الأخرى، ولكن الإنتصار النهائى لا يتم إلا بعد أن تتوقف الحرب. أما الإنتصار فى بعض مواقف أو مواقع فهو إنتصار لا يعول عليه كثيراً لأنه يمكن أن يتحول بعد قليل إلى هزيمة نكراء. كذلك من يجرى فى السباق يمكن أن يظهر منتصراً على زملائه، ولكن هل لأحد أن يقول بأنه فاز نهائيا؟ كلا، فمن المحتمل أن يكبو جواده ويسقط صريعا أو يتخلف، ويسبقه غيره. **هكذا نحن إذا لم نثابر ونجاهد ونكافح، ونظل فى حال من الصحو الدائم يمكن أن نفقد الخلاص الأول الذى حصلنا عليه فى المعمودية.** ألم يذكر بولس الرسول ديماس بين أتباعه؟ (١)، ولكنه يعود فيقول عنه فى رسالة أخرى «ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر» (٢).

لهذا قال الرسول أيضاً «اذكروا مدبريكم الذين كلموكم بكلمة الله انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم» (٣). إنه لم يقل انظروا إلى سيرتهم بل **إلى نهاية سيرتهم**، ولهذا أيضاً قال له المجد فى سفر الرؤيا «كن أميناً إلى الموت فسأعطيك اكليل الحياة» (٤).

---

(١) كولوسى ٤: ١٤.

(٢) تيموثيئوس الثانية ٤: ١٠.

(٣) العبرانيين ١٣: ٧.

(٤) الرؤيا ٢: ١٠.

ويقول أيضاً «تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (١). مما يدل على أن الإكليل أيضا يمكن أن يفقده الإنسان لو أنه لم يثابر على الجهاد إلى النهاية.

ألم يكن الشيطان نفسه ملاكا بل رئيس ملائكة، ومع ذلك فقد مركزه على قول الرسول يهوذا «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا منزلتهم أبقاهم لقضاء اليوم العظيم» (٢).

وآدم نفسه ألم يكن فى قداسة وبر ثم فقد هذا كله وسقط فى الخطيئة؟ فلا يخدع الإنسان منا نفسه ويخلط بين الخلاص الأول الذى نلناه فى المعمودية **والخلاص النهائى الذي يحتاج إلى مثابرة وجهاد، ولن نحصل عليه إلا أخيرا.**

وعلى ذلك فإذا سألك أحد من البروتستانت أو من جمعية خلاص النفوس البروتستانتية قائلا: يا أخ هل أنت خلصت؟ تجيبه قائلا: إنى خلصت بالمعنى الأول لأنى خلصت فى المعمودية من خطاياى الجدية، وخطاياى السابقة على المعمودية، ولكنى لم أخلص بعد بالخلاص بمعناه النهائى. لأن الرسول بولس فى رسالته إلى فيلبى فى الأصحاح الثانى يقول: «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة» (٣). وكأن الخلاص ناقص ويحتاج إلى تتميم، لأن الخلاص الأول الذى تم فى المعمودية يحتاج إلى مثابرة وإلى مجاهدة كاللؤلؤة الثمينة التى ينبغى أن يحافظ الإنسان عليها وإلا فقدها.

فى كنيستنا وفى تحليل صلاة نصف الليل الذى يتلوه الكاهن عبارة مؤثرة لها معنى قوى فى المفهوم الأرثوذكسى حينما يصلى ويقول: «أعنا على سكرات الموت وما قبل الموت وما بعد الموت».

بعض القديسين يقولون لنا أن الأرواح بعد أن تفارق الجسد أيضاً يحاربها الشيطان، وهى فى طريقها إلى العالم الآخر محاولا أن يسحب منها الخلاص، يريد أن يصيبها بسهم من سهامه، ولو بسهم الغرور والكبرياء.

فالجهاد مطلوب من المؤمن إلى آخر نسمة من حياته فى مثابرة دائمة ويقظة مستمرة، وبذلك يتحقق للإنسان خلاصه النهائى.

---

(١) الرؤيا ٣: ١١. (٢) يهوذا : ٦.

(٣) فيلبى ٢: ١٢.

سر الفداء

موضوعات وإجابات على أسئلة

موضوعات وإجابات على أسئلة:

صفحة

١ ـ العقاب لآدم الإنسان على خطيئته

ـ بالروح وبالجسد معاً ـ (١)

سؤال : من مدرس للدين المسيحى فى إحدى مدارس اللغات بالقاهرة.

يقول: فى بداية العالم كانت الروح (الإنسانية) سوف تعيش إلى الأبد، لكن عندما أخطأ آدم عاقبة الله بالموت، فهل هذا العقاب هو موت الجسد أم ماذا؟، مع العلم بأن الجسد، كما نعلم سوف يموت، وهل هذا العقابُ هو طرد الإنسان من الفردوس فقط أم غير ذلك؟، وما هو عقاب الإنسان بخطيئة آدم؟.

الجواب :

جاء فى الكتاب المقدس «وجبل الرب الإله آدم (الإنسان) تراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم (الإنسان) نفساً حية» (التكوين ٢ : ١٧)، (٣ : ١٩).

وإذا كان الإنسان الأول قد خُلق فى الزمان، ولم يكن له وجود أزلى مع الله، فله إذن بداية. وما له بداية، له نهاية. على أن النهاية يمكن أن تكون بالإختفاء أو الزوال. أما الموت بمعنى التحلّل والفساد والتعفّن فهو عقاب أنزله الله بالإنسان بعد أن عصى وصية الله وخالف أمره بأن أكل من الشجرة التى نهاه عن أن يأكل منها أو يمسّها، وهى الشجرة التى عرفت بشجرة معرفة الخير والشر. «وأوصى الرب الإله آدم (الإنسان) قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها، فأنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (التكوين ٢ : ١٦، ١٧)، (٣ : ٢، ٣)، (يعقوب ١ : ١٥). «فإن أجرة الخطيئة هى موت» (رومية ٦ : ٢٣)، (١٦)، (١ : ٣٢)، (٨ : ٦، ١٣)، (غلاطية ٦ : ٨).

ولما كان الله قد أراد للإنسان الحياة الدائمة معه، فأظهر له «شجرة الحياة فى وسط الجنة» (التكوين ٢ : ٩) حتى يمد يده إذا شاء ويأخذ منها «فيحيا إلى الأبد» (التكوين ٣ : ٢٢)، (الجليان ـ الرؤيا ٢ : ٧)، (٢٢ : ٢، ١٤).

فلما عصى آدم الإنسان الوصية الإلهية وأكل من شجرة معرفة الخير والشر بإغراء حواء التى نظرت إلى الشجرة فرأتها جيدة للأكل وبهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، عاقب الله الإنسان بالموت الذى أنذره به «تموت موتاً»، وطرده من الجنة وأقام شرقى الجنة الكروبيم

---

(١) كتب فى ٥ من يوليو لسنة ١٩٩٣م – ٢٨ من بؤونه لسنة ١٧٠٩ ش.

ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة، وبذلك منعه من أن يمد يده ليأخذ من شجرة الحياة حتى لا يحيا إلى الأبد (التكوين ٣ : ٢٣ ، ٢٤).

فالموت إذن عقاب، وهو دخيل ومستحدث، ولم يكن له وجود قبل الخطيئة، وهو قد أدرك الإنسان بعد سقوطه فى الشهوة وفى الخطيئة.

وقد قال آباء الكنيسة صراحة فى مقررات المجامع المسكونية والإقليمية والمحلية إن من يقول إن آدم كان سيموت من غير أن يخطأ فليكن محروماً.

جاء فى قوانين مجمع قرطاجنة الذى انعقد فى قرطاجنة أو قرطاجة سنة ٤١٨م «**فليكن مُبسلاً (محروماً) كل من يقول إن آدم الإنسان الأول خُلق إنساناً مائتاً أى أنه معرض للموت بالجسد، سواء أخطأ أو لم يخطأ، وأنه كان مزمعاً أن يُفارق الجسد، لا قصاصاً على خطيئته، بل لأن ذلك من خصائص طبيعته نفسها**» (القانون ١٠٩).

والموت لآدم هو موت **للروح والجسد معاً**.

أما موت (الروح) فهو الانفصال عن الله **والطرد من حضرته ومن فردوس النعيم** (التكوين ٣ : ٢٤)، (حزقيال ٣١ : ١١)، (التثنية ١٨ : ١٢) وبالتالى فهو الهلاك الأبدى فى جهنم النار والعذاب الأبدى، وهو ما يعرف بـ «**الموت الثانى**» كما جاء فى سفر الجليان - الرؤيا «**الطرح فى بحيرة النار، هذا هو الموت الثانى**» (الجليان - الرؤيا ٢٠ : ١٤ ، ٦) وقوله «من يغلب فلا يؤذيه الموت الثانى» (الجليان - الرؤيا ٢ : ١١) «**البحيرة المتقدة بالنار والكبريت التى هى الموت الثانى**» (الجليان ٢١ : ٨).

وأما (**موت الجسد**) فهو الموت الأول، الذى يتم بافتراق الروح من الجسد، ثم يعود الجسد إلى التراب كما كان، ويرجع إلى الأرض التى أُخذ منها (التكوين ٣ : ١٩). جاء فى سفر الجامعة وصف لعملية الموت «**فيرجع التراب إلى الأرض كما كان**، وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها» (الجامعة ١٢ : ٧) «**الجسد من التراب وإلى التراب يعود**» (الجامعة ٣ : ٢٠)، (مزمور ١٠٢ : ١٤) «يسلم الروح كل بشر جميعاً، ويعود (جسد) الإنسان إلى التراب» (أيوب ٣٤ : ١٥)، (١٠ : ٩)، (٧ : ٢١).

وإذن فالعقاب بالموت شمل الروح والجسد، أما (الروح) فبالانفصال التام عن الله ثم بالهلاك الأبدى فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت، والعذاب فى جهنم النار الأبدية.

وأما الموت (بالجسد) فبالعودة إلى تراب الأرض.

ومع (الموت) دخل (**المرض**) (فيلبى ٢ : ٢٧) ثم تحلل الجسد **والفساد** (مزمور ١٥ : ١٠)، (غلاطية ٦ : ٨)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٤٢)، **والتعفن** (إشعياء ٣ : ٢٤)، (٥ : ٢٤) وما إلى ذلك من توابع الموت ونتائجه.

٢ ـ الغفران بدم المسيح (١)

سؤال : من أحد الآباء الكهنة.

يقول بلسان بعض المسيحيين إذا كان عطاء المسيح له المجد فى سر القربان والمائدة الربانية هو عطاء آخر غير ذبيحة الصليب، فما هو الفرق بين الغفران الذى يناله المؤمنون بتناولهم من المائدة الربانية، والغفران الذى يناله المؤمنون من ذبيحة الصليب، أو بالأحرى لماذا كانت ذبيحة الصليب؟

الجواب :

الفرق بين الغفران الذى يناله المؤمنون فى المائدة الربانية، والغفران الذى ينالونه فى ذبيحة الصليب، **أن الغفران فى سر القربان والمائدة الربانية هو عن الخطايا الفعلية اليومية التى ارتكبها ويرتكبها الإنسان بعد المعمودية. أما فى ذبيحة الصليب فقد قبل المسيح الفادى موت الصليب فى جسده بدلاً من آدم وبنى آدم**، ففداهم من الحكم بالموت المحكوم به عدلاً على آدم وبنيه (**إن الخطيئة دخلت فى العالم بإنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، هكذا سرى الموت إلى جميع الناس لأنهم جميعاً أخطأوا فيه**) (رومية ٥ : ١٢)، (التكوين ٢ : ١٧)، (٣ : ٣، ١٩)، (٦ : ٢٣)، (يعقوب ١ : ١٥)، (١ ـ كورنثوس ١٥ : ٢١)، (رومية ٥ : ١٧).

إن المسيح بموته على الصليب كان كفَارة عن آدم وبنيه (**فهو كفارة عن خطايانا**، وليس عن خطايانا وحدها، بل عن خطايا العالم كله) (١ ـ يوحنا ٢ : ٢). (ولكنهم نالوا البرٌ مجاناً بنعمته، **بفضل الفداء الذى قام به المسيح يسوع، والذى جعله الله كفارة فى دمه لكل من يؤمن به**) (رومية ٣ : ٢٤، ٢٥) (بل هو الذى أحبنا وأرسل ابنه **كفارة لخطايانا**) (١ ـ يوحنا ٤ : ١٠)، (٢ ـ كورنثوس ٥ : ١٨، ١٩) فإذا كنا، ونحن أعداء، **قد تصالحنا مع الله بموت ابنه**) (رومية ٥ : ١٠)، (أفسس ٢ : ١٦) (الذى لم **يضَن بابنه، بل بذله إلى الموت من أجلنا أجمعين**) (رومية ٨ : ٣٢).

والغفران الذى حققه المسيح الفادى بموته على الصليب بدلاً من الإنسان، يناله المؤمنون فى المعمودية. ذلك أن المعمودية هى القناة التى ينقل بها الروح

---

(١) كتب فى ٣٠ أبريل لسنة ١٩٩٢م – ٢٢ من برموده لسنة ١٧٠٨ ش.

القدس فى سر العماد استحقاقات المسيح الفادى الكفارية (فمن آمن واعتمد خلص) (مرقس ١٦ : ١٦) (توبوا وليعمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح فتغفر خطاياكم) (أعمال ٢ : ٣٨)، (أعمال ١٦ : ٣٠- ٣٣) (وكان هذا رمزاً **للمعمودية التى تُخلصكم الآن أنتم** أيضاً، لا بإزالة وسخ الجسد، بل بعهد صادق النية مع الله بقيامة يسوع المسيح) (١. بطرس ٣: ٢١) (أحب المسيح الكنيسة **وضحى بنفسه من أجلها ليقدسها ويطهرها بماء الاغتسال وبالكلمة**) (أفسس ٥ : ٢٦)، (الجليان ـ الرؤيا ١ : ٥).

أما الخطايا التى يرتكبها المؤمن بعد المعمودية، وبها يُكررُ من جديد خطيئة آدم الأول، الأمر الذى يحتاج إلى دم المسيح (وليس بأحد غيره الخلاص) (أعمال الرسل ٤ : ١٢)، (متى ١ : ٢١) **هذه الخطايا تغفر فى سرّ القربان** (ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطيئة) (١. يوحنا ١ : ٧)، (١. كورنثوس ٦ : ١١)، (أفسس ١ : ٧)، (العبرانيين ٩ : ١٤)، (١. بطرس ١ : ١٩).

من هنا فإن المائدة الربانية وسر القربانِ هى بعينها ذبيحة الصليب ولكن من غير سفك دم المسيح من جديد، لأنه سُفك مرة واحدة على الصليب، وأما استحقاقاته فتشمل الذين يأخذون منه فى سر القربان إلى الأبد، وهذا هو معنى **قوله (إذ هو حىٌ كل حين ليشفع فيهم)** (العبرانيين ٧ : ٢٥)، (٩ : ٣٤)، (رومية ٨: ٣٤)، (١. تيموثيئوس ٢ : ٥)، (١. يوحنا ٢ : ١).

٣ ـ التبرير من الخطيئة الأصلية ؟! (١)

العزيز الأب المحترم يوسف مظلوم.

سلام ومحبة ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح، أرجو لكم موفور الصحة والتوفيق.

وبمناسبة صوم الميلاد، وعيد الميلاد المجيد، أهنئكم وأرجو مصلياً أن يحفظ الله حياتكم بموفور السلام والتوفيق في خدمتكم الراعوية والكهنوتية والصحفية.

لقد استوقفني فى تعليق الأب المحترم الفونس عبد الله على فصل الإنجيل فى الأحد الأول من كيهك (كما جاء فى لِمساجى فى عددها الصادر فى ١٢/ ديسمبر ١٩٩٣ـ الصفحة ٣) قوله «إن عظمة يوحنا تظهر أول ما تظهر فى ميلاده... **وفى تبريره من الخطيئة الأصلية، وهو فى بطن أمه**، فذهلت حقاً وتعجبت، كيف يقول الأب الفونس إن يوحنا تبرر من الخطيئة الأصلية، وهو فى بطن أمه،،؟ إن هذا التعبير يتعارض مع قضية الفداء بصلب المسيح له المجد وموته، فإذا كان يوحنا، أو حتى مريم العذراء، يمكن أن يتبرر من الخطيئة الأصلية وهو فى بطن أمه، أى من قبل أن يتمم المسيح له المجد مهمة الفداء بصلبه وموته، يكون أيضاً مجيء المسيح من السماء لا معنى له ولا داعى له. إن قضية الفداء بموت المسيح هى الحقيقة العظمى التى يقوم عليها كل بناء المسيحية الشامخ. إن تعليم المسيحية أنه ما من أحد من الأبرار والقديسين أمكنه أو يمكنه أن ينال الخلاص إلا بعمل المسيح الكفارى، وعندنا كمسيحيين أن يوحنا المعمدان بعد أن مات نزلت روحه إلى أسفل، إلى الجحيم، وظل هناك مع (المنتظرين الفداء) إلى أن نزل المسيح له المجد من القبر واقتحم بسلطان لاهوته أبواب الجحيم وأخرج آدم وكل القديسين المنتظرين، من الجحيم، ونقلهم إلى الفردوس، (أفسس ٤ : ٩).

«وما المعنى من قوله (صعد) سوى أنه نزل أولاً إلى أسافل الأرض.

«سبى سبياً وأعطى الناس عطايا، (أفسس ٤ : ٨).

«وليس لأحد بغيره الخلاص، (أعمال الرسل ٤ : ١٢).

مع تحياتى وإعزازى أرجو لكم أطيب التمنيات،

---

(١) كتب فى ٢٢ من ديسمبر ١٩٩٣م– ١٣ من كيهك ١٧١٠ ش.

٤ ـ لماذا سقط آدم وهو على صورة الله؟

سؤال : من الابن الدكتور الفونس ميخائيل سعد ـ رشيد ـ البحيرة.

يقول لماذا سقط آدم وهو على صورة الله؟

الجواب :

نعم إن آدم خُلق على صورة الله. على أن الله خلق الإنسان حراً، وفى هذه الحرية هو على صورة الله لأن الله هو الحر الأعظم «إن إلهنا فى السماء. كلما شاء صنع» (مزمور ١١٥ : ٣) «كل ما شاء الرب صنع فى السماوات وفى الأرض، فى البحار وفى كل اللجج» (مزمور ١٣٤ : ٦).

هذه الحرية شرف الإنسان وكرامته على سائر المخلوقات، الحية وغير الحية.

فالحيوانات العجماوات، ومنها الوحوش والبهائم والطيور والدواب والحشرات وسائر الهوام والميكروبات كلها تتحرك بدافع من غريزتها، فالأسد والنمر والذئب والضبع والكلب ليس لها حرية فى حركتها وتصرفاتها، وكذلك الحمامة واليمامة والعصفور ـ ثم العقرب والعنكبوت والبعوضة والذبابة والفراشات بأنواعها، ثم جميع الميكروبات والكائنات الصغيرة ليس لها فى سلوكها حرية، فتحكمها غريزتها. ولذلك فإنها لا تختلف فى حركاتها وسكناتها عن بعضها البعض. فكل أسد يتصرف تصرف الأسد الآخر، وكل كلب يفعل ما يفعله الكلب الآخر... وهكذا كل عجل وكل حمار وكل حمامة وكل عصفورة وكل ذبابة لا فرق فى تصرفها عن تصرف الأخرى إذا كانت من نفس الفصيلة.

أما بالنسبة للإنسان، فالأمر يختلف. فالأخ يختلف عن أخيه شقيقه وهما من أب واحد وأم واحدة، حتى لو كانا توأمين. فقايين وهابيل كانا شقيقين ومع ذلك كان هابيل صالحاً تقياً، وكان قايين طالحاً شريراً. وكذلك يعقوب وعيسو... وهكذا، أما فى الحيوانات العجماوات فلن تجد إختلافاً بين إثنين منها إذا كانا من نفس النوع أو الفصيلة، ذلك لأنها كائنات لا حرية لها.

أما الإنسان فهو الحيوان الوحيد الذى يتميز بالحرية، وهو وحده الذى يملك أن يختار طريقه. ولذلك يقول أحد الفلاسفة «الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقدر على أن يخطىء أو يخطأ».

والحق أيضاً إن البشر والملائكة هم دون سائر المخلوقات يتميزون بأنهم **كائنات حُرة عاقلة مريدة مسئولة** ـ أما الكائنات الأخرى من غير البشر والملائكة فلا حرية لها ولا إرادة، لأنها

كائنات غير عاقلة، وبالتالى فهى غير مسئولة، بمعنى لا جزاء لها ولا عقاب، وليس لها أمام الله حساب كما للبشر والملائكة حساب.

لذلك فإن الإنسان على الرغم من أنه حقاً على صورة الله ومثاله، لكنه يمكنه أن يخطأ أو يخطىء، لأنه كائن حر، والحرية هى شرف الإنسان وكرامته، بها يسمو عن سائر المخلوقات الحية والجامدة.

فالخطأ والخطيئة واردان فى حياة الإنسان لأنه كائن حر.

أما الخطأ فهو الفعل الخاطىء غير المتعمد وغير المقصود وغير المنتوَى، وقد يرجع إلى جهل الإنسان أو علمه المحدود، أو تسرعه فى الحكم وما يعرف بخداع الحواس، كمن يرى السراب مثلاً فيحسب أنه ماء، أو قد يرى الملعقة فى الكوب أو المجداف فى الماء مكسوراً، أو يتطلع إلى السماء فيحكم أنها زرقاء، ويطلق على البحر مسميات هى كما تبدو له فيقول عن البحر إنه أبيض أو أسود أو أزرق... وغير ذلك من أخطاء فى الحساب أو الهندسة أو فى عالم البصريات والمسموعات وغيرها.

وأما الخطيئة فهى الخطأ المقصود والمتعمد للوصايا الإلهية بدافع الرغبة والشهوة، والقصد فى المخالفة، تحقيقاً للميول والنزوات والإصرار على التصرفات الأثيمة، بروح العناد والكبرياء التى تمثلت فى إبليس أو الشيطان الذى لم يخطأ فقط، ولكنه أصر على الخطأ، ولم يتب عنه ولم يعترف حتى الآن بخطئه وإنما مازال مصراً عليه بروح العناد والكبرياء والتجبر.

والخلاصة إن الإنسان سقط فى الخطيئة والمعصية على الرغم من أنه خُلق على صورة الله، لأنه وهو كائن حر، اختار لنفسه الشر - لا عن جهل - ولكن بإرادة متعمدة على الرغم من أن الله أنذره وتوعده، بنتيجة خطيئته. وقال له «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (التكوين ٢ : ١٦، ١٧) ولما خالف آدم الوصية وتعرى حاول أن يتنصل من مسئولية فعلته، فلما سأله الرب الإله ليمهد له طريق التوبة بالإعتذار، أجاب قائلاً «المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت» (التكوين ٣ : ١٢) وبهذا أزاح المسئولية عن نفسه وأحالها على حواء إمرأته وعلى الله الذى خلق له حواء معينة.

وكذلك فعل الله مع قايين قبل أن يقتل أخاه هابيل، إنه أنذره قائلاً «لماذا اغتظتَ ولماذا سقط وجهُك. إن أحسنت، أفلا رفع. وإن لم تُحسن فعند الباب خطيئة رابضة **وإليك إشتياقها**، وأنت تسود عليها» (التكوين ٤ : ٦، ٧). ولكن على الرغم من إنذار الله لقايين، لم ينتفع قايين بالإنذار، «وقال قايين لهابيل أخيه: لنخرج إلى الصحراء. فلما كانا فى الصحراء وثب قايين على هابيل أخيه فقتله» (التكوين ٤ : ٨).

فاللوم أخيراً واقع على الإنسان الذى لم ينتفع بالوصية التى أُعطيت له لخيره وخير المجتمع الإنسانى كله، لأن الإنسان هو الذى بحريته وإختياره أراد أن يعصى الله منجذباً إلى شهوته وميوله، وكان يمكنه إذا أراد أن ينتصر عليها «إن أحسنت أفلا رفع»؟.

٥ ـ هل غفرت الخطيئة لمريم العذراء قبل صلب المسيح

سؤال: من أحد الحضور فى الكنيسة.

هل غفرت الخطيئة الجدية لمريم العذراء قبل الصليب؟

الجواب:

كلا البتة. إن مريم العذراء كانت فى حاجة إلى الخلاص من الخطيئة الجدية، شأنها فى ذلك شأن جميع الناس من بنى آدم وحواء، وذلك لأنها ولدت بحسب الطبيعة من أب وأم، رجل وإمرأة، فكان لابد لها من أن ترث حالة الخطيئة الأصلية التى صار فيها آدم وحواء نتيجة مخالفتهما للوصية الإلهية بالأكل من الشجرة المنهى عنها. «لأن أجرة الخطيئة هى الموت» (رومية ٦ : ٢٣)، (التكوين ٢ : ١٧)، (يعقوب ١ : ١٥).

ولما كان دم آدم قد تلوث بالخطيئة، ولما كان آدم لم يلد أولاداً إلا بعد أن تلوث بالخطيئة، فكان طبيعياً أن يرث أولاده من دمه لوثة الخطيئة، فيتلوثوا بها إذ أنه «قد صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض كلها» (أعمال الرسل ١٧ : ٢٦). ولما كان كل إنسان يخلق من دم آدم الذى يصل إليه من والده بالزواج، فكان لابد أن تصل لوثة الخطيئة الأصلية إلى كل إنسان من خلال دم والده طال ما أنه يولد بحسب الطبيعة من رجل وإمرأة. وهذا ما يعرف بإنتشار الخطيئة الأصلية، قال الكتاب المقدس «بإنسان واحد (وهو آدم) دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة (دخل) الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم أخطأوا فيه» (رومية ٥ : ١٢)، (التكوين ٣ : ٦)، (١ .. كورنثوس ١٥ : ٢١). ومعنى إجتياز الموت إلى جميع الناس أن الموت ـ بمعنييه الأبدى والزمنى ـ وقد سرى إلى جميع الجنس البشرى من خلال الدم الملوث بالخطيئة الأصلية والذى تلوث أولاً فى آدم، ثم انتقل إلى كل ذرية آدم بالزواج. ولهذا قال النبى داود «ها أنذا بالإثم حبل بى، وبالخطيئة اشسهتنى أمى» (مزمور ٥٠ : ٥)، وجاء فى سفر المزامير أيضاً «زاغ الخطاة من الرحم، ضلوا من البطن» (مزمور ٥٧ : ٣). وجاء فى سفر إشعياء «ومن البطن سميت عاصياً» (إشعياء ٤٨ : ٨). ويقول العلامة القديس ديديموس الضرير رئيس مدرسة الأسكندرية اللاهوتية فى القرن الرابع (٣١٣ : ٣٩٨) «أن خطيئة الأبوين الأولين هى الخطيئة القديمة التى طهرنا منها يسوع المسيح فى معموديته» (فى الثالوث ٢ : ١٢) «أن جميع أولاد آدم قد ورثوها، وقد انتقلت إليهم بالخلفة (أى بالتوالد) عن طريق المعاشرة الجنسية بين الوالدين وهذا هو السبب فى أن المسيح ولد من عذراء» (فى الرد على المانويين: ٨).

ولهذا السبب ولد المسيح من عذراء لم تعرف رجلاً. فإن الجسد الذى اتخذه الله الكلمة من مريم واتحد به، لم يختلط به زرع رجل، وإنما تكّون بالروح القدس، ولهذا لم يرث المسيح لوثة الخطيئة الأصلية، لأن الجسد الذى اتخذه لم يأت من دم رجل، فلم تنتقل إليه لوثة الخطيئة الأصلية.

وعلى ذلك فالمسيح، والمسيح وحده، هو الذى حبل به من غير دنس أما العذراء القديسة مريم فقد إنتقلت إليها لوثة الخطيئة الأصلية لأنها ولدت ثمرة لزواج والديها يواقيم وحنة.

من ثم فإن العذراء مريم كانت فى حاجة إلى الخلاص من لوثة الخطيئة الأصلية بدم الفادى الوحيد، والمخلص يسوع المسيح «لأنه ليس لأحد بغيره الخلاص» (أعمال الرسل ٤ : ١٢)، (١٠ : ٤٣)، (متى ١ : ٢١)، (١ . تيموثيئوس ٢ : ٥، ٦).

ولهذا جهرت العذراء الطاهرة بهذه الحقيقة فى تسبحتها التى فاهت بها قائلة «تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى» (لوقا ١ : ٤٦، ٤٧).

ولوكان ممكناً أن العذراء مريم تغفر خطيئتها الأصلية التى وصلت إليها من أبويها، قبل الصليب، لكان معنى هذا أن صلب المسيح لم يكن ضرورياً للخلاص. فإذا لم يكن صلب المسيح ضرورياً للخلاص، فلا يكون لمجيئه وتجسده معنى، بينما أنه له المجد قال أنه جاء ليخلص العالم (متى ١ : ٢١)، (يوحنا ٣ : ١٧)، (١٢ : ٢٧، ٤٧)، (١ . يوحنا ٤ : ١٤)، فقد أتى ليخلص من وما قد هلك (متى ١٨ : ١١)، (لوقا ٩ : ٥٦)، (١٩ : ١٠)، (أعمال ٤ : ١٢)، (١٣ : ٢٣)، (١ . تيموثيئوس ١ : ١٥)، (العبرانيين ٩ : ٢٦)، (١ . يوحنا ٣ : ٥).

فالعذراء الطاهرة مريم، نالت الخلاص من الخطيئة الأصلية، بموت المسيح بدلاً من الإنسان، شأنها شأن كل من ولد من آدم.

٦ ـ خطاب إلى أحمد حسين (١)

كتب الأستاذ أحمد حسين مقالاً من صفحتين، في مجلة (الدعوة) في عددها الرابع والعشرين (غرة جمادى الثانية ١٣٩٨ ـ مايو ١٩٧٨) تحت عنوان «رسالة إلى الرئيس الأمريكى جيمس كارتر» يدعوه فيها إلى الإسلام، ويقول له صراحة» اسلم تسلم.

ولست أنكر عليك أن تكتب لكارتر وغير كارتر تدعوه إلى الإسلام. ولكنى أتساءل لماذا تكتب مثل هذه الرسالة باللغة العربية، وتنشرها بين قراء العربية، مالم يكن هدفك أن تدعو إلى الإسلام كل من يدين بالمسيحية... وذلك من خلال رسالة مفتوحة إلى رئيس دولة مسيحى...

هل الفداء أسطورة كنسية ؟

وياليتك تدعو إلى الإسلام فى ذاته مبرزاً فضائله شارحاً ما فى تعاليمه من جمال ونفع... فهذه دعوة إيجابية لا ننكرها عليك، فهى من حقك، ومن حق كل من آمن بدين أن يدعو إلى دينه... إنما الذى دهشنا له كما دهش له كل مسيحى قرأ مقالك، أن تكون دعوتك إلى الإسلام على حساب سخريتك الواضحة بالمسيحية... فلقد أبحت لنفسك أن تهاجم المسيحية فى عقائدها، واتهمتها بالشرك والوثنية فى أكثر من موضع فى مقالك. وذهبت إلى أن عمل الفداء الذى قام به المسيح له المجد إنما هو «أسطورة كنسية» لا أساس لها من الكتاب المقدس... ومضيت فى طريقك تهدم وتحطم من غير حساب... حتى تتساءل فى جرأة غريبة وتقول «إذا كان موضوع المسيح هو هذه القصة، قصة الفداء والكفارة، فلماذا لم يصرح بها المسيح مرة واحدة لا عن قرب أو بعد، وترك الأمر للكنيسة لتصوغه بعد أربعة قرون، لتفرضه على الناس بقوة الحديد والنار ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً...» وقد تجاهلت النصوص الكثيرة التى نطق بها فم المسيح له المجد قبل صلبه منبئاً عن صلبه وموته وقيامته، وأن هذا الصلب والموت كان لا مفر منه لخلاص الإنسان، وأنه لأجل هذا الغرض والقصد قد جاء من السماء... «فهو حمل الله الذى يرفع خطيئة العالم» (يوحنا ١ : ٢٩ ، ٣٦) وهذا دليل محبته للبشر، ورغبته فى خلاصهم بعد أن صار هذا الخلاص متعذراً على الإنسان... وهو الخلاص الذى اشتهاه الأنبياء والقديسون إبتداء من آدم بعد أن طُرد من الفردوس عقاباً على خطيئته، كما تنطق بذلك أقوال الأنبياء فى كل أسفار العهد القديم... ولقد ظل الفردوس مغلقاً فى وجه جميع البشر، بنى آدم، فإنحدروا جميعاً بعد موتهم

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ٣٠ من يوليو ـ تموز لسنة ١٩٧٨م ـ ٢٣ من أبيب لسنة ١٦٩٤ش.

إلى الجحيم فى العالم السفلى ولم يخرجوا منه إلا بعد أن قدم المسيح الكفارة عنهم، بموته فى الجسد (لأن لاهوته لا يموت) وبذلك فداهم، من الهلاك الأبدى، وبعد موته اقتحم الجحيم (مزمور ١٠٦ : ١٦) وأخرج منه آدم وبنيه من الأنبياء والقديسين المنتظرين الخلاص والفداء (التكوين ٤٩ : ١٨)، (مزمور ١١٨ : ١٦٦، ١٧٤)، (زكريا ٩ : ١١، ١٢) ونقلهم إلى الفردوس. ولقد وعد وهو على الصليب، اللص المصلوب عن يمينه بعد أن آمن به مخلصاً وملكاً وناداه «اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك» (لوقا ٢٣ : ٤٢) ... وقال له مصرحاً «اليوم تكون معى فى الفردوس» (لوقا ٢٣ : ٤٣) وقد بر بوعده، إذ بعد أن تمم الخلاص والفداء والكفارة نزل إلى العالم السفلى وأشرق بنوره على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت (لوقا ١ : ٧٩)، (إشعياء ٩ : ٢)، وبشرهم بالخلاص (١ . بطرس ٣ : ١٩)، (٤ : ٦)، (إشعياء ٤٩ : ٩)، (٦١ : ١)، ففرحوا به وتعبيراً عن فرحتهم «قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين» (متى ٢٧ : ٢، ٥٣) وقال المسيح له المجد «لقد تهلل إبراهيم أبوكم مُشتهياً أن يرى يومى، وقد رأى وفرح» (يوحنا ٨ : ٥٦) ثم نقل جميع القديسين والأنبياء إلى الفردوس، فكان هذا النقل سبباً سعيداً إلى الفردوس» «لما صعد إلى العُلى أخذ أسرى كثيرين، وأعطى الناس عطايا. وما المراد بقوله صعد سوى أنه نزل أولاً إلى أسافل الأرض. فهذا الذى نزل هو نفسه الذى صعد إلى فوق السماوات كلها ليملأ كل شىء» (أفسس ٤ : ٨- ١٠).

المسيح هو الذى أنبأ بعمل الفداء

وإذا شئت، فها هى بعض النصوص من أقوال المسيح له المجد التى تثبت أن الفداء كان ضرورة للخلاص، وأن المسيح قد جاء من السماء من أجل إنجاز الفداء والخلاص للإنسان بموته على الصليب.

«ومنذ ذلك الوقت بدأ يسوع يبين لتلاميذه **أنه ينبغى أن يمضى إلى أورشليم، ويعانى آلاماً كثيرة من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتل ثم فى اليوم الثالث يقوم.** فأخذه بطرس إليه وراح يكلمه بعنف قائلاً «حاشاك يارب أن يحدث لك هذا» فإلتفت وقال لبطرس: «**اغرب عنى يا شيطان. إنك عثرة لى، لأنك لا تفكر فيما لله بل فيما للناس**» (متى ١٦ : ٢١ : ٢٣)، (مرقس ٨ : ٣١- ٣٣)، (لوقا ٩ : ٢٢) مما يدل على أنه كان قد وضع الصليب أمامه، لأنه بموت المسيح يكون الفداء للبشر.

«لأنه كان يعلم تلاميذه قائلاً لهم: إن ابن الإنسان سوف يسلم إلى ايدى الناس فيقتلونه، وفى اليوم الثالث يقوم. بيد أنهم لم يفهموا هذا القول، وتهيبوا أن يسألوه» (مرقس ٩ : ٣١، ٣٢)، (لوقا ٩ : ٤٤، ٤٥).

«وفيما هم راجعون إلى الجليل، قال لهم يسوع: «إن ابن الإنسان سوف يُسلم إلى أيدى الناس، فيقتلونه، وفى اليوم الثالث يقوم، فحزنوا جداً» (متى ١٧ : ٢٢، ٢٣).

«وكانوا فى الطريق صاعدين إلى أورشليم، يتقدمهم يسوع، وكانوا يتبعونه مضطربين خائفين. فانتحى بالإثنى عشر مرة أخرى وراح يُنبئهم بما سيحدث له قائلاً لهم: «ها نحن أولاً صاعدون إلى أورشليم ولسوف يُسلم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الوثنيين. فيهزأون به ويبصقون عليه ويجلدونه ثم يقتلونه، وفى اليوم الثالث يقوم» (مرقس ١٠ : ٣٢– ٣٤)، «ويجلدوه ويصلبوه وفى اليوم الثالث يقوم» (متى ٢٠ : ١٧– ١٩)، (لوقا ١٨ : ٣١– ٣٤).

وفى موضع آخر، ومناسبة أخرى، تكلم قبل آلامه فى الأيام السابقة على صلبه، مشيراً بوضوح إلى أنه جاء من السماء من أجل فداء الإنسان وخلاصه، وقال «من أجل هذا قد أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢ : ٢٧).

وقال أيضاً عن نفسه «فإن ابن الإنسان نفسه لم يأت ليُخْدَم بَل ليَخْدُمَ. وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (متى ٢٠ : ٢٨)، (مرقس ١٠ : ٤٥) وقال: «هذا هو دمى للعهد الجديد الذى يُسفك عن كثيرين لمغفرة خطاياهم» (متى ٢٦ : ٢٨)، (مرقس ١٤ : ٢٤)، (لوقا ٢٢ : ٢٠) وقال «لأن ابن الإنسان إنما جاء ليسعى فى طلب الذى قد ضاع ويخلصه» (لوقا ١٩ : ١٠)، (متى ١٨ : ١١).

وعندما قام الرب يسوع من بين الأموات بسلطان لاهوته، قال الملاكان للنسوة اللائى ذهبن إلى القبر فى فجر يوم أحد القيامة حاملات الحنوط لتضميخ جسده «لماذا تطلبن الحى بين الأموات؟ إنه ليس هنا، وإنما قد قام. اذكرن ما كلمكن به وهو بعد فى الجليل: قائلاً إن ابن الإنسان **ينبغى أن يُسلم إلى أيدى أناس خطاة ويُصلب**، وفى اليوم الثالث يقوم، **فتذكرن كلامه**، وعدن من القبر، وأخبرن الأحد عشر والباقين جميعاً بهذا كله» (لوقا ٢٤ : ١– ٩).

ولما ظهر المسيح له المجد بعد قيامته المجيدة من بين الأموات، لإثنين من تلاميذه «منطلقين فى ذلك اليوم إلى قرية عِمّاوس وكانا يتحدثان معاً عن يسوع المسيح وأحداث الصلب والقيامة «كيف أن رؤساء الكهنة وحكامنا قضوا عليه بالموت وصلبوه، وقد كنا نرجو أن يكون هو المزمع أن يخلص إسرائيل. ولكن مع ذلك كله، فإن هذا هو اليوم الثالث منذ أن حدث ذلك، غير أن بعض النسوة من جماعتنا قد أدهشننا إذ ذهبن باكراً إلى القبر، فلم يجدن جسده، وقد جئن قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حى. وقد مضى بعض الذين كانوا معنا إلى القبر فوجدوا كما قالت النسوة. أما هو فلم يروه. فقال لهما (الرب يسوع): «**أيها الغبيان والبطيئا القلب فى الإيمان بكل ما نطقت به الأنبياء. أما كان ينبغى أن يكابد المسيح هذه الآلام ثم يدخل إلى حيث مجده؟ ثم أخذ يفسر لهما مبتدئاً من موسى ومن جميع الأنبياء الأمور المختصة به فى كل الأسفار المقدسة**» (لوقا ٢٤: ١٣- ٢٧).

ولما ظهر لتلاميذه وهم مجتمعون فى العلّية قال لهم: «**هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم، إذ قلت لكم إنه لابد أن يتم كل ما هو مكتوب عنى فى شريعة موسى ونبوءات الأنبياء والمزامير». حينئذ فتح أذهانهم ليفهموا الأسفار المقدسة.** وقال لهم: «**هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغى أن يتألم المسيح ثم يقوم من بين الأموات فى اليوم الثالث، وينبغى أن يُبشر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا بين كل الأمم...** (لوقا ٢٤: ٤٤- ٤٧) ويقول الوحى الإلهى بفم القديس بولس الرسول «صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع إنما جاء إلى العالم ليخلص الخطأة» (١. تيموثيئوس ١: ١٥).

٧ - خطاب إلى أحمد حسين

«إنتشار الخطيئة فى نسل آدم وذريته» (١)

هل المسيحيون عميان وأغبياء:

ولقد بلغ بك الأمر أن اتهمت المسيحيين فى عقولهم، كما لو كانوا عمياناً جهالاً، أغبياء لا يفطنون ولا يفقهون، من ذلك قولك عن عقيدة إنتشار الخطيئة فى آدم وذريته «ولم يقف مسيحى واحد ليسأل نفسه. وما هو ذنب البشر منذ أيام آدم حتى مجىء المسيح وهم مئات وألوف الملايين حتى يحملوا خطيئة آدم مهما كانوا محسنين. ولم يسأل مسيحى واحد نفسه، وماذا كان الشأن بالنسبة للأنبياء والرسل قبل المسيح، ما هو الشأن بالنسبة لإبراهيم وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وكل الأنبياء الذين سبقوا السيد المسيح، أكلّ هؤلاء كانوا يعيشون فى الخطيئة بإعتبارهم سابقين على عملية الكفارة»؟.

إنتشار الخطيئة فى نسل آدم وذريته:

أليس عجباً وعجيباً أن تفترض فى نفسك أن المسيحيين لم يكن فيهم مسيحى واحد ذكى يمكنه أن يسأل سؤالك المعجز الذى لم يخطر على قلب بشر منهم... تقول «ولم يقف مسيحى واحد ليسأل نفسه: ما هو ذنب البشر منذ أيام آدم حتى مجىء المسيح وهم مئات وألوف الملايين حتى يحملوا خطيئة آدم»... وإنى أطمئنك أن المسيحيين ليسوا أغبياء كما تظنهم... وليس سؤالك الذكى العبقرى قد غاب عن ذكائهم، ولكنهم قد وجدوا الجواب على هذا السؤال فى كتابهم المقدس، وعرفوا أن الابن يرث المرض من أبيه وجده... ذلك أن أبناء آدم قد وُلدوا منه وهو فى حالة الخطيئة، وقد فسدت بالخطيئة طبيعته... فكان لابد لأولاده أن يرثوا عنه الفساد... ألا ترى أن الشجرة تنبت ثمراً من جنسها، فشجرة التفاح تنتج تفاحاً من نوع الشجرة ومن صنفها، وشجرة الحنظل تُنتج حنظلاً من جنسها ونوعها... وهكذا قل فى كل شجرة... وفى كل زرع، بل إنه قانون الوراثة فى عالم الحيوان كما هو فى عالم الإنسان. فالابن يرث صفات الأب وخصائصه ويحمل صفاته ومميزاته كما يرث ضعفاته. جاء فى سفر التكوين «وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا (التكوين ٥ : ٣). وقال المسيح له المجد «فهل يجنى الناس من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟ هكذا فإن كل شجرة طيبة تعطى

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ٦ من أغسطس - آب لسنة ١٩٧٨م – ٣٠ من أبيب لسنة ١٦٩٤ش.

ثمراً طيباً . أما الشجرة الرديئة فإنها تعطى ثمراً رديئاً. لا يُمكن لشجرة طيبة أن تُعطى ثمراً رديئاً، ولا لشجرة رديئة أن تعطى ثمراً طيباً» (متى ٧: ١٦– ١٨)، (لوقا ٦: ٤٣– ٤٤) وقال «إن كانت الشجرة صالحة كان ثمرها صالحاً، وإن كانت فاسدة، كان ثمرها فاسداً» (متى ١٢: ٣٣).

إذن كان لابد لأولاد آدم أن يرثوا حالة الفساد التى صارت لأبيهم آدم بعد الخطيئة، لأنهم وُلدوا منه بعد أن فسدت طبيعته بالخطيئة، ولذلك ورثوا عنه حالة الفساد، طبقاً لقانون الوراثة.

قال النبى داود «بالآثام صورت، وفى الخطيئة حبُلت بى أمى» (مزمور ٥٠: ٥).

وقال النبى داود أيضاً: «زاغ الأشرار من الرحم، ضلوا فى البطن». (مزمور ٥٧: ٣).

وقال النبى أيوب «مَنْ يُخرج الطاهر من النجس. لا أحد» (أيوب ١٤: ٤).

إن موضوع إنتشار الخطيئة الأصلية من الأب الأول آدم إلى كل ذريته حقيقة دينية، وهى أيضاً حقيقة كونية، لأنها قانون طبيعى يحكم كل إنسان، طالما أن الناس يتوالدون ويتناسلون بالتوالد من أب وأم، من شجرة واحدة وأرومة واحدة، ويسرى فيهم دم واحد، هو دم الأب الأول آدم، لأن الله «خلق البشر كلهم من أصل واحد، ليسكنوا على وجه الأرض كلها» (أعمال الرسل ١٧: ٢٦).

وقال الوحى الإلهى بفم الرسول بولس «فكما أن الخطيئة دخلت فى العالم على يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، فكذلك سرى الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه» (رومية ٥: ١٢، ١٧)، (١. كورنثوس ١٥: ٢١) وقال أيضاً «وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كسائر الناس» (أفسس ٢: ٣)، (يوحنا ٣: ٦).

هل أنت الآن فى الجنة؟

ثم تعال لأسألك بدورى سؤالاً أرجو أن تجيب عليه بإخلاص وصدق: لقد كانا أبونا آدم فى الجنة، فلما أخطأ طرده الله منها... فأين أنت الآن من الجنة؟ وأين كل أولاد آدم؟ هل استطاع واحد منهم أن يدخل الجنة بعد أن طرد أبوهم آدم منها؟ ألست أنت وجميع أولاد آدم قد شملهم القرار الذى صدر على أبيهم الأول آدم...؟ أليست كل إمرأة تلد بالأوجاع والمخاض أولاداً؟ أليس معنى هذا أن الحكم الذى صدر على حواء الأولى بسبب خطيئتها «بالألم تلدين البنين» (التكوين ٣: ١٦) قد شمل جميع بنات جنسها، لأنهن ولدن منها...

إذن هو قانون طبيعى يحكم الناس، أن يرث الأبناء حالة والديهم... وأن يعانوا الظروف والأحوال التى عاشها آباؤهم

ما القول بالنسبة للأنبياء والرسل؟

وهنا آتى إلى سؤالك الثانى أو بالأحرى إلى تساؤلك فى دهشة. واستغراب، وفى تحقير لعقول المسيحيين واستهزاء بهم، تقول فى دهشة: «**ولم يسأل مسيحى واحد نفسه وماذا كان الشأن بالنسبة للأنبياء والرسل قبل المسيح، ما هو الشأن بالنسبة لإبراهيم، وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وكل الأنبياء الذين سبقوا السيد المسيح، أكل هؤلاء كانوا يعيشون فى الخطيئة بإعتبارهم سابقين على عملية الكفارة**»؟.

أليس تساؤلك هذا جارحاً لمشاعر المسيحيين... أليس أمراً مُثيراً حقاً أن تفترض فى ذهنك أن المسيحيين جميعاً غافلون أو مغفلون، وليس بينهم (مسيحى واحد) خطر على باله أن يسأل سؤالك الذكى العبقرى الذى تضعه فى صيغة بالغة الإيلام والتحدى...

إننى أترك لك مرارة أسلوبك لضميرك،... وإنى أعتقد أن ضميرك سيؤرقك، وأعتقد أيضاً أن الكثيرين من إخوتنا المسلمين لا يوافقونك على مثل هذا الأسلوب الساخر فى التحدى للمسيحية والمسيحيين.

ومع ذلك فلندع لك هذا الشتم وهذه الإهانة، ونسأل لك الغفران.

وجوابنا على سؤالك، حاضر ومستعد: إن جميع الأنبياء والرسل قبل المسيح، بما فيهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى، وُلدوا وارثين حالة الخطيئة، بالتالى كانوا تحت الحكم وقضاء الله على الجنس البشرى بالإقصاء من الفردوس والجنة... وعندما ماتوا لم تذهب أرواحهم إلى الفردوس الذى طرد منه أبوهم آدم، وإنما نزلوا إلى العالم السفلى. إلى الجحيم (والجحيم غير جهنم - فالجحيم مقر إنتظار للأرواح يبقون فيه إلى يوم الحساب العظيم بعد القيامة العامة - قيامة الأجساد. أما جهنم فهى مقر العذاب الأبدى المعد لإبليس وملائكته ولغير التائبين من بنى الناس، وهو عذاب للروح والجسد).

نعم إن أولئك الأنبياء والرسل والقديسين لم يذهبوا إلى الفردوس بعد موتهم، لأن الفردوس كان مغلقاً فى وجه الإنسان... ولقد تنبهت أرواح هؤلاء الأنبياء فى حياتهم إلى أن هناك الفادى الذى ينتظرونه مخلصاً لهم وللجنس البشرى، ليقدم الكفارة والترضية التى يتطلبها العدل الإلهى، وبذلك يتم الغفران... فإن الله وهو لانهائى فى رحمته هو لانهائى أيضاً فى عدالته... **وهو وإن كان غفوراً رحيماً، لكن غفرانه لا يكون على حساب عدله وقضائه... أى أن الله لا يغفر من دون ترضية كافية لعدالته...**

ولما كان الجلال الإلهى غير محدود فى عظمته، **فترضية عدله غير المحدود تقتضى الفادى غير المحدود فى عظمته... وليس أحد غير محدود إلا الله وحده... لذلك فإن الله الذى يريد خلاص الإنسان... لم يكن غير الله قادراً على تتميم هذا الخلاص...** «فرأى أنه ليس إنسان، وبُهت أنه ليس شفيع، فخلصت له ذراعه» (إشعياء ٥٩: ١٦). لذلك فإن الله اتخذ جسداً، وهذا هو المسيح. المسيح هو الله ذاته متجسداً، اتخذ طبيعة الإنسان، وصار فى صورة الإنسان... أى أنه تأنس من دون أن يتغير الله... فالمسيح هو الله الذى كان ولم يزل إلهاً، وليس التجسد غير صورة من صور الحلول من دون أن يكون هناك انحصار لله فى الجسد المحدود. فالله عندما خاطب موسى وناداه من وسط العلّيقة (الخروج ٣: ٤) كان الوجود الإلهى متجلياً فى النار التى ظهرت فى العليقة ولكن من دون أن يكون ذلك معناه أن الله قد انحصر فى العلّيقة... فهو هو بذاته الله الذى يملأ بنوره السماوات والأرض... ووجوده فى العلّيقة نوع من التجلّى ولكن من غير انحصار... هكذا حلول اللاهوت فى الناسوت فى المسيح. فالله إذ حل فى الإنسان، واتحد لاهوته بانسانية الإنسان لم يخل السماء من وجوده، فكان فى السماء وهو على الأرض. قال المسيح له المجد «ما من أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذى نزل من السماء، ابن الإنسان الذى هو فى السماء» (يوحنا ٣: ١٣) أى أن المسيح فيما كان على الأرض كان بلاهوته فى السماء وعلى الأرض فى آن واحد.

إذن خلاص الإنسان اقتضى أن يتخذ الله صورة الإنسان، فيتجسد، وفى تجسده يصير بديلاً عن الإنسان وفادياً عن الإنسان بموته بدلاً منه، تنفيذاً للحكم الصادر على الإنسان بالموت عقاباً على مخالفته. ولما كان المسيح الفادى غير محدود من حيث لاهوته، ففى موت المسيح بالجسد وفاء للعدل الإلهى غير محدود.

في الفداء تجلت محبة الله وعدالته (١)

وهنا تجلت محبة الله وعدالته:

أما المحبة فلأن الله أراد الخلاص للإنسان رحمة به، ثم لأنه أخذ صورة الإنسان، وقبل في الجسد الذى اتخذه الحكم بالموت. قال المسيح له المجد «مامن حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه وأنتم تكونون أحبائي» (يوحنا ١٥: ١٣، ١٤)، (١٠: ١١، ١٥) وقال له المجد أيضاً «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يوحنا ١٠: ١١) «أنا هو الراعي الصالح... وسأبذل نفسي عن خرافي» (يوحنا ١٠: ١٤، ١٥) وقال أيضاً «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦)، (رومية ٨: ٣٢). وهنا الابن الوحيد لله هو المسيح، لا بمعنى أن الله يلد كما يلد الإنسان، معاذ الله! ولكن لأن الله وهو الغير المنظور صار منظوراً في المسيح... أي أن العالم رأى الله في المسيح «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذى في حضن الآب (أي في ذات الآب) هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١: ١٨) فالمسيح ابن الله بهذا المعنى، لأنه هو الصورة المنظورة لله الغير المنظور في لاهوته... ولذلك قال المسيح «من رآني فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤: ٩، ٧).

قال الوحي الإلهي بفم القديس بولس الرسول «فإنه لا يكاد يموت أحد لأجل بار، وربما جرأ أحد لأجل الصالح أن يموت ولكن الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح من أجلنا. فبالأولى كثيراً ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب. لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته. وليس ذلك فقط بل إننا نفتخر بالله أيضاً بربنا يسوع المسيح الذى نلنا به الآن المصالحة» (رومية ٥: ٧- ١١). ويقول كذلك «اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية» (أفسس ٥: ٢) «والإيمان بابن الله الذى أحبني وضحى بنفسه من أجلي» (غلاطية ٢: ٢٠) ويقول الوحي الإلهي بفم القديس يوحنا الرسول «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك (الرب يسوع المسيح) قد بذل نفسه في سبيلنا، فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الإخوة» (١. يوحنا ٣: ١٦) ويقول «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. وإنما

---

(١) نشر بجريدة (وطني) في عددها الصادر صباح الأحد ١٣ من أغسطس ـ آب لسنة ١٩٧٨م – ٧ من مسرى لسنة ١٦٩٤ش.

المحبة فى هذا أننا لم نكن نحن أحببنا الله، بل إنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة عن خطايانا، (١. يوحنا ٤: ٩، ١٠).

أما عدل الله فقد تجلى فى عمل الفداء والكفارة، لأن الله إذ حكم على الإنسان بالموت (التكوين ٢: ١٧)، فما كان ممكناً أن يسقط كلام الله: «تزول السماء والأرض، أما كلامى فلا يزول» (متى ٢٤: ٣٥)، (مرقس ١٣: ٣١)، ولذلك **فإن الله الذى أراد الخلاص للإنسان لم يغفر له بغير كفارة، قام بها الله ذاته فى المسيح، إذ اتخذ له جسداً، فنفذ عدل الله فى المسيح بدلاً من الإنسان، ففدى بذلك الإنسان، وهذا هو معنى الفداء... أى أن الله لم يغفر للإنسان من دون ترضية كافية لعدالته**. ولكنه من عظم محبته، تنازل فصار هو بديلاً عن الإنسان، وبموته فى الجسد نفذ الحكم الإلهى كاملاً، فأرضى بذلك عدله...

ويهذا يكون عمل الفداء فى الصليب، تجلى فيه عدل الله، كما تجلت فيه محبته،... ولقد حقق الله الخلاص للإنسان بفيض محبته غير المتناهية، لكن لا على حساب عدالته... وظهر عدل الله كاملاً لكن لا على حساب محبته.

قال الوحى الإلهى بفم الرسول بولس «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح الذى تقدم الله فجعله كفارة... بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة» (رومية ٣: ٢٤، ٢٥) وقال كذلك «الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح... أى أن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم» (٢. كورنثوس ٥: ١٨، ١٩) وقال أيضاً «الذى لنا فيه (أى المسيح) الفداء بدمه غفران الخطايا على حسب غنى نعمته» (أفسس ١: ٧)، (كولوسى ١: ١٤) وقال «لأنه هو (يسوع المسيح) سلامنا الذى جعل الإثنين واحداً، ونقض حائط السياج المتوسط، أى العداوة، مبطلاً بجسده ناموس الوصايا فى فرائض، لكى يخلق الإثنين فى نفسه إنساناً واحداً جديداً، صانعاً سلاماً، ويصالح الإثنين فى جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به...» (أفسس ٢: ١٤- ١٦) «عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته» (كولوسى ١: ٢٠) «وأنتم... قد صالحكم الآن فى جسد بشريته بالموت» (كولوسى ١: ٢١) «الذى بذل نفسه فدية لأجل الجميع» (١. تيموثيئوس ٢: ٦) «مخلصنا يسوع المسيح الذى بذل نفسه لأجلنا ليفتدينا (تيطس ٢: ١٣، ١٤)، (غلاطية ١: ٤)، (رومية ٤: ٢٥)، (العبرانيين ٩: ٢٦، ٢٨)، (١. بطرس ٣: ١٨)، (١. كورنثوس ٧: ٢٣) «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب... بل بدم كريم كما من

حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم» (١ . بطرس ١ : ١٨ – ٢٠) «الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا، فنحيا» (١ . بطرس ٢ : ٢٤) «يسوع المسيح البار، وهو كفارة عن خطايانا وليس عن خطايانا فقط، بل عن خطايا العالم كله أيضاً» (١ . يوحنا ٢ : ٢) «إن ذاك (المسيح) قد أظهر ذاته لكي يرفع خطايانا، وهو الذى لا خطيئةس فيه» (١ . يوحنا ٣ : ٥)، (الرؤيا ٥ : ٩) وقال سفر الأعمال «احترزوا لأنفسكم، ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨).

قلنا إن الأنبياء والرسل القديسين السابقين على مجىء المسيح الفادى، وصلبه وعمله الكفارى... جميعهم عندما ماتوا نزلوا إلى الجحيم، إلى العالم السفلى، وظلوا هناك منتظرين يوم الفداء...

ولقد هتفوا فى حياتهم طالبين الخلاص، لأنهم كانوا يعلمون أن حكم الله وقضاءه على آدم وذريته كان بالموت الأبدى والهلاك... ولكنهم كانوا موعودين بمجىء الفادى والمخلص الذى يسحق الشيطان رأس الحية (التكوين ٣ : ١٥)، (رومية ١٦ : ٢٠)، (كولوسى ٢ : ١٥)، (العبرانيين ٢ : ١٤)، (١ . يوحنا ٣ : ٨) وبه تتبارك جميع قبائل الأرض والأمم (التكوين ١٢ : ٣)، (١٨ : ١٨)، (٢٢ : ١٨)، (٢٦ : ٤)، (٢٨ : ١٤)، (أعمال الرسل ٣ : ٢٥)، (غلاطية ٣ : ٨)، وقد سُمى بـ «مشتهى كل الأمم» (حجى ٢ : ٧).

ولقد قال يعقوب أبو الأسباط «لخلاصك انتظرت يارب» (التكوين ٤٩ : ١٨)، (٤٩ : ١٠).

وقال النبى داود «رجوت خلاصك يارب» (مزمور ١١٨ : ١٦٦) «اشتقت إلى خلاصك يارب» (مزمور ١١٨ : ١٧٤) «تاقت نفسى إلى خلاصك» (مزمور ١١٨ : ٨١) «كلت عيناى إشتياقاً إلى خلاصك» (مزمور ١١٨ : ١٢٣).

وقال أحد الأنبياء «أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريباً» (العدد ٢٤ : ١٧).

وقال الوحى الإلهى بفم القديس بطرس الرسول: «الخلاص الذى فتش وبحث عنه أنبياء» (١ . بطرس ١ : ١٠).

وقال المسيح له المجد «فالحق أقول لكم إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (متى ١٣ : ١٧)، (لوقا ١٠ : ٢٤) وقال الوحى

الإلهى بفم القديس بولس الرسول «فى الإيمان مات أولئك كلهم، دون أن يحصلوا على المواعد، بل إنما رأوها وحيوها عن بعد» (العبرانيين ١١ : ١٣).

فأولئك الأنبياء والرسل والقديسون قبل مجيء المسيح كانوا فى حياتهم يتطلعون إلى المخلص الآتى، فلما ماتوا نزلوا إلى الجحيم وظلوا فيه منتظرين إلى يوم الخلاص، حيث صلب المسيح ومات بالجسد، وفى صلبه وموته فدى البشر من الحكم الأبدى المحكوم به على آدم وذريته، وحينئذ نزل إليهم المسيح وبشرهم بالخلاص، فأشرق على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت، فى الجحيم (إشعياء ٤٢ : ٧)، (متى ٤ : ١٦) ثم نقل الأنبياء والرسل والقديسين المنتظرين الفداء، إلى الفردوس (لوقا ٢٣ : ٤٣)، (أفسس ٤ : ٨- ١٠).

ودليلك على هذا التوقع والانتظار أن سمعان الشيخ عندما حمل المسيح طفلاً على ذراعيه بعد أربعين يوماً من ميلاده بالجسد «بارك الله ثم قال: الآن أطلق يا سيدى عبدك بسلام وفقاً لكلمتك، **فإن عينى قد أبصرتا خلاصك الذى أعددته أمام كل الشعوب**» (لوقا ٢ : ٢٨- ٣٠) «وكان ثمة نبية اسمها حنة بنت فنوئيل من سبط أشير، وكانت طاعنة فى السن، وقدعاشت مع زوجها سبع سنوات منذ بكوريتها. ثم ظلت أرملة مدة أربع وثمانين سنة، لا تبرح الهيكل، متعبدة بالصوم والصلاة ليلاً ونهاراً. ففى تلك الساعة تقدمت نحوه، وأخذت تحمد الله بشأنه، وتحدث عنه **كل من كان ينتظر الخلاص فى أورشليم**» (لوقا ٢ : ٣٦- ٣٨، ٢٥) انظر أيضاً (لوقا ١ : ٦٨)، (٣ : ٦)، (٢٤ : ٢١)، (مرقس ١٥ : ٤٣).

٨ ـ أرواح الموتى قبل الفداء... أين ذهبت؟ (١)

وجاءنا السؤال التالى من مدارس الأحد القبطية الأرثوذكسية بالقصر.

أين كانت تذهب أرواح القديسين والأشرار، قبل إتمام عملية الفداء؟، ومن كان يتسلم أرواحهم عند الموت؟

الجواب:

لا شك أنها كانت تمضى إلى الجحيم، لأنها جميعاً أخطأت بخطيئة آدم، فأدركها الحكم بالموت الذى أدرك آدم «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥ : ١٢).

وهذا هو السر فى حاجة البشرية إلى الفادى، لأنه بدونه لا يمكنهم أن يخلصوا من حكم الموت الأبدى، وبدونه لا يستطيعون أن يدخلوا ملكوت السموات. ولا أن يعاينوها (يو ٣ : ٣، ٥).

من أجل هذا قدّم المتعبدون فى العهد القديم ذبائح الحيوان، لحاجتهم إلى وسيط بينهم وبين الله. ولم يكن الحيوان هو الوسيط الحقيقى، وإنما كان رمزاً موقوتاً بظهور «الحمل الذى يرفع خطيئة العالم». كان ظهور المخلص ضرورياً ليفتدى الذين أضلهم إبليس وابتاعهم لنفسه فارتبط مصيرهم به وأمسوا محرومين نظيره من أمجاد السماء (مت ٢٥ : ٤١).

لذلك هتف أتقياء العهد القديم بنداء الخلاص من مصيرهم الحزين: فقال يعقوب «**لخلاصك انتظرت يارب**» (تك ٤٩ : ١٨)، وقال داود «**رجوت خلاصك يارب**...» «**اشتقت إلى خلاصك يارب**» (مز ١١٩ : ١٦٦، ١٧٤) وسمعان الشيخ «كان باراً تقياً، **ينتظر تعزية إسرائيل**» (لو ٢ : ٢٥)، فلما أخذ الطفل يسوع على ذراعيه، بارك الله وقال «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عينى قد أبصرتا خلاصك الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب، نور اعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل» (لو ٢ : ٣٩) وحنة بنت فنوئيل وقفت فى تلك الساعة «تسبح الرب، وتكلمت عنه **مع جميع المنتظرين فداء فى أورشليم**» (لو ١ : ٣٨).

لهذا صلب المسيح ومات فداءاً عن المسبيين الذين سباهم الشيطان إلى مملكته ومضى بهم إلى الجحيم، فانطلق المسيح إلى ذات الجحيم لينقذ الخراف من فم الذئب «وأما أنه صعد فما هو

---

(١) نشر بمجلة مدارس الأحد السنة الحادية عشر ـ العدد الأول ـ يناير ١٩٥٧م.

إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى، (أف ٤ : ٩) ورد الذين اختطفهم إبليس، ونقلهم من الجحيم إلى الفردوس «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا» (أف ٤ : ٨).

أجل «نزل المسيح إلى الجحيم» كما جاء فى القداس طبقاً للنصوص السابقة، وطبقاً لقول الرسول أيضاً «ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن» (١ . بط ٣ : ١٩) وبهذا هتف روح النبوءة «بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء. إرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء» (زك ٩ : ١١، ١٢) نعم، رجع الذين «نظروا المواعيد من بعيد، وصدقوها وحيوها» (عب ١١ : ١٣) رجعوا إلى الحصن الذى يركض إليه الصديق ويتمنع (أم ١٨ : ١٠)، رجعوا إلى الفردوس الذى كان مغلقاً فى وجه البشرية منذ سقطة آدم الأول (تك ٣ : ٢٤)، ولم يفتحه إلا المسيح بالصليب (لو ٢٣ : ٤٣).

٩ ـ لماذا نشقى بالخطيئة الأولى مع أن المسيح قد افتدانا منها (١)

ورد إلينا من أحد قراء المجلة سؤال عن الخلاص الذى نلناه بموت فادينا وربنا يسوع المسيح على الصليب، ومع ذلك لازلنا نعانى جميعاً الآلام المترتبة على الحكم الإلهى الصادر على آدم نتيجة خطيئته، ولماذا لا تعود البشرية مرة أخرى فتحصل على سعادتها المفقودة، ما دامت جريمة الخطيئة ونتائجها قد زالت زوالاً تاماً بفعل الخلاص بالدم المسفوك، فنرى الرجل يأكل خبزه بعرق جبينه إلى اليوم وهو عقاب آدم، ونرى المرأة تحبل وتلد بالآلام والأوجاع وهو عقاب حواء؟؟!!

الجواب:

لكى نجيب على هذا السؤال، لابد لنا من أن نضع نصب عينى السائل والقارىء هذه الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى أن الأبوين الأولين كانا يتمتعان بسعادة كاملة لا يعرف الشقاء إليها سبيلاً، وبنور المعرفة الوضاح الذى أضاء عقليهما استطاعا أن يكونا عالمين بجميع المعارف الطبيعية اللازمة لهما ليعيشا سيدين على الطبيعة غير الناطقة من جمادات ونباتات وحيوانات، ثم بوصفهما أبوى الخليقة الناطقة، ومهمتهما فى كلا الحالين تقتضيهما معرفة واسعة وعلماً كاملاً.

ولما كان الأبوين فى حال البراءة والطهارة والقداسة، فلم تكن لهما شهوات دنسة تعكر صفو الجو السماوى الروحانى البرىء الذى كانا ينعمان به.

وإذا كانت روحاهما طاهرتين كاملتين، وكانا جسداهما نقيين سليمين كاملين فلم تلحق بنفسيهما أو جسديهما آلام تشقيهما فكل الخير كان موفراً للنفس والجسد فليس ثمة ضعف أو تعب أو مرض أو فساد.

ولما كانا مخلوقين على صورة الله وكانا شديدى الشبه بالله (فى اللغة العبرية جاء النص هكذا «نعمل الإنسان على الصورة الأشد مشابهة لنا»)، وكانا سعيدين وكاملين فقد كان طبيعياً إذا نجحا فى إمتحانهما أن يخلدا مع الله وأن ينُقلا من الفردوس إلى الملكوت الأبدى، بدون الحاجة إلى ألم الموت والتوجع بسكراته.

---

(١) نشر بمجلة الإيمان السنة السادسة عشر ـ العدد ٤ ـ ديسمبر ١٩٤٦م.

الحقيقة الثانية أما هذه الإمتيازات الرفيعة وهذا السمو فوق الجهل والفقر والمرض والألم والموت، فلم يكن إمتيازاً أو سمواً تقتضيه طبيعة آدم الترابية، بل كانت حالة فائقة عن الطبيعة أنعم الله بها على آدم لتكون غنى وكمالاً لسعادته، ثم لكى تكون سلاحاً فى يده يدفع به عن نفسه أسباب الغواية والضلال والهبوط إلى مستويات الحيوانات الترابية الأرضية أو الإنسياق لمشورة القوات الشريرة التى سقطت، والتى يعلم الله أنها لن تألو جهداً فى سبيل إغراء الإنسان على الضلال وإفساد سعادته.

ثم أن هذه الإمتيازات، كما كانت سلاحاً فى يد الأبوين لصيانتهما بإرادتهما عن الشر أن ينفذ إلى نفسيهما، كانت كذلك حجة على الأبوين لما سقطا فى الشر، فلم يكن لهما سبيل إلى الإعتذار عن خطئهما، ولذلك أوقع الله بهما العقاب على الرغم من أن الشر جاء إليهما خارجاً عنهما. وهذا معناه أن الأبوين بما حصلا عليه من إمتيازات فائقة للطبيعة كان فى مقدورهما بما كانا عليه من علم وقداسة وبر وخلو من آلام الشهوة والضعف والفقر والفساد، أن يرفضا مشورة إبليس، فليست خطيئتهما إذن غصبية إضطرارية إرغامية بل خطيئة إرادية إختيارية.

الحقيقة الثالثة أن سقوط الأبوين فى المعصية - وقد كان بمحض إختيارهما، وعلى الرغم من الإمتيازات الرفيعة التى كانت كفيلة فى ذاتها لأن تصونهما (لو أرادا) من كل شر وشبه شر- نقول إن سقوط الأبوين فى المعصية كان هو علة حرمانهما من هذه الإمتيازات.

فكان طبيعياً أى موافقاً للقوانين الطبيعية أن الشهوة وقد نفذت إلى قلب الإنسان أن تحبل وأن تلد فتنتج فساداً فى الفكر والميل. ولما كان الفاسد الشرير العاصى لا يستطيع أن ينال ملكوتاً طاهراً، لا بنفسه لأنها تلوثت وقبلت أن تصير نظيرة لله الذى خلقهما وأحسن إليها، أى أنها قد تغطرست وتكبرت على خالقها والمنعم عليها بوجودها، ولما كانت خطيئة الكبرياء هى التى بسببها أسقط الشيطان من السماء مع أنه رئيس ملائكة العلى، ولما كان الله يكره أن يبصر الشر والأشرار ولا يطيق أن يكون له وجود فى محضره، فقد كان طبيعياً أن تحرم النفس من رؤية الله والتنعم بشخصه، وكان طبيعياً أن الفساد الذى نفذ إليهما سيمتد ويعظم، كما يمتد العطب فى الجسم المادى إمتداداً طبيعياً، ثم تظلم روح الإنسان وعقله فيفقد نور الإلهام الباطنى ويصير فهمه محدوداً طبيعياً.

كذلك جسم الأبوين، وقد تدنس بالشهوة والدنس، لم يعد أهلاً للسماء فلابد أن يعود إلى التراب الذى أخذ منه ولابد أن يفقد الإمتيازات الفائقة التى اكتسبها ولابد إذن من أن يخضع لمؤثرات

الطبيعة فيتوجع ويتألم ويقبل لكل المؤثرات الخارجية وفعل الكائنات الطبيعية فيه، فيجرح ويتقطع، ويصير مطمعاً لحيوانات البر أن تطارده لتأكله وللحيوانات الصغيرة (الميكروبات) أن تدخل إلى داخله لتتغذى بدمه فتفسده، ومن ثم يمرض ويضعف وتنتهك قواه وهكذا ينحل رويداً رويداً ـ خضوعاً لقوانين الطبيعة، إلى أن تفنى قواه (بصرعها مع قوى الطبيعة) حتى يموت.

وإذن فسقوط الإنسان فى العصيان أدى إلى الحرمان من حضرة الله وفقدان السمو الروحانى، بل وإلى معاناة آلام الشهوة والفقر والمرض والإعياء والتعب والشقاء والجهل، وهى كلها آلام طبيعية لابد للإنسان من أن يعانيها لفقدانه لإمتيازاته الرفيعة التى تخلى عنها بإرادته.

الحقيقة الرابعة أن الإنسان بسقوطه فى المعصية قد باع نفسه لمشورة الشيطان، ثم حرم من ملكوت السموات، ولذلك فأرواح القديسين والأشرار كان الشيطان يقبض عليها ويمضى بها إلى الحبوس أى الجحيم إلى أن صلب المسيح الفادى واسترضى بصلبه العدالة الإلهية، فغفرت الخطيئة ومحيت العقوبة الأبدية، وأصبح الإنسان بإستحقاقات المسيح وحده أهلاً لملكوت المسيح.

الحقيقة الخامسة إن آدم عندما أخطأ، لم يخطأ بصفته الفعلية فقط، ولكنه أخطأ بوصفه أباً للجنس البشرى، ومن ثم فقد ولد الناس جميعاً من دماء تلوثت بالخطيئة وأصبحنا جميعاً من جهة ميلادنا وتبلسلنا من آدم خطأة ناقصين، والابن عادة يرث حالة أبيه فقيراً كان أو مريضاً وبذلك غدونا جميعاً فى حالة الخطيئة وسرت علينا العقوبة بالحرمان من السماء قال الرسول (بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع).

وقال النبى (بالآثام حبل بى وبالخطيئة اشتهتنى أمى).

الحقيقة السادسة إن آدم هو الذى أخطأ بالفعل أما نحن فقد وجدنا فى حالة الخطيئة فالعقوبة بالنسبة لآدم عقوبة على خطيئة فعلية، أما العقوبة بالنسبة لنا فهى عقوبة على حالة لم يكن لنا ذنب مباشر فيها.

ومن ثم فسقطه آدم استحقت موتاً وعذاباً أبدياً، أما سقطتنا فى آدم فلا تستوجب غير حرمان من الإمتيازات الفائقة الطبيعة بمعنى أن آدم لولا خلاص الفادى الذى منحه إياه كان يهلك هلاكاً أبدياً وينال إستحقاق تعديه وخطيئته التى لا نهاية لعظمتها (من حيث أنها إهانة لإله غير محدود) أما أبناء آدم، فإنهم لا ينالون عن خطيئة آدم عذاباً فعلياً ولكنهم يحرمون بسببها من

المجد والنور والاستمتاع بمحضر الله وميراث الملكوت، فعقوبتهم بالنسبة للخطيئة الجدية عقوبة سلبية وليست عقوبة إيجابية.

أما وأن السيد المسيح قد فدى الجنس الآدمى بموته على الصليب، وفتح لنا سبيل الفردوس الذى أغلق فى وجه الإنسان، فقد صار العتق من العبودية وإمتياز البنوية وإرث المواعيد السماوية للذين يؤمنون بالمسيح وعمله الفدائى ويشتركون معه فى موته بالمعمودية.

فإذا آمن الإنسان بفاديه وإلتجأ ونال سر العماد باسمه فإنه ينال الخلاص وإلا فعليه الغضب الأبدى (من يؤمن بالابن فله حياة أبدية، ومن لا يؤمن بالابن فليست له الحياة بل يمكث عليه غضب الله، من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن).

وإذن كما أن فى آدم يموت الجميع، هكذا بالمسيح يحيا الجميع وينالون الحياة الأبدية على شرط أن يقدروا عمل المسيح الفدائى فيؤمنون به ويعتمدون على اسمه ويعملون الأعمال الصالحة التى ترضيه لئلا يفقدوا بشرورهم هذه الإمتيازات مرة أخرى.

فهذه الإمتيازات الروحية لا تقدم للناس غصباً أو قهراً، كما أنها هى ذاتها لا تقهرهم ولا تغصبهم على السلوك فى الفضيلة بل لازالوا أحراراً مريدين مختارين يفعلون ما يشاءون دون قهر أو إلزام.

الحقيقة السابعة لما كانت العقوبات المادية التى أوقعها الرب على آدم وحواء لم تكن إلا حرماناً من إمتيازات السمو الروحانى التى جعلتهما فى منأى عن الجهل والمرض والشهوة والموت، وكان سقوطهما فى الخطيئة علة لحرمانهما من هذا السمو وبالتالى أن يسقطا فريسة للآلام الطبيعية التى تلائم الجسد الترابى الذى يتألف من أعصاب ولحم ودم، فليس العتق من عبودية الشيطان والخلاص بدم المسيح يقتضى فى ذاته ضرورة عودة هذه الإمتيازات بل يقتضى فقط نوال الخلاص من أسر الشيطان وحبوس الجحيم ويقتضى كذلك الإنعام بالحياة الأبدية. أما الآلام الأرضية فلم يجد الله داعياً لأن يعتق الإنسان منها ولا سيما أنها آلام طبيعية كما قلنا.

وإلا فهل أخطأ الحيوان حتى أنه يشقى كما نشقى نحن بالجسد، ويتعب مثلما نتعب ويمرض مثلما نمرض ويموت أيضاً مثلما نموت؟! أليست هذه الآلام التى تنتهى بالحيوان إلى الموت برهان على أنها آلام طبيعية تابعة للجسم الترابى من حيث أن له إحساساً يتأثر بما يقع عليه ويؤثر فيه ؟!.

فاذا أحس الإنسان بالألم الجسمانى كما يحس به الحيوان، أفليس ذلك أمراً طبيعياً تقتضيه طبيعته الجسمانية ؟؟!!.

«وإذن فالخلاص الذى تم فى العهد الجديد لا يقتضى السمو فوق الطبيعة، ولا سيما أن الخلاص ليس لجميع الناس بل للذين يقبلونه فحسب، فليس معقولاً أن يعيش البعض من البشر بلا ألم ولا مرض ولا تعب، ويبقى الآخرون أشقياء؟ بالمرض والجهل والموت» !!!.

فاذا تصورنا أن الخلاص يقتضى هذا، أليس يكون المعنى من كل ذلك أن الله يدعو الناس إلى الخلاص بالترغيب فى الخير المادى؟ بل أليس معناه أن الناس يقبلون إلى الإيمان لا بروح الإيمان بل بروح الإنتفاع المادى؟ وهل يريد الله أن يقبل الناس إلى الفضيلة بغير الدوافع الروحانية النبيلة؟.

ثم أن الله كان لابد أن يتركنا للآلام الطبيعية لتكون تذكرة لنا بالخطيئة الأولى فنرتدع عنها ونبغضها ونوقن بعدالة الله وكراهيته للشر. وليس الشقاء من عقوبة الخطيئة الأبدية يتعارض مع بقاء علامات المرض عبرة وتذكرة فقد يجرح المرء فى يده جرحاً بليغاً ثم يلتئم الجرح ويشفى، ومع ذلك تبقى علامة الجسم كلما تطلع إليها الإنسان تذكر الجرح القديم الذى جرح به.

على أن الله الذى منح الإنسان الأول إمتيازات جسدانية فائقة الطبيعة وهى الخلو من الألم والتعب والمرض والموت لتكون سلاحاً يمكنه أن يستخدمه فيقيه شر الوقوع فى الخطيئة إذا أراد أن يعتصم به، شاء بإرادته كذلك أن يقدم للمؤمنين به فقط أسلحة روحية بالغة الأثر فى نفعها وعظيمة الفعل فى تنشيط قوى النفس ودعمها بما يكفل لها تماماً القدرة على قهر الشيطان وإطفاء الشهوة وهى الأسرار السبعة التى رتبها الروح القدس فى الكنيسة معونة للنفس فى سبيل الكمال الروحانى والنمو فى الفضيلة والمعرفة الروحية.

ولا شك أن هذه الأسلحة هى للمؤمنين فقط ولكل من يؤمن بابن الله (فلا يهلك من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية) ولذلك فهى أسلحة روحية لا جسدية فتكون من نصيب المؤمنين، أما من حيث المرض والتعب والموت فهم شركاء مع غير المؤمنين فيها من حيث أن الناس جميعاً ما داموا فى عالم واحد فلابد أن يتمتعوا بإمتيازات واحدة وهذه هى سياسة الله فى خلقه (أنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين) ومع ذلك فقد أحال الآلام إلى أسباب للإشتراك معه فى المجد وجعل الموت طريقاً للإنتقال إلى فردوس النعيم وملكوت السموات؟.

١٠ - الخطيئة الأصلية

سؤال : هل الخطيئة الأصلية مرض حتى تورث؟ وما هو المقصود بفساد الطبيعة البشرية؟ وما هى فاعلية المعمودية مع العلم بأن الإنسان من بعد المعمودية ممكن أن يخطىء فماذا فعلت المعموية إذن؟

الجواب :

الحقيقة هذه عدة أسئلة فى سؤال واحد:

هل الخطيئة الأصلية مرض حتى تورث؟

نعم إنها مرض وهذا المعنى هو ما يقوله الكتاب المقدس «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس» وهنا اجتاز بمعنى سَرَى. والقبطى يقول «بالذى جميعهم أخطأوا فيه» ويقصد آدم، يعنى فخطيئة آدم انتشرت فى الطبيعة البشرية كيف ذلك؟ على أساس طريقة الخلق، فالله خلق الإنسان على أساس أنه أصل، ومن الأصل تتفرع فروع مثل فروع الشجرة، فمن كرمة واحدة خلق الله البشرية وهذه حكمته، وهذا موضوع يمكن أن يكتب فيه كتاب، فالله فى حكمته خلق إنساناً واحداً، ومن هذا الإنسان خلق كل إنسان آخر، فمن آدم خلقت حواء، ومن آدم وحواء خلق قايين وهابيل إلى آخره، فنحن كلنا من أب واحد، ومن شجرة واحدة فطبيعة أصل الشجرة لابد تبعاً لقانون الوراثة أن تنتقل إلى الفروع، ونحن كلنا نعلم أنه عندما نزرع بذرة شجرة تفاح لابد أن تثمر تفاح، شجرة رمان تثمر رمان، شجرة حنضل تثمر حنضل، وحتى سيدنا استخدم هذا التعبير عندما قال أفايجنون من الشوك عنباً، هل ممكن أن يخرج من الشوك عنبا؟ أو من العليق تيناً؟ لأ. فمن هنا كان من الطبيعى جداً أن الفساد الذى دخل إلى طبيعة آدم أن ينتقل بما يعرف اليوم بقانون الوراثة، ولذلك نجد أن الإبن أو الإبنة أى النسل يرث صفات الأبوين الجسمية والنفسية والذهنية والأخلاقية، فنجد شخص فى شكله يظهر أنه شكل أبوه حتى من الدم، ولذلك عندما يكون رجل فى حالة شك من أن الطفل ليس منه، فيذهب لطبيب التحليل ويحلل دم الإبن، ويحلل دم الأب، ويحكم إذا كان هذا الإبن من ذاك الأب أو لا. فالوراثة قانون وليس نظرية، قانون من قوانين الطبيعة، يمكن أن تكون البيئة لها أثر أو تتفاعل مع الوراثة لكن لا تلغى الوراثة. فالوراثة قانون وهذا القانون حتمى، ومهما كان للبيئة الذهنية والبيئة الإجتماعية من أثر على الإنسان فهى لا تلغى الوراثة. فالبيئة لا يمكن أن تغير فى الوراثة، ويوجد مثل صغير مضحك، أن رجل أراد أن يعمل تجربة،

ومن المعروف أن الذئب عدو الخراف، ودائماً الراعى يخاف على نعاجه وعلى الخراف من الذئب (الديب) فالرجل قال أنا أعمل تجربة جديدة لكى أرفع العداوة ما بين الذئب والخراف، فأحضر ذئب صغير فى المرحلة الأولى من مراحل تكوينه، وجعله يرضع من لبن النعجة. كأن النعجة أصبحت أم لهذا الذئب، فشرب من لبنها والرجل كان فرح جداً من نفسه، لأنه رأى الإثنين يحبوا بعضاً والذئب يقترب من الشاة ويأخذ منها اللبن، والشاة تعطف على الذئب وتعطيه من لبنها، وظن أن هذه التجربة نجحت فعلاً فى أنها ترفع العداوة التى بينهما، وبعد أن كبر الذئب وفى وقت ما من الأوقات انصرف الرجل عنهما بعض الوقت ثم عاد فوجد الذئب فتح بطن الشاة التى هى أمه وأكلها فأنشد بعض الأبيات الشعرية يقول فيها:

بقرت شويهتى وفجعت قلبى وأنت لشاتنا ولد ربيب

فمن أدراك أن أباك ديب

ثم أنشد يقول:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

فالوراثة لها أثرها لأنها قانون حتمى فى الطبيعة، ولكن البيئة سواء كانت بيئة فكرية عن طريق التدريس أو التعليم أو صقل المواهب، أو البيئة الإجتماعية وهى بيئة الأسرة أو بيئة المجتمع بالمعنى العام، لابد للبيئة من أثر، لكن أثر البيئة مهما كان لا يلغى قانون الطبيعة وهو قانون الوراثة.

بناء على ذلك ولأن الله خلق الإنسان آدم، ومن آدم خلقت حواء ومن آدم وحواء خلقت سائر الخليقة، فهناك ما سماه الكتاب «دم واحد» وهو دم آدم، وينتقل هذا الدم عن طريق التناسل، أو مثل ما قال القديس ديديموس الضرير وهو مدير المدرسة اللاهوتية فى القرن الرابع، قال عن طريق التزاوج يحدث إنتقال الدم إلى دم، لأن عملية التزاوج فيها نقل من دم إلى دم، فدم الأب يصل للابن، وهذا هو السبب الحقيقى لماذا ولد المسيح من عذراء بدون زرع رجل، هنا لا يوجد هذه الوصلة التى توصل الدم الملوث، وبعضهم ضرب مثل وقال افرض أنك أنت عندك برميل فيه ماء، ثم رميت فيه بعض من الحبر الأزرق أو الأحمر أو من أى لون، فتجد أن البرميل كله تلون بهذا اللون، فنقطة الحبر هذه رغم أنها صغيرة دخلت فى كل البرميل من فوق لتحت، فأصبح صعب عليك أنك أنت تنزع أثر هذا الحبر من أى جزء من البرميل كله، البرميل كله دخل فيه الحبر، فانتشر فحصل هناك نوع من الإنتشار، لذلك كلمة «بإنسان واحد دخلت الخطيئة

إلى العالم، وبالخطيئة الموت وهكذا «اجتاز» وبالقبطى سرى، فسرى الموت إلى جميع الناس، وطبعاً مع الموت المرض ولذلك كلنا نموت، وكلنا نمرض، والمرض يعد تابع لعملية الموت.

فهل الخطيئة الأصلية مرض حتى تورث؟ نعم.

وما هو المقصود بفساد الطبيعة البشرية؟

شرحنا أن آدم الأصل وهو الدم الذى ينتقل، وأنتم تعلمون أنه من ضمن قوانين الطبيعة أو قوانين الوراثة أن الإنسان يأخذ الثلثين من الأب والأم، لذلك أثر الأب والأم أكبر من أثر الجدود، ويأخذ من جدود الدرجة الأولى ١ على ١٦، ومن الجدود الذين فوقهم أى الدرجة الثانية، يأخذ ١ على ٣٢، ومن الذين فوقهم يأخذ ١ على ٦٤ ثم ١ على ١٢٨ من الذين فوقهم، وهكذا حتى نصل إلى آدم فالطفل الذى يولد اليوم فيه أثر وصلة من آدم وليس من أبوه وأمه فقط، صحيح أن الأثر الأكبر من الأب والأم، ولكن هناك نسبة معينة من الذين فوقهم ... حتى نصل إلى الأب الأول آدم، ومثل ما قلنا أن المسألة مثل الشجرة تماماً، ولذلك عندما تكون جذور الشجرة لسبب أو لآخر معطبة فتظل ثمارها أيضاً معطبة ومضروبة، لأن الأصل مضروب، فهذا قانون طبيعى ولا نريد أن ندخل فى تفسير أكثر من هذا، لأن هذا يدخل فى سياسة الله وحكمته.

ما هى فاعلية المعمودية؟

المعمودية ترفع وزر الخطيئة، أو ترفع العقوبة الأبدية، لأن الخطيئة لها نتيجتان، نتيجة أبدية ونتيجة زمنية، النتيجة الأبدية هى الموت الأبدى، وهو الحرمان من الله، وبالتالى يحرم من فردوس النعيم ومن ملكوت السموات، ويكون مصيره الطرد من الحضرة الإلهية، هذا هو الموت الأبدى وهذا ما قال عنه الكتاب «طوبى لمن له نصيب فى القيامة الأولى هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم، والموت الثانى هو الهلاك فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت وهو الهلاك الأبدى.

«طوبى لمن له نصيب فى القيامة الأولى»، القيامة الأولى هى التوبة، لأن القيامة الثانية هى قيامة الأجساد، وهى التى ستحدث فى نهاية العالم. فالذى يتوب سيعفى من الهلاك الأبدى، ففى المعمودية الإنسان يحضر بإرادته إلى عمل الفداء الذى صنعه المسيح، قد تقول إن السيد المسيح عمل فداء عن العالم كله، صحيح أن السيد المسيح قدم ذاته فداء عن البشرية هذا صحيح، لكن ليس كل فرد استفاد أو يمكن أن يستفيد، لأن الله لا يمكن أن يفرض على الإنسان الخلاص،

إنما الإنسان يطلب الخلاص. فالكبار عندهم الإرادة واضحة، لذلك قال «من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن» أو يدان، بالنسبة للطفل يعتبر أنه مؤمن لأن لا يوجد عنده إرادة مانعة إنما الإنسان الكبير ممكن أن يكون عنده إرادة مانعة، يقبل أو لا يقبل. ولذلك قال بالنسبة للكبار «من آمن واعتمد خلص» لم يقل من اعتمد خلص..؟، ولما بطرس الرسول كان يكلم الناس فى يوم الخمسين قال: ماذا نصنع أيها الرجال... توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا...» إذن هناك شيء يسبق المعمودية، لكن لكى تعطى له المعمودية وفوائد المعمودية فلابد أن يطلبها ويسعى إليها، وهذا طبعاً لابد أن يتوافر فى جميع الأسرار الكنسية، الإنسان هو الذى يطلب. من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن، فليس كل واحد إذن استفاد من خلاص المسيح، «المسيح علق على الصليب» ونقول فى التعبير الدينى «خلص البشرية» ونقول «فدى الانسانية» ونقول أمثال هذه التعبيرات، هذا من وجهة الكلمة العامة، لكن كل إنسان على حدة لابد يأخذ من هذا الفداء بإرادته، مثل نهر النيل عندنا هو ماء الحياة بالنسبة لنا، لابد أن نشرب من ماء النيل، لكن ماء النيل لا يأتى حتى فمى، لابد أن أذهب وأطلب هذا الماء، اليوم يوجد مواسير ونفتح الحنفية، ونأخذ بكوب ونشرب، لكن الماء لابد أن أسعى إليه وأطلبه. الأسرار هى هذه المواسير التى توصلنا لبحر الخلاص، لكن أنا لابد أن أمد يدى، لذلك «من آمن واعتمد خلص» إذن ليس كل واحد يخلص بعد ما قدم المسيح عمل الفداء، حقاً أن الفداء كافى، فداء المسيح أو عمل المسيح فيه غنى وكفاية، الكفاية تعنى الغنى الذى يكفى لخلاص البشرية كلها، أما الخلاص بالنسبة للإنسان فخلاص فردى، لابد أنه هو الذى يطلب الخلاص. ويسعى إليه ثم يتعمد، ومن هنا جاءت ضرورة المعمودية، لذلك يعمد الطفل، لأنه لو كان خلاص المسيح تم بالنسبة للبشرية كلها، يكون لا داعى للطفل أن يتعمد، لكن الذى يجعل الطفل لابد أن يتعمد أن المعمودية ضرورية لخلاصه، ولذلك لما ظهر رجل من الهراطقة اسمه بيلاجيوس، وأنكر حاجة الأطفال إلى المعمودية، وقال أن الطفل يولد برىء ... طبعاً الكنيسة وقفت ضد هذا التعليم الغريب، ويوجد قرارات مجمعية قالوا فيها أن الذى يقول أن عبارة «نؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا» أن هذا التعبير مجرد ألفاظ، وأن هذا التعميد ليس لغفران الخطايا يكون محروم، نحن نقول ونؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، فعندما يقول بيلاجيوس لا... الطفل ليس فى حاجة إلى المعمودية، فآباء الكنيسة فى المجمع قالوا الذى يقول هذا الكلام خطأ، والذى يقول أن آدم كان يمكن أن يموت حتى لو لم يخطيء يكون محروم، لأن الموت دخل إلى آدم بسبب الخطيئة، فآدم لو كان نجح فى الإمتحان الذى وضعه أمامه الله، كان الله أعطاه أن يأكل من

شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد، فكان لا يذوق الموت، والذى يقول غير ذلك الكنيسة تحرمه، الخلاصة أن المعمودية ترفع العقوبة الأبدية، لكنا نحن قلنا أن الخطيئة لها عقوبتان عقوبة أبدية وعقوبة زمنية.

العقوبة الزمنية باقية كأثر وهذا الأثر له قيمة، أولاً لكى يبين أن قصة آدم وحواء لم تكن قصة خرافية أو قصة أدبية، ولكنها قصة حقيقية تاريخية، لذلك باقى إلى اليوم أن الرجل يأكل خبزه بعرق جبينه، وباقى إلى اليوم أن الإنسان يموت الموت الذى هو إنفصال الروح عن الجسد، مثل ما قال الكتاب المقدس «وضع للناس أن يموتوا مرة» وهذا حكم على جميع الناس لا يوجد فرد فى الدنيا لا يموت، حتى أخنوخ وإيليا لابد أن ينزلا ويموتا. والمرأة باقى إلى اليوم أنها تلد بالأوجاع أولاد، فأثر الخطيئة باقى، لأنه لولا هذا لكان ممكن أن يقال أن قصة آدم وحواء هذه قصة خيالية. أو قصة أدبية أو معنوية. لكى يتعلم منها الناس.

الأمر الثانى أن الآثار الباقية لها قيمة أخرى عملية وهى أنها تنبه الإنسان إلى فظاعة الخطيئة وإلى آثار الخطيئة. فعندما يجرح الإنسان يبقى أثر الجرح على يده، على الرغم أنه قد يكون شفى، لكن يبقى ما نسميه بالندبة فى الجلد، هذه الندبة فى جلده تذكره بسبب هذا الجرح، ولولا وجود هذه الندبة فى جسده لما تذكر، وهذا التذكر له قيمته فى توقى الأخطاء المستقبلة، فالإنسان عندما يُلسع يخاف أن يصنع هذا الشيء الذى تؤدى به إلى هذا الأمر، فيحترس، ومن هنا جاء ما نسميه بالحذر. الإنسان يعمل حسابه لأنه سبق قبل ذلك وأخذ درس، فالمهم باقى فى طبيعتنا آثار، وهذه الآثار لها قيمتان على الأقل، القيمة الأولى أنها تثبت التاريخ، كلما تذهب وترى الأهرامات أو المقابر أو المعابد المصرية القديمة تتأكد من القصة التاريخية، التى تقال فى المدارس وفى الجامعة، لولا وجود هذه الآثار كان التاريخ نفسه يحتمل الصدق والكذب، مثل أى خبر فى الدنيا يحتمل الصدق والكذب، لكن الآثار تثبت التاريخ وتبين حقيقته. فهذه الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية أنها تعمل حذر للمستقبل وإنتباه للمستقبل، فلا أعود أخطىء نفس الخطأ مرة أخرى. وبهذه الطريقة يحدث أن الأب أو الأم لطول خبرته فى الحياة يعطى الدرس لأولاده أو لبناته، ويقول لهم يا أولادى أنا أخطأت مرة فى شبابى وعملت وعملت، وكانت النتيجة كذا ... فأنا أريد أن أقيكم هذه النتائج لئلا تقعوا من جديد وهذه قيمة الشيخوخة أو قيمة الأب أو الأم فى هذه الزاوية.

ماذا فعلت المعمودية؟

المعمودية ترفع العقوبة الأبدية، من آمن واعتمد خلص، بالخلاص ترفع العقوبة الأبدية.

علماً بأن الإنسان بعد المعمودية ممكن أن يخطىء؟

نعم ممكن أن يخطىء لأن المعمودية لا تعصم الإنسان من الخطأ، لأنه لو كانت المعمودية تعصم الإنسان من الخطأ، تكون سلبته خصيصة أساسية من خصائصه الإنسانية، هذه الخصيصة هى الحرية، فالإنسان كائن حر، ومادام حر له أن يختار، وليس من المعقول أبداً أن الله يعطينا نعمة لكى يسحب فى مقابلها نعمة كبيرة، وهى نعمة الحرية والحرية هى كرامة الإنسان، التى ترفعه فوق مستوى الحيوان. لأن الحيوان تحكمه الغريزة، أما الإنسان فكائن حر، فإذا فى غاية الأهمية أن نعلم أن المعمودية لا تعصم الإنسان من الخطيئة، ولكن الله رحمة بنا أعطانا بعد المعمودية وسائل أو وسائط، هى مواهب الروح القدس التى تساعدنا على أننا نستفيد من الخلاص الذى حصلنا عليه بالمعمودية، حتى لا نعود إلى الخطيئة من جديد، أعطانا نعمة جديدة وهى نعمة المسحة أو التثبيت، وأعطانا أيضاً أسرار أخرى مثل سر التناول الذى به نأخذ قوتاً لأرواحنا نتقوى به حتى ضد الضعف الإنسانى.

كذلك المعمودية شخصية:

لا فرق بين طفل ولد من أبوين غير معمدين، وطفل ولد من أبوين معمدين، فالمعمودية شخصية، لذلك كل فرد لابد أن يتعمد، حتى أن هناك قوانين مجمعية ترد على سؤال: عندما تكون أم حامل وفى بطنها جنين وهذه المرأة كانت غير مؤمنة وآمنت بالمسيح، تتعمد أولاً؟ قالوا تتعمد، وطفلها؟ قالوا الطفل لابد أن يتعمد أيضاً، لكن الطفل كان فى بطنها وقت العماد؟ قالوا لا ...، لابد من عماد الطفل، الجنين بعد أن يولد لازم يتعمد، لأن المعمودية شخصية، فمعمودية الأم لا تصلح أن تكون حجة لإعفاء الإبن من المعمودية. لأنه كما قلنا أن مواهب الله لا تعطى بالقوة ولا بالقهر، فالإنسان لابد أن يطلب هذا، ولا ينفع أن يتعمد أحد بالنيابة عن واحد آخر.

١١ ـ قيمة دم المسيح

سؤال : لقد كان الحكم على أبينا آدم بالموت الأبدى لأنه خالف الوصية، ولكن الموت الذى ماته السيد المسيح فداء للبشرية لم يكن موتاً أبدياً، فأرجو توضيح هذه النقطة؟

الجواب :

كيف يموت المسيح موت أبدى؟ المسيح مات وفى موته كان كفاية، الخلاص الذى صنعه المسيح بموته فيه الكفاية بأن يغطى خطايا البشر إلى الأبد، وهذا هو السبب الحقيقى لماذا المسيح وهو الإله لبس صورة الإنسان وتجسد، ذلك لأن الموت الذى ماته المسيح لم يقع على اللاهوت إنما وقع على الناسوت، لأن الناسوت هو الذى تألم الآلام الفيزيقية، لأن اللاهوت لا يموت لذلك نقول قدوس الله قدوس القوى قدوس الحى الذى لا يموت الذى صلب عنا، فاللاهوت لا يموت، ولكن لأن الجسد الذى مات متحد باللاهوت، فصار قيمة موت هذا الجسد قيمته أبدية، لأن المتحد به هو اللاهوت وقيمته أبدية، فمن هنا كان قيمة فداء المسيح وقيمة دم المسيح هى قيمة الله ذاته. لذلك يقول الكتاب «كنيسة الله التى اقتناها بدمه» وفى اليونانية تعنى «دمه هو نفسه» هذا الدم الذى انسكب من الجسد سمى دم الله، ولو أن اللاهوت ليس له دم، لكن الاتحاد بين الناسوت واللاهوت جعل دم الناسوت هو بعينه له قيمة اللاهوت ذاته، ولما كان اللاهوت أبدى ولذلك كان فداء المسيح يعد فداءً أبدياً، لأن القيمة فى دم المسيح وليست فى دم إنسان، لأنه مادام اللاهوت متحد بالناسوت فصار دم المسيح له القيمة الأبدية وبالتالى له الكفاية بأن يغطى جميع البشر.

١٢ ـ الخلاص الأولى... والخلاص الأبدى (١)

سؤال: من الإكليريكى أمير سعيد عبد الملاك ـ ديروط ـ بانوب ظهر الجمل.

يقول: يوجد اليوم قوم يثيرون حول موضوع الخلاص أسئلة نرجو الإجابة عنها بإفاضة للفائدة العامة.

هل خلاص الإنسان الأبدى مقصور على عمل المسيح الفدائى على الصليب؟ وهل للإنسان دور فى الخلاص؟ وما هو هذا الدور؟ وهل يكفى الإيمان بالمسيح للحصول على الخلاص الأبدى؟

سؤال آخر: من السيد/ منز فهيم نصير ـ طهطا

ما هو مفهوم الخلاص فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكيف يناله المسيحى؟ وبأى طريقة؟ أرجو الشرح؟

الجواب : الخلاص هو أولاً النجاة من الخطيئة، ومن نتائجها، ومن عقوبتها الأبدية، وبالتالى من الهلاك الأبدى فى جهنم النار الأبدية.

والخلاص الأبدى عمل مشترك بين الله والإنسان فالله له دور فيه، والإنسان له دور.

ودور الله هو رفع العقوبة الأبدية، ولكن بشرط أن يطلب الإنسان الخلاص، ويسعى إليه، ويكون مستحقاً لعمل الله وجديراً به. فإن الخلاص لا يُفرض على الإنسان فرضاً. وقد أصاب القديس أوغسطينوس بقوله: (إن الله الذى خلقك بدونك، لا يقدر أن يخلّصك بدونك) بمعنى أنه فى عمل الخلق، لم يكن الإنسان موجوداً، فلم يؤخذ رأيه فى خلقه، وإنما خُلق بدون رأيه. أما فى الخلاص، فلابد من رأى الإنسان، وإرادته، فلا يتم الخلاص من غير مشيئته ومن غير إرادته.

لهذا كان لآدم خلاص، ولم يكن للشيطان خلاص. لأن آدم طلب الخلاص، أما الشيطان فلم يطلب الخلاص. لقد مارس آدم وبنوه الأتقياء، عمل التوبة: فصلوا وصاموا وتضرعوا، وقدموا الذبائح إيماناً منهم بحاجتهم إلى الفداء. ولم يكن دم الثيران والتيوس كافياً فى ذاته، لأن الحيوانات العجماوات أقل فى مرتبة الوجود من الإنسان، فكيف يقف الحيوان وسيطاً بين الإنسان وبين الله؟ إذن لم تكن الثيران والتيوس هى الوسيط الحقيقى (العبرانيين ٩: ٩، ١٠). إن الوسيط الحقيقى هو الفادى لم يكن قد جاء بعد فى زمن آدم، ولكن قد كان هناك وعد بمجيئه فى ملء

(١) نشر بجريدة (وطنى) صباح الأحد ١٤ من أغسطس ـ آب لسنة ١٩٧٧م – ٨ من مسرى لسنة ١٦٩٣ش.

الزمان وهو الذى يسحق الشيطان رأس الحية (التكوين ٣ : ١٥)، فكان تقديم الذبيحة من الثيران والتيوس بمثابة مشير إلى الفادى، يذكر الإنسان بحاجته إلى المخلص الذى لم يأت زمانه بعد، وكما قال أحدهم (أراه ولكن ليس الآن، أبصره ولكن ليس قريباً) (العدد ٢٤ : ١٧). أما الغفران الحقيقى فلم يتم بتقديم تلك الذبائح الحيوانية (العبرانيين ٩ : ١٢). كان الإنسان بتقديم الذبيحة يثبت طاعته للشريعة، وحاجته إلى الفادى، واستحقاقه للخلاص عندما يتم، أما الغفران نفسه فكان مؤجلاً (غلاطية ٣ : ٢٣، ٢٤) إلى أن يأتى الوسيط الحقيقى والفادى (وليس بأحد غيره الخلاص، وما من اسم آخر تحت السماء منح للناس به ينبغى أن يخلصوا (أعمال الرسل ٤ : ١٢). ولهذا السبب فإن جميع القديسين من أولاد آدم قبل مجىء المسيح الفادى لم يستطيعوا على الرغم مما قدموه من ذبائح أن ينالوا الخلاص، ولم يتمكنوا من العودة بعد موتهم، فمضوا إلى العالم السفلى، إلى الجحيم، لكنهم نظروا المواعِد من بعيد وصدّقوها وحيّوها (العبرانيين ١١ : ١٣) ولكن لم يحصلوا عليها إلا عندما مات المسيح فداء عن الناس، وبموته أطلق سراح المحبوسين فى سجن الجحيم على رجاء الخلاص، فقد نزل إلى أقسام الأرض السفلى، وسبى الذين كانوا فى الجحيم معتقلين وردهم إلى الفردوس (أفسس ٤ : ٨، ٩)، (١. بطرس ٣ : ١٩).

هذا هو دور الله، فى الخلاص. الإنسان طلب الخلاص ولكن لم يكن بإمكانه أن يحصل عليه من غير الفادى والمخلّص (لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها... هو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه. وبحبرة شفينا. كلنا كغنم ضللنا. والرب وضع عليه إثم جميعنا) (إشعياء ٥٣ : ٤-٦).

وأما دور الإنسان فهو إعترافه بإثمه، وبحاجته إلى الخلاص وتطلعه إلى المخلص، وسعيه نحو الخلاص.

وإذا كان الخلاص بحراً، من مياه حلوة قد تفجر عند الصليب بعمل الله فى المسيح الفادى، فعلى الإنسان أن يسعى بنفسه إلى البحر، ويغترف بيديه من بحر الخلاص. فالبحر لا يصل إليه ما لم يسع هو إليه بذاته وبإختياره وإرادته، وهذا هو دور الإيمان بالمسيح والعماد بإسمه (فمن آمن واعتمد خلُص، ومن لم يؤمن أُدين) (مرقس ١٦ : ١٦).

إن الإيمان من جانب الإنسان هو بيّنة على قبوله عمل الله، حراً مختاراً. وأما العماد فهو الموصّل الحقيقى لعمل الفداء، لأن الروح القدس فى سّر العماد ينقل إستحقاقات عمل المسيح الفدائى إلى المؤمن (يأخذ مما لى) (يوحنا ١٥ : ١٤، ١٥) فالمؤمن يخلص فى الواقع لا بالإيمان

بل بالعماد. الإيمان دليل القبول بالحرية والإختيار، وأما الخلاص فهو عمل المسيح الذى يناله المؤمن فى المعمودية حيث يفعل الروح القدس الفعاليات الباطنية فى طبيعة المؤمن. وهذا هو معنى قول الوحى المقدس (وكان هذا رمزاً للمعمودية التى تُخلِّصكم الآن أنتم أيضاً، لا بإزالة وسخ الجسد، بل بعهد صادق النية مع الله بقيامة يسوع المسيح) (١. بطرس ٣: ٢١). فبالمعمودية يتم الخلاص وليس بالإيمان وحده. لأن المعمودية هى عمل الله. أما الإيمان فهو عمل الإنسان. فى المعمودية يعمل الله، إذ ينحدر الروح القدس ويرف على وجه المياة (التكوين ١: ٢١) فيخلق فى المؤمن الخليقة الجديدة (٢. كورنثوس ٥: ١٧)، (غلاطية ٦: ١٥)، والطبيعة الجديدة، طبيعة المسيح القائم من بين الأموات. أما الطبيعة القديمة، والإنسان العتيق (رومية ٦: ٦)، (أفسس ٤: ٢٢)، (كولوسى ٣: ٩) فيسحقه الروح القدس فى مياة المعمودية (ليقدسها ويطهرها بماء الاغتسال وبالكلمة) (أفسس ٥: ٢٦). وهذا هو معنى قوله أيضاً حين ظهر لطف مخلِّصنا الله وإحسانه، (لا اعتبارا لأعمال بّر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغسل الميلاد الثانى لحياة جديدة بالروح القدس الذى سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلّصنا) (تيطس ٣: ٤ – ٦).

وإذن فالخلاص الذى نلناه هو عمل الله بالفداء فى يسوع المسيح الذى صُلب عنا، لكن هذا الخلاص حصلنا عليه فى سر المعمودية حيث نقل إلينا الروح القدس بركات الفداء وإستحقاقات الخلاص الذى أنجزه المسيح بموته. وهذا هو التضامن بين عمل الإيمان وعمل المعمودية. إن الإيمان يقربنا إلى الله، أما المعمودية فتمنحنا الخلاص، لأنها هى بالفعل عمل المسيح الفادى (وكان هذا رمزاً للمعمودية التى تخلِّصكم الآن أنتم أيضاً) (١. بطرس ٣: ٢١).

وبعد، فهذا هو الخلاص الذى تم، والذى حصلنا عليه فى المعمودية المقدسة... لكن ليس هذا هو الخلاص النهائى، فإن حياتنا الممتدة بعد العماد تحتاج إلى جهاد من أجل المحافظة على الخلاص الذى نلناه، ولكى نعيش فيه إلى يوم خروجنا من هذا العالم، فإنه يمكن أن نفقده بالإهمال أو التعدّى، أو الوقوع فى الخطيئة من جديد... وإلا لما قال الرسول بولس للمؤمنين المسيحيين فى كورنثوس (من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط) (١. كورنثوس ١٠: ١٢) أى أن هناك إحتمالاً بالسقوط فى الخطيئة بعد نيل الخلاص منها (رومية ١١: ٢٠ – ٢٢)، وإلا لما قال المسيح له المجد لأسقف كنيسة فيلادلفيا (ها أنا آتى سريعاً. تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك) (الرؤيا ٣: ١١) أى أن الإحتمال قائم بأن يفقد المؤمن المسيحى ـ بل وأيضاً الخادم،

شماساً كان أو كاهناً، أو أسقفاً - إكليله الأبدى، إذا لم يتمسك بالخلاص الذى حصل عليه، وبمقتضيات هذا الخلاص، ألم يقل الرسول القديس بطرس (إن كان البار بالجهد يخلص، فالفاجر والخاطيء أين يظهران) (١ . بطرس ٤ : ١٨) فلابد إذن من الجهاد للحفاظ على المكاسب التى حصل المؤمن عليها بإيمانه بالمسيح وعماده باسمه، وإلا فإنه يفقدها.

لقد آمن سيمون الساحر بالمسيح بإندهاش عظيم ثم اعتمد أيضاً (أعمال الرسل ٨ : ١٣) . ولكنه لم يثبت فى تعليم المسيح، فقال له القديس بطرس الرسول (لتكن فضتك معك للهلاك... لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله. فتب من شرك هذا، واطلب إلى الله عسى أن يغفر لك فكر قلبك، لأنى أراك فى مرارة المر، ورباط الظلم) (أعمال ٨: ٢٠- ٢٢) .

وآمن ديماس بالمسيح واعتمد باسمه (وهو غير ديماس اللص اليمين الذى آمن بالمسيح وهو على الصليب، ودخل معه إلى الفردوس) وصار ديماس مرافقاً للقديس بولس الرسول فى جهاده، وقد ذكره القديس بولس فى رسائله كأحد زملائه العاملين معه فى الخدمة (كولوسى ٤ : ١٤)، (فليمون : ٢٤) . ولكن ديماس هذا عاد وانحرف عن طريق الخلاص، فقال عنه الرسول بولس حزيناً (ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر) (٢ . تيموثيئوس ٤ : ١٠) .

وآمن آخرون غيرهم بالمسيح واعتمدوا باسمه، ثم عادوا وسقطوا فى الخطيئة من جديد، وتنكبوا عن طريق الخلاص. وقد قال الرسول القديس بولس (لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً، والآن أذكرهم أيضاً باكياً، وهم أعداء صليب المسيح) (فيلبى ٣ : ١٨) .

لهذا قال الرسول القديس بولس بالوحى المقدس (اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم، فتمثلوا بإيمانهم) (العبرانيين ١٣ : ٧) . لأن كثيرين بدأوا حسناً، آمنوا واعتمدوا وساروا على الطريق، ثم انحرفوا وهلكوا. أما الذين ساروا ثابتين إلى النهاية، فقليلون، هؤلاء هم الذين ينبغى أن يتمثل المؤمنون بهم، فلا يتمثلون إلا بالذين استطاعوا أن يصمدوا فى طريق الخلاص إلى نهايته.

ولهذا أيضاً يقول المسيح له المجد لأسقف كنيسة أزمير (سميرنا) (كن أميناً حتى الممات، فأعطيك إكليل الحياة) (الرؤيا ٢ : ١٠) . ويقول له المجد أيضاً (ولكن ذاك الذى يصمد إلى النهاية هو الذى يخلُص) (متى ٢٤ : ١٣) (متى ١٠ : ٢٢) .

هذا هو السبب فى قول الرسول بولس بالوحى الإلهى، ناصحاً المؤمنين بالمسيح فى كنيسة الله التى فى فيلبى (واعملوا لخلاصكم بخوف ورعدة) (فيلبى ٢ : ١٢) فكأن خلاصهم الذى نالوه فى المسيح بالإيمان والمعمودية يجب أن يحفظوه بالجهاد (بخوف ورعدة) وبدون الجهاد من جانبهم، يضيع الخلاص، فيفقدون الإكليل. لابد إذن للخلاص الذى نالوه أن يكمل ويتمم بالجهاد والمثابرة على وسائط الخلاص ليحصلوا فى نهاية الحياة على الخلاص الأبدى.

١٣ - كيف تم خلاصنا بالمسيح؟

عندما أخطأ أبونا آدم، صدر عليه الحكم بالموت (التكوين ٢: ١٧)، (٣: ٣، ١٩) (رومية ٦: ٢٣)، (يعقوب ١: ١٥). ولم يمت آدم وحده، وإنما ماتت معه كل ذريته (١. كورنثوس ١٥: ٢٢)، ذلك أن هذه الذرية وُلدت من آدم بعد سقوطه فى الخطيئة وبعد أن صدر عليه الحكم بالموت. لذلك فقد ورثت ذرية آدم حالة آدم نفسها، وصارت كل الذرية خاطئة، ومحكوماً عليها بالموت. ومثل الخطيئة مثل المرض. فمن يمرض يرث أولاده الذين يولدون منه وهو فى حالة المرض، نفس المرض. ومثل الخطيئة أيضاً مثل الفقر. فمن يلد أولاداً وهو فقير، يرث أولاده عنه فقره، لأنهم ولدوا منه وهو فى حالة الفقر. لهذا لم يستطع أحد من أولاد آدم أن يدخل بعد موته إلى الفردوس. وقد ظل الفردوس مغلقاً فى وجه آدم وبنيه من بعده. ولهذا يقول الوحى الإلهى صراحة (**بخطيئة إنسان واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة**) (رومية ٥: ١٨).

وهذا هو مبدأ انتشار أو سريان الخطيئة الأصلية فى جميع بنى آدم، وهو عقيدة أساسية من عقائد ديانتنا المسيحية، وعلى أساسها يقوم عمل الفداء والخلاص والكفارة بموت المسيح بدلاً من آدم وبنيه (**وكما يموت جميع الناس فى آدم فكذلك هم سيحيون فى المسيح**) (١. كورنثوس ١٥: ٢٢).

لقد وُلدنا نحن من آدم بعد أن تلوثت طبيعته، فورثنا منه طبيعة ملوثة فاسدة. وقد تغلغل الفساد فى أعماقها، ولم يعد فى الإمكان إصلاح الطبيعة البشرية الفاسدة، فكان لابد لهذه الطبيعة أن تتغير بكمالها.

لا مفر إذن من أن تتغير طبيعة الإنسان الفاسدة تغيراً كاملاً، وتُستأصل استئصالاً تاماً. وهذا **هو ما يتم بالفعل فى المعمودية المقدسة بفعالية الروح القدس الذى ينحدر على ماء المعمودية.**

لقد تمم المسيح عمل الفداء بموته على الصليب بدلاً من الإنسان، بعد أن نُقلت عقوبة الخطيئة ومسئوليتها على رأس المسيح الفادى بصفته بدلاً من الإنسان (كلنا ضللنا كالغنم، كل واحد مال إلى طريقه، **ووضع الرب عليه إثم جميعنا**) (إشعياء ٥٣: ٦).

وهذا هو معنى الفداء. معناه أن يقبل واحد حكم الموت نيابة عن آخر، فيفديه لأنه صار بديلاً عنه. فالمسيح يسوع صار فى عمل الفداء بديلاً عن الإنسان فانتقلت خطيئة آدم إلى رأس المسيح فصار هو (**حمل الله الذى يحمل خطيئة العالم**) (يوحنا ١ : ٢٩، ٣٦)، (١. يوحنا ٣ : ٥).

(**ذاك الذى لم يعرف الخطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا كيما نصير به برّ الله**) (٢. كورنثوس ٥ : ٢١)، (١. بطرس ٢ : ٢٢).

هذا هو السبب فى أن المسيح عانى فى بستان جثسيمانى آلاماً شديدة وقال (**إن نفسى حزينة جداً حتى الموت**) (متى ٢٦ : ٣٨)، (مرقس ١٤ : ٣٤)، (يوحنا ١٢ : ٢٧).

وإذ قال المسيح فادينا (إن نفسى حزينة جداً حتى الموت) فعلينا أن نفهم هذا التعبير بمعناه الدقيق، فإن المسيح صادق ومُحق فيما يقول. إنه لا يتوهم الألم ولا يبالغ كما يفعل سائر الناس. فلقد كانت نفسه حزينة جداً بكل ما فى كلمة الحزن من معنى من دون مبالغة أو تهويل. وقد كانت آلامه شديدة حتى إنها كانت كافية لموته قبل الصليب. ولو مات المسيح قبل الصليب بفعل شدة الآلام على كيانه الإنسانى، لكان قد تعطّل عمل الفداء، وبالتالى لكان قد فشل تدبير الفداء والخلاص للإنسان. لهذا ولكى ينجح تدبير الفداء ويتم الخلاص كان لابد أن يساند اللاهوت الناسوت ويقويه لكى يحتمل الناسوت الآلام كاملة حتى الصلب والموت. وتوكيداً لحقيقة هذه الآلام قال مخلصنا وفادينا (نفسى الآن قد اضطربت، فماذا أقول؟ **يا أبتاه نجّنى من هذه الساعة، ولكننى من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة**) (يوحنا ١٢ : ٢٧) معبراً بهذا عن شدة الآلام من جهة، ولكن عن ضرورة إحتماله لها حتى نهايتها من جهة أخرى، ومبيناً أن عمل الفداء هو الهدف الكبير لمجيئه من السماء، وتجسده. وقال أيضاً وهو يعانى الآلام فى بستان جثسيمانى وقبل الصليب: (**يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس. ولكن لا كمشيئتى بل كمشيئتك**) (متى ٢٦ : ٣٩)، (مرقس ١٤ : ٣٦)، (لوقا ٢٢ : ٤٢) ثم قال ثانية وهو لم يزل فى بستان جثسيمانى (**يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس ولم يكن بد من أن أشربها فلتكن مشيئتك**) (متى ٢٦ : ٤٢). **وليس هذا معناه أن مشيئة المسيح غير مشيئة الآب السماوى، فإن الله واحد، وأقانيمه الثلاثة لا تعارض بينها فى تدبير الخلاص**. إنما قول المسيح مخلصنا فيه بيان واضح وتعبير صريح عن شدة آلامه وأنها آلام حقيقية كاملة تنفر منها طبيعة الإنسان، وتهرب منها لقسوتها، ومع ذلك **فإنه بمشيئته الإلهية ارتضاها وقبلها من أجل خلاص الإنسان**، لأنه لم يكن ثمة سبيل

آخر لتحقيق الخلاص لآدم وذريته. فالحكم الإلهى قد صدر على الإنسان بالموت، وكلمة الله لا تسقط أبداً ولا تزول (١. صموئيل ٣: ١٩)، (متى ٥: ١٨)، فأخذ الله الكلمة صورة الإنسان، ووضع نفسه بدلاً من الإنسان، ليفدى الإنسان من حكم العدل الإلهى عليه. وهو البيّنة على إلتقاء رحمة الله بعدالته بدون إهدار أحدهما على حساب الأخرى.

فالمسيح فى بستان جثسيمانى وهو يصلى طالباً أن تعبر عنه كأس الصليب لو أمكن، كان يمثل بناسوته، الإنسان المطرود من الفردوس، والإنسان المحكوم عليه بالموت، والإنسان وهو تحت قضاء الحكم الإلهى، الإنسانية التى بينها وبين الله عداوة، الإنسانية وهى تحت سيف العدالة المسلط عليها، سيف العدالة الذى يطلب موتها عقاباً لها على خطيئتها، وعلى تعديها وصية الله المقدسة.

وإذن فالمسيح فادينا كان يصلى كإنسان لا كإله، لأنه بصفته الإنسانية قام بعمل الفداء نائباً عنا. ومع ذلك فلاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين. فهو قد تألم كإنسان. ومع أن اللاهوت متحد بالناسوت إتحاداً كاملاً وتاماً، لكنه لم يتدخل لينقص آلام الناسوت، حتى يتحمل المسيح الآلام كاملة نيابة عن الإنسان. إن اللاهوت ساند الناسوت حتى لا ينهار من وطأة الآلام، ولكى يقبل الآلام كاملة وبغير نقص كما يتطلبها العدل الإلهى. وبلغة أخرى، **نقول إن اللاهوت ترك الناسوت يتألم، ولكنه لم يفارقه. تركه يتألم ولم يتدخل لينقص الآلام أو يخففها، إنما تخلى عنه ليتجرع كأس الآلام حتى الثمالة، ولكنه لم يفارقه بتاتاً، لأن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت إتحاد كامل وتام ولا يقبل الإفتراق أو المفارقة.**

أما آلام المسيح فى بستان جثسيمانى ومعاناته فى عمل الفداء، فكانت آلاماً متنوعة: آلاماً جسدية، وآلاماً نفسية ثم آلاماً روحية.

أما آلامه الجسدية، فتتمثل فى صراعه ومعاناته وما أصاب جسده من إرهاق وتعب، جعلته يتصبب عرقاً، بل (كان عرقه كقطرات الدم يتساقط على الأرض) (لوقا ٢٢: ٤٤) وهذا معناه أنه حدث اضطراب فى الغدد الصماء فى جسد الفادى، من فرط الآلام، هذا فضلاً عما احتمله بعد ذلك من ضرب بالقصبة على رأسه (مرقس ١٥: ١٩) وأخذوا يلطمونه على وجهه (لوقا ٢٢: ٦٤) ويبصقون فى وجهه (متى ٢٧: ٣٠) ثم جلدوه (يوحنا ١٩: ١)، (متى ٢٧: ٢٦)

(وضفروا تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه) (متى ٢٧ : ٢٩)، (مرقس ١٥ : ١٧)، (يوحنا ١٩ : ٢) ثم حمّلوه خشبة الصليب (يوحنا ١٩ : ١٧)، وصلبوه (متى ٢٧ : ٣٥)، (مرقس ١٥ : ٢٤) وسمّروه في يديه وقدميه (يوحنا ٢٠ : ٢٥)، (لوقا ٢٤ : ٣٩)، وطعنوا جنبه بحربة (يوحنا ١٩ : ٣٤)، وما تبع كل ذلك من آلام...

وأما آلامه النفسية فشديدة. فقد كان يعلم مسبقاً بكل الآلام التي سيحتملها (يوحنا ١٨ : ٤). ولابد أن يكون هذا العلم نفسه مصدر آلام شديدة على نفسه، وعلى جسده. فالمحكوم عليه بالإعدام إذا مرت فترة زمنية طويلة بين الحكم وبين تنفيذه فإنه بقدر معرفته، وبطول الزمن الذي يسبق تنفيذ الحكم، يزداد عذابه النفسي وتتفاقم آلامه.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك تنكر اليهود له، وهو الذي جاء إليهم هادياً ومرشداً ومخلصاً، فرفضوه وأهانوه وشتموه وآثروا عليه لصاً مجرماً هو باراباس، وطالبوا الحاكم الروماني بإطلاق سراحه (يوحنا ١٨ : ٣٩، ٤٠) بينما طالبوه بصلب المسيح الذي شهد له بيلاطس نفسه بأنه بار ولم يعمل شيئاً يستحق من أجله الموت (يوحنا ١٨ : ٣٨)، (٩ : ٤). ولقد شفى مرضاهم، وأقام موتاهم، وأشبعهم من جوع، وصنع بهم كل خير، فكافأوه بشر عظيم، وظلموه واضطهدوه، وقالوا عنه إنه (سامري وبه شيطان) (يوحنا ٨ : ٤٨)، وإنه (ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين) (متى ١٢ : ٢٤) وبدلاً من أن يشكروه على ما صنع بهم من خير، صاروا يهتفون في وجه الوالي: (اصلبه، اصلبه) (يوحنا ١٩ : ٦، ١٥). (إن أنت أطلقت سراحه فلست محباً لقيصر) (يوحنا ١٩ : ١٢).

وماذا كان من شأن تلاميذه؟ إن واحداً منهم هو يهوذا الاسخريوطي باعه بثلاثين من الفضة (متى ٢٦ : ١٥)، وخانه شر خيانه، وتنكر له، وتآمر مع أعدائه ليسلمه لهم حتى يصلبوه ويقتلوه. وأما تلاميذه الآخرون فتركوه كلهم وهربوا (مرقس ١٤ : ٥٠، ٥١). وحتى تلميذه بطرس وهو الأول في قائمة الإثنى عشر، وكان قد زعم بحرارة وحمية أنه لو شك فيه الجميع فلن يشك هو فيه أبداً (متى ٢٦ : ٣٣) أنكره أمام جارية وقال عنه (لست أعرفه يا إمرأة) (لوقا ٢٢ : ٥٧) وضعف إيمانه بسيده ومعلّمه (فراح يلعن ويحلف قائلاً: إني لا أعرف هذا الرجل الذي عنه تتكلمون) (مرقس ١٤ : ٧١).

وأما آلامه الروحية فكانت أكثر الآمه، لأنه وهو الخالق، يعرف ما أصاب خليقته من فساد، وما صار يتهددها من الهلاك الأبدى، فكان لا بدّ لأحشائه من أن تتمزق أسى وحزناً على مصير الخليقة التي أعوزها مجد الله. ثم إنه وقد نزل من السماء لخلاصها كان عليه أن يحمل خطاياها على رأسه (**جعل الذى لم يعرف خطيئة خطيئة لأجلنا**) (٢. كورنثوس ٥: ٢١) **فصار وهو القدوس خاطئاً، بل خطيئة، وحمل خطايانا وأوزارنا، وجعل نفسه هو المغضوب عليه الذى بحكم العدل الإلهى قبل أن يحل به حكم الموت كخاطئ.** فما أعظمها تضحية قام بها المسيح يسوع، ليس فقط فى قبوله الحكم بالصلب والموت كفاد ونائب عن آدم وكل ذريته، ولكن فى قبوله أن يكون هو الخاطئ وهو الأثيم (وضع الرب عليه إثم جميعنا) (إشعياء ٥٣: ٦) (إنه سكب للموت نفسه، وأحصى مع أثمة، **وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين**) (إشعياء ٥٣: ١٢).

كانت إذن آلام المسيح يسوع قاسية وشديدة. لذلك كانت نفسه (حزينة جداً حتى الموت) (مرقس ١٤: ٣٤) (**ولولا مساندة اللاهوت للناسوت لكانت آلام المسيح يسوع كافية لأن تقضى على حياته الإنسانية قبل الصليب**. ولكن مساندة اللاهوت للناسوت جعلته يخرج قوياً لمن تجمهروا عليه وجاءوا ليعتقلوه (وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه قائلين: يسوع الناصرى. فقال لهم يسوع: أنا هو... فلما قال لهم: إنى أنا هو، ارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض. فسألهم ثانية: من تطلبون؟ قالوا: يسوع الناصرى. فأجاب يسوع قائلاً: قد قلت لكم إنى أنا هو) (يوحنا ١٨: ٤–٨) **فكان سقوطهم أمامه دليلاً على هيبته وقوته وسلطان لاهوته من جهة، ودليلاً من ناحية أخرى على أن المسيح يسوع لو أراد الهرب من الصليب لكانت الفرصة سانحة له أن يهرب حين سقطوا على وجوههم من هيبة عظمته.**

على أن مساندة اللاهوت للناسوت كانت لتكفى أن تجعله يتمم الصلب وعمل الفداء بحيث أنه بعد أن أتم الفداء والخلاص، مات جسدياً على الفور، مع أن أى مصلوب آخر كان يبقى على الصليب مدة قد تصل إلى يومين أو ثلاثة أيام، ثم يموت بفعل تمزق بطيء فى شرايين القلب. ولذلك (فلئلا تبقى الأجساد على الصليب يوم السبت... فجاء الجند وكسروا ساقى أول اللذين كانا مصلوبين معه، ثم كسروا ساقى الآخر. وأما يسوع **فلما جاءوا إليه وجدوه قد مات**، فلم

يكسروا ساقيه) (يوحنا ١٩ : ٣١- ٣٣) حتى إن بيلاطس لما علم (**فتعجب بيلاطس من أنه مات سريعاً هكذا**) (مرقس ١٥ : ٤٤).

وهذا الموت السريع دليل على أن المسيح مات متأثراً بضغط الآلام النفسية والروحية على قلبه، فمات المسيح كإنسان بإنفجار فى شرايين القلب نتيجة لضغط الآلام النفسية وهو ما أنبأ به النبى داود بقوله: (**قد كسر قلبى العار**) (مزمور ٦٨ : ٢٠).

١٤ ـ المسيح وحده هو الفادى
وليس لأحد بغيره الخلاص

سؤال: من الابن الدكتور الفونس ميخائيل سعد ـ رشيد ـ البحيرة.

يقول إنى أتساءل «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (العبرانيين ٩ : ٢٢) فهل معنى هذا أن الله يرضى بالفِدية أو يفرح بسفك الدم حتى يصفح عن البشر؟

الجواب :

إن ما جاء فى الرسالة إلى العبرانيين «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» يُشيرُ إلى قضية الفداء والخلاص، فإنه عندما أخطأ آدم وحواء، فأكلا من شجرة معرفة الخير والشر، وهى الشجرة التى نهى الله الإنسان عن أن يأكل منها وأنذره قائلاً «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فإنك يوم تأكلُ منها تموت موتاً» (التكوين ٢ : ١٦) وأكلت حواء وأكل آدم من الثمرة المنهى عنها، فوجب عليها الحكم بالموت، وحُرِما من شجرة الحياة، وانطردا من الجنة (التكوين ٣ : ٢٤) «فانفتحت أعينهما فعلما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لأنفسهما مآزر» (التكوين ٣ : ٧) فرأى الرب الإله ما صنعه آدم وحواء عملاً ناقصاً فى تغطية عورتيهما بأوراق التين «وصنع الرب الإله لآدم وإمرأته أقمصة من جلد وكساهما» (التكوين ٣ : ٢١).

وإذن فلم يكن ما صنعه آدم وحواء بتغطية عورتيهما بورق التين كافياً، فتدخل الرب الإله، وصنع هو لهما **أقمصة من جلد** وكساهما. فالذى صنع الأقمصة هو الله، وما صنعه الله هو **أقمصة من الجلد**، وبعد أن صنع الأقمصة من الجلد، تفضل هو بجلاله فكسا آدم وحواء. ولكل فعل من هذه الأفعال دلالته، وكل فعل منها كان الله هو فاعله.

وهنا نتوقف لنتأمل:

ما هو الجلد؟

المعروف أن **الجلد** هو البشرة الخارجية للحيوان بعد ذبحه وسلخه.

فمن أين كان الجلد فى زمن آدم وحواء؟

أما أولاً فلم يكن الإنسان يذبح الحيوان ليأكله، **فقد كان الإنسان الأول يأكل النباتات، ولم يكن مسموحاً للإنسان آنذاك بأكل اللحوم إلا بعد الطوفان** فى زمن نوح، وهى فترة من الزمن يقدرونها بمئات السنين - نحو ٢٢٥٦ سنة على الأقل.

جاء فى الأصحاح الأول من سفر التكوين بعد خلق آدم وجنس البشر «وقال الله **ها إنى قد أعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها. وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً، يكون لكم طعاماً**» (التكوين ١ : ٢٩) «وأمر الرب الإله آدم قائلاً **من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً**» (التكوين ٢ : ١٦) «**وتأكل عشب الحقل**» (التكوين ٣ : ١٨).

قلنا إن الله لم يسمح للإنسان بأكل اللحوم إلا بعد الطوفان.

جاء فى الأصحاح التاسع من سفر التكوين - بعد أن جفت المياة - مياه الطوفان عن الأرض (التكوين ٨ : ١٢) «وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض... **كل دابة تكون لكم طعاماً**. كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع، غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه» (التكوين ٩ : ١ - ٤)، (التثنية ١٢ : ١٥)، (١٤ : ٤، ٩، ١١).

وإذن **فمن أين الجلد** وهو البشرة الخارجية للحيوان بعد ذبحه ثم سلخه، من أين الجلد لآدم ولم يكن مسموحاً له بأكل اللحوم؟ ثم إن الحيوان إذا أكل حيواناً، فلا يفصل بين الجلد واللحم، وإنما يأكل لحم الحيوان بجلده؟

فالاحتمال الباقى أن يكون الجلد الذى كسا الله به آدم وحواء جاء بعد ذبح حيوان بهدف الاستغفار والتكفير عن خطيئة آدم وحواء، وهو رمز للفادى الحقيقى الذى لم يأت زمانه بعد، وهو المسيح الحمل الحقيقى الذى وعد الله به آدم وحواء بعد أن سقطا فى المعصية، معلناً أن الفادى من نسل المرأة «هو الذى يسحق رأس الحية - الشيطان» (التكوين ٣ : ١٥)، (رومية ١٦ : ٢٠)، (كولوسى ٢ : ١٥)، (العبرانيين ٢ : ١٤، ١٥)، (١ . يوحنا ٣ : ٨)، (لوقا ١٠ : ١٨)، (يوحنا ١٦ : ١١)، (١٢ : ٣١)، (أعمال الرسل ٢٦ : ١٨)، (أفسس ٢ : ٢).

وإذن هو الله الذى أعلن للإنسان الأول، وهو آدم، أنه لكى يستغفر عن خطيئته لابد له من أن يذبح حيواناً، فيكون موت الحيوان بدلاً من الإنسان، فينجو الإنسان بموت حيوان بدلاً منه، وبهذا يفدى الحيوان الإنسان، وهذا رمز للفادى الحقيقى الذى سيجىء زمانه فيما بعد والذى قيل فيه «لما تم **الزمان** أرسل الله ابنه مولوداً لإمرأة، مولوداً فى حكم الشريعة ليفتدى (ليشترى من

جديد) الذين هم فى حكم الشريعة، فنحظى بالتبنى (حتى نصير نحن أبناء الله)، (غلاطية ٤: ٤، ٥)، (التكوين ٤٩: ١٠)، (دانيال ٩: ٢٤)س، (مرقس ١: ١٥)، (أفسس ١: ١٠).

ذلك لأنه ليس من المعقول أو المقبول أن حيواناً من العجماوات يفدى الإنسان، أو أن يشفع فى الإنسان، وهو أعلى فى مرتبة الوجود من الحيوان الأعجم...

وإذن فالذبيحة الحيوانية من حمل أو خروف هى مجرد رمز وإشارة، لذبيح آخر هو أعلى مقاماً ومرتبة فى سلم الوجود من الإنسان، حتى تكون شفاعته لدى العدل الإلهى مبرراً لرفع الحكم بالموت الذى صدر على آدم وبنيه من بعده. «لأن الله واحد، **والوسيط بين الله والناس واحد، هو المسيح يسوع الإنسان**، الذى بذل نفسه **فدى لجميع الناس**» (١. تيموثيئوس ٢: ٥، ٦)، (العبرانيين ٨: ٦)، (٩: ١٤) وعلى ذلك، **فهو** الله الذى أعلن للإنسان الأول سبيل الخلاص، بالكفارة، وعلَّمه أن يذبح الحيوان من الخراف أو الغنم، فبذبحه وسفك دمه يكون قد فدى الإنسان بموته بدلاً من الإنسان، ثم يكتسى الإنسان بجلد الحيوان بعد سلخه فيغطى بالجلد عورة الإنسان التى إنكشفت بالخطيئة.

وفى هذا المعنى يجىء عمل الروح القدس فى المعمودية المسيحية، وهى فى حقيقتها موت مع المسيح «لأنكم تعمدتم جميعاً فى المسيح، **فلبستم المسيح**» (غلاطية ٣: ٢٧) وقوله «**البسوا الرب يسوع المسيح**» (رومية ١٣: ١٤) «**وتلبسوا الإنسان الجديد** الذى خلقه الله على صورته فى البر وقداسة الحق» (أفسس ٤: ٢٤) «لأنكم خلعتم الإنسان القديم وخلعتم معه أعماله، **ولبستم الإنسان الجديد** الذى يتجدد فى المعرفة على صورة خالقه» (كولوسى ٣: ١٠).

وبعد، فهذا هو المعنى لما جاء فى الرسالة إلى العبرانيين «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (العبرانيين ٩: ٢٢) والدم المقصود أولاً وبالذات، **هو دم المسيح الفادى الذى «ليس بأحد غيره الخلاص»** (أعمال الرسل ٤: ١٢) وله يشهد جميع الأنبياء، **بأن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران خطاياه»** (أعمال الرسل ١٠: ٤٣) «لأن الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، **هو المسيح يسوع الإنسان، الذى بذل نفسه فدى لجميع الناس»** (١. تيموثيئوس ٢: ٥، ٦) «**اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم**» (متى ١: ٢١)، (أعمال الرسل ٥: ٣١)، (١٣: ٢٣، ٣٨).

وإذا كان أول من قدم الذبيحة بأمر الله هو آدم، رمزاً لذبيحة المسيح الكفارية وبها تم ويتم الفداء، فإن على غرار آدم الأب الأول قدمّ جميع الأتقياء مبدأ **الذبيحة أو الضحية** قبل مجيء المسيح.

فهابيل وهو ابن آدم مباشرة «**قدم هابيل من أبكار غنمه ومن سمانها**، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه» (التكوين ٤ : ٤) أما قايين فلم يقدم ذبيحة من الحيوان، مكتفياً بتقدمة من أثمار الأرض فلم ينظر الرب إلى تقدمته (التكوين ٤ : ٥) «وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطيور الطاهرة، **فأصعد محرقات على المذبح**، فتنسم الرب رائحة الرضى...» (التكوين ٨: ٢٠، ٢١).

وهكذا صنع أبرام وهو إبراهيم الخليل، «فبنى مذبحاً للرب» (التكوين ١٢ : ٧، ٨)، (١٣ : ٤، ١٨)، وإسحق أيضاً (التكوين ٢٦ : ٢٥)، ويعقوب (التكوين ٣٥ : ٤) وجدعون (القضاة ٦ : ٢٦) وصموئيل (١ . صموئيل ٧ : ٩، ١٠) وأيوب (١ : ٥)، (٤٢ : ٨) وجميع الأنبياء.

بل إن مبدأ تقديم الذبيحة للتكفير ساد في جميع الشعوب من بني آدم فعرف عند اليونان وعند الرومان وغيرهم....

وإذن فمبدأ **تقديم الذبيحة بدأ بآدم** وامتد إلى كل بني آدم ذلك أن الله **هو الذي علم آدم أن يقدم الذبيحة تكفيراً واستغفاراً، وذلك رمزاً لذبيحة المسيح التي تممها بموته على الصليب**، وهذا هو المعنى من قول يوحنا المعمدان عن المسيح «**هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم** (يوحنا ١ : ٢٩، ٣٦)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٣)، (غلاطية ١ : ٤)، (العبرانيين ١ : ٣)، (٢ : ١٧)، (٩ : ٢٨)، (١ . بطرس ٢ : ٢٤)، (٣ : ١٨)، (١ . يوحنا ٢ : ٢)، (٣ : ٥)، (٤ : ١٠)، (الجليان ـ الرؤيا ١ : ٥).

١٥ - لماذا كان الحمل يُشير إلى ذبيحة الخلاص؟ (١)

سؤال: من الإبنة سعاد نجيب بولس - شبين الكوم.

لماذا كان الحمل هو المختار لكي يشير إلى ذبيحة الخلاص، وهى السيد المسيح؟

الجواب :

الحمل هو الخروف الصغير، وهو الجَذَعَ من صغار الضأن.

والحمل لصغره يُمثل البراءة والوداعة.

قال المسيح له المجد لتلاميذه ورسله: (اذهبوا ها أنا ذا أرسلكم كحملان بين ذئاب) (لوقا ١٠: ٣)، (متى ١٠: ١٦) وقال (احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يجيئون إليكم فى ثياب **الحملان**، ولكنهم في باطنهم ذئاب خاطفة) (متى ٧: ١٥).

ولقد أمر الله بنى إسرائيل أن يقدموا فى الفصح، وفى كل مرة يريد الواحد منهم أن يستغفر الله عن خطيئته، محرقة هى: **حمل حولى أى ابن سنة.**

جاء عن النبى صموئيل: (فأخذ صموئيل **حملاً رضيعاً**، وأصعده بجملته محرقة للرب، وصرخ صموئيل إلى الرب من أجل إسرائيل) (١. صموئيل ٧: ٩).

وفى الفصح (**حَمَلٌ صحيحٌ ذكرٌ حَوليّ ابن سنة يَكونُ لكم من الضأن أو المَعَز تأخُذُونَه**) (الخروج ١٢: ٥) (مشوّياً بالنار مع فطير، على أعشاب مرةٍ... مشوياً بالنار، رأسه مع أكارعه وجوفه) (الخروج ١٢: ٨- ١٠).

ولقد رسم الله فى الشريعة أن يضع الكاهن أو مُقدم الذبيحة **يده على رأس الذبيحة** قبل ذبحها أو جزها، ثم يذبحها أمام الرب ويأخذ من دم الذبيحة ويجعله على قرون المذبح بإصبعه وسائر الدم يصبه إلى أسفل المذبح ويأخذ كل الشحم الذى يغشى الجوف وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذى عليهما ويوقدها على المذبح. وأما لحم الذبيحة وجلدها وفرثها فيحرقها بنار خارج المحلة هو **ذبيحة خطيئة.**

أما وضع اليد على رأس الذبيحة فمعناه أن الخاطىء ينقل بهذه الوسيلة خطيئته ويجعلها على رأس الذبيحة، ثم يذبح الحيوان ويسفك دمه بدلاً من الإنسان، **(فيفدى الحيوان الإنسان)**.

---

(١) كتب فى ١١ من يوليو ١٩٩١م – ٤ من أبيب ١٧٠٧ ش.

ولكن هل يُعقل أن يفدى الحيوان الإنسان؟ إن قيمة الإنسان أكبر كثيراً من أن يحل محلّه الحيوان أمام الله.

إن الأصل فى هذا كله **أن الحكم بالموت قد صدر على الإنسان** (وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) (التكوين ٢: ١٧)، ولا سبيل إلى الخلاص من الحكم بالموت، لأنه قضاء الله على الإنسان **(لأن أجرة الخطيئة هى الموت)** (رومية ٦: ٢٣)، (١: ٣٢).

ولما كان الله قد وعد الإنسان بالخلاص (التكوين ٣: ١٥).

والخلاص يكون بسفك دم المخلص الفادى **(الذى ليس لأحد بغيره الخلاص)** (أعمال الرسل ٤: ١٢)، (١٠: ٤٣)، (متى ١: ٢١)، (١. تيموثيئوس ٢: ٥)، (لوقا ٢: ١١)، (يوحنا ٤: ٤٢)، (أعمال ٥: ٣١)، (أعمال ١٣: ٢٣) **(ولا مغفرة إلا بسفك الدم)** (العبرانيين ٩: ٢٢)، (اللاويين ١٧: ١١).

ولما كان المخلص لم يكن آنذاك قد جاء، وعلى قول أحد الأنبياء قديماً **(أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريباً)** (سفر العدد ٢٤: ١٧).

لذلك رسمت الشريعة، حتى لا ينسى الإنسان أو يتناسى حاجته إلى الفادى الحقيقى والمخلص الآتى، **(الذى ليس لأحد بغيره الخلاص)** (أعمال ٤: ١٢)، أن يستغفر عن خطيئته بأن يُقدم الذبيحة من الحيوان بدلاً منه، **وهذا وضع مؤقت إلى أن يأتى الفادى الحقيقى فى وقته المعين** (غلاطية ٤: ٤) فيضع الإنسان الخاطىء يده على رأس الذبيحة ويعترف بخطيئته، وبهذا ينقل خطيئته إلى رأس الحيوان، فيصبح الحيوان هو الخاطىء بدلاً من الإنسان، وبإراقة دم الحيوان يموت الحيوان بدلاً من الإنسان وبهذا يفديه، فلا يموت الإنسان. **وهو فداء مؤقت. ولا تتم به مغفرة حقيقية. وليس له إلا قيمة رمزية لتذكير الإنسان بحاجته إلى الفادى الحقيقى الذى لم يكن زمان مجيئه قد حان.**

فلما جاء المسيح فادينا ومخلصنا، وهو الموعود به على أفواه الأنبياء قديماً، كان بموته على الصليب وسفك دمه خلاص الإنسان، فقد مات فداء الإنسان، وبعمل الفداء حصل الإنسان على الإعفاء الحقيقى من الحكم الصادر بموته، وقد قال المسيح له المجد مراراً إنه نزل من السماء ليخلص الإنسان **(لقد جاء ابن الإنسان ليخلص)** (متى ١٨: ١١)، (لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم)، (لوقا ١٩: ١٠)، (٩: ٥٦)، (يوحنا ٣: ١٧)، (١٢: ٤٧)، (١٢: ٢٧)، (٦: ٣٣، ٣٨، ٥١)، (١. يوحنا ٤: ١٤).

وهذا هو المعنى من قول يوحنا المعمدان عن المسيح له المجد، عندما أشار إليه قائلاً: (**هوذا حمل الله الذى يرفع خطيئة العالم**) . هذا هو الذى قلت عنه: يأتى بعدى رجل يتقدمنى لأنه كان قبلى) (يوحنا ١ : ٢٩، ٣٠) (ثم فى اليوم التالى كان يوحنا واقفاً مع إثنين من تلاميذه، وإذ أبصر يسوع ماشياً، قال: (**هذا هو حمل الله**) (يوحنا ١ : ٣٦) وقال الوحى الإلهى (عالمين أنكم لم تفتدوا من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من آبائكم، بالفانى من الفضة أو الذهب، بل بدم كريم، **دم الحمل الذى لا عيب فيه ولا دنس، وهو المسيح**) (١. بطرس ١ : ١٨، ١٩)، (العبرانيين ٩ : ١٤).

وجاء عنه فى سفر الجليان ـ الرؤيا أن المسيح **هو الحمل المذبوح**، الحمل المستحق أن ينال القدرة والغنى والحكمة والعزة والإكرام، له المجد والبركة) (الجليان ـ الرؤيا ٥ : ٦، ٨، ١٢، ١٣)، (٦ : ١).

انظر أيضاً (إشعياء ٥٣ : ٧)، (أعمال ٨ : ٣٢).

أما لماذا وُصف المسيح بأنه **الحمل**، فذلك **لأنه برىء وبلا عيب ووديع، ولقد وضع الرب عليه إثم جميعنا ليفدينا.**

(أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها... جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل آثامنا، فتأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا. كلنا ضللنا كالغنم، كل واحد مال إلى طريقه، **والرب وضع عليه إثمَ جميعنا**. ظُلم، أما هو فتذَلَّلَ ولم يفتح فاه... **كحَمَلٍ صامتٍ أمام الذين يجُزُّونَهُ ولم يفتح فاه... إنه ضرب من أجل ذنب شعبى... علىَ أنه لم يعملِ ظلماً، ولمِ يكن فى فمه غش. جعل نفسه ذبيحة إثمٍ... إنه سكَبَ للموت نفَسهُ... وهو حمَلَ خطايا كثيرين وشفَعَ فى المذنبين**) (إشعياء ٥٣ : ٤ - ١٢).

(ذاك الذى لم يعرف خطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا لنصير نحن بر الله فيه) (٢. كورنثوس ٥ : ٢١)، أى لنصير نحن به أبراراً عند الله (١. يوحنا ٣ : ١٦).

(فالمسيح افتَدانا من لعنة الشريعة إذ صار لعنة من أجلنا، لأنه مكتوب: (ملعون كل من علق على خشبة) (غلاطية ٣ : ١٣)، (سفر التثنية ٢١ : ٢٣).

انظر أيضاً (العبرانيين ٤ : ١٥)، (٧ : ٢١)، (١. بطرس ٢ : ٢٢)، (١. يوحنا ٣ : ٥)، (رومية ٨ : ٣)، (٣ : ٢٤، ٢٥)، (٤ : ٢٥).

١٦ ـ ليس بأحد غيره الخلاص

سؤال : من الابن نبيل فاخر عبد المسيح ـ أبو تيج.

عندما اعترف زكا رئيس العشارين بخطاياه السابقة التى تاب عنها، وقال للسيد المسيح «ها أناذا يارب سأعطى الفقراء نصف أموالى. وإن كنتُ قد غبنت أحداً فى شيء فسأرد له أربعة أضعافه» قال له الرب يسوع «اليوم قد صار الخلاص لهذا البيت، إذ أنه هو أيضاً ابن إبراهيم، لأن ابن الإنسان إنما جاء ليسعى فى طلب الذى ضاع ويخلصه» أفهل حصل زكا على الخلاص من دون المعمودية؟.

الجواب :

إن ما صرح به (زكا) رئيس العشارين كان إعلاناً لتوبته وإعترافاً منه بأخطائه وخطاياه. وأما جواب المسيح له المجد على إعتراف زكا، فهو إعلان لقبول توبة زكا وشهادة من العليم بما فى ذات الصدور أنها توبة صادقة توافر فيها الندم على الماضى، والعزم الصادق على تجديد السيرة وتغيير السلوك والاعتراف بالخطايا، متعهداً بتحمل نتائجها والعمل على تصحيحها بتقديم نصف أمواله للفقراء، وتعويض من غبنهم أربعة أضعاف ما غبنهم فيه، ممتلئاً فى الآن نفسه بالرجاء والفرح فى قبول المسيح لتوبته.

وقد كان السيد المسيح له المجد فى قصة توبة زكا هو الرب، وهو صاحب الحق فى منح زكا الحل عن خطاياه بعد إقراره وإعترافه العلنى بخطاياه وذلك بقوله له «**اليوم قد صار الخلاص لهذا البيت**».

على أن (الخلاص) هنا فى قول المسيح له المجد **لزكا ليس معناه أن زكا قد حصل بالفعل فى ذلك اليوم على الخلاص كاملاً، من دون عمل الفداء الذى قام به المسيح بصفته الفادى والمخلص** كفارة عن آدم وذريته، وإنما معناه أن زكا بتوبته الصادقة قد برهن على استحقاقه الخلاص يوم أن يتم هذا الخلاص بعمل الفداء، وصار ضامناً له بوعد المسيح إياه، حتى إذا تمم المسيح عمل الفداء حصل زكا على الخلاص الكامل «لأنه ليس بأحد غيره الخلاص» (أعمال الرسل ٤ : ١٢) وكأن زكا بتوبته وإعترافه قد حصل على إيصال يعطيه الحق فى الخلاص يوم أن يقوم المسيح بعمل الفداء والخلاص.

وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة الخاطئة التي دخلت بيت سمعان الفريسي ووقفت من وراء المسيح عند قدميه باكية وأخذت تبلل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها وتقبل قدميه، وتضمخهما بالطيب قال لها المسيح له المجد، إذ قبل توبتها «**إن إيمانك قد خلصك، فإذهبى** بسلام» (لوقا ٧: ٥٠) والمعنى من ذلك **إن إيمانها قد جعلها أهلاً للخلاص الذى حققه المسيح له المجد بعمل الفداء الذى نزل من السماء لإتمامه،** فهى لم تحصل على **الخلاص الكامل إلا بعمل الفداء** «لأنه ليس لأحد بغيره الخلاص» (أعمال ٤: ١٢) إنما بتوبتها الصادقة صارت مستحقة للخلاص بالمسيح الفادى.

وكذلك بالمثل عندما قال المسيح له المجد للأبرص الذى شفاه ورجع إليه يمجد الله بصوت عظيم وخر على وجهه عند قدميه شاكراً إياه: «انهض وامض فى سبيلك، **إن إيمانك قد خلصك**» (لوقا ١٧: ١٩).

وأيضاً عندما قال المسيح للمرأة نازفة الدم بعد أن لمست رداءه فجف معين نزفها «يابنتى إن إيمانك **قد خلصك**» (مرقس ٥: ٣٤).

وكذلك إذ قال له المجد للأعمى بعد أن شفاه «اذهب فإن إيمانك **قد خلصك**» (مرقس ١٠: ٥٢).

انظر أيضاً (لوقا ١٨: ٤٢).

ثم إن فى قول الرب لزكا «اليوم قد صار الخلاص لهذا البيت، بياناً لأهمية رب البيت بالنسبة لأهله وعياله، وإبرازاً لدوره القيادى فى توبة أهل بيته، وبينة على مسئوليته عنهم بصفته رأس الأسرة وراعيها وقائدها.

١٧ ـ هل الخلاص للعالم كله؟ (١)

سؤال: من أحد القراء

هل الخلاص بدم المسيح قاصر على فئة معينة من الناس، أم هو للعالم كله؟ وإذا كان لفئة معينة من الناس، فيكون الإيمان إذن هو العامل الأول للخلاص، لأننا نؤمن بدم المسيح.

الجواب:

الخلاص بالمسيح مقدم ومعروض لجميع الناس، وليس لفئة بعينها من الناس ـ على أن العامل الأول للخلاص هو الإيمان بالمسيح. والإيمان فعل الإرادة فمن الناس من يؤمن، ومن الناس من يرفض، لأن الإنسان كائن حر مناط أمره بيده. فهو حر مختار، وبحريته وإرادته يؤمن إذا شاء، وبحريته وإرادته يرفض إذا شاء ـ فليس أحد من الناس مقهوراً على الإيمان.

والإيمان هو الخطوة الأولى فى الخلاص. ومع ذلك فليس الإيمان وحده هو الذى يخلص الإنسان. إن الخلاص عمل مشترك بين الإنسان وبين الله. للإنسان دور فى الخلاص، ولله فيه دور. ودور الإنسان أن يؤمن ثم يطلب الخلاص ويسعى إليه. الإيمان يؤهل الإنسان للخلاص، لكن ليس الإيمان هو الذى يمنح الخلاص، وإنما الخلاص يتم أولاً فى سر المعمودية، وهذا هو عمل الله الذى تم بفداء المسيح على الصليب، ينقله الروح القدس إلى الإنسان فى سر المعمودية. لأن المسيح وحده هو المخلص وهو الفادى، (وليس بأحد غيره الخلاص. وما من اسم آخر تحت السماء منح للناس به ينبغى أن يخلصوا) (أعمال الرسل ٤ : ١٢).

فالخلاص إذن هو عمل النعمة، عمل المسيح. **والمعمودية هى عمل المسيح، والروح القدس ينقل إلينا فى المعمودية استحقاقات المسيح الكفارية.** أما الإيمان فهو عمل الإنسان. الإيمان هو التصديق القلبى الذى به يقبل الإنسان عمل الله. ومن ثم فالإيمان ليس هو الذى يخلّص، إنه يزيل العائق الذى يمنع الإنسان البالغ من قبول عمل الروح القدس فيه، فيؤهله لقبول خلاص المسيح الذى يتم فى سر المعمودية.

---

(١) نشر بمجلة (الكرازة) فى السنة الثالثة ـ العددين الخامس والسادس ـ يونيه ويوليو لسنة ١٩٦٧م صفحة ٧٥.

١٨ ـ آمن... تخلص (١)

سؤال: من أحد القراء.

ما معنى قول الكتاب المقدس: (آمن بالرب يسوع المسيح، تخلص أنت وأهل بيتك) (أعمال الرسل ١٦ : ٣١).

الجواب:

تلك العبارة (آمن بالرب يسوع المسيح، تخلص أنت وأهل بيتك) قالها الرسولان القديسان بولس وسيلا للرجل سجان مدينة فيلبى عندما سألهما الرجل وهو مرتعد من شدة تأثره بعمل الله المبهر مع الرسولين وقال: يا سيدى، ماذا يجب علىّ أن أعمل لأنال الخلاص؟ (قالا له: **آمن بالرب يسوع المسيح، تخلص أنت وأهل بيتك**).

ذلك لأنه لما كان الرسولان بولس وسيلا يكلمان رجلاً غير مؤمن بالمسيح فلابد أن يكلماه عن أول شيء يجب عليه أن يعمله. ولم يكن من المستساغ أن يرشداه إلى كل شيء، وإنما يكفى أن يعرفاه مبدئياً **بالخطوة الأولى، فى طريق الخلاص، وهى الإيمان بالرب يسوع المسيح**. لكن ليس معنى هذا أن مجرد الإيمان بالرب يسوع المسيح يكفى لتحقيق الخلاص الكامل، خصوصاً وأن كلمة (**تخلُص**) جاءت فى اللغات الأصلية فى الزمن (**المستقبل**) لا فى الزمن الماضى، مما يدل على أن خلاص سجان فيلبى لم يتم بمجرد الإيمان، ولكنه سيتم مستقبلاً **إذا تحقق الإيمان كخطوة أولى، وتلاه ما بعد الإيمان من خطوات، من بينها (المعمودية) وما بعد المعمودية من جهاد وأعمال صالحة.**

ودليلنا على ذلك أن سجان فيلبى دعا الرسولين بولس وسيلا إلى بيته، وهناك فى بيته حدثاه وجميع أهل بيته بكلمة الرب وشرحا له ولذويه عقائد الإيمان المسيحى، وبعد ذلك (**عمداه هو وأهل بيته أجمعين**) (أعمال الرسل ١٦ : ٣٢، ٣٣).

فلو كان الإيمان وحده كافياً للخلاص لما كان هناك داع للمعمودية. ولكانت المعمودية أمراً زائداً لا قيمة له. فسجان فيلبى لم يخلص بالإيمان وحده، وإنما كان الإيمان بالمسيح هو أول خطوة فى طريق خلاصه، أى أن الإيمان بالرب يسوع المسيح هو الذى أهله للخلاص. فالخلاص لا يفرض على الإنسان فرضاً وإنما ينبغى أن يتأهب له بالإيمان أولاً وهو

(١) نشر بمجلة (الكرازة) ـ السنة الثالثة ـ العددين الخامس والسادس ـ يونيه ويوليو لسنة ١٩٦٧م صفحة ٧٥، ٧٦.

دليل قبوله للخلاص بحريته وإرادته. وكما قال القديس أوغسطينوس إن الله الذى خلقك من دونك لا يقدر أن يخلصك من دونك).

إن الخلاص عمل مشترك بين الله والإنسان: الله له دور، والإنسان له دور فى هذا الخلاص. ليس الخلاص عمل الله فقط وإلا فلا يكون الإنسان حراً. إن الله لا يشاء أن يمنح الخلاص إلا للذين يطلبون الخلاص ويسعون إليه، لذلك فإن سجان فيلبى لم يخلص بالإيمان وحده، وإنما كان الإيمان بالرب يسوع المسيح هو الخطوة الأولى، وتلتها بعد ذلك خطوة تقدمه إلى سر المعمودية المقدسة، وفى المعمودية المقدسة ينال المؤمن استحقاقات المسيح الكفارية ينقلها الروح القدس إليه عن طريق التعميد.

١٩ ـ وعلمنا وسائط الخلاص

سؤال : من الإكليريكى أمير سعيد عبد الملك.

ديروط قبلي ـ بانوب ظهر الجمل.

يقول: سمعت في صلوات القداس بعض الآباء الكهنة يقولون باللغة العربية (علّمنا طرق الخلاص)، وبعضاً آخر يقول (وأعطانا نعمة الخلاص)، وبعضاً ثالث يقول: (وعلمنا وسائط الخلاص)، فما هو القول الصحيح من الناحية اللاهوتية والعقائدية؟ أرجو الإفادة في جريدة وطنى للمنفعة العامة.

الجواب :

إن النص القبطى فى هذه القطعة من القداس يستوجب ترجمتها إلى العربية **(وعلمنا وسائط الخلاص)**.

أما النص القبطى فيقرأ:

ⲟⲩⲟϩ ⲁϥϯⲥⲁⲃⲟⲛ ⲉ̀ϩⲁⲛⲙⲱⲓⲧ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲟⲩϫⲁⲓ

OYOH AFETSAVON EHANMOIT ENTE PIOYGAI

والكلمة القبطية ⲙⲱⲓⲧ تفيد بالعربية ـ طريق ـ أو سبيل ـ أو واسطة ... وكلها مترادفات، (والمترادفات غير متساويات).

فإذاً كانت الكلمة القبطية يمكن ترجمتها بأكثر من كلمة عربية، فالأمانة تقتضى أن يختار المترجم، **الكلمة العربية المناسبة للمعنى المقصود بحسب سياق ومضمون الفقرة، أو القطعة من القداس.**

وهنا نقول أن ترجمتها بكلمة (طريق ـ أو طرق) يتعارض مع حقيقة لاهوتية عقائدية، ذلك لأنه ليس هناك (طرق) للخلاص، **فطريق الخلاص واحد، هو المسيح له المجد.** وقد قال بفمه الإلهى **(أنا هو الطريق والحق والحياة.** لا يأتى أحد إلى الآب إلا بى) (يوحنا ١٤ : ٦).

فطريق الخلاص واحد هو المسيح **(أنا هو باب الخراف، فإن دخل بى أحد يخلصُ)** (يوحنا ١٠ : ٩).

(يسوع المسيح الناصرى... **وليس بأحد غيره الخلاص، وما من اسم آخر تحت السماء مُنِح للناس به ينبغى أن يخلصوا)** (أعمال الرسل ٤: ١٠-١٢).

وقد جاء فى الأنبياء قديماً: هكذا قال الرب: قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة، أين هو الطريق الصالح، وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم) (إرميا ٦: ١٦).

انظر (متى ١: ٢١)، (أعمال الرسل ١٠: ٤٣)، (١. تيموثيئوس ٢: ٥، ٦).

٢- ولما كان النص القبطى فى القداس أورد الكلمة بالجمع ⲈϨⲀⲚⲘⲰⲒⲦ EHAN-MOIT فلا يجوز إذن ترجمتها عربياً (طرق الخلاص) فهذه الترجمة تتعارض لاهوتياً وعقائدياً مع حقيقة أن المسيح له المجد هو وحده **(الطريق - أنا هو الطريق)** (يوحنا ١٤: ٦).

ولذلك فإن بعض الكهنة يقرأها (وعلّمنا طريق الخلاص) وهذه ترجمة خاطئة أيضاً لأنها تتعارض مع النص القبطى الذى أورد الكلمة **بالجمع** لا بالمفرد.

٣- فإذا أضفنا إلى هذا كله أن سياق القطعة من القداس يتجه إلى **مفاعيل سرى المعمودية والمسحة المقدسة. ولما كانت أسرار الكنيسة هى القنوات والوسائط لتوصيل عمل الخلاص إلينا، الخلاص الذى تفجَّر فى الصليب بعمل الفداء الذى قام به المسيح وحده، فهو وحده المخلص** ووحده الفادى (لأن الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، وهو المسيح يسوع الإنسان الذى ضحى بنفسه فِدَى لجميع الناس((١. تيموثيئوس ٢: ٥، ٦).

ودليلنا على أن سياق هذه القطعة من القداس يقتضى الإشادة **بسر المعمودية وسر المسحة (الميرون)** - والأسرار كما قلنا هى القنوات والوسائط التى ينقل بها الروح القدس خلاص المسيح الفادى إلى المؤمنين باسمه (إنه يمجدنى **لأنه يأخذ مما لى ويخبركم)** (يوحنا ١٦: ١٤، ١٥).

نقول دليلنا على أن المعنى المقصود فى القداس هو سر المعمودية وسر المسحة المقدسة هو قوله: مباشرة **(منعماً علينا بالميلاد الثانى الذى من فوق بواسطة الماء والروح** - وهذا هو سر المعمودية - الميلاد الثانى) وجعلنا له شعباً مجتمعاً، وصيَّرنا أطهاراً بروحك القدوس... وهذا هو عمل سر **المسحة** وهو السر الثانى بعد المعمودية.

لهـذا كله، ولهـذه القـرائن اللاهوتيـة والعقـائدية مـجـتمـعة، نرى أن عـبـارة (وعلمنا وسائط الخلاص) هى الترجمة المناسبة.

OYOH AFETSAVON EHANMOIT ENTE PIOYGAI

للنص القبطى، وهى تعبّر تعبيراً صادقاً ودقيقاً عن المعنى المقصود فى النص القبطى.

٢٠ ـ لماذا تألم المسيح؟
أما كان يكفى أن يُخلِّص الإنسان بكلمة؟

سؤال: من الابن الدكتور الفونس ميخائيل سعد ـ رشيد ـ البحيرة.

يقول «أما كانت كلمة من الله تكفى لخلاص الإنسان كما خلقه الله أصلاً بكلمة، بدلاً من كل هذا الألم والموت؟»، وكيف يتألم المسيح (تألم المسيح لأجلنا) (١ . بطرس ٤ : ١) ويموت (المسيح مات من أجل خطايانا) (١ . كورنثوس ١٥ : ٣)؟

الجواب:

قال القديس أوغسطينوس (٣٥٠ ـ ٤٣٠) م «إنّ الله الذى خلقك من دونك **لا يقدر أن يُخلّصك من دونك**» والمعنى أن الله عندما خلق الإنسان لم ينتظر فى الخلق سؤالا أو طلبا من الإنسان، لأن الإنسان لم يكن موجوداً آنذاك، فالله خلق الإنسان بإرادته تعالى وهو حاكم الإنسان وسيد الوجود. نعم إنه تعالى خلق الإنسان من دون أن يستشير الإنسان أو يستأذنه فى أمر الخلق، وإنما خلقه بمحض إرادته تعالى، ولم يكن الله تعالى فى حاجة إلى الإنسان، ولكنه أراد للإنسان أن يوجد لكى يستمتع مع الله ويشاركه فى سعادته وخيريته التى لا تستقصى، أى أنه **خلق الإنسان لخير الإنسان وليس لغرض آخر يعود على الله**. وإنما خلق الإنسان لأنّ الوجود للإنسان خير له من العدم، ووجوده يعطيه أن يتمتع وينعم مع الله فى سعادته وجودته وخيريته.

أما (الخلاص) فلا يُفرض على الإنسان قهراً من غير إرادته، لأنّ الإنسان كائن حّر، مخيّر.

والمعنى من قول القديس أوغسطينوس الله **لا يقدر أن يُخلّص الإنسان من دونه**، أى من دون إرادة الإنسان نفسه لا يتنافى بتاتا مع أنّ الله قادر على كل شئ. لأنه إذا قال الكتاب المقدّس «إن كنا غير أمناء فهو يبقى أمينا، لأنه لن يقدر أن يُنكر نفسه» (٢ . تيموثيئوس ٢ : ١٣)، (العدد ٢٣ : ١٩)، فمعناه أنّ الله لا يتعارض مع ذاته، وهذا دليل القوة، لأنّ إنكار الكائن لذاته هو برهان الضعف، تماما كما نقول عن شخص من الناس إنه (**لا يقدر**) أن يكذب. فهذا الوصف هو مدح للشخص لا ذم له، لأنّ الكذب ضعف، أما الصدق فهو القوة. ومثله قول الكتاب المقدّس «كلُّ من هو مولودٌ من الله لا يعملُ خطيئةً، لأنّ طبيعة الله صارت ثابتة فيه، **ولا يستطيع (يقدر) أن يخطأ (يخطئ)** لأنه قد وُلِدَ من الله».

(١ . يوحنا ٣ : ٩)، (٥ : ١٨).

كـذلك المعنى من قـول القـديس أوغـسطينوس إنّ الله الذى خلقك من دونك **لا يقـدر أن يخلّصك من دونك**، ذلك لأنّ الله خلق الإنسان حراً، فلا يشاء أن يسلب منه حريته، فيخلّصه قهراً ومن دون إرادته أو يقهره على الخلاص على الرغم منه.

فكيف إذن يهب الله الخلاص للإنسان بكلمة، كما يقول للشئ كن فيكون؟ إنّ الله حقا غفور رحيم، **ولكنه لا يغفر من دون أن يطلب الإنسان منه الغفران**، وإلاّ كان معناه أنّ الله يُخلّص الإنسان من دون رغبته، وبالتالى يكون الخلاص للإنسان أمرا قهريا، وهذا يتعارض مع حرية الإنسان، بل ويسلبه إمتيازه على سائر المخلوقات. فالإنسان كائن حرّ وهذه هى كرامته وميزته، والإنسان خُلِق على صورة الله ومثاله فى الحرية.

ومن جهة أخرى، الله لا يغفر للإنسان من دون ترضية كافية لعدالته، وإلا فإن الله بذلك **يُهين ذاته، ويهدر هيبته** ويُسقط صفة العدل والحق فيه.

لقد أعطى الله وصية لآدم وأنذره قائلا «من جميع شجر الجنة تأكل أكلا. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها **لأنك يوم تأكل منها موتا تموت**» (التكوين ٢ : ١٦, ١٧). فأكل آدم من الشجرة المنهى عنها، **فكان لابدّ أن يموت**، لأنّ كلمة الله لا تسقط أبدا. يقول الله «تزول السماء والأرض، أما كلامى، فلا يزول» (متى ٢٤ : ٣٥)، (٥ : ١٨)، (مرقس ١٣ : ٣١)، (إشعياء ٥١ : ٦).

وما دام الإنسان قد أخطأ، واستحق بذلك الموت، فلم يكن ثمت سبيل إلاّ بأن يموت الإنسان - والموت للإنسان معناه الحكم عليه بالإقصاءِ الأبدىّ من خالقه، وبالتالى بالهلاك الأبدى.

بذلك فقد الإنسان بخطيئته ونجاسته قرابته لله الذى خلقه على صورته ومثاله، فبعد أن كان طاهرا أمسى نجساً، والنجاسة ضدّ طبيعة الله، لأنّ الله قُدُّوس فخطيئة النجاسة باعدت بين الإنسان وبين الله. ثم إنه بها حرِم من السعادة الأبدية التى أرادها الله له، فقد أظهر له (**شجرة الحياة**) فى وسط الجنة (التكوين ٢ : ٩) لكي يحيا بها إلى الأبد (التكوين ٣ : ٢٢)، (الجليان - الرؤيا ٢ : ٧)، (٢٢ : ٢) فلما أخطأ الإنسان حرِم من أن يأكل من شجرة الحياة، وبالتالى لم يعد مستحقا أن يأكل من شجرة الحياة، ليحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن، «فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (التكوين ٣ : ٢٣ ، ٢٤)، ليمنع الإنسان من أن يمد يده إلى شجرة الحياة، حتى لا يحيا إلى الأبد - (التكوين ٣ : ٢٢).

فالموت للإنسان ليس فقط بإفساد طبيعته وبإنفصاله عن الله القدوس، ولكن بحرمانه من أن يأكل من شجرة الحياة، حتى لا يحيا إلى الأبد.

وبذلك دخل الموت إلى آدم، ومع الموت دخل المرض وكل عوامل الفساد التى جلبها الإنسان على نفسه بخطيئته.

لذلك لم يكن ممكنا أن تزول لوثة الخطيئة لأنّ الفساد قد دخل إلى طبيعة الإنسان، وكما يقول آباء الكنيسة إنّ الطبيعة البشرية قد فسدت بالخطيئة فسادا لا يمكن إصلاحه إلاّ بعملية خلق من جديد. ويقدّمون لذلك مثلاً بلوح من زجاج إذا انكسر فلا إصلاح له إلاّ بتغييره تغييرا تاما. ولذلك فإنّ المسيحىّ لاينال الخلاص إلاّ بأن يخلع فى التعميد ملابسه، وينزل فى مياه المعمودية عاريا، فالروح القدس الذى ينحدر بصلوات الكاهن على مياهِ المعمودية يُحوِّل الماءَ عن طبعه إلى نار، لتحرق الطبيعة القديمة، وتخلق الإنسان خلقاً من جديد ـ وهو ما قاله يوحنا المعمدان عن المعمودية المسيحية فى المسيح «أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة، أما الذى يأتى بعدى، فهو أقوى منى ... إنه **سيعمدّكم بروح القدس وبالنار**» (متى ٣ : ١١)، (مرقس ١ : ٨)، (يوحنا ١ : ٣٣).

وكما أنّ الخليقة الأولى كانت من الماء والروح إذ كان «روح الله يرِفُّ على وجه المياه» (التكوين ١ : ٢) كذلك **الخليقة الثانية تتم فى المعمودية من الماء، والروح القدس**، الذى ينحدر على مياه المعمودية، فيكهربها ويحيلها إلى نار تحرق الطبيعة الأولى الخاطئة الملّوثة وتخلق للإنسان من جديد طبيعة جديدة تماما.

من هنا معنى قول الكتاب المقدس إذا كان **أحدٌ فى المسيح فهو خليقة جديدة**، قد زال القديم. ها هوذا كل شئ جديد. وهذا كله من الله الذى صالحنا مع نفسه بيسوع المسيح، أى أنّ الله كان فى المسيح مصالحا العالم مع نفسه، غير حاسب عليهم خطاياهم. (٢. كورنثوس ٥ : ١٧، ١٨، ١٩) وقوله «لأنه فى المسيح يسوع لا الختانُ ولا عدمُ الختان ينفع الإنسان، وإنما الذى ينفعه أن يكون خليقة جديدة» (غلاطية ٦ : ١٥).

وإذا كانت الطبيعة البشرية قد فسدت بالخطيئة فساداً لا يمكن إصلاحه، وأنّ الخلاص من لوثة الخطيئة الأصلية ونتائجها لا يمكن إلاّ بتغيير هذه الطبيعة تغييرا كاملاً وجذريا، وخلق طبيعة جديدة، فمن كان قادراً من البشر على أن يقوم بخلق الطبيعة من جديد؟! فإنّ الجميع (جميع الناس) قد أخطأوا وأعوزهم مجد الله (رومية ٣ : ٢٣)، (٣ : ٩)، (١١ : ٣٢).

لذلك فإنَّ الله شاء من فيض حبه للإنسان ومن عمق إرادته الخيِّرة أن يردَّ للإنسان ما فقده بالخطيئة، ويخلقه خلقاً من جديد، بأن يتخذ الله له جسداً مطابعا لجسد الإنسان ويظهر فى الهيئة إنسانا، يحمل كل طبيعة الإنسان ويقبل فى جسده الحكم بالموت الذى استحقه الإنسان بخطيئته، وبذلك يفدى الله الإنسان من حكم الموت.

فالتجسد الإلهى والموت الذى قبله المسيح فى جسده بدلاً من الإنسان وبه فدى الإنسان كان ضرورة لا مفرّ منها، حتى يسترد الإنسان مكانته التى فقدها بالخطيئة، وحتى ينال الخلاص بالفداء.

وإذن فبالتجسد وموت المسيح على الصليب نال الإنسان الخلاص وبهذا يبدو واضحاً أنَّ الله فى الصليب جمع بين رحمته وعدله من دون أن يهدر عدله . وهكذا قال المسيح له المجد « ما من حبّ أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٣)، (١٠ : ١١، ١٥). وقال الكتاب المقدس أيضا «ولكن الله قد برهن على محبّته لنا إذ أننا وقد كنا بعد خطأة مات المسيح عوضاً عنا (لأجلنا) » (رومية ٥ : ٨) «أما الآن فى المسيحِ يسوع، أنتم الذين كنتم حينا بعيدين، صرتم قريبين بدمِ المسيح لأنه هو (المسيح) سلامنا الذى جعل الإثنين (اليهود وغير اليهود) واحداً، **وهدم بجسده حائط السياج الحاجز الذى يفصل بينهما أى العداوة، وأبطل بجسده شريعة الوصايا وما فيها من أحكام، ليخلق فى شخصه من الإثنين إنسانا واحِدا جديداً صانعا سلاماً، ويصالح بينهما وبين الله فى جسد واحدٍ بصليبه، وقد قضى على العداوة فيه...»** (أفسس ٢ : ١٣ ـ ١٨).

«لأن فيه (فى المسيح) سرَّ الآب أن يحل الملء كله، **وأن يصالح به الجميع مع نفسه، سواء ما فى الأرض أو ما فى السماوات، صانعا به السلام بدم صليبه. وأنتم الذين كنتم قبلاً غرباء عن الله وأعداء له بأفكاركم وأعمالكم الشريرة، قد صالحكم الآنَ فى جسد المسيح البشرى، إذ أسلمه إلى الموت ليجعلكم فى حضرته قديسين بلا عيب ولا لوم»** (كولوسى ١ : ١٩ ـ ٢٢) **«فإن المسيح أيضا نفسه مات عنا مرة واحدة من أجل خطايانا، مات وهو البار من أجل الأثمة لكى يقربنا إلى الله، فمات فى جسده البشرى ولكنه أُحيى فى الروح**، الذى بهذا الروح نفسه أيضا ذهب فبشر الأرواح السجينة، إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة وذلك فى أيام بنَى نوح الفلك، فنجا فيه بالماء عدد قليل أى ثمانية أشخاص. **وكان هذا رمزا للمعمودية التى**

تخلصكم الآن أنتم أيضا، لا بإزالة وسخ الجسد، بل بعهد صادق النية مع الله بقيامة يسوع المسيح» (١ . بطرس ٣ : ١٨ ـ ٢١)، بهذا قد عرفنا المحبة بأنّ ذاك (المسيح) بذل نفسه لأجلنا» (١ . يوحنا ٣ : ١٦) «بهذا أظهرت محبة الله فينا أنّ الله أرسل ابنه الأوحد إلى العالم لكى نحيا به. تلك هى المحبة أننا لم نكن نحن الذين أحببنا الله، بل إنه هو الذى أحبّنا وأرسل إبنه كفارة لخطايانا» (١ . يوحنا ٤ : ٩، ١٠).

٢١ ـ المسيح الإله لا يموت

إنه ذاق الموت بالجسد

سؤال : من الدكتور وصفى لبيب واصف ـ المنيا.

قرأت للأسف الشديد ما قد أحزن نفسي جداً، ما نشرته جريدة الأخبار فى عددها رقم ١٢١٦ الصادر يوم الجمعة ١٠/ مايو ١٩٩١ تحت عنوان (المسيح لم يمت على الصليب، نظرية جديدة تتحدث عنها بريطانيا) ـ وتقول هذه النظريّة إنّ الجلْد الذى تلقّاه المسيح على الصليب أصابه بالإغماء مما دعا حرّاسه إلى الإعتقاد بأنه مات وأُنزِل من على الصّليب بعد مضى وقت أقصر جداً من المعتاد ـ وتقول جريدة الأخبار إنّ مجلة الكلية الملكية للأطباء فى بريطانيا نشرت دراسة تؤكد أنّ المسيح لم يمت على الصليب وأنه أُصيب فقط بالإغماء أو أنه كان يتظاهر بالموت لينجو من الصلب ..

وإننى كطبيب إخصائى الأمراض الباطنية والقلب، إستأت من هذا الادّعاء الكاذب، ولابدّ أن يكون هذا الخبر قد أزعج الكثيرين، فالرجاء معالجة هذا الموضوع على صفحات جريدة وطنى، لأهميته القصوى..

الجواب :

نحن نعلم على اليقين أنّ **المسيح إله، والله حىّ لا يموت**. ونحن نردّد فى صلواتنا بغير فتور (قدوس الله، قدوس القوىّ، **قدوس الحىُّ الذى لا يموت. يا من صُلِب عنّا إرحمنا**) . ولذلك نهتف فى صلاة الساعة التاسعة من صلواتنا اليومية ونقول **(يا من ذاق الموت بالجسد فى وقت الساعة التاسعة)**، توكيداً لحقيقة إيماننا بأن المسيح إله، **وبصفته إلهاً لا يموت**، ولكن الموت وقع على الجسد، وذلك بمفارقة الروح الإنسانية للجسد، وفقا لقول الإنجيل (ثُمّ صرخ يسوع بصوتٍ عظيم وأَسلم الرُّوح) (مرقس ١٥ : ٣٧)، (متى ٢٧ : ٥٠)، (لوقا ٢٣ : ٤٦) (ثم أمال رأسه وأسلم الرُّوح) (يوحنا ١٩ : ٣٠).

وتوكيدا لهذه الحقيقة أنّ المسيح بوصفه الله الظاهر فى الجسد لايموت كإله، لا نذكر فى قانون الإيمان الذى نردده فى صلواتنا الخاصة والعامة، أن المسيح الإله مات. إنّنا نقول إنه (نزل من السماء وتجسّد من الرُّوح القُدُس ومن مريم العذراء، وتأنّس، وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطى، وتألّم وقُبِر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالثِ، وصعد إلى السّماوات).

---

(١) نشر بجريدة وطنى فى عددها الصادر بتاريخ ١٦ من يونيه ١٩٩١م ـ ٩ من بؤونه ١٧٠٧ش.

نقول إنه (**تألَّم وقُبر**)، ولا نقول إنه مات، لأننا فى قانون الإيمان نعلن إيماننا بالمسيح الإله أنه نزل من السَّماء، **فهو بوصفه إلهاً لايموت، ولكنه ذاق الموت بالجسد.**

إنّ فعل الموت لم يقع على اللاهوت وإنما وقع على الجسد، وقع على كيانه الإنسانى، لأن المسيح يجمع بين كونه إلها، وإنسانا فى الوقت نفسه.

وفِعلُ الموت بالنسبة للمسيح يسوع الإنسان تمَّ بمفارقة روحه الإنسانية لجسده (أسلم الرُّوح). ومع ذلك لم يفارق اللاهوت كيانه الإنسانى، بدليل أنه خرج منه بعد موته دم وماء مفترقين، الأمر الذى لا يمكن أن يحدث للإنسان بعد موته. وهو ما أثار لونجينوس قائد المائة المشرف على عملية الصَّلب، (والذى كان واقفا تجاهه، والذين كانوا معه يحرسون يسوع، فحين رأوا الزلزال وما حدث خافوا خوفا عظيما قائلين : (حقا كان هذا الإنسان هو ابن الله) (متى ٢٧ : ٥٤)، (مرقس ١٥ : ٣٩).

ويروى الإنجيل للقديس يوحنا فى دقة خروج الدم والماء من جسد المسيح بعد موته، مبيّنا وشارحاً أهمية هذه الواقعة ودلالتها اللاهوتية فى أن المسيح وقد وقع على جسده فعل الموت، وأما لاهوته فلم يفارق ناسوته بالموت، أى أنه فيما كان ميتا بجسده كان حياً بلاهوته، ولذلك اندفق من جسده بعد موته الدم والماء متميزين مما يدل قطعا على أنه كان حيّاً بلاهوته فيما كان ميتا بجسده.

قال الإنجيل (ولئلا تبقى الأجساد على الصليب يوم السَّبت، لأَن يوم السبت هذا كان عظيماً، طلب اليهود إلى بيلاطس أن يكسروا سيقانهم ويرفعوهم. فجاء الجند وكسروا ساقى أول اللذين كانا مصلوبين معه، ثم كسروا ساقى الآخر. **وأمّا يسوع فلما جاءوا إليه وجدوه قد مات**، فلم يكسروا ساقيه. إلاّ أنّ واحدا من الجند طعن جنبه بحربة، فخرج منه على الفور دم وماء. والذى أبصر ذلك قد شهد (وهو القديس يوحنا الرسول الذى كان واقفا تحت الصَّليب) وشهادته حق، وهو يعلم أنه قال الحق، لتؤمنوا أنتم) (يوحنا ١٩ : ٣١ ـ ٣٥).

ومجمل القول **إنَّ يسوع المسيح مات بصفته إنسانا، وما مات بصفته إلهاً. وموته كإنسان كان ضرورة لإتمام عمل الفداء والخلاص الذى كان ينتظره آدم** وكل ذريته. وقد قال المسيح يسوع (**من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة**) (يوحنا ١٢ : ٢٧).

جـاء فى الكتـاب المقـدس (لأنَّه لما كُنَّا ضُعـفـاء، مـاتَ المسـيحُ فى الوقت المعَين من أجلِ الخـاطئين... ولكنَّ اللهَ قد برَهنَ عن مَحبّتِهِ لنا، إذ أَنَّنا، وقد كُنَّا بَعدُ خَطأةً، مـاتَ المسيحُ عنَّا) (رومية ٥ : ٦ - ٨).

وأمَّا الموت الذى وقع على يسـوع بصفتـه إنسانا، فـهو فى حـقيقتـه **مفـارقـة بين الروح والجسد اللذين تتألف منهما إنسانيته ولكن مع عدم مفارقة اللاهوت لكل من الروح والجسد**. فالمفارقة كـانت فى إطار الناسـوت بين الروح والجسد. **أمـا اللاهوت فلم يفـارق الجسد ولم يفارق الروح، بل ظل الاتحـاد قائمـاً بين اللاهوت والنـاسوت على الرغم من المفارقة الجزئية بين الروح الإنسانيـة والجسد** - مثلما نفصل بين فلقتين لحبة من ذوات الفلقتين موضوعة فى كوب ملئ بالماء - فالفلقتان افترقتا من بعضهما لكنهما لم تخرجا من كوب الماء. **هكذا المفارقة بين الروح والجسد فى ناسوت المسيح كـانت مفـارقـة داخليـة بين مركّبى الناسوت. أمـا اللاهوت فظل متحدا بهمـا معاً وهما مفترقان**. قال المسيح له المجد يؤكد سلطان لاهوته فى بذل جسده وحياته لمهمـة الفداء (أبذل نفسى... مـا من أحـدٍ ينتـزعـهـا منى، وإنمـا أبذلهـا أنا وحـدى من ذاتى، فلى سلطان أن أبذلها، ولى سلطان أن أستردها) (يوحنا ١٠ : ١٨).

أما الذين قالوا إنّ المسيح لم يمت على الصليب، وإنه أُصيب فقط بالإغماء أو إنه كان يتظاهر بالموت، فلعلهم قصدوا أن ينفوا الموت عنه كإله، ولكنهم خانهم التعبير الدقيق، عن حقيقة موته كإنسان، وأنه (ذاق الموت بالجسد) فقد كـان موته كإنسان ضرورة لإتمام عمل الفداء، فـهو لم يمت عن ضعف وإنما مـات وفقا لتدبير محكم (لأنه ليس لأحد بغيره الخلاص).. (أعمال ٤ : ١٢) وهذا ما نردده فى صلواتنا يوم الجمعة العظيمة، جمعة الصلبوت **(يا من أظهر بالضعف ما هو أعظم من القوة)**.

تباركت أيّها الرب الإله الّذى فى الصّليب إلتقت محبة الله بغير حدود مع عدله غير المحدود **(الرحمـة والحق إلتقيا. العدل والسلام تلاثمـا. الحق من الأرض أشرق، والعدل من السماء تطلع)** (مزمور ٨٤ : ١٠، ١١).

٢٢ ـ هل الجسد الذى صلب هو بعينه الذى قام؟

سؤال : من السيد / جرجس عدلى سليمان ـ الزقازيق.

هل الجسد الذى صلب فيه ربنا ومخلصنا يسوع المسيح هو الذى قام به وصعد به ويظهر به لقديسيه أم جسد آخر نورانى؟

الجواب :

نعم إن الجسد الذى قام به رب المجد يسوع المسيح هو بعينه الجسد الذى صلب به. والدليل الواضح على هذا هو أنه عندما قام، كان جسده مثقوبا فى اليدين والرجلين فى موضع المسامير، كما كان جنبه مثقوبا فى موضع الحربة.

قال الرب يسوع لتلاميذه، عندما ظهر لهم فى العلية «انظروا إلى يدي وإلى قدمي إنى أنا هو بنفسى. جسونى وتحققوا... وفيما كان يقول هذا، أراهم يديه وقدميه» (لوقا ٢٤ : ٣٩، ٤٠). انظر أيضا (يوحنا ٢ : ٢٠)

وبعد ثمانية أيام من ظهوره لتلاميذه، ظهر لهم مرة أخرى، وكان توما الرسول معهم، وكان توما قد قال لزملائه الرسل «إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير، وأضع اصبعى فى أثر المسامير، وأضع يدي فى جنبه لا أومن» ـ «فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف فى الوسط، وقال: سلام لكم. ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا، وأبصر يديّ وهات يدك، وضعها فى جنبى: ولاتكن غير مؤمن بل مؤمنا» (يوحنا ٢٠ : ٢٥ ـ ٢٧) فتقدم توما ووضع اصبعه فى أثر المسامير فى اليدين والرجلين. ولما لمس بيديه الآثار واضحة فى جسد المخلص، صرخ وقال له: ربى وإلهى. قال له يسوع : لأنك رأيتنى ياتوما آمنت. طوبى للذين لم يروا وآمنوا» (يوحنا ٢٠ : ٢٨، ٢٩).

ثم إن الجسد الذى صلب به المخلص، ودفن فى القبر لم ير فسادا، حتى يمكن أن يقال أنه تغير كما تتغير أجساد البشر فى القيامة العامة. وقد أوضح القديس بطرس الرسول هذه المسألة فى خطابه العظيم فى يوم الخمسين.

«أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصرى رجل قد تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب وآيات... هذا أخذتموه... وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه. الذى أقامه الله ناقضا أوجاع الموت، إذ لم يكن ممكنا أن يمسك منه. لأن داود يقول فيه كنت أرى الرب أمامى فى كل حين إنه عن يمينى لكى لا أتزعزع. لذلك سر قلبى وتهلل لسانى حتى جسدى أيضا سيسكن

على رجاء. لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية، ولاتدع قدوسك يرى فسادا.... أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهارا عن رئيس الآباء داود أنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم. فإذ كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تترك نفسه فى الهاوية ولا رأى جسده فسادا. فيسوع هذا أقامه الله، ونحن جميعا شهود بذلك» (أعمال الرسل ٢ : ٢٢ ـ ٣٢)

ومن هذا النص يتضح أن القديس بطرس الرسول أبان أن نبوءة النبى عن المسيح «لاتدع قدوسك يرى فسادا» أنها لا تنطبق إلا على السيد المسيح. أما داود نفسه فقد مات ودفن ورأى جسده فسادا. وقد اتخذ القديس بطرس هذه النبوءة برهانا على قيامة المسيح وعلى أنه قام «ناقضا أوجاع الموت» وأن الموت قد انهزم أمام سلطانه إذ هو رئيس الحياة (أعمال ٣ : ١٥).

وأنه لذلك لم يكن ممكنا للموت أن يحكمه أو يمسك به «إذ لم يكن ممكنا أن يمسك منه»

وعلى ذلك فالمسيح فيما كان ميتا كان حيا بلاهوته. ولذلك، وبسبب اتحاد اللاهوت بجسده، لم ير جسده فسادا، ولم يتعفن أو يتحلل، أو يتغير على نحو ما سوف تتغير أجساد البشر فى يوم القيامة على ما يقول الوحى الإلهى «لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير، فى لحظة، فى طرفة عين، عند البوق الأخير. فأنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير. لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد» (١ . كورنثوس ١٥ : ٥١ ـ ٥٣).

ونظرا لأهمية هذا الموضوع، وتوكيدا له كبرهان على قيامة المسيح بذات الجسد الذى صلب به ودفن، يقول القديس بولس الرسول «أقام الله لإسرائيل مخلصا، يسوع... ولما تمموا كل ماكتب عنه أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه فى قبر. ولكن الله أقامه من بين الأموات... إنه أقامه من بين الأموات غير عتيد أن يعود أيضا إلى فساد.....».

ولذلك قال أيضا فى مزمور آخر «لن تدع قدوسك يرى فسادا. لأن داود بعد ما خدم جيله بمشورة الله رقد وانضم إلى آبائه، ورأى فسادا. وأما الذى أقامه الله فلم ير فسادا» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٣ ـ ٣٧).

وإذن فما دام جسد المسيح الذى دفن فى القبر لم ير فسادا، فلم تنل منه عوامل التغير، أى أنه قام بذات الجسد الذى مات ودفن، وكان اللاهوت متحدا به. وهذا هو سر عدم فساده. وعلى الرغم من إنفصاله عن الروح الإنسانية لكنه ظل باللاهوت المتحد به.

٢٣ ـ هل ظل المسيح فى القبر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، كاملة؟

سؤال : من العزيز الابن الدكتور عماد بولس عبده ـ بنى سويف.

إنَّ المسيح قد صُلِب يوم الجمعة ثم قام فى يوم الأحد... وبذلك يكون قد بقى فى القبر يومين وليلتين ـ فكيف يتفق ذلك مع قول السيد المسيح له المجد (كما مكث يونان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى جوف الحوت، كذلك يمكث ابن الإنسان ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فى جوف الأرض) (متى ١٢ : ٤٠).

الجواب :

لقد ذهبَ بعض المفسِّرين إلى احتساب مساء خميس العهد وهى ليلة الجمعة التى تألم فيها المسيح الفادى وعانى الحزن والاكتئاب، **من بين الثلاثة الليالى**، ولأنّ فيها صنع العشاء الربانى، وأعطى تلاميذه سرّ المائدة الربانية.

وجاء فى كتاب **الدسقولية** باللغة السريانية ما يفيد احتساب يوم الجمعة الذى صُلِب فيه المخلِّص حتى الساعة السادسة من النهار (الثانية عشرة ظهراً) يوما كاملاً، ومن الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) إذ أشرقت الشمس، إلى مساء الجمعة (٦ مساء) يوما ثانيا، ثم يوم السبت يوما ثالثا.

أما **الليالى الثلاثة** فيمكن أن تحتسب على النحو الآتى: من الساعة السادسة (الثانية عشرة ظهرا) إلى التاسعة (الثالثة بعد الظهر) **ليلة أولى** حيث (صارت ظلمة على الأرض كلها) (متى ٢٧ : ٤٥)، (مرقس ١٥ : ٣٣)، (لوقا ٢٣ : ٤٤) ثم من غروب الشمس مساء الجمعة إلى نهار السبت ليلة ثانية، ثم مساء السبت حتى صباح الأحد باكرا **ليلة ثالثة** ـ وعلى هذا النحو يكون حساب الثلاثة الأيام والثلاث ليالٍ

The DIDASCALIA APOSTOLORUM IN ENGLISH, Translated from the Syriac by M.D.GIBSON, M.R.A.S., London, 1903, P.94,95

+ W.C.ALLEN, A CRITICAL AND EXEGETICAL COMMENTARY ON THE GOSPEL ACCORDING TO S. MATTHEW, Edinburgh, 1912, P. 138, 139.

انظر أيضا كتاب (القول الصحيح فى آلام السيد المسيح تأليف القديس بطرس السدمنتي - الفصل التاسع والثلاثون - القاهرة سنة ١٩٢٦ صفحة ٤٥٢ - ٤٥٩ .

على أنّ جوهر الحقيقة التى يركز عليها هذا النص المقّدس للإنجيل هو بقاء المسيح له المجد فى باطن الأرض مخفياً عن الأنظار مدة ثلاثة أيام. وفى هذا الأمر يصدق التشابه بين يونان النبى وبين المسيح له المجد. وهنا تظهر الرمزية الروحية بين الشبه والمشبّه به.

ومما له دلالة هنا أنّ بنى إسرائيل كانوا فى (**يوم الكفارة**) (**YOM KIPPUR**) (ويقع فى العاشر من الشهر السابع - اللاويين ٢٣ : ٢٧ ، ٢٨ - اللاويين ٢٥ : ٩ - ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠) (العدد ٢٩ : ٧) يقرأون سفر يونان كلّه - لأنه فى هذا اليوم يسألون الله الغفران لمن يتوب عن خطاياه كما فعل الله مع أهل نينوى الذين تابوا بمناداة يونان (١ - ٤) انظر B Meg. 31 a - هكذا جاء فى التلمود البابلى - مدرجة ٣١ أ

. Babylonian Talmud - Megillah 31 a

. M.D. Goulder, MIDRASH AND LECTION IN MATTHEW, London, 1974, P.334

هذا هو جوهر الحقيقة التى تربط بين الرمز (وهو يونان النبّى) وبين المرموز إليه (وهو السيد المسيح له المجد)

أما مدة بقاء المخلّص فى العالم السُفلىّ مخفياً عن الأنظار **فهى ثلاثة أيام بلياليها. واليوم هو النهار والليل معاً**، وحسابه المألوف عادة هو ٢٤ ساعة. على أنّ طول النهار وطول الليل يختلفان فى الأرض كلّها بحسب الزمان والمكان. فنحن نعلم أنه فى المناطق المعتدلة يتساوى طول النهار وطول الليل فى زمن الاعتدال الربيعى وفى زمن الاعتدال الخريفى فتكون مدة كل منهما فى الاعتدالين ١٢ ساعة (أى فى ٢١ مارس، ٢٣ سبتمبر). وفيما عدا هذين اليومين يطول النهار ويقصر، ويطول الليل ويقصر بمعدل حسابى، قدره دقيقة وثلث دقيقة فى كل يوم عن سابقه أو لاحقه - فبعد الاعتدال الربيعى ٢١ مارس يزيد النهار بمقدار دقيقة وثلث دقيقة، وبالتالى ينقص الليل عن النهار بمقدار دقيقة وثلث دقيقة، إلى أن يصل طول النهار فى ٢١/ يونيه إلى ١٤ ساعة وطول الليل إلى ١٠ ساعات. والعكس فى يوم ٢٢ ديسمبر حيث يصل طول الليل إلى ١٤ ساعة والنهار إلى ١٠ ساعات ثم يأخذ طول الليل فى النقصان

بعد ٢٢/ ديسمبر وطول النهار فى الزيادة بدقيقة وثلث دقيقة حتى يوم ٢١/ مارس حيث يتعادل الليل مع النهار، فيكون كل منهما ١٢ ساعة. وكذلك الأمر بعد ٢١/ يونيه يأخذ النهار فى النقصان والليل فى الزيادة بنفس النسبة إلى يوم ٢٣/ سبتمبر، الذى فيه يتعادل مرة أخرى طول النهار مع طول الليل.

هذا فى المناطق المعتدلة. وليس الأمر كذلك فى المناطق الأُخرى من الأرض. ففى بعض المناطق قد يصل طول الليل فى بعض أيام السنة إلى ٢٤ ساعة وفى غيرها يصل طول النهار إلى ٢٤ ساعة.

وعلى ذلك، فالقضية الأساسية والقاعدة العامة المعروفة أنَّ حساب اليوم فى كوكب الأرض هو ٢٤ ساعة. أما طول الليل وطول النهار فهو متغير، ولكن مجموعهما معاً هو ٢٤ ساعة. فإذا طال النهار عن ١٢ ساعة طبقا لحركة الأرض بالنسبة للشمس، نقص الليل عن ١٢ ساعة، وإذا نقص النهار عن ١٢ ساعة، زاد الليل بنفس القدر.

من هنا فإنَّ كلمة (يوم) **هى النهار والليل معاً، وليست هى النهار وحده دون الليل، وإن كان طول أيهما يزيد أو ينقص وفقاً للزمان والمكان، وتبعا لحركة الأرض حول الشمس.**

لذلك فإنَّ حساب المدة التى ظلّ فيها المسيح له المجد مخفياً عن أنظار الناس يجب أن يدخل فى نطاق هذا المفهوم لليوم، **وهو أنه يشمل النهار والليل معاً، فلا يُحتسب النهار منفصلاً عن الليل، ولا الليل منفصلاً عن النهار. فهما يتعاقبان بغير إنفصال أو إفتراق. وطول النهار يأخذ من طول الليل، وطول الليل يأخذ من طول النهار، لأنهما معاً كُلٌّ واحد لا يتجزأ.**

وإذا كان النصّ المقدَّس فى الإنجيل قد ذكر الأيام والليالى معاً فهو من قبيل **التوكيد على مدة الثلاث الأيام**. وهذا أمر مألوف فى جميع اللغات. وللتوكيد أيضا على أنَّ المقصود باليوم ليس هو النهار دون الليل، إنّما الأيام بما فيها لياليها.

ومهما يكن من أمر، فإن مدة بقاء المسيح له المجد فى باطن الأرض، **هى ثلاثة أيام بصفة عامة**، الليل فيها مكمِّل للنهار، والنهار فيها مكمِّل لليل، حيث أنَّ النهار والليل يكمِّل أحدهما الآخر فى كل يوم.

والحقيقة الثانية التى يبرزها النصّ المقدّس فى الإنجيل فيما يختص بالمدة التى ظلّ فيها المسيح فى باطن الأرض هى فى الرقم ٣ (**ثلاثة**) . فللأرقام فى تدبير سيدّ الطبيعة حكمتها. ولاشكّ أنّ للأرقام فى الدين والدنيا وضعها ومكانتها. وفى هذا الميدان يمكن أن نجد مادة غزيرة جداً، نجمعها من التأمل فى الطبيعة الجامدة والحية من جهة، وفى الكتاب المقدّس من جهة أخرى، ونستنبط منها فى عشرات الأمثلة على أنّ (**العدد**) **له فى سياسة الخالق حكمته العميقة** . ونحن نعلم أنّ من الفلاسفة القدامى ومنهم فيثاغورس من أقام فلسفته كلها على (العدد) .

وليس هنا مجال إبراز أهمية العدد ١ ، والعدد ٢ ، والعدد ٣ ، والعدد ٤ ، والعدد ٥ ، والعدد ٦ ، والعدد ٧ والعدد ١٠ ، والعدد ١٢ ، والعدد ٤٠ الخ فى الطبيعة وفى الكتاب المقدّس، وأنّ من الظواهر الكونية والدينية ما يقوم على العدد ١ - ومن الظواهر الكونية والدينية ما يقوم على العدد ٢ ومن الظواهر الكونية والدينية ما يقوم على العدد ٣ وهكذا...

ولعله من بين الظواهر والحقائق الدينية التى تقوم على العدد ٣ **هو بقاء المسيح له المجد فى باطن الأرض ٣ ثلاثة أيام.**

وبناء على ما تقدم، يمكن أن نتبين **أنّ بقاء المسيح له المجد فى باطن الأرض ثلاثة أيام هو جوهر الحقيقة الدينية والكونية** .

على أننا على ضوء ما شرحناه فى أنّ (**اليوم**) **هو اليوم بنهاره وليله**، وهو أمر يختلف فيه طول كل من النهار والليل وفقاً للزمان والمكان بحسب حركة الأرض حول الشمس، لا نتوقع فى حسابنا أن يكون بقاء المسيح فى باطن الأرض هو ٧٢ ساعة كاملة (على أساس ٣ × ٢٤ ساعة = ٧٢) .

أما **أولاً** فلأن **أى جزء من اليوم هو اليوم كله** ، وهذه حقيقة مقررة فى جميع اللغات. وذلك مرده إلى تداخل **النهار فى الليل ، والليل فى النهار بحيث يصعب الفصل بينهما وتحديد الحدّ الفاصل بينهما** . وعلى ذلك فقد يقول قائل: (قابلت (اليوم) صديقى فى المدينة) ، فاليوم هنا **هو أى جزء من اليوم ، حتى لو كان ساعة واحدة** . وكذلك إذا قال قائل منذ **ثلاثة أيام** حدث هذا الحادث أو ذلك، فلا نتطلب فى حساب هذه الأيام الثلاثة أن تكون على الدقة ٧٢ ساعة .

ويبدو أنّ هذا هو فعلاً المفهوم السائد أى أنّ **الجزء من اليوم يعد كاليوم الكامل.**

من ذلك ما ورد بالكتاب المقدّس فى مواضع متفرقة:

جاء فى **سفر أخبار الأيام الثانى**: إنّ رحبعام الملك ابن الملك سليمان قال ليربعام بن نباط وشعب بنى إسرائيل (ارجعوا إلىّ **بعد ثلاثة أيام**.. فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام **فى اليوم الثالث** كما تكلّم الملك قائلا: ارجعوا إلىّ **فى اليوم الثالث**) (٢. أخبار الأيام ١٠: ٥، ١٢) وهذا معناه أنّ عبارة (**بعد ثلاثة أيام**) فُهِمت لا على أنها ثلاثة أيام كاملة أى ٧٢ ساعة، وإنما على أنها فى مدى ثلاثة أيام بحيث أنّ اليوم الثالث منها يقع فى نطاق الثلاثة الأيام.

كذلك **جاء فى سفر الملوك الأول** (فنزل هؤلاء مقابل أولئك **سبعة أيام**. ولما كان **اليوم السابع** التحمت الحرب) (١. الملوك ٢٠: ٢٩) وإذن كان اليوم السابع الذى التحمت فيه الحرب داخلاً فى نطاق السبعة الأيام التى نزل فيها الأراميون تجاه الإسرائيليين.

جاء أيضا فى سفر استير أنها قالت لمردخاى (اذهب واجمع جميع اليهود الموجودين فى شوشن، وصوموا لأجلى ولا تأكلوا ولاتشربوا **ثلاثة أيام**، ليلا ونهارا. وأنا أيضا وجوارىّ نصوم كذلك، ثمّ أَدخلُ على الملك... وكان فى **اليوم الثالث** أن لبست استير ثياب الملك...) (استير ٤: ١٦)، (٥: ١). وإذن كان **اليوم الثالث** الذى دخلت فيه استير على الملك أحشويروش من بين **الأيام الثلاثة** التى صامت فيها وكل اليهود معها، ولم تكن خارجها أو بعدها.

جاء أيضا فى **الإنجيل للقديس متى:**

(اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون عند بيلاطس قائلين: (إننا نذكر ياسيّدنا أنّ ذلك المضلّ قال وهو حىٌّ **إنى بعد ثلاثة أيام أقوم**، فأصدر أمرك بحراسة القبر حراسة مُحكمةً حتى **اليوم الثالث**، لئلا يأتى تلاميذه ليلا ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من بين الأموات) (متى ٢٧: ٦٢ ـ ٦٤) وإذن لقد كان **اليوم الثالث** بالنسبة لرؤساء الكهنة هو فى نطاق ما وعد به المسيح بدليل أنهم طالبوا بيلاطس بحراسة القبر **حتى اليوم الثالث** فقط، وليس بعد الأيام الثلاثة.

وجاء فى **الإنجيل للقديس مرقس** (وبدأ يعلّمهم أن ابن الإنسان ينبغى أن يتألم كثيرا ويُمتهن من الشيوخ ومن رؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل **وبعد ثلاثة أيام يقوم**) (مرقس ٨: ٣١)

بينما جاء بعد ذلك قوله (لأنه كان يعلّم تلاميذه قائلاً لهم: (أن ابن الإنسان سوف يُسلّم إلى أيدى الناس فيقتلونه، **وفى اليوم الثالث يقوم**) (مرقس ٩ : ٣١)، (ولسوف يُسلّم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموت ويُسلّمونه إلى الوثنيين، فيهزأون به ويبصقون عليه ويجلدونه ثم يقتلونه، **وفى اليوم الثالث يقوم**) (مرقس ١٠ : ٣٣، ٣٤).

كذلك جاء فى **الإنجيل للقديس لوقا** (ولما بلغ الطفل **يومه الثامن**، وهو اليوم الذى، ينبغى فيه ختانه..) (لوقا ٢ : ٢١) ويلاحظ أن نصّ الوصيّة الإلهية إلى إبراهيم هى (**ابن ثمانية أيام يُختن منك كلُّ ذكر** فى أجيالكم) (التكوين ١٧ : ١٢)

وبالإجمال فهذا هو المعمول به فى حساب الأيام **أن بعض اليوم أو جزءا منه هو كاليوم الكامل تماما قياسا على قاعدة أن الجزء يعبر عن الكل، والكل يطلق على البعض، والبعض يطلق على الكل**، وهو ما يسمونه فى اللغة (بالمجاز المرسل).

ثانيا - إنّ المسيح له المجد قال مرارا وتكرارا إننى (**فى اليوم الثالث أقوم**). وهذا ينفى نفيا جازما احتساب الثلاثة الأيام كاملة أى ٧٢ إثنتين وسبعين ساعة كاملة. لأنه لو كان بقاء المخلّص فى باطن الأرض ثلاثة أيام كاملة (٧٢ ساعة) لكانت قيامته تصير فى اليوم الرابع، لا فى اليوم الثالث:

جاء فى الإنجيل للقديس متى:

(ومنذ ذلك الوقت بدأ يسوع يُبيّن لتلاميذه أنه ينبغى أن يمضى إلى أُورشليم ويُعانى آلاماً كثيرة من الشُّيوخ ورؤساء الكهنة والكتبةِ، ويُقتَل ثم **فى اليوم الثالث يقوم**) (متى ١٦ : ٢١)

(وفيما هم راجعون إلى الجليل، قال لهم يسوع: (إنّ ابن الإنسان سوف يُسلّم إلى أيدى النَّاس، فيقتلونه. **وفى اليوم الثالث يقوم**) (متى ١٧ : ٢٢، ٢٣).

(وقال لهم: (ها نحن أولاء صاعدون إلى أورشليم. ولسوف يُسلّم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموت، ويُسلّمونه إلى الوثنيين ليهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه **وفى اليوم الثالث يقوم**) (متى ٢٠ : ١٨، ١٩).

وجاء فى الإنجيل للقديس مرقس:

(لأنه كان يُعلّم تلاميذه قائلاً لهم : (إنّ ابن الإنسان سوف يُسلّم إلى أيدى النَّاس فيقتلونه، **وفى اليوم الثالث يقوم**) (مرقس٩ :٣١)

(ولسوف يُسلَّم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموتِ ويسلمونه ويجلدونه ثم يقتلونه **وفى اليوم الثالث يقوم**) (مرقس ١٠: ٣٣، ٣٤).

(لابدَّ لابن الإنسان أن يتألَّم كثيرا وأن يَنبذه الشّيوخُ ورؤساءُ الكهنةِ والكتبة ويقتلوه **وفى اليوم الثالث يقوم**) (لوقا ٩: ٢٢).

(فإنهم سيسلِّمونه إلى الوثنيين، ويهزءون به ويُهينُونَهُ ويَبصُقُون عليه. وبعد أن يَجلِدوه يَقتُلونَه **وفى اليوم الثالث يقوم**) (لوقا١٨: ٣٢، ٣٣).

وجاء فى **الإنجيل للقديس لوقا:**

(اذكرنَ ما كلمكُنَّ به وهو بعدُ فى الجليلِ، قائلا إنَّ ابن الإنسان ينبغى أن يُسلَّم إلى أيدى أُناس خُطاةٍ ويُصلبَ **وفى اليوم الثالث يقوم**) (لوقا ٢٤: ٦، ٧).

(وقال لهم: هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغى أن يتألَّم المسيح ثم يقوم **من بين الأموات فى اليوم الثالث**) (لوقا ٢٤: ٤٦).

انظر أيضا (أعمال الرسل ١٠: ٤٠)، (متى ٢٧: ٦٤)

وإذن قد بقى المسيح له المجد فى باطن الأرض ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث قام من بين الأموات - الحقيقة واحدة ولاتعارض ولاتناقض فيها. فإن قيامته له المجد فى اليوم الثالث لا تنفى أنه ظل فى باطن الأرض ثلاثة أيام.

وعلى هذه القاعدة نقيم نحن فى الكنيسة **صلاة الثالث للمتوفى فى اليوم الثالث لوفاته**، فإذا وقعت وفاته قبل غروب الشمس بساعة واحدة، دخل يوم وفاته فى حساب الثلاثة الأيام **باحتساب أىّ جزء من اليوم يوما كاملاً**. فإذا وقعت وفاته مثلاً فى أى ساعة قبل غروب يوم الجمعة أقيمت صلاة الثالث فى يوم الأحد - ولو وقعت وفاته قبل غروب الأحد بساعة واحدة أقيمت صلاة الثالث يوم الثلاثاء وهكذا...

٢٤ ـ أين ذهبت روح المسيح بعد الصلب؟

سؤال : من أحد القراء.

أين ذهبت روح السيد المسيح بعد الموت على الصليب؟

الجواب :

روح السيد المسيح الإنسانية، عندما انطلقت من جسده (متى٢٧:٥٠)، (مرقس ١٥: ٣٧)، (لوقا ٢٣: ٤٦)، (يوحنا١٩ :٣٠) مضت وهى متحدة باللاهوت إلى العالم السفلى، إلى الجحيم، لتبشر الأرواح المحبوسة هناك بالخلاص، وبالعتق من أسر إبليس وعبودية الجحيم.

ولذلك يسمى يوم السبت الذى قضاه المسيح هناك بسبت النور، على الرغم من أنه كان هو السبت الحزين بالنسبة لتلاميذ المسيح «وقد كانوا ينوحون ويبكون» (مرقس ١٦: ١٠) «وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود» (يوحنا ٢٠: ١٩) لكنه يسمى «بسبت النور» بالنسبة للقديسين فى العالم السفلى، فى الجحيم حيث كانوا منتظرين إطلاق سراحهم من الحبس وخلاصهم من بيت السجن، إذ كانوا جالسين فى الظلمة (إشعياء ٤٢: ٧) متوقعين الفداء، فدخل المسيح إليهم فأشرق عليهم بنوره، «الشعب الجالس فى الظلمة أبصر نورا عظيما، والجالسون فى أرض الموت وظلاله أشرق عليهم نور» (متى ٤: ١٦)، (إشعياء٩: ١، ٢)، (لوقا ١: ٧٩)

كما يسمى بـ «سبت الفرح» لأن أرواح القديسين المنتظرين الخلاص والذين نظروا المواعيد من بعيد وصدقوها وحيوها (العبرانيين ١١: ١٣)، فرحوا بالخلاص الذى حققه المسيح بعمل الفداء. وقد قال السيد المسيح «أبوكم إبراهيم اشتهى متهللا أن يرى يومى، فرأى وفرح» (يوحنا ٨: ٥٦)

وليس الحوار الذى يجرى فى كنائسنا ليلة عيد القيامة، والأنوار مطفأة، والظلام دامس، بين الكهنة فى داخل الهيكل وخارجه، إلا صورة للحوار الذى جرى فى العالم السفلى بين حراس بوابات الجحيم من داخل، وبين الملائكة الذين صحبوا المسيح فى رحلته إلى العالم السفلى بعد موته على الصليب

فالملائكة من خارج ينبهون الملائكة الواقفين على حراسة بوابات الجحيم يقولون لهم ثلاث مرات «المسيح قام» فيجيبون بأنهم يعلمون ذلك «وأنه بالحقيقة قام»

عندئذ يقول الملائكة المصاحبون لرب المجد مخاطبين حراس بوابات الجحيم «افتحوا أيها الملوك أبوابكم، وارتفعى أيتها البوابات الدهريات» (مزمور ٢٣ : ٧) فلا يجيبونهم من هول المفاجأة فيقولون لهم ثانية «افتحوا أيها الملوك أبوابكم، وارتفعى أيتها البوابات الدهريات» فلا يجيبونهم أيضا. وعندئذ يصيح الملائكة المصاحبون لرب المجد بأمر وقوة «افتحوا أيها الملوك أبوابكم وارتفعى أيتها البوابات الدهريات ليدخل ملك المجد» (مزمور ٢٣ : ٧، ٩) فيجيبهم حراس بوابات الجحيم قائلين: «من هو هذا ملك المجد؟» (مزمور٢٣ :٨، ١٠) فيجيبهم الملائكة قائلين: «الرب، العزيز، القوى، الجبار، القاهر فى الحروب هو ملك المجد» (مزمور ٢٣ : ٨، ١٠) وحينئذ يقرعون باب الهيكل، فيفتح الباب وتضاء الأنوار، تمثيلا لإقتحام المسيح الجحيم وكسر أبوابه، ودخوله، وإذ يدخل يضئ الجحيم بنوره، ويعتق الأسرى من القديسين ويسبيهم ويمضى بهم معه إلى الفردوس.

وهذا الحوار والحدث تعبر عنه الترنيمة التى تسمى البرلكس التى نرتلها ليلة عيد القيامة، والتى مطلعها «ياكل الصفوف السمائيين، رتلوا لإلهنا بنغمات التسبيح، وابتهجوا معنا اليوم فرحين، بقيامة السيد المسيح»، ويجئ فيها:

«وسبى الجحيم سبيا، وحطم أبوابه النحاس، وكسر متاريسه الحديد كسرا، وأبدل لنا العقوبة بالخلاص»

«وأعاد آدم إلى الفردوس، بفرح وبهجة ومسرة، هو وبنوه الذين كانوا فى الحبوس، محل النعيم دفعة أخرى».

وقد جاء فى سفر المزامير، بروح النبوءة ماصنعه المسيح له المجد، باقتحامه الجحيم، وإطلاق المأسورين من القديسين فيه:

«الجلوس فى الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد... صرخوا إلى الرب فى ضيقتهم، فخلّصهم من شدائدهم. أخرجهم من الظلمة وظلال الموت، وقطع قيودهم فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبنى آدم، لأنه كسر مصاريع نحاس، وقطع عوارض حديد» (مزمور ١٠٦ : ١٠ - ١٦).

٢٥ ـ لماذا المطانيات فى يوم الجمعة العظيمة ؟

سؤال : من الابن / أيوب أنور سامى، والابنة استير أنور سامى ـ قرية المرين ـ مركز أرمنت.

يقولان : جاء فى كتاب ترتيب أسبوع الآلام : يضرب المؤمنون ١٠٠مائة مطانية لكل جهة، ثم بعد ذلك يضربون ١٢ إثنتى عشرة مطانية إلى جهة الشرق، فالرجاء شرح هذا الطقس ومعناه.

الجواب :

فى هذا اليوم (الجمعة العظيمة) الذى تمّ فيه عمل الفداء والخلاص بصلب المسيح له المجد وموته نيابة عن آدم وبنيه، بوصف أنّ المسيح يسوع وهو الله الذى ظهر فى هيئة إنسان، ولبس صورة الجسد، ليكون الحمل الذى حمل خطيئة آدم وجميع ذريته الذين سرت إليهم وفيهم لوثة الخطيئة الأصلية، وصاروا فى حاجة إلى المخلّص والفادى الذى ينوب عنهم، ويقبل فى جسده حكم الموت الذى صدر عليهم، (التكوين ٢ : ١٧)، (٣ : ١١، ١٧، ٢٣)، وبهذا يفديهم من الموت ويحييهم، ليستردوا من جديد صورة البهاء التى خلق الله عليها آدم و «يردهم ويعيدهم إلى رتبتهم الأولى» (القداس الغريغورى) ولم يكن من سبيل آخر للخلاص غير هذا الذى صنعه المسيح الرب وذلك من فيض محبته للبشر، هذه المحبة الفائقه غير المحدودة واللانهائية «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم» (يوحنا ٣ : ١٦) «فما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٣) «والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يوحنا ١٠ : ١١) «إنى أبذل نفسى، كى استردها» (يوحنا ١٠ : ١٧).

فى هذا اليوم، يوم الجمعة العظيمة، الذى تمّ فيه الخلاص وعمل الفداء، تقف الكنيسة، كهنة وشمامسة وشعبا، لتشكر إله الآلهة وتُسبّحُهُ على أعمال محبته، والثمن الغالى الذى اشترانا به، فصرنا ملكا له، وتمجّده على الخلاص الذى أنجزه للمؤمنين به، ولكنها بضراعة وابتهال تطلب أيضا الإنعام بالخلاص لجميع الخلق فى العالم بأسره، شرقا وغرباً وشمالاً وجنوباً.

والكنيسة المفدية بدم المسيح، وهى تُقّر بفضل الذى فدانا وإنعامه، تُقَدّم ضراعتها وابتهالها بالخضوع والإمتنان، والإتضاع، بالسجود والإكرام، والمطانيات.

والمطانيات جمع **مطانية**، والمطانيات هى **ركَعات وسِجدات** أمام العزة الإلهية تعبيرا عن الإتضاع والعُبودية لخالق السماوات والأرض ومالك الأكوان وحاكمها، وتذلُّلا أمام عظمته

تعالى، وتعبّدا له واسترحاما واستغفارا، وإقراراً بجلالته وسيادته. «أمامه تجثو أهل البرية...
ويسجد له جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم» (مزمور ٧١: ٩ - ١١).

على أنّ المطانية تحمل أكثر من معنى فلئن كان معناها الظاهر «سجدة» إلى الأرض، بالرُكوع وخَفض الرأس ووضع الجبهة على الأرض، تعبّداً وخشوعاً وأدباً واحتراماً وتكريماً لله جلّ جلاله، لكنها في عمق معناها هي تعبير عن (**التوبة**) والندم على الخطايا والزلاّت والتعديات على الوصايا الإلهية، ذلك أنّ المطانية هي في اشتقاقها اللغوى كلمة قبطية ويونانية METANIA تفيد معنى (**التوبة**) وبتعبير آخر هي تغيير إتجاه الفكر والشعور والنية والقصد، وبالتالي فهي (**النَدَم**) على الماضي الأثيم **والتأسف** على ما صنع الإنسان من خطايا وشرور. على أنّ الندم هو ندم الإنسان كله، **روحاً وجسداً**، (**فالروح**) تستغفر بكل ما فيها من إحساس وشعور ونيّة وقصد، (**والجسد**) ينحني ويُطأطِئ الرأس ويرتمي على الأرض، ويَخِرُّ بالإنثناء والركوع ووضع الجبهة على الأرض..

على أنّ الكنيسة في (**يوم الجمعة العظيمة**) **تتوب عن النّاس جميعا في استرحامها وتذللها أمام سيّد الخليقة كلها.**

لكنها لا تستغفِرُ عن الماضي فحسب، ولكنها **تستمطر مراحم الله على كل الخليقة**. ومن هنا معنى إتّجاهها في المطانيات إلى جميع الإتجاهات الأصلية الأربعة: (**الشرق والغرب، والشمال والجنوب**)، أي في جميع الإمتدادات إلى نهاية العالم والوجود المادى والمعنوى.

إنها تسأل الله العظيم القدير أن يمد آفاق مراحمه لتشمل الناس وكل الخليقة، فهي بوصفها (**الأمّ**) الرحيمة **ترجو وتطلب خلاص الله لجميع الناس كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، العالِم منهم والجاهل، الأبرار منهم والأشرار.**

ومع أنّ الكنيسة تأمر أبناءها أن يتجهوا في صلواتهم إلى (**الشرق**) دائماً، من حيث أنّ الشرق هو مطلع الأنوار «وتُشرِقُ لكم أيها المتّقون لإسمي شمس البِر والشفاء في أجنحتها» (ملاخى ٤: ٢)، لكنها في يوم الجمعة العظيمة تتجه إلى جميع الإتجاهات الأصلية معلنة **وجود الله في كل مكان، وتستمطر مراحم الله على كل الخليقة في كل مكان، وتسأل الله الخلاص الأبدى لجميع الناس في كل مكان.**

ومع ذلك وتمشيا مع منطق الشروق، وإعلان مجد المسيح من الشرق، وصعوده إلى السماء نحو الشرق «رنّموا لله الذى صَعَدَ إلى سماءِ السَّماوات نحو المشارق» (مزمور ٦٧ : ٣١) تبدأ المطانيات متجهة إلى (**الشرق**) أولا، بمائة مطانية، ثُمَّ بعد ذلك إلى (**الغرب**) بمائة مطانية، ثم إلى (**الشمال**) (البحرى) بمائة مطانية، ثمّ إلى (**الجنوب**) (القبلى) بمائة مطانية. وأخيرا تعود إلى (**الشرق**)، بإثنتى عشرة مطانية.

ولماذا (المائة) ؟

نعم إنّ (**المائة**) من أعداد الكمال، وقال المسيح له المجد فى تدبير الخلاص «رجل كان له **مائة** خروف ثمّ ضلّ واحدٌ منها ...» (متى ١٨ : ١١، ١٢) فهى تستمطر مراحم الله كاملة على كل الخليقة، وفى جميع الإتجاهات بالتساوى، وبغير إنحياز، أو ميل لشعب دون آخر. إنها تطلب الخلاص لجميع النّاس، وفى كل إتجاه بكل إمتدادات الإتجاهات الأصلية فى ملكوت الله العظيم وجلال إقتداره.

ثم يعودُ المؤمنون إلى (**الشرق**)، **بإثنتى عشرة مطانية**.

أما العودة إلى (الشرق)، فلأنّ (**الشرق**) هو قِبلَتهم وإتجاههم، وعندما خلق الله الجنّة «غرسها فى عدن **شرقا**، ووضع هناك آدم الذى جبله» (التكوين ٢ : ٨)، (حزقيال ٢٨ : ١٣).

وأما رقم (١٢) فهو أيضا من **أعداد الكمال**.

وجاء فى سفر الجليان - الرؤيا عن (شجرة الحياة) التى سيكون للقديسين الغالبين سلطان أن يأكلوا منها فيحيون إلى الأبد (الجليان - الرؤيا ٢٢ : ١٤) أنها «تثمر **إثنتى عشرة** ثمرة، وتُعطِى فى كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم» (الجليان - الرؤيا ٢٢ : ٢).

وأورشليم السمائية الموعود بها للمؤمنين القديسين لها سُورٌ عظيم شامخ ولها **إثنا عشر بابا**، **وعلى الأبواب إثنا عشر ملاكا**، وعليها أسماءٌ مكتوبةٌ وهى أسماء أسباط بَنى إسرائيل **الإثنى عشَرَ**. إلى **الشرق** ثلاثة أبواب، وإلى الشّمال ثلاثة أبواب، وإلى الجنوب **ثلاثة أبواب**، **وإلى الغرب ثلاثة أبواب**. **ولسور المدينة إثنا عشر** أساسا كُتِبت عليها أسماءُ رسلِ **الحملِ الإثنى عشَرَ**... والمدينةُ مربّعة، وطولها قدرُ عرضها. فقاس المدينةَ بالقصبةِ فكانت **إثنى عشر ألف غلوة**، وهى متساوية الطول والعرض والارتفاع ثمّ قاس عرض السور، فتبيّن أنّه يساوى **مائة وأربعا وأربعين** (مضاعف ١٢) ذراعا بطول ذراع الإنسان.

وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم. الأساس الأول يشب.. **الثانى عشر** جَمَشتٌ. أما الأبواب **الإثنا عشَرَ فهى إثنتا عشرَةَ لؤلؤة**، كل باب منها لؤلؤة واحدة.. ولا حاجة للمدينة إلى نور الشمس ولا إلى القمر لِيُضيئا فيها، لأنَّ مجدَ الله يُنيرها والحملُ مصباحها. وستمشى شعوب المخلَّصين فى نورها،.. وأبوابها لن تُغلقَ نهاراً لأنَّ الليل لا يأتى عليها وستُحمل إليها كنوز الأمم وأمجادها، ولن يدخلها شئ نجس ولا مايصنع رجساً وكذبا إلا المكتوبين فى سفر الحياة للحمل. (الجليان ـ الرؤيا ٢١ : ١٠ـ ٢٧) .

٢٦ ـ كفن السيد المسيح فى تورينو

سؤال : من العزيز الإبن الشماس / باسم ناجى شاكر عبد الملك الجاولى ـ أسيوط.

إذا كان كفن السيد المسيح لايزال فى إيطاليا، وماهو هذا المكان ؟

الجواب :

نعم، إنّ كفن السيد المسيح لايزال فى مدينة تورينو TURIN (ITAL. TORINO) بإيطاليا، وهو معروض فى الكاتدرائية وفوق المذبح الكبير لكى يراه كل أحد ـ ومازالت أفواج كثيرة من البشر تتوافد يومياعلى الكاتدرائية من كل بلاد العالم، بالمئات والألوف وعشرات الألوف ـ كذلك هناك لوحات كبيرة تبلغ نحو الثلاثين لوحة معروضة فى فناء المدرسة اللاهوتية المجاورة للكاتدرائية، كل منها يعرض جزءا من صورة الكفن المعروض كاملاً بالكاتدرائية ـ فمثلاً **لوحة** لبيان مكان الحربة التى طُعن بها السيد المسيح وهو على الصليب فى جنبه الأيمن، ومكانها بين الضلع الخامس والضلع السادس من جنبه الأيمن فى القفص الصدرى ـ **ولوحة أخرى** لبيان الكدمات الكثيرة الظاهرة على ظهر مخلّصنا بفعل المقرعة الثلاثية التى جُلد بها على ظهره ـ **ولوحة ثالثة** لبيان موضع المسامير فى اليدين والقدمين وأنّ كلاً من مسمارى اليدين دقوه فى الرُّسغ (وهو المفصل ما بين الساعد والكف) ـ **ولوحة رابعة** لبيان موضع المسمار فى القدمين، وأن إحدى الرجلين وُضِعَت على الصليب والأخرى فوقها، وأما المسمار فقد دقوه فى مفصل القدم العليا فاخترق مفصل القدم الأخرى، أى أن مسمار القدمين كان مسمارا واحدا كبيرا إخترق مفصل القدمين معاً...

على أن جميع هذه اللوحات التوضيحية أُخذت عن الكفن المعروض بالكاتدرائية بعد المؤتمر العلمى الذى عقده العلماء من مختلف التخصصات فى ٦ من اكتوبر عام ١٩٧٨ وأقروا بالإجماع حقيقة هذا الكفن وأنه بالفعل هو كفن السيد المسيح.

أما اللوحات المعروضة بالمدرسة اللاهوتية فكل منها مشروح شرحاً علميا دقيقا وبخمس لغات هى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والأسبانية.

فالكفن مازال معروضاً واللوحات الإيضاحية أيضا. والطريق مفتوح أمام كل من يرغب فى أن يرى بنفسه هذه القطعة الأثرية الثمينة.

ونعمة الرب تشملكم،،،

٢٧ - إلهى إلهى لماذا تخليت عنى ؟

سؤال : من أحد القراء.

لماذا قال السيد المسيح له المجد على الصليب : إلهى إلهى لماذا تركتنى، ولم يقل أبى أبى لماذا تركتنى ؟

الجواب :

هذه العبارة «إلهى إلهى لماذا تركتنى» أو بالأحرى «لماذا تخليت عنى» عبارة وردت فى مطلع المزمور الواحد والعشرين، وهو المزمور الذى يصف آلام السيد المسيح وعذاباته ويعددها واحدة بعد الأخرى، وكأن صاحب المزمور واقف تحت صليب المسيح يشهد آلامه ويصفها وصف العيان، حتى وصفه بعض علماء الكتاب المقدس بأنه النبى الإنجيلى. من ذلك قوله :

«كل الذين يروننى يستهزئون بى. يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين : اتكل على الرب، فلينجه. لينقذه لأنه سر به... أحاطت بى ثيران كثيرة، أقوياء باشان اكتنفتنى. فغروا علي أفواههم كأسد مفترس مزمجر. كالماء إنسكبت. إنفصلت كل عظامى. صار قلبى كالشمع. قد ذاب فى وسط أمعائى. يبست مثل شقفة قوتى، ولصق لسانى بحنكى... لأنه قد أحاطت بى كلاب. جماعة من الأشرار إكتنفتنى. ثقبوا يدى ورجلى. أحصى كل عظامى. وهم ينظرون ويتفرسون فىّ . يقسمون ثيابى بينهم، وعلى لباسى يقترعون...»

وكأن السيد المسيح، وهو ينطق بهذه العبارة «إلهى إلهى لماذا تخليت عنى» وهو على الصليب، (متى ٢٧ : ٤٦)، (مرقس ١٥ : ٣٤) يُذّكر قادة اليهود، حفظة الشريعة أن جميع ما يحدث له، سبق للنبى أن أنبأ عنه فى المزمور، وهو إذ يذكر العبارة الأولى من المزمور، ينبه إلى المزمور كله الذى تكلم بالتفصيل عن صلب المسيح وآلامه جميعا. ولما كان داود النبى لم تثقب يداه أو رجلاه، ولم يقتسموا ثيابه، أو يلقوا على لباسه قرعة، ولم يعان اليبوسة فى حلقه ولسانه ما عاناه المسيح على الصليب حتى قال «أنا عطشان» ولا أصاب قلبه ما أصاب المسيح فى قلبه وهو مصلوب.. فقد ظهر من ذلك، أن ماجاء فى المزمور الحادى والعشرين كان نبوءة عن السيد المسيح الفادى المصلوب.

وإذن فالسيد المسيح بترديده عبارة «إلهى إلهى لماذا تخليت عنى» إنما يُذّكر قادة اليهود بالمزمور الحادى والعشرين، وما اشتمل عليه هذا المزمور من تفصيلات قيلت عن المسيح بروح

النبوءة... لعله بذلك ينبه اليهود إلى أنهم إذ يصلبونه، ينفذون خطة التدبير التى سبق النبى فأنبا عنها.

أما كيف يقول المسيح له المجد «إلهى إلهى» بينما هو ذاته هو الله متجسدا، فلأنه قد اتخذ إنسانية كاملة، فيمكنه أحيانا أن يتكلم عن ذاته بصفته إنسانا مع أنه فى ذات الوقت إله. فبصفته الإنسانية يمكن أن يناجى الآب، إلهى إلهى، وعلى هذا النحو قال لمريم المجدلية بعد قيامته من بين الأموات «إذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

٢٨ - إعتراف اللص اليمين كان سابقاً للظواهر الطبيعية

نيافة الحبر الجليل جزيل الإحترام الأنبا ....

بعد المصافحة الأخوية، والقبلة الرسولية، أرجو لنيافتكم موفور الصحة.

لقد سرتني ملاحظة نيافتكم على ما قلناه عن اللص اليمين، وأنه لابد أن **نطق باعترافه** الجميل فى **لحظة صفاء نفسى**، فأشرقت على قلبه هذه المعرفة الروحية. وأما قولنا فى صلاة الساعة التاسعة (لما أبصر اللص رئيس الحياة على الصليب معلقاً قال : لولا أن المصلوب معنا إله متجسد، ما كانت الشمس أخفت شعاعها ولا الأرض ماجت مرتعدة...) **فهذا تعبير كنسى من وضع آباء الكنيسة توكيداً لحقيقة لاهوت المسيح له المجد - وضعه آباء الكنيسة بحكمة روحية على فم اللص اليمين، تثبيتا للإعتقاد فى لاهوت المسيح**، وإن كان الإنجيل لم ينص على أن عبارة اللص ديماس (اذكرنى يارب..) كانت لاحقة على إخفاء الشمس شعاعها وتزلزل الأرض - وإنما الذى نعلمه من الإنجيل للقديس متى أن الأرض تزلزلت والصخور تشققت بعد أن أسلم المسيح روحه.

قال الإنجيل (ثم صرخ يسوع مرة أخرى بصوت عظيم **وأسلم الروح. وإذا حجاب الهيكل** قد إنشق نصفين من أعلاه إلى أسفله، والأرض تزلزت، والصخور تشققت والقبور تفتحت) (متى ٢٧ :٥٠-٥٢).

ومع ذلك يمكن أن يكون اللص اليمين قد **توكد إيمانه** بألوهة المسيح بالظواهر الطبيعية، فكانت الظلمة والزلزلة وسائل إيضاح أضافت إلى قلبه يقينية فى حقيقة ألوهية المسيح، تماما كما حدث لبطرس ويعقوب ويوحنا على جبل التجلىّ بعد أن نطق القديس بطرس بإعترافه المشهور بإلهام سماوى، وإعلان إلهى من قبل الآب السماوى كما قال له المسيح له المجد (ليس لحما ودما الذى كشف لك هذا، وإنما أبى الذى فى السماوات) (متى ١٦ : ١٧).

وبنفس الروح نفهم ماجاء فى أمانة اللص التى نرتلها فى يوم الجمعة العظيمة :

(أيها اللص الطوباوى، ماذا رأيت وماذا أبصرت، حتى **اعترفت** بالمسيح المصلوب بالجسد، ملك السماء، وإله الكل..

(ما رأيت المسيح إلهنا متجلياً على طور تابور فى مجد أبيه، بل رأيته معلقا على الاقرانيون، فلوقتك صرخت قائلاً : اذكرنى .... (**آمنت** لما رأيت السماء والأرض اضطربتا، والشمس

والقمر اظلمّا، والأموات قامت، والصخور تشققت، وستر الهيكل انشطر نصفين، فللوقت صرخت قائلا : اذكرنى...)

والواضح أن اللص اليمين ديماس (اعترف) بالمسيح بإعلان لروحه الصافية، وبعد ذلك توكد صحة هذا الإعتراف بظواهر الطبيعة (الشمس والقمر اظلمّا، والأرض اضطربت).

وخلاصة القول إننا **لانعلم على الحقيقة إذا كان إيمان اللص اليمين هو نتيجة للظواهر الطبيعية أم أن الظواهر الطبيعية التى حدثت قد وكدت صحة إعتراف اللص بالمسيح رباً وملكاً.** أما أمانة اللص فيمكن أن نفهمها على أنها **(تأمل روحى) جعلته الكنيسة على فم اللص، لتثبيت إيمان شعب الكنيسة والمؤمنين بحقيقة ألوهية السيد المسيح له المجد.**

وإلاّ فلماذا لم يؤمن اللص الآخر على الرغم من أن الحوادث الطبيعية هزت نفوس الكثيرين (وَكُلُّ الجموع الذين احتشدوا عند هذا المشهد لما رأوا ماحدث رجعوا وهم يقرعون صدورهم) (لوقا ٢٣ : ٤٨).

ومما له دلالة هنا أن الإنجيل للقديس لوقا يروى خبر إعتراف اللص اليمين بالمسيح رباً وملكا قبل حدوث الظلمة التى خيمت على الأرض كلها وقبل إنشطار حجاب الهيكل إلى نصفين (لوقا ٢٣ : ٣٩ ـ ٤٦).

(وأخذ أحد المجرمين المصلوبين معه يُجَدِّف عليه قائلا : (ألستَ أنت المسيح ؟ إذن خلِّص نفسك وخلِّصنا). فأجاب الآخر وانتهره قائلا : (أما تخاف الله... ثُمَّ قال ليسوعَ : (اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك) فقال له يسوع : (الحقَّ أقولُ لكَ إِنَّكَ اليوم تكون معى فى الفردوس). ثم فى نحو السَّاعة السادسة **وقعت ظلمة على الأرض كلها حتى السَّاعة التَّاسِعةِ وقد احتجبت الشمس، وانشطر حجاب الهيكل إلى نصفين)** (لوقا ٢٣ : ٣٩ ـ ٤٥).

ومهما يكن من أمر فإن أمانة اللص كما نتلوها فى يوم الجمعة العظيمة تجعل **الإيمان** لاحقا على الظواهر الطبيعية ونتيجة لها، وأما **الاعتراف** بالمسيح رباً وإلهاً وملكاً، فقد جاء سابقاً على الظواهر الطبيعية.

وبهذا كان اللص اليمين شبيها بالقديس بطرس الذى كان إعترافه بالمسيح أنه ابن الله سابقاً على التوكيد الذى وصل إليه بطرس بعد أن رأى بعينيه مجد المسيح على جبل التجلّى.

مرة أخرى أشكر نيافتكم على إثارتكم لهذه المسألة الدقيقة، راجياً صلواتكم، وداعياً لكم بدورى بالصحة والعمر الطويل فى خدمتكم الرعوية لشعبكم بخاصةٍ وللكنيسة بعامةٍ.

ونعمة الرب تشملنا جميعاً،،،

٢٩ ـ لماذا نلوم الذين صلبوه ؟

سؤال : من السيد / سوريال بباوى ـ محرم بك بالأسكندرية.

لقد صلب المسيح بإرادته وبتدبير سابق ليحمل خطايا العالم بصلبوته، فلماذا نلوم الذين قدموه للمحاكمة، ولماذا نصب عليهم الويلات، وبخاصة يهوذا الإسخريوطى الذى سلمه؟

الجواب :

نعم إن المسيح له المجد قد أتى من السماء من أجل تدبير الفداء، وكان الصليب هو الضرورة التى لا مفر منها لتحقيق خلاص الإنسان. وقد قال السيد المسيح نفسه «من أجل هذا أتيت إلي هذه الساعة» (يوحنا ١٢ : ٢٧).

فلو كان الذين صلبوا المسيح فعلوا ما فعلوا من أجل خلاص العالم لكانوا يعتبرون قديسين لأنهم ساهموا فى عمل الخلاص.

لكنهم إذ حاكموه، وصلبوه لم يفعلوا ذلك بنية حسنة، وقصد خير، إنما صنعوا ما صنعوا بنية شريرة وقصد أثيم، مدفوعين ببواعث وضيعة، ومحمولين بروح الخبث، والشر، والحقد، ورغبة فى الخلاص منه. ولقد أبرزوا عداوتهم سافرة، ومثلوا به أشنع تمثيل، واحتالوا على النيل منه والكيد له، والغدر به. ولا شك أن النية والقصد لهما أهمية قصوى فى الحكم على الأفعال الإنسانية، وعلى الفاعل، لبيان خيره من شره ـ وكذلك أهمية الوسيلة التى يتذرع بها الفاعل لتحقيق هدفه وغايته.

فيهوذا الإسخريوطى لم يسلم سيده ومعلمه إيمانا منه بقضية الفداء والخلاص، وأن الرب يسوع هو المخلص وهو الفادى، وإنما سلمه إرضاء لرؤساء كهنة اليهود ولكى يقبض الثمن بموجب الإتفاق بينه وبينهم.

قال الإنجيل: وعندئذ ذهب أحد الإثنى عشر الذى يدعى يهوذا الإسخريوطى إلى رؤساء الكهنة وقال لهم: «ماذا تعطونى وأنا أسلمه إليكم؟» فاتفقوا معه على أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضة. ومنذ ذلك الحين أخذ يترقب فرصة ليسلمه إليهم ، (متى ٢٦ : ١٤ ـ ١٦)، (مرقس١٤ : ١٠، ١١).

وإذن فقد ذهب يهوذا الإسخريوطى بنفسه إلى رؤساء الكهنة يعرض خدماته، ويبدى إستعداده لأن يبيع سيده ومعلمه فى مقابل مبلغ من المال يدفعونه له، وتمت الموافقة والصفقة

الغادرة. ويقول الإنجيل أيضاً عن رؤساء الكهنة «فلما سمعوا فرحوا ووعدوا بأن يعطوه فضة فأخذ يترقب فرصة ليسلمه» (مرقس ١٤ : ١١).

ويقول الإنجيل للقديس لوقا «وإذ دخل الشيطان قلب يهوذا الملقب بالإسخريوطى، وهو أحد الإثنى عشر مضى وتحدث مع رؤساء الكهنة وقواد الجند بشأن الوسيلة التى بها يسلمه إليهم. ففرحوا واتفقوا معه على أن يعطوه فضة فواعدهم وأخذ يترقب فرصة ليسلمه إليهم بعيدا عن أعين الشعب (لوقا ٢٢ : ٣ ـ ٦).

ويقول الإنجيل للقديس يوحنا إن يهوذا الإسخريوطى إستاء مما فعلته مريم أخت لعازر إذ سكبت الطيب كثير الثمن على قدمى يسوع وقال: لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعط للفقراء. ويعقب الإنجيل على إعتراض يهوذا بهذه العبارة:

«قال هذا ليس لأنه كان يبالى بالفقراء، بل لأنه كان سارقاً، وكان الصندوق عنده، وكان يحمل ما يلقى فيه» (يوحنا ١٢ : ٦).

وإذن تسليم يهوذا للمسيح لم يكن لهدف الخلاص، وإنما كان صفقة تجارية باع فيها سيده وخان معلمه فى مقابل ثلاثين قطعة من الفضة تساوى نحوا من أربعة جنيهات مصرية.

هذا عن هدف يهوذا وقصده ونيته. أما الوسيلة فكانت دنيئة شريرة وهى قبلة غاشة غادرة.

قال الإنجيل للقديس متى «وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الإثنى عشر قد أقبل، ومعه جمع عظيم بسيوف وعصىّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب.

وكان الذى سيسلمه قد أعطاهم علامة قائلاً: أنه هو الذى سأقبله فامسكوه، ثم تقدم على الفور إلى يسوع وقال له: «السلام يا معلم» وقبله.. فقال له يسوع: أهذا يا صاحبى ما جئت من أجله؟ وعندئذ تقدموا وقبضوا على يسوع وأخذوه» (متى ٢٦ : ٤٧ ـ ٥٠)، (مرقس ١٤ : ٤٣ ـ ٤٦).

ويقول الإنجيل للقديس لوقا «وفيما هو يتكلم إذا جماعة من الغوغاء مقبلة يتقدمها المدعو يهوذا أحد الإثنى عشر، وقد اقترب من يسوع ليقبله، فقال له يسوع: «يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟ » «(لوقا ٢٢ : ٤٧، ٤٨) انظر أيضاً (يوحنا ١٨ : ٢، ٣).

ولو كان يهوذا قد سلم سيده ومعلمه لهدف نبيل وغاية حسنة، من أجل خلاص العالم لما ندم على تصرفه، ولما رد الثلاثين قطعة من الفضة إلى رؤساء الكهنة، ولما مضى وشنق نفسه. قال الإنجيل «إذ رأى يهوذا الذى سلمه أنه قد صدر عليه الحكم بالموت ندم ورد الثلاثين قطعة من

الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ، قائلاً: «إنى قد خطئت إذ سلمت دما بريئاً فقالوا «مالنا وهذا؟ أنت وشأنك» فرمى بقطع الفضة فى الهيكل وانصرف، ثم مضى وشنق نفسه» (متى ٢٧ : ٣ ـ ٥).

وقال عنه القديس بطرس الرسول فى خطابه الذى دعا فيه إلى إختيار بديل عن يهوذا «يهوذا الذى صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع... إقتنى حقلاً من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه، انشق من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلها.. لأنه مكتوب فى سفر المزامير: لتصر داره خراباً، ولا يكن فيها ساكن، وليأخذ وظيفته آخر» (أعمال الرسل ١ : ١٦ ـ ٢٠). وأما المزمور الذى اقتبس منه القديس بطرس بعض فقراته، وقد قيل بروح النبوءة عن يهوذا الإسخريوطى، فهو يشرح مسئولية يهوذا فى الشر الذى صنعه بالمسيح، وأنه ارتكبه برغبته فى الشر، لا رغبة فى خير البشرية وخلاص العالم «وضعوا علىّ شرا بدل خير، وبغضاً بدل حبى.... إذا حوكم فليخرج مذنباً، وصلاته فلتكن خطيئة. لتكن أيامه قليلة، ووظيفته ليأخذها آخر. ليكن بنوه أيتاماً، وإمرأته أرملة... من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة، بل طرد إنساناً مسكيناً وفقيراً، والمنسحق القلب ليميته، وأحب اللعنة فأتته، ولم يُسَرَّ بالبركة فتباعدت عنه، ولبس اللعنة مثل ثوبه، فدخلت كمياه فى حشاه، وكزيت فى عظامه... هذه أجرة مبغضى، من عند الرب ، وأجرة المتكلمين شرا على نفسى....» (مزمور ١٠٩ : ٥ ـ ٢٠).

ولو لم يكن يهوذا الإسخريوطى قد سلم سيده عن خيانة وشر وغدر وحب فى المال، لما قال عنه الإنجيل للقديس لوقا «وإذ دخل الشيطان قلب يهوذا الملقب بالإسخريوطى» (لوقا ٢٢ : ٣)، والإنجيل للقديس يوحنا «فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان فى قلب يهوذا سمعان الإسخريوطى أن يسلمه» (يوحنا ١٣ : ٢ ، ٢٧).

ولِما قال عنه رب المجد «وواحد منكم شيطان، وقال عن يهوذا سمعان الإسخريوطى، لأن هذا كان مزمعا أن يسلمه، وهو واحد من الإثنى عشر» (يوحنا ٦ : ٧، ٧١).

ولو كان يهوذا قد سلم معلمه من أجل خلاص العالم، لكان يعد أمام الله قديساً، ولما قال عنه رب المجد «الويل لذلك الرجل الذى بواسطته يسلّم ابن الانسان. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد» وعندئذ أجاب يهوذا الذى كان مزمعاً أن يسلمه وقال: هل أنا هو يا معلم؟ فقال له : نعم أنت هو» (متى ٢٦ : ٢٤، ٢٥)، (مرقس ١٤ : ٢١).

وما قلناه عن يهوذا الإسخريوطى ومسئوليته عن خيانته لمعلمه، ينسحب على رؤساء كهنة اليهود، فإنهم لم يسلموه للوالى حبا فى خلاص البشرية، وإنما كرها وحسدا، وعن رغبة فى الخلاص منه، وحتى بيلاطس البنطي الوالى الرومانى عرف نية القوم وبواعث نفوسهم.

قال الإنجيل كان (بيلاطس) يعلم أن رؤساء الكهنة سلموه حسدا (مرقس ١٥ : ١٠)، (متى ٢٧ : ١٨).

وجاء فى سفر الأعمال قول القديس بطرس فى خطابه إلى اليهود بعد شفاء الرجل الأعرج «إن إله ابراهيم واسحق ويعقوب، إله آبائنا، مجد فتاه يسوع، الذى أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه. ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه» (أعمال الرسل ٣ : ١٣ ـ ١٥)، (٧ : ٥٢).

ولو لم يكن رؤساء الكهنة قد سلموا الرب يسوع حسدا، لما كانت لهم خطيئة، لكن السيد المسيح كشف عن خطيئتهم ومسئوليتهم فى صلبه بقوله لبيلاطس البنطى «الذى أسلمنى إليك له خطيئة أعظم» (يوحنا ١٩ : ١١) أى أن بيلاطس لزمه الإثم فى حكمه على المسيح بالصلب، لكن خطيئة رؤساء الكهنة كانت أعظم من خطيئة بيلاطس.

٣٠ ـ صلب المسيح تم فى الساعة السادسة أما الحكم ففى الثالثة

سؤال : من الإبن الدكتور صلاح لوقا موسى.

يقول إنه جاء فى الإنجيل للقديس مرقس «وكانت الساعةُ الثالثةُ حين صَلَبوه» (مرقس ١٥ : ٢٥)

بينما أنه جاء فى الإنجيل للقديس متى «ومنذُ الساعةِ السادِسةِ صارت ظُلمَةٌ على الأرض كلّها إلى الساعةِ التاسِعة» (متى ٢٧ : ٤٥)

وجاء فى الإنجيل للقديس لوقا: «ثُمَّ فى نحو الساعة السادسةِ وقعَت ظُلمَةٌ على الأرضِ كلّها حتى الساعةِ التاسعةِ» (لوقا ٢٣ : ٤٤) ـ نرجو الإيضاح.

الجواب :

بمقارنة نصوص الإنجيل كما كتبها القديسون متى ومرقس ولوقا، يتضح أنَّ صُدورَ الحكمِ على المسيح بالصلب كان فى الساعة الثالثة، وهى تقابل عندنا اليوم التاسعة صباحاً. أمّا رفع المسيح على الصّليب فكان فى الساعة السادسة أى فى الثانية عشرة ظهراً.

ومنذ الساعة السادسة إلى التاسعة صارت ظُلمَةٌ على وجه الأرضِ كلها.

ولابدّ أن يكون ثمّت وقت قد مضى بين نُطق الحاكم الرّومانى بيلاطس بالحكم، وبين إجراءات التنفيذ. يقول الإنجيل «وأما يَسوعُ فجلده ثُمَّ سلّمهُ ليُصلَب، فأخذَ عندئذٍ جُندُ الوالِى يسوع إلى دارِ الولاية، وجمعوا عليه الكتيبةَ كلّها، ثم نزعوا عنه ثيابه، وألبسوه رداءً قرمزياً. وضفروا تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه، ووضعوا قصبةً فى يمينه، ثم راحوا يجثون على ركبهم أمامه، ويهزأون به قائلين «السلام يا ملك اليهود» ثُمَّ راحوا يبصقون فى وجهه.، وأخذوا القصبة وراحوا يضربونه على رأسه، حتى إذا أوسعوه سُخريةً نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به ليصلبوه. وفيما هم خارجون وجدوا رجلاً قيروانياً اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه، حتى إذا بلغوا موضعاً يُسمّى الجُلجُثة، أى موضع الجمجمة، أعطوه خمراً ممزوجة بمرارة ليشرب. فلما ذاقها أبى أن يشربها. ثم صلبوهُ (متى ٢٧ : ٢٦ ـ ٣٥).

وجاء فى الإنجيل للقديس مرقس «وأما يسوع فجلده (الحاكم الرومانى)، ثم سلمه ليصلب. فأخذه الجنود إلى داخل دار الولاية، وجمعوا عليه الكتيبة كلها، ثم ألبسوه رداءً أرجوانياً وضفروا

تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه، وراحوا يحيونه قائلين: «عليك السلام يا ملك اليهود، وهم يضربونه بقصبة على رأسه ويبصقون فى وجهه، ثم يجثون على ركبهم ساجدين له، حتى إذا أوسعوه سخرية نزعوا عنه الأُرجوان وألبسوه ثيابه ومضوا به ليصلبوه. وكان بين المارة رجل قادم من الحقل يدعى سمعان القيرواني، وهو أبو الأسكندر وروفوس، فسخروه ليحمل صليبه، وأتوا به إلى موضع الجلجثة، أي مَكان الجمجمة، وأعطوه خمراً ممزوجة بالمر، ولكنه لم يأخذها، ثم صلبوه» (مرقس ١٥ : ١٥ ـ ٢٤).

وهكذا جاء فى الإنجيل للقديس لوقا بما يدل على أنه لابد أن مر وقت بين صدور الحكم بالصلب وبين مجموعة الإجراءات الكثيرة التى تمت بعد صدور الحكم إلى أن إنتهت برفع المسيح على الصليب بعد أن ثقبوا يديه ورجليه بالمسامير، وقد تم ذلك فى الساعة السادسة. وليس غريباً أو مستبعداً أن يمر نحو ثلاث ساعات بين صدور الحكم وبين رفع المسيح على الصليب، علماً بأن الساعة هى ستون دقيقة. فإذا قيل إن النطق بالحكم قد صدر فى الساعة الثالثة، فمجال الساعة الثالثة هو ستون دقيقة، وكذلك مجال الساعة السادسة التى علُق فيها المسيح على الصليب هى أيضاً ستون دقيقة.

ووفقاً لنصوص الإنجيل، والتقليد الرسولى، رتبت الكنيسة فى نصوص الصلوات، ما يتلوه المصلى فى صلاة الساعة السادسة من كل يوم، موضّحاً ومبيّناً أنّ المسيح له المجد قد صُلِبَ فى اليوم السادس من الأسبوع (أى يوم الجمعة) وفى الساعة السادسة.

١ ـ «**يا منَ فى اليوم السادس وفى الساعة السادسة سمرت على الصليب** من أجل الخطيئـةِ التى جرؤ عليها أبونا آدم فى الفردوس، مزق صك خطايانا أيها المسيحُ إلهنا ونجنا....».

٢ ـ «يا يسوعُ المسيحُ إلهُنا **الذى سُمرت على الصليب فى الساعة السادسة، وقتلت الخطيئة بالخشبة**، وأحييت الميت بموتك، الذى هو الإنسان الذى خلقته بيديك، الذى مات بالخطيئة، اقتل أوجاعنا بآلامك الشافية المحيية، **وبالمسامير التى سُمرت بها** أنقذ عقولنا من طياشة الأعمال الهيولية...

٤ ـ صنعت خلاصاً فى وسط الأرض كلّها، أيها المسيحُ إلهُنا، **عندما بسطت يديك الطاهرتين على عودِ الصليب**،.. لتنجى الذين خلقتهم من عبودية العدو.....

٥ - نسجد لشخصك غير الفانى، أيها الصالح، طالبين مغفرة خطايانا، لأنَّ بمشيئتك سُررت أن تصعدَ **على الصليب** لتُنجى الذين خلقتهم من عبودية العدو.

٦ - أنت هى الممتلئة نعمة، يا والدة الإله العذراء، نحمدك، **لأن من قبل صليب إبنك إنهبط الجحيم، وبطل الموت**. أمواتا كنا فنهضنا، وإستحققنا الحياة الأبدية، ونلنا نعيم الفردوس الأول.

ويقول المصَلىّ فى تحليل صلاة الساعة السادسة «نشكرك يا ملكنا ضابط الكل، أبا ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، ونمجدك، لأنك جعلت أوقات آلام إبنك الوحيد أوقات عزاء وصلاة. إقبل إليك تضرعنا، وامحُ عنا صك خطايانا المكتوب علينا **كما مزقته فى هذه الساعة المقدسة، بصليب إبنك الوحيد يسوع المسيح ربنا** ومخلص نفوسنا، **هذا الذى هدمت به** كل قوة العدو...

والخلاصة، إن الحكم الذى أصدره بيلاطس البنطى على المسيح بالصلب كان فى الساعة الثالثة من نهار الجمعة، أما الصلْبُ فكان فى الساعة السادسة. وأمّا الموتُ فكان فى الساعة التاسعة: «**يا من ذاق الموت بالجسد فى الساعة التاسعة من أجلنا نحن الخطاة...**»

ومن الساعة السادسة إلى التاسعة كانت الظلمة التى خيمت على كل الأرض، وهو ما يعرف بالكسوف الكلى للشمس.

٣١ - اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك (١)

كانت قيامتك، يارب، من بين الأموات، بينة على حقيقة ألوهتك، وأن بيدك مفاتيح الحياة والموت (الرؤيا ١ : ١٨). لم يقف على قبرك أحد ليقيمك من الموت، كما وقفت أنت بجلالك على قبر لعازر وأقمته من بين الأموات بأمرك، بعد أن صار له فى القبر أربعة أيام، فمن هو الأقوى منك حتى يمنحك القوة **فلقد قُمت يا سيدى بقوة لاهوتك المتحد بناسوتك... نعم إن لك القوة، والمجد والعزة والتسبيح والسلطان، يا عمانوئيل إلهنا وملكنا ومخلصنا الصالح.**

ولقد جاءت قيامتك نُصرة على الموت وعلى الجحيم. فلم يعد الجحيم فى العالم السفلى قادراً على أن يضبط الموتى من القديسين الذين كانوا مقيمين فيه، ينتظرون الخلاص. فلما تحقق الخلاص بموتك على الصليب وقيامتك من بين الأُموات، تهللت الطبيعة، وتهلل معها الراقدون، (فالقبور تفتحت، وقد قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين) (متى ٢٧ : ٥٣).

كان هذا هو الهتاف التعبدى الذى هتف به نحوك الملاك الذى ظهر لك وأنت فى بستان جثسيمانى، تقوم بمهمة الفادى كنائب عن البشرية وبديل عن الإنسانية، تمثلها وكأنك آدم الثانى بدلاً من آدم الأول الذى بمعصيته وبخطيئته مات، موتاً أدبياً وأبدياً، وفيه مات جميع الناس (١. كورنثوس ١٥ : ٢٢) الذين ولدوا منه الولادة الأولى،... أنت الذى لم تعرف، يا سيدى، خطيئة، فصرت خطيئة لنصير نحن بر الله فيك (٢. كورنثوس ٥ : ٢١)، (١. بطرس ٢ : ٢٢) والعدل الإلهى (وضع عليك، بإرداتك، إثم جميعنا) ... (إشعياء ٥٣ : ٦).

ظهرت فى بستان جثسيمانى كإنسان، وكفادى عن البشرية تألمت وحزنت، وعانيت صراعاً رهيباً، وكان حزنك شديداً، حزناً كان قميناً أن يفضى بجسدك إلى الموت (متى ٢٦ : ٣٨).. وبالفعل لقد عمل الموت فى جسدك عملاً قاسياً، حتى تصبب عرقك (كقطرات الدم يتساقط على الأرض) (لوقا ٢٢ : ٤٤)، وهو علامة التسمم فى جسدك... ولولا مساندة اللاهوت للناسوت لكان الموت قد حصل لجسدك. لذلك، ولأنك حى بلاهوتك، ولاهوتك حى لا يموت، جاءك الملاك فى بستان جثسيمانى يهتف بك قانتاً عابداً، قائلاً (لك القوة، لك القدرة) (لوقا ٢٢ : ٤٣) ... وهى بعينها التسبحة التى يُسبحك بها الملائكة فى السماء (الرؤيا ٤ : ١٠، ١١)،

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد - ٦ من أبريل - نيسان لسنة ١٩٨٠م - ٢٨ من برمهات لسنة ١٦٩٦ش.

(٥ : ١١، ١٢) ... وهى بذاتها التسبحة التى تسبحك بها كنيستك فى أسبوع الآلام، لئلا يظن أحداً أن آلامك التى احتملتها كانت عن ضعف... حاشاك يارب (القدوس القوى يا من أظهر بالضعف ما هو أعظم من القوة) كما نردد فى ذلك لحن (أيها الابن الوحيد) الذى ننشده ونرتله فى يوم الجمعة العظيمة.

لم يكن أمراً عادياً أن ينطق ديماس اللص الذى علقوه عن يمينك باعترافه الخطير، ويصيح قائلاً: (اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك) (لوقا ٢٣ : ٤٢).

ما رآك ديماس اللص اليمين متجلياً على جبل تابور بمجد عظيم، وقد أضاء وجهك كالشمس وهى فى اشتدادها... وإنما رآك مصلوباً ورأسك يعلوه إكليل الشوك، ووجهك ملطخ بالدم والتراب والطين (لا صورة له ولا جمال) (إشعياء ٥٣ : ٢) ... فكيف يناديك: «اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك...» ؟.

إنه لم يبصرك ياربى وأنت (تزجر الحمى) فى حماة سمعان، ففارقتها الحمى فى الحال وقامت على الفور تخدمهم) (لوقا ٤ : ٣٩) ... ولم ينظرك وأنت تنتهر الريح الصرصر والأمواج العاتية وتقول (للبحر: أصمت، أسكت) (فسكنت الريح وساد هدوء عظيم)، حتى خاف الناس الذين كانوا فى السفينة (وقال بعضهم لبعض (من عساه أن يكون هذا الذى حتى الريح والبحر يطيعانه) (مرقس ٤ : ٣٩– ٤١) ... وإنما نظرك يا مخلصى معلقاً على الصليب مشدودة ضلوعك على الخشبة، ويداك مسمرتان فى الصليب، وقدماك موثقتان إحداهما فوق الأخرى بمسمار طويل سميك نافذ فى مفصلى القدمين... فكيف وقد رآك هكذا منهكاً وضعيفاً يصيح على الرغم من ذلك، ويقول: (اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك) ؟.

ما رآك (يا ملكى) على قبر لعازر تأمره، بعد أن أنتن فى القبر إذ صار له فيه أربعة أيام، وتناديه وروحه وهى فى عالم الموتى مع الأرواح فى قبضة الجحيم فى العالم السفلى، قائلاً بصوت عظيم جلجل فى كل الكون المنظور وغير المنظور: (لعازر هلم خارجاً) (فخرج لعازر الميت) مربوطة يداه ورجلاه بأكفان وملفوفاً وجهه بمنديل... (يوحنا ١١ : ٤٣، ٤٤).

ولا أبصرك (يا خالقى)، وأنت تخلق للمولود أعمى عينين فى موضع العينين الفارغتين، ولذلك تفلت فى الأرض وصنعت من التفل طيناً وطمست به مقلتى الأعمى لتخلق له عينين، بنفس الطريقة التى خلقت بها آدم إذ جبلته تراباً من الأرض (يوحنا ٩ : ٦، ٧، ١١، ١٥). قارن (التكوين ٢ : ٧).

ولا نظرك (يا قدوس) إسرائيل ـ القديم والجديد ـ وأنت تنتهر الروح النجس عندما تطرده من جسم المصروع به قائلاً: (اخرس واخرج منه) فيصرخ بصوت عظيم ويخرج وهو يقول (مالك ولنا يا يسوع الناصرى؟ أجئت لتهلكنا؟ إننا نعرف من أنت: أنت قدوس الله). فذهل الناس جميعاً ،حتى لقد أخذوا يتساءلون فيما بينهم قائلين: (ما هذا؟ إنه لتعليم جديد! فإنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه) (مرقس ١ : ٢٣ – ٢٧)،. (أما الأرواح النجسة فكانت حين تراه تخر ساجدة له وتخرج وهى تصرخ قائلة: (إنك أنت هو المسيح ابن الله) (مرقس ٣ : ١١)، (لوقا ٤ : ٤١).

ما أبصرك اللص اليمين تصنع المعجزات وتجترح العجائب... ما أبصرك وأنت تشبع الألوف من خمس الخبزات والسمكتين، وبعد أن أكلوا (رفعوا من الكسر التى تبقت إثنتى عشرة قفة ممتلئة) (متى ١٤ : ٢٠) ... ولا أبصرك وأنت تشفى جميع الأمراض بلمسة منك أو بكلمة من فيك بل لقد (كانوا يضعون المرضى فى الشوارع والأسواق ويتضرعون (إليك) (أن يلمسوا ولو طرف (ردائك)، (فكان كل من يلمسك يشفى) (مرقس ٦ : ٥٦) وحتى (المرأة المصابة بنزف دم منذ إثنى عشر عاماً وقد أنفقت كل ما تملك على الأطباء فلم يستطع أحد شفاءها) قد جاءت من الخلف فى الزحام ولمست طرف (ثوبك) (فتوقف على الفور نزفها)، وذلك بفعل (القوة) التى خرجت منك (لوقا ٨ : ٤٣ – ٤٦).

لم يرك اللص اليمين فى شيء من مظاهر قوتك الحقيقية، بل رآك معلقاً على خشبة الصليب، ورأى (المارة (يسبونك) وهم يهزون رؤوسهم قائلين: (يا هادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام، خلص نفسك). إن كنت أنت ابن الله فأنزل عن الصليب. وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون (بك)مع الكتبة والشيوخ قائلين: (خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه)، إن كان هو ابن الله المختار. إن كان هو المسيح ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب لنرى فنؤمن به. لقد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه، لأنه قال أنا ابن الله) (متى ٢٧ : ٣٩ – ٤٣)، (مرقس ١٥ : ٢٩ – ٣٢) وكذلك الجنود كانوا يسخرون منك، وقد دنوا منك وقدموا لك خلا قائلين لك: (إن كنت أنت ملك اليهود، فخلص نفسك) (لوقا ٢٣ : ٣٦، ٣٧).

ورأى وسمع اللص الآخر المصلوب عن يسارك يجدف عليك قائلاً: (ألست أنت المسيح؟ إذن خلص نفسك وخلصنا) (لوقا ٢٣ : ٣٩).

فما هو ذا الذى عمل فى قلب ديماس على الرغم مما رآه فيك من ضعف، وعلى الرغم من أنه رأى إستهزاءً جماعياً من الصالبين والمارة ورؤساء الكهنة وعلماء الشريعة والكتبة... حتى انتهر زميله بعنف قائلاً: (أما تخاف الله وأنت نفسك تحت هذا القصاص بعينه؟ نحن بعدل جُوزينا، لأننا ننال جزاء أعمالنا. أما هذا فلم يفعل سوءاً)... ثم أردف قائلاً ليسوع المسيح المصلوب (اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك) (لوقا ٢٣ : ٣٦– ٤٢).

واعجبا، كيف باللص اليمين أن يخرج على الإجماع، ولا يستنكر فقط المعاملة الظالمة التى عُومل بها يسوع المسيح، ولكنه ينتقل إلى إيمان عميق، بأن يسوع المسيح (رب) وأنه أيضاً (ملك) وأن له مملكة، ومملكته آتية، وأبدية، وأن يسوع المسيح وإن صلب ومات ولكنه سيظهر مرة أخرى، آتياً فى مجده وملكوته... بل وآمن أيضاً بأنه هو ـ أى اللص ـ سوف يقوم من بين الأموات فى نهاية هذا الدهر، ولذلك يرجو أن يكون له نصيب فى الملكوت الآتى، وأن يحسبه المسيح فى مجيئه الثانى من رعاياه قائلاً: (اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك)!

لا نعتقد أنه نمى إلى اللص اليمين ما صرح به المسيح له المجد أثناء محاكمته أمام مجلس السنهدريم اليهودى ـ أعلى سلطة دينية ـ عندما سأله رئيس الكهنة وقال له: (استحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟) فقال له يسوع: «نعم أنا هو كقولك. وإنى لأقول لكم كذلك إنكم منذ الآن سترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سُحب السماء) (متى ٢٦ : ٥٧– ٦٤)، (مرقس ١٤ : ٥٣– ٦٢)، (لوقا ٢٢ : ٦٩، ٧١).

إن اللص اليمين فى اعترافه بيسوع أنه المسيح الملك، وأنه سيأتى مرة أخرى، وله فى المجيء الثانى مملكة... كان ملهماً، ولعل روحه فى لحظة صفاء تلامست مع قوة الله العليا، وبفاعلية هذا التلامس أضاءت نفسه وأشرقت فيها معرفة من عل، وهذا هو الإستشراق، والعلم اللدنى، العلم الذى من لدن الله، والذى يمكن أن ينزل على قلب الإنسان عندما يكون فى لحظة صفاء، فيضيء قلبه ويشرق على نفسه... فكان بهذا شبيهاً بالقديس بطرس عندما نطق باعترافه المشهور إجابة على سؤال الرب يسوع له ولرفاقه (وأنتم من تقولون إنى هو؟ فأجاب سمعان بطرس وقال: (أنت هو المسيح الله ابن الله الحى) (لوقا ٩ : ٢٠)، (متى ١٦ : ١٦) فأجاب يسوع وقال: (مبارك أنت يا سمعان بن يونا، لأنه ليس لحماً ودماً الذى كشف لك هذا، وإنما أبى الذى فى السماوات) (متى ١٦ : ١٧).

لم يكن لحماً ودماً هو الذى كشف للص اليمين أن يعترف بيسوع الناصرى أنه المسيح الملك السماوى، وأنه سوف يجىء مرة أخرى فى مجىء ثانٍ... لا فى هوان كما كان فى المجىء الأول. وإنما فى مجد عظيم ولسوف يكون مجيئه الثانى للدينونة والجزاء كما قال إنه (سيجىء فى مجده وكل الملائكة القديسين معه، ويجلس عندئذ على عرش مجده، وتجتمع أمامه كل الشعوب، فيفرز بعضهم من بعض كما يفرز الراعى الخراف من الجداء، ثم يقيم الخراف عن يمينه، وأما الجداء فعن يساره) (متى ٢٥ : ٣١– ٣٣) وقال: (لأن ابن الإنسان سيأتى فى مجد أبيه مع ملائكته، وعندئذ سيجازى كل إنسان على حسب أعماله) (متى ١٦ : ٢٧).

إن اليهود فى إسرائيل يتطلعون هم أيضاً إلى مجىء المسيح. ولما كانوا قد رفضوا المسيح (الحقيقى) فى مجيئه الأول، لكنهم على ما جاء فى الكتاب المقدس يؤمنون بأن المسيح هو ملك إسرائيلِ الحقيقى، وإنه المخلص لهم من أعدائهم، وأن سلطانه، أبدى لن يزول وملكه لا ينقرض (دانيال ٧ : ١٤)، «ملكوته ملكوت أبدى، وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون» (دانيال ٧: ٢٧)، (وأنه يملك على بيت يعقوب، ويجلس على عرش داود إلى الأبد، ولن يكون لملكه إنقضاء) (ومملكته لن تنقرض إلى الأبد، وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى جميع تلك الممالك، وهى تثبت إلى الأبد وإلى أبد الأبدين) (دانيال ٢ : ٤٤)، (٤ : ٣، ٣٤)، (٦ : ٢٦)، (٧: ١٨)، (ميخا ٤ : ٧)، (إشعياء ٩ : ٧)، (٢٤ : ٢٣)، (عوبديا ٢٧)، (حزقيال ٣٧ : ٢٥)، (مزمور ٤٤ : ٦، ٧)، (٨٨: ٣٦). قارن (لوقا ١ : ٣٢، ٣٣)، (يوحنا ١٢ : ٣٤)، (العبرانيين ١ : ٨)، (١٢: ٢٨)، (الرؤيا ١١ : ١٥)، (١٢ : ١٠).

لذلك سيظهر عندهم (المسيح الدجال) (١. يوحنا ٢ : ١٨)، (٤ : ٣) (إنسان الخطيئة، ابن الهلاك، المعاند والمرتفع على كل من يُدعى إلهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس فى هيكل الله كإله، مُظهراً نفسه أنه إله... ويكون مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبالعلامات والعجائب الكاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين، لأنهم لم يقبلوا محبة الحق لينالوا الخلاص).

وسيخيب أمل اليهود فى هذا المسيح الدجال (الذى لا شريعة له، ذاك الذى يبيده الرب يسوع بنفخه من فمه، ويبطله بظهور مجيئه) (٢. تسالونيكى ٢ : ٣– ١٢).

إن ما قاله اللص اليمين، ديماس، نردده نحن اليوم بحرارة الإيمان بالمسيح الحقيقى ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا (اذكرنى يارب، يا ملكى، يا قدوس، متى جئت فى ملكوتك)!

٣٢ - «إنهم لا يدرون ما هم فاعلون» (١)

إن قيامتك، ياربى، من بين الأموات عزاء لكل مصلوب على شبهك ومثالك... عذبوك وأهانوك، جرحوك وسمروك، ... جلدوك وصلبوك...، وما أبادوك كما أرادوا، وإنما شبه لهم، وكيف يبيدوك وأنت أصل الحياة؟ (أعمال ٣: ٥) وباعث الحياة، ومُبْدِىء الحياة (يوحنا ١: ٤) بل أنت هو الحياة بذاتها (يوحنا ١٤: ٦).

وما أبعد الفرق بينك وبيننا، ولئن اتّخذت لذاتك خصائص طبيعتنا البشرية وجميع صفاتها إلا أنك لم تخطأ قط. فإذا كنا نتألم فى الأرض، فآلامنا هى ثمرة لخطايانا وأخطائنا، وعلى قول اللص اليمين لرفيقه «نحن بعدل جوزينا، لأننا ننال جزاء أعمالنا. وأما هذا (المسيح) فلم يفعل سوءاً» (لوقا ٢٣: ٤١) وحتى بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى صرخ فى وجه رؤساء كهنة اليهود وشيوخهم «لماذا؟ أى شر فعل؟» (متى ٢٧: ٢٣)، (لوقا ٢٣: ٢٢).

إن آلامك يا سيدى تُخجلنا وتفضح فساد البشر... كيف فقد الرؤساء الروحانيون عقولهم، وضاع منهم منطق الروحانيات والأخلاقيات... فأمسى عندهم القدوس، شريراً ومجرماً، حتى شكوه إلى الحاكم الوثنى «وقالوا له: «لو لم يكن هذا فاعل شر، لما أسلمناه إليك» (يوحنا ١٨: ٣٠).

أحقاً ما قالوا: إن يسوع المسيح فاعل شر، وأنهم يطلبون قتله مدفوعين بغيرة على الحق، ومحبة فى الخير، ودفاعاً عن القيم الروحية التى أهدرها يسوع المسيح؟

لقد كان بيلاطس الوثنى، أصدق حساً من رؤساء كهنة اليهود، «فأخذ ماء وغسل يديه أمام الجمع قائلاً: «إنى برىء من دم هذا البار، أنتم وشأنكم... «إذ كان يعلم أنهم سلموه حسداً» (متى ٢٧: ٢٤، ١٨).

وكانت إمرأة بيلاطس، وهى وثنية، أصدق حساً من رؤساء كهنة اليهود، فقد أرسلت إلى زوجها أثناء مهزلة المحاكمة، قائلة «إياك وذاك البار، فإنى توجعت الليلة كثيراً فى الحلم من أجله» (متى ٢٧: ١٩).

يا للعار، الذى تلطخ به رؤساء كهنة اليهود، ولصق بهم إلى الأبد. لقد فقدوا نور البصيرة، وأفلت منهم قياد النفس العاقلة، وصاروا يندفعون فى تصرفات

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد - ٢٥ من أبريل - نيسان لسنة ١٩٧٦م - ٢١ من برموده لسنة ١٦٩٢ش.

هوجاء، تسوقهم إليها بواعث نفسية، أرضية شهوانية، لا تربطها رابطة روحية سامية، مما يُنتظر من رجال دين، وظيفتهم الأولى أن يقدموا النموذج، والمثل، والقدوة، ويزينوا تعاليمهم بالسيرة العملية.

كيف أمسى رؤساء الكهنة اليهود فى حاجة إلى أن يتلقوا الدروس الأولية فى الروحانيات والأخلاقيات... وصاروا مفتقرين إلى من يذكرهم بالأوليات والبدهيات... حتى بدا الوثنى الذى لا عرفان له، أكثر إدراكاً للحق والعدل والخير ممن عرفهم الناس بأنهم حفظة الإيمان وحراس الشريعة؟.

هذا برهان على صدق تعليم كتابنا المقدس فى أن الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله... فكل إنسان من أى دين، فيه جوهرة روحه العاقلة الخالدة، وهى وديعة الله فيه، وبها يمكنه أن يعرف الحق، وأن يُحب الحق... فإذا أسلم الإنسان قيادة حياته لنزواته، ولم يعقل إنفعالاته بعقال الحكمة الإلهية، اهتزت صورة الله فيه، حتى لو كان من بين رجال الدين، وأمسى من لا دين له أصدق حساً منه وأكثر قرباً إلى الله.

إنك، يا سيدى، على الرغم من كل ما فعله بك اليهود ورؤساؤهم، بسطت يديك على الصليب، وناديت الآب السماوى قائلاً: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما هم فاعلون» (لوقا ٢٣ : ٣٤).

أما أن تغفر لمن أساءوا إليك، فهذا هو قمة الحكمة، وذروة المحبة.

إن العالم قبل المسيح لم يعرف غفراناً من هذا النوع، وبهذا الكم والكيف... إنك لم تصفح فقط، ولكنك طلبت من الآب السماوى أن يصفح هو أيضاً عمن أساءوا إليك أنت. إنك تنازلت عن حقك، ومن غير مقابل، ولم تشترط لغفرانك إعتذاراً من جانب الذين أساءوا إليك، ولم تطلب استسماحاً كتابياً أو شفهياً... إنك صفحت، بإعفاء عام وتام لأن قلبك قلب أب، وبحنان لم يعرفه أب من قبل.

لم تُطالب بحقك، ولم تشر حتى مجرد إشارة، إلى أن لك حقاً، وقد تنازلت أنت عنه... وإنما توجهت إلى الآب السماوى أن يغفر هو كذلك لمن أساءوا إليك... لم تقم الحجة عليهم بأنهم إذ أساءوا إليك فقد أساءوا إلى الله تعالى،

وإلى الحق والعدل والخير وكل القيم الروحية والدينية والأبدية،... وبهذا علمتنا أن نغلق بالغفران كل نافذة يمكن أن يتسلل منها روح الإنتقام للكرامة الشخصية.

لكن كيف، يا سيدى، تعتذر أنت عن المسيئين إليك بأنهم لا يدرون ما هم فاعلون، من دون أن يعتذروا هم عن أنفسهم.

مَنْ مِن كل أولئك كان طفلاً لم يبلغ إلى سن الإدراك والفهم؟

إنهم جميعاً رجال، وكبار، وناضجون، بل وفقهاء ومعلمون، وعلى رأسهم رؤساء كهنة، «حرضوا الجمع على أن يطلبوا... إهلاك يسوع» (متى ٢٧ : ٢٠).

مَنْ مِن كل أولئك الذين ساهموا فى تلك المأساة كان لا يدرى ما هو فاعله؟

هل كان يهوذا الإسخريوطى، ذلك التلميذ الخائن، هو أيضاً لا يدرى ما هو فاعله؟

هل كان يهوذا طفلاً ساذجاً؟ هل كان مخموراً؟ هل كان مخبولاً؟...

ألم يكن ذا حيثية حتى إنه ذهب إلى رؤساء الكهنة، وقال لهم: «ماذا تعطونى وأنا أسلمه إليكم؟» فاتفقوا معه على أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضة. ومنذ ذلك الحين أخذ يترقب فرصة ليسلمه إليهم» (متى ٢٦ : ١٥، ١٦).

هل كان قيافا رئيس الكهنة لا يدرى ما هو فاعله؟ أليس هو الذى قاد المعركة كلها، وحبك المؤامرة، وأجرى المحاكمة الدينية باعتباره المسئول الأول عن قيادة اليهود الروحية، وألبس عداوته للمسيح لباساً دينياً، وستر حقده الشخصى بستر المصلحة العامة، كما كان يزعم «فعقد رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً، وقالوا: «ماذا نعمل فإن هذا الإنسان يصنع معجزات كثيرة. فإن تركناه هكذا آمن الجميع به...» فقال لهم قيافا... «إنكم لا تعرفون شيئاً، ولا تدركون أنه خير لكم أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يوحنا ١١ : ٤٧ – ٥٠).

إذن لقد كان قيافا يثق فى قدراته العقلية، وكفاءته القيادية، وكان يعتقد فى نفسه أن لديه من الذكاء الخارق ما يجعله يحكم على جميع أعضاء المجمع اليهودى بأنهم «لا يعرفون شيئاً... ولا يدركون».

وسائر الذين اشتركوا فى مأساة صلب المسيح، من رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود، والجماهير التى أهاجوها وكانت تصرخ وتقول لبيلاطس «اصلبه» (لوقا ٢٣ : ٢١) الذين استأجروهم ليشهدوا ضد المسيح زوراً، وقادة جند الهيكل، ثم بيلاطس وهيرودس، وقائد المائة الذى قام بتنفيذ الصلب. كل أولئك كانوا كباراً عاقلين ولم يكونوا أطفالاً طائشين، فكيف اعتذرت يا سيدى عنهم، وأنت على الصليب، وقلت للآب السماوى «يا أبتاه أغفر لهم فإنهم لا يدرون ما هم فاعلون؟» (لوقا ٢٣ : ٣٤) نعم، **هم لا يدرون على الرغم من أنهم يدرون**. إنهم يدرون بأنهم يريدون أن يقتلوا يسوع بزعم أنه «يهيج الشعب» وهو يعلم وأنه «يفسد الشعب»... ولكنهم **لا يدرون مبلغ جريمتهم، وبشاعة شرهم، وضراوة عداوتهم، ومرارة خصومتهم،... فقد أعمت البغضاء عيونهم وبصائرهم، فلم يعودوا يدركون ما هم فاعلون. ثم هم لا يدرون مكانة الذى ناصبوه العداء، ولا عظمة قدره ولا يدرون جسامة مسئوليتهم عن المحاكمة الظالمة التى حاكموه بها، وأنهم ضغطوا على بيلاطس، حتى أطلق لهم سراح لص كان من بين المشاغبين وممن ارتكبوا جرائم قتل كثيرة** «وأما يسوع فجلده ثم سلمه ليصلب» (متى ٢٧ : ٢٦).

لو كان زعماء اليهود يدرون على الحقيقة شناعة ما فعلوه، لطلبوا هم الغفران أنفسهم، ولحكموا على ذواتهم كما حكم يهوذا على نفسه، قائلاً «إنى قد خطئت إذ سلمت دماً بريئاً، وانصرف، ثم مضى وشنق نفسه» (متى ٢٧ : ٤، ٥).

إن الأذكياء نوعان: أذكياء بالعقل، وأذكياء بالقلب. والأذكياء بالعقل وحده أكثر الناس عرضة لإغفال أبسط القضايا الروحية، لأنهم إذ يصابون بالغرور يتصرفون بحماقة «فلا يدرون ما هم فاعلون».

إن الذين صلبوك، يارب، قد زالوا وزالت دولتهم. لقد تعجلوا فأخطأوا... أفهل كانوا يدرون أن الذى يصلبونه اليوم سيقوم بعد قليل من بين الأموات، ظافراً بأعدائه، وقاهراً دولة الطغيان... ولقد غفرت لهم، فإنهم أغبياء فيما ظنوا أنهم حكماء. أفهل كانوا، ومازالوا، مستحقين للغفران؟.

٣٣ ـ أما هو فظل صامتاً! (١)

منك نتعلم الصمت حين يجمل الصمت!

لكنه الصمت، الأبلغ من الكلام!

والبلاغة من التبليغ. **فللصمت رسالة تتكلّم وتصل، ولكن بغير جلبة وبغير دوِيّ... بل لعلها تصل فى سرعة وفى قوة، لأنها تنفذ فى غفلة من وعى الصاخبين....**

شتموك وأهانوك، فصمت... سخروا منك وهزأوا بك، فصمت...

اتّهموك وشهدوا عليك شهادات زور، فصمت...

فلماذا يارب هذا الصمت؟!

هل هو صمت العجز؟ طبعاً، لا

هل هو صمت الفشل واليأس؟ معاذ الله!

قال الإنجيل «أما الذين قبضوا على يسوع فمضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة حيث كان الكتبة والشيوخ مجتمعين... وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يبتغون شهادة زور ضد يسوع ليقتلوه، ولكنهم لم يجدوا، مع أن كثيرين شهدوا ضده زوراً، غير أن شهاداتهم لم تكن متطابقة. ثم قام قوم وشهدوا عليه كذباً قائلين: «إننا سمعناه يقول إنى أهدم هذا الهيكل المصنوع بالأيدى ثم فى ثلاثة أيام أبنى آخر مصنوعاً بغير الأيدى». ولكنهم حتى فى هذا لم تتطابق شهاداتهم. فوقف رئيس الكهنة فى الوسط، وسأل يسوع قائلاً: «**أما تجيب بشىء؟ ما هذا الذى يشهد به أولئك عليك؟**»... «**أما يسوع فظل صامتاً. ولم يجب بشىء**...» (مرقس ١٤: ٥٣- ٦١)، (متى ٢٦: ٥٧- ٦٣).

لماذا هذا الصمت يارب؟

ألعله ذلك الصمت المثير... المحرك للضمير.

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ٣٠ من أبريل ـ نيسان لسنة ١٩٧٨م – ٢٢ من برموده لسنة ١٦٩٤ش.

لقد تركت شهود الزور يهذون ويهرفون... تركتهم يخطبون ويثرثرون... تركتهم يتكلمون فلا تقاطعهم... يروون أحاديث ومواقف، ... فلا تجادلهم ولا تناقشهم... يَعْلُون بأصواتهم ويصرخون بحناجرهم ليبرهنوا على صدق أكاذيبهم، فلا تواجههم ولا تحاسبهم... تركتهم ليأخذوا فرصتهم كاملة، فيظهروا أمام أنفسهم شجعاناً وأبطالاً، وغيورين على الحق أخياراً... تركتهم... لعل ضمائرهم تبكتهم حينما لا يسمعون إلا صوت أنفسهم... تركتهم لأذهانهم لعلها تبدو أمامهم فارغة تافهة... تركتهم ولم تُحاججهم... لعلهم يدركون من ذواتهم أن أدلتهم متداعية متهافتة... وأما رئيس الأحبار في تلك السنة، ورؤساء الكهنة معه وكل المجمع... فأثارهم صمتك، وكانوا يريدون أن يسمعوك تناقش الشهود، لا لكى يعدلوا عن محاكمتك... ولا لكى يتبينوا وجه الحقيقة... فالحقيقة معروفة عندهم، والنية مُبيَّتة لديهم... إنما يريدونك أن تتكلم، حتى «يصطادوك بكلمة»، تقولها فلا ترضيهم، فيثوروا، ويجدوا تبريراً يُرضى ضمائرهم الموسومة والمريضة... لمحاكمتك، وللحكم عليك... فلم تعطهم بصمتك هذه الفرصة.

فلماذا يارب هذا الصمت المثير؟

ولكى تُرضيهم، وتفرح قلوبهم بما كانوا يبتغون... أجبت فى هدوء واتزان على قيافا رئيس كهنة اليهود عندما أثاره صمتك، فاستحلفك بالله الحى أن تجاوب على سؤاله هو: «أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟»... عندئذ أجبته على الفور: «نعم أنا هو كقولك. وإنى لأقول لكم كذلك منذ الآن سترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحب السماء»... وإذ سمع قيافا جوابك فرح فى داخله، لكنه تظاهر بالغضب المقدس، ومزق ثيابه، وقال لأعضاء المجمع «لقد جدف. فما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها أنتم أولاء قد سمعتم الآن تجديفه. فماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: «إنه يستحق الموت»، وعندئذ راحوا يبصقون فى وجهك ويلكمونك وراح آخرون يغطون وجهك ثم يلطمونك قائلين: «تنبأ لنا أيها المسيح من الذى لطمك الآن وراح الخدم يصفعونك...» (متى ٢٦: ٦٢- ٦٨)، (مرقس ١٤: ٦١- ٦٥).

صمت يا سيدى عندما اتهموك وجعلوا يكيلون لك شهادات زور... ولكنك تكلمت عندما كان لابد أن تشهد للحق... صمت عندما ضربوك ولكموك

وصفعوك، وهزأوا بك... ولكنك تكلمت حين صار الكلام ضرورة، وعملاً مقدساً... وبياناً للحقيقة... ودفاعاً عن الحق الصراح...

ولقد تكرر منك نفس الموقف، إبان محاكمتك أمام السلطة المدنية أمام بيلاطس وأمام هيرودس...

قال الإنجيل «ثم أوثقوا يسوع وساقوه وأسلموه إلى بيلاطس البنطى... ووقف يسوع أمام الوالى فسأله الوالى قائلاً: أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع: «نعم. أنا هو كقولك». وكان رؤساء الكهنة والشيوخ يوجهون إليه إتهامات كثيرة وهو لا يجيب، فقال له بيلاطس: «أما تجيب بشيء؟ أنظر كم من إتهامات يوجهونها إليك؟» **فلم يُجِبهُ يسوع بكلمة، حتى لقد دهش الوالى جداً»** (مرقس ١٥ : ١-٥)، (متى ٢٧ : ٢، ١١- ١٤).

ولقد أرسلك بيلاطس إلى هيرودس، وهناك أيضاً مارست الصمت ولم تتكلم.

قال الإنجيل «ولما رأى هيرودس يسوع ابتهج ابتهاجاً عظيماً لأنه كان يتوق لأن يراه منذ زمن بعيد، بسبب ما كان يسمعه عنه، وكان يود أن يرى إحدى العجائب التى تجرى على يديه. وقد سأله بكلام كثير، **ولكنه لم يجبه بشيء**. وكان رؤساء الكهنة والكتبة واقفين، وقد أخذوا يتهمونه بعنف، فهزأ به هيرودس مع جنوده، وسخر منه وألبسه ثوباً براقاً ثم أعاده إلى بيلاطس...» (لوقا ٢٣ : ٨-١١).

ومرة أخرى عندما عادوا بك إلى بيلاطس، سألك بيلاطس فصمت لسؤال ولم تصمت لسؤال آخر.

قال الإنجيل «وقال (بيلاطس) ليسوع: «من أين أنت» **ولكن يسوع لم يجبه**. فقال له بيلاطس: «**لماذا لا تكلمنى**؟ أما تعلم أن لى سلطاناً أن أصلبك، وسلطاناً أن أطلق سراحك؟» أجاب يسوع قائلاً: «**ليس لك علىّ سلطان البتة، ما لم تكن قد أعطيت من فوق. ولذلك فإن الذى أسلمنى إليك خطيئته أعظم**» (يوحنا ١٩ : ٩-١١).

أملَك الكلام يصمت...؟! أمعلم الأجيال يصمت؟ كيف... ولماذا؟ لقد شهد عنك الجواسيس الذين أرسلهم زعماء اليهود ليقبضوا عليك فلما رجعوا إلى سادتهم وسألوهم: «لماذا لم تأتوا به؟» فأجاب الجند «ما تكلم إنسان قط بمثل ما يتكلم به هذا الإنسان» (يوحنا ٧ : ٤٥، ٤٦).

فهل نتعلم منك يا سيدى، متى نصمت ومتى نتكلم؟ متى يكون الصمت فضيلة... ومتى يكون الصمت جريمة... متى نزهد فى الكلام ونَصْدُف عنه... ومتى يلزمنا أن نتكلم ولا نصمت... فإذا صمتنا كان صمتنا شراً...

فلقد يصمت المسيحى إذا أهين فى شخصه... إذا شتموه أو قذفوه بالسباب... فلا يرد الشتيمة بمثلها... بل يُسلم أمره لمن يحكم بالعدل (١. بطرس ٢ : ٢٣)... أما إذا استُشْهِد للحق، فهنا يتكلم ولا يصمت... هنا يصرخ ويجأر بالحق... ولا يتخاذل ولا يتوارى... بل يرفع صوته عالياً جهوراً، قوياً لا يخاف، صلباً لا يلين، شجاعاً لا يَمِينُ... لأنه هنا لا يدافع عن نفسه... وإنما يدافع عن الحق... والله هو الحق. قال القديس يوحنا ذهبى الفم: كما كان المسيح حملاً وأسداً، هكذا ينبغى على كل مسيحى أن يكون حملاً وأسداً... عليك أن تُرتب وداعتك وشجاعتك... فلا تكن كالأسد فى حديثك (عن نفسك)، ولا كالحمل فى الدفاع عن قضية صالحة...

والآن لقد قمت يا سيدى من الموت، منتصراً على أقوى عدو، قمت بجبروت وجلال، فأين أولئك المتشكون عليك، الهازئون بك؟ هل كانوا يتوقعون لك وأنت صامت أمامهم هذه القيامة؟... الآن لقد خرست حناجرهم، وأصيبوا بذهول... لقد صمتوا هم، صمت القبور... وتناثرت كلماتهم... وضاعت إتهاماتهم... فلنتعلم أن هناك الله، وأن الله هو المحامى عن المظلومين... وأن من يتكلم اليوم بشر، سيخرس لسانه غداً وسيصمت... وأما الصامت عن حقه، فيتكلم الله عنه... الله يُخرج مثل النور بره، وحقه مثل الظهيرة... (مزمور ٣٦ : ٦) .

٣٤ ـ المسيحية مملكة سمائية لا أرضية
والصليب رمز وعلم لهذه المملكة (١)

لقد صُلب الرب يسوع المسيح فى الجسد (١. بطرس ٢ : ٢٤) ومات بالجسد بانفصال الروح الإنسانية فيه عن جسده، من دون أن يُفارق لاهوته ناسوته المتكوّن من روح ومن جسد. فاللاهوت حى ولا يموت، ولكن الموت بالنسبة للمسيح الرب هو موت لناسوته فقط، وذلك بانفصال مؤقت بين الروح الإنسانية والجسد الإنسانى اللذين يتألف منهما ناسوته أو إنسانيته. وعلى الرغم من الانفصال الذى تم على الصليب بين الروح والجسد، إلا أن اللاهوت لم يفارق لا الروح ولا الجسد. فبالروح متحداً باللاهوت نزل المسيح إلى العالم السفلى ليُبشر أرواح الموتى المنتظرة بالجحيم (١. بطرس ٣: ١٩)، لعمل الفداء والخلاص، فأنار على الأرواح المنتظرة الخلاص، وأشرق عليهم بنوره الإلهى، ولذلك سُمى يوم السبت التالى ليوم الجمعة العظيمة (جمعة الصلبوت)، بسبت (النور) لأن المسيح أشرق بالنور على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت (متى ٤ : ١٦). وسُمى أيضاً ذلك السبت بسبت (الفرح) توكيداً لما قاله المسيح له المجد «لقد تهلل إبراهيم أبوكم مُشتهياً أن يرى يومى، وقد رأى وفرح» (يوحنا ٨ : ٥٦).

كذلك لم يفارق اللاهوت جسد المسيح، بدليل أنه بعد إنفصال الروح الإنسانية من الجسد، بالموت، «فخرج منه على الفور دم وماء» (يوحنا ١٩ : ٣٤)، (١. يوحنا ٥ : ٦)، مما لا يحدث من جسد ميت، الأمر الذى عاينه قائد المائة (لونجينوس) المشرف المسئول على عملية الصلب، عندما طعن جنب المسيح المصلوب بحربته، فصاح بصوت عظيم ومجد الله، مؤمناً بألوهة المسيح المصلوب قائلاً: «حقاً كان هذا هو ابن الله» (متى ٢٧ : ٥٤)، (مرقس ١٥ : ٣٩)، ويدليل آخر هو أن جسد المسيح القدوس لم ينل منه فى القبر، الفساد، بسبب اتحاد اللاهوت به (أعمال الرسل ٢ : ٢٧ – ٣٢).

فلاهوت المسيح لم يفارق، فى عملية الصلب والموت، لا روحه الإنسانية ولا جسده. لهذا يهتف المسيحيون عن إيمان وإعتقاد بأن لاهوت المسيح لم يفارق بالموت

---

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ٢٦ من أبريل ـ نيسان لسنة ١٩٨١م – ١٨ من برموده لسنة ١٦٩٧ش.

ناسوته (أى إنسانيته) لحظة واحدة أو طرفة عين. وليس موت المسيح بعد الصلب إلا إنفصال مؤقت بين جوهرى إنسانيته (وهما الروح والجسد) ، هذه الروح الإنسانية هى التى عناها الإنجيل بقوله عن المسيح المصلوب أنه «أسلم الروح»، أو لفظ الروح (متى ٢٧ : ٥٠)، (مرقس ١٥ : ٣٧)، (لوقا ٢٣ : ٤٦)، (يوحنا ١٩ : ٣٠). نعم، لأن المسيح هو «الله الظاهر فى الجسد» (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦) وهو «صورة الله الغير المنظور» (كولوسى ١ : ١٥)، أى أن اللاهوت حل فى الناسوت، والناسوت إنسانية كاملة، والإنسانية تتألف لا من جسد فقط بل ومن روح إنسانية أيضاً. وبذلك صار المسيح يجمع فى شخصه بين الله والإنسان، لاهوت كامل متحد بإنسان كامل، إتحاداً حقيقياً كاملاً لكن من دون اختلاط، ومن دون امتزاج، ومن دون تغيير. **فالمسيح هو الله متجلياً فى الأرض، متجسداً فى شكل إنسان، ولكن من دون أن يتغير بالتجسد لاهوته، أو يدخل على لاهوته تغيير، لأن الله لا يتغير (يعقوب ١ : ١٧).**

لقد صُلب المسيح، ومات بالجسد، أو ذاق الموت بالجسد (الرؤيا ١ : ١٨)، ودُفن بالجسد فى القبر... وفى اليوم الثالث قام من بين الأموات... «فقد قام كما كان قد قال» (متى ٢٨ : ٦)، (لوقا ٢٤ : ٦ - ٩).

وعندما قام، لم يقف على قبره أحد ليناديه بالقيامة كما وقف هو - له المجد - على قبر لعازر وأقامه بسلطانه على الحياة والموت بعد أن صار لأليعازر فى القبر أربعة أيام (يوحنا ١١ : ٣٩، ٤٣، ٤٤). **أما المسيح، المدفون جسده فى القبر، فقد قام بسلطان لاهوته...**

إنه قام من القبر، والقبر كان ولا يزال مغلقاً وعلى بابه حجر عظيم، والحجر مختوم بأختام المملكة، والحراس واقفين وساهرين (متى ٢٧ : ٦٦)، (مرقس ١٥ : ٤٦).

ولم ينزل رئيس الملائكة ميخائيل ليدحرج الحجر عن باب القبر، إلا بعد أن قام المسيح أولاً بسلطان لاهوته، وذلك لكى يعلن رئيس الملائكة أن القبر فارغ وأن سيده قد قام كما كان قد قال (متى ٢٨ : ٢ - ٧). (مرقس ١٦ : ٢ - ٧)، (لوقا ٢٤ : ٢ - ٩)، (يوحنا ٢٠ : ١).

لقد قام المسيح من بين الأموات، **لأنه «ما كان يمكن أن يُمسكه الموت»** (أعمال الرسل ٢ : ٢٤) وما كان يمكن أن يمنعه القبر من القيامة «أين غلبتك أيها الموت؟ وأين ياموت شوكتك» (١ . كورنثوس ١٥ : ٥٥).

كل نبى مات ودفن وقبر، وجسده لا يزال فى القبر مدفوناً. **أما المسيح فهو وحده فى صورة الإنسان الذى مات ودُفن جسده، لكن قبره فارغ لأنه قام بجسده حياً فى القبر، ظاهراً للجميع مدة أربعين يوماً** (أعمال ١:٣) بعدها صعد إلى السماء (مرقس ١٦ : ١٩)، (لوقا ٢٤ : ٥١) ... صعد فى العلانية، من فوق جبل الزيتون، على مرأى ومشهد من جميع تلاميذه، وأكثر من خمسمائة مؤمن (١ . كورنثوس ١٥ : ٦)، غير الكثيرين من المقيمين فوق الجبل وعلى سفح الجبل...

وليس قبر المسيح فارغاً فقط، ولكنه منذ قيامته من بين الأموات **وقبره ينبلج منه فى كل سنة نور، ما زال يبصره فى (سبت النور) كل من يحج إلى كنيسة القيامة بالقدس**... وفى هذا تفسير لنبوءة النبى إشعياء قبل ظهور المسيح فى الجسد بمئات السنين. فقد أنبأ إشعياء عن صلب المسيح الفادى، من حيث هو وحده المخلص، الذى خلص الإنسان بموته عنه بدلاً منه، وذلك فى الجسد الذى اتخذه من طبيعة جسدنا وليكون فيه بديلاً عنا (١ . بطرس ٤ : ١)، فيفدينا بموته من الحكم الذى صدر من الله الآب، على آدم وذريته... لكنه بعد أن تمم عمل الفداء قام من الموت حياً، وصعد إلى السماء ولم يدخلها بدم التيوس والعجول بل بدم ذبيحة نفسه فوجد فداء أبدياً (العبرانيين ٩ : ١٢)... ودخل إلى حيث مجده (لوقا ٢٤ : ٢٦)، دخل بجسده الذى من طبيعتنا إلى الأقداس السمائية، وجلس به على العرش، وصار بدخوله إلى السماء كفادينا ضمان لنا نحن أيضاً بغفران خطايانا، وقبول الله الآب للإنسان الذى كان سابقاً مطروداً من الفردوس لخطيئته (التكوين ٣ : ٢٤)... قال النبى إشعياء... «ويكون فى ذلك اليوم أن أصل يسى (أنا يسوع، أصل وذرية داود، كوكب الصبح المنير ـ الرؤيا ٢٢ : ١٦) القائم راية للشعوب، إياه تترجى الأمم، **ويكون مثواه مجيداً**» (إشعياء ١١ : ١٠). والمثوى هو القبر والمدفن.

لقد أنكر إبراهيم باشا الكبير (١٧٨٩ – ١٨٤٨م) ابن الوالى الأمير (محمد على) رأس العائلة المالكة الغابرة ـ وكان إبراهيم باشا حاكم القدس... أنكر حقيقة النور الذى يظهر فى كل سنة من قبر المسيح فى يوم سبت النور (اليوم السابق مباشرة على أحد عيد القيامة)، وظنه خرافة يتعلق بها المسيحيون، وكان قد أوعز إليه بذلك بعض الأشرار، فلم يصدق هذا الأمر غير المألوف، إذ كيف يخرج النور من غير نار، ومما أيد شكوكه الزعم القائل بأن النور لا يخرج إلا على يد بطريرك الروم اليونان فأرسل إلى مصر فى طلب البابا بطرس السابع المعروف بالجاولى (البابا

المائة والتاسع من بطاركة الكرسى المرقسى (١٨٠٩ – ١٨٥٢م)، فذهب البابا إلى القدس وهو لا يعلم لماذا استدعاه إبراهيم باشا الكبير، فلما علم الباشا بقدوم البابا خرج لاستقباله ومعه حاشيته وقواد جيشه، ثم دنا منه وقال له: أتعلم يا بابا لماذا استقدمتك؟ فأجاب البابا بأنه لا يعلم. قال الباشا، لكى يفيض على يدك النور، فرد البابا على الفور وقال: إن النور سيفيض على يدك، يا أفندينا. عندئذ طلب إبراهيم باشا من البابا بطرس أن يباشر الخدمة من دون مشاركة أحد آخر، فاعتذر البابا بأن هذا الأمر قد ترتب عليه عداوة بين الروم والقبط، ولكنه بناء على طلب الباشا يمكنه أن يشارك بطريرك الروم على أن يكون الباشا معهما ليزول منه الشك. فقبل الباشا ذلك، وقد أضمر الشر للنصارى إذ تخلل الأمر غش، ثم أمر بأن يحتشد العسكر فى داخل كنيسة القيامة وخارجها - وكان البابا بطرس وبطريرك الروم قد لازما الصوم لمدة ثلاثة أيام، حتى إذا جاء يوم سبت النور ازدحمت كنيسة القيامة بالزائرين، فأمر إبراهيم باشا بإخراج الفقراء والعامة إلى الفسحة الكبيرة خارج الكنيسة. ولما حان وقت الصلاة دخل البابا بطرس وبطريرك الروم ومعهما الباشا إلى حيث القبر المقدس، وباشر البابا بطرس والبطريرك الصلاة، وعندئذ انبلج النور من القبر ووصل إلى خارج الكنيسة حتى شق النور أحد الأعمدة عند الباب الغربى للكنيسة، فارتعب إبراهيم باشا، وصار فى حالة ذهول وصرخ يردد قوله باللغة التركية (أمان بابا) أى (آمنت يا بابا)، وكاد يسقط على الأرض فاحتضنه البابا حتى أفاق. ثم انسحب الباشا هو وجيشه بعد أن تبين له صدق وحقيقة ما ظنه هو ورجاله مجرد خرافة، وكذب. وقد زادت هذا الحادثة من مكانة البابا بطرس عند إبراهيم باشا، فصار يحترمه ويهابه، وقد مكنه من القيام بعمارة فى كنيسة القيامة... ونحن نشكر الله لأن ذلك العمود المشقوق بالنور لا يزال إلى الآن موجوداً عند الباب الغربى خارج كنيسة القيامة، وبه الشق، وآثار النور المشتعل بالنار ظاهرة محفورة مغطاة بلون أسود هو لون الحريق بالنار... علامة لكل من يشك، فيرى ويؤمن... بالإضافة إلى النور الذى ينبلج فى كل عام فى موعد ثابت.

لقد قام المسيح... بالحقيقة قام، ومع ذلك ظل الصليب رمز المسيح ورمز المسيحية كلها، وظل المسيح يُرسم أمامنا مصلوباً... ويقول الكتاب المقدس «أنتم الذين قد رسم أمام عيونكم يسوع المسيح مصلوباً» (غلاطية ٣ : ١) فمنذ صُلب المسيح، وتَمَّ بالصليب خلاصنا من عبودية الشيطان، وأسر الجحيم، وانفتح بالصليب طريق الحياة والخلود، وباب الفردوس (لوقا ٢٣ : ٤٣)، وصار الصليب للمسيحية رمزاً وفخاراً، وعلماً وشعاراً، وصار يُرسم

أمامنا في صدر الكنيسة واعلى حجاب الهيكل، وفوق المنارات والقباب، وعلى الابواب... بل صرنا نحمله على صدورنا وفوق رءوسنا، ونرسمه على وجوهنا، وندقه بالوشم على معاصمنا وأيدينا، ونرفعه عالياً على بيوتنا، وسلاحاً روحانياً نُشهره ضدّ الشيطان، ولكى ندوس به الحيات والعقارب وكل قوة العدو الشرير... ونحن نردد دائماً «وأما أنا فحاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به صار العالم مصلوباً بالنسبة لى، وصرت أنا مصلوباً بالنسبة إلى العالم» (غلاطية ٦ : ١٤) ... لماذا؟

لماذا ظل الصليب على الرغم من القيامة، رمز المسيح... وشعار المسيحى... وعلَمَ المسيحية؟ لماذا...؟ لأنه على الصليب قام بناء المسيحية الشامخ... منذ سقط آدم الإنسان الأول وطُرِد من الفردوس وحكم الله الآب عليه بالموت عدلاً، وبالتالى على كل ذرية آدم الذين وُلدوا منه بعد سقوطه، فشملهم الموت وشملهم الفساد «فكما أن الخطيئة دخلت فى العالم على يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، فكذلك سرى الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه (وهو آدم)»، إذ «فى آدم مات الجميع» (رومية ٥ : ١٢)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٢) ... منذ سقط آدم، وعد الله البشرية بالمخلص والفادى (التكوين ٣ : ١٥)، الذى ليس بأحد غيره الخلاص لأن ما من اسم آخر تحت السماء قد أعطى للناس به ينبغى أن نخلص» (أعمال ٤ : ١٢). ولما لم يكن وقت مجيئه قد حان، فقد شرع آدم بتوجيه من الله أن يترضى وجه الله بذبيحة من الحيوان يضع يده على رأسها معترفاً بخطاياه، ثم يسفك دمها علامة على العداوة القائمة بين الله والناس، وإشارة إلى الفادى الذى لم يأت زمانه بعد وعنه قال أحد الأنبياء فى القديم «أراه ولكن ليس الآن، أبصره ولكن ليس قريباً» (سفر العدد ٢٤ : ١٧) ... لأنه كيف يُستساغ أن يكون الحيوان وسيطاً بين الإنسان وبين الله، والحيوان أقل مرتبة من الإنسان؟! **وإذن لم يكن بذبح الحيوان غفران حقيقى، إنما كان ذبح الحيوان ضرورة مؤقتة تُذكر الإنسان حتى لا ينسى حاجته إلى الفداء وإلى الفادى الحقيقى الذى لم يأت زمانه بعد،...** وعنه قال يعقوب أبو الأسباط «**لخلاصك انتظرت** يارب» (التكوين ٤٩ : ١٨)، وقال النبى داود «تاقت نفسى إلى خلاصك... كلت عيناى إشتياقاً إلى خلاصك... رجوت خلاصك يارب... اشتقت إلى خلاصك يارب...» (مزمور ١١٨ : ٨١، ١٢٣، ١٦٦، ١٧٤).

وليس آدم وحده الذى قدم الذبيحة من حيوان، إعترافاً منه بخطيئته وإعلاناً بحاجته إلى الفادى والمخلص، وإنما جميع أولاد آدم بغير إستثناء... قايين، وهابيل، وشيث، ونوح... وأيوب... وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وبنو إسرائيل، وصموئيل، وداود... كلهم قدموا الذبيحة طلباً للفداء «فى الإيمان مات هؤلاء كلهم، ولم ينالوا المواعد، بل إنما رأوها عن بعد، وصدقوها، وحيوها...» (العبرانيين ١١ : ١٣)... هذا هو «الخلاص الذى فتش وبحث عنه الأنبياء» (١ . بطرس ١ : ١٠).

وهنا التساؤل الكبير... لماذا قدم الناس جميعاً إبتداء من آدم، ذبيحة طلباً للفداء والخلاص...؟ نعم جميع بنى آدم قدموا الذبيحة بغير إستثناء... حتى الذين شردوا من حظيرة الله الواحد الأحد، واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق (رومية ١ : ٢٥)، وسجدوا لمخلوقات السماء، وأقاموا لأنفسهم أصناماً وأوثاناً عبدوها وسجدوا لها... حتى هؤلاء كانت الذبيحة ضرورية فى عباداتهم... ولم تخل أمة ولا ديانة فى كل الأرض، منذ آدم حتى اليوم، من فكرة الذبيحة والفداء... لماذا؟ لولا أن هذه الذبيحة هى الفداء الذى أعلنه الله لآدم، وصار البشر جميعاً يطلبونه إبتغاءً للخلاص، والعودة إلى الفردوس... **فلما جاء الفادى الحقيقى، الذى لم تكن ذبيحة الحيوان إلا رمزاً إليه وإشارة، قام هو وحده بالفداء، الذى لم يكن أحد غيره من بنى آدم قادراً على أن يقوم به، وسفك دمه على الصليب، لا لخطيئة صنعها هو، وإنما تكفيراً عن خطيئة آدم وذريته صار هو بدلاً منا فى وضع الخاطىء،** وبذلك كان كما أشار إليه يوحنا المعمدان **«هوذا حمل الله الذى يرفع خطيئة العالم»** (يوحنا ١ : ٢٩) وكما قال عنه الرسول القديس بولس «ذاك الذى لم يعرف خطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا، لتصير نحن بّر الله فيه» (٢ . كورنثوس ٥ : ٢١).

لهذا كله لا نقبل بالصليب بديلاً... سيظل الصليب علامة المسيح، وقد دعى اسمه يسوع المسيح لأنه خلص ويخلص شعبه من خطاياهم (متى ١ : ٢١) ولسوف يظهر أمامه عند مجيئه الثانى للقضاء والحكم ولكى يدين الأحياء والأموات، صليب من نور، يتقدمه كعلم «وعلامة له فى السماء» (متى ٢٤ : ٣٠).

وسيظل الصليب دائماً وأبداً علامة للمسيحى والمسيحية.

وإذا كان المسيح هو ملكنا، فله على الأرض مملكته، كما له فى السماء مملكة، لكن مملكته على الأرض روحية لا زمانية، وقد قال لبيلاطس الحاكم

الرومـانى: «نعم أنا ملك كقولك». لكن مملكتى ليست من هذا العـالم» (يوحنا ١٨ : ٣٧، ٣٦)

ومملكته أو ملكوته على الأرض هو الكنيسة.

وإذا كانت المسيحية مملكة أسسها المسيح على الأرض، ولكل مملكة عَلَمٌ، فمملكة المسيح لها علم هو الصليب،... والصليب يرمز للألم، لكنه الألم الذى يتبدل إلى خلاص، والألم الذى تعقبه القيامة...

ونحن كمسيحيين لابد لنا أن نحمل صليبنا (مرقس ٨ : ٣٤) ، ونسير مع المسيح فى درب الصليب، ولا نستحى منه ولا نخجل، لا نرد الشر بالشر، أو الشتيمة بالشتيمة، بل بالعكس مباركين فنرث البركة عالمين أننا لهذا الأمر دعينا (١. بطرس ٣ : ٩) «فإن آلامنا فى هذا الزمان الحاضر لا تستحق أن تقارن بالمجد العتيد أن يتجلى فينا» (رومية ٨: ١٨) «فمن ذا الذى يضركم إذا كنتم غَيارىَ على الخير؟ ولكن لو تألمتم فى سبيل الحق فهنيئاً لكم» (١. بطرس ٣: ١٣، ١٤).

نعم لابد أن يكون بعد الصليب قيامة مجيدة، ونصرة جديدة.

هذا المقال، والمقال السابق المنشور فى الأحد الماضى «لماذا سُمى المسيح ابن الله» نهديهما إلى المتحدث فى البرنامج الدينى للتليفزيون، الشيخ محمد متولى الشعراوى، الذى آل على نفسه - على مدى بضعة شهور إلى الآن - أن يُهاجم العقيدة المسيحية فى (أن المسيح ابن الله، وأنه هو المخلص الذى صُلب من أجل خلاص البشرية) ، مستغلاً التليفزيون - وهو أداة إعلامية لجميع المواطنين - فى هذا الهجوم السافر الساخر.

وإليه نوجه ما قاله المسيح له المجد إلى شاول الطرسوسى قبل أن يُصبح بولس الرسول: «شاول، شاول، لماذا تضطهدنى؟... إنه لصعب عليك أن ترفس مناخس المهماز» (أعمال الرسل ٩: ٤، ٥)، (٢٦: ١٤، ١٥).

وما قاله الشاعر العربى:

كناطِحِ صخرةٍ يوماً ليُوهنَها ... فلم يَضُرّها بَلْ أوهَى قَرنَهُ الوعلُ

يا نافخَ القمَرِ الزَّاهِى ليُطفِئَهُ ... تُفنى قُواكَ، ولا يدرِى بِك القَمَرُ

٣٥ ـ بالحقيقة طلب وبالحقيقة قام (١)

المسيح قام من بين الأموات، وهو الذى ليس له فى القبر جسد أو رفات، وإنما قبره فارغ وقد تحول إلى مذبح تقدم فيه وعليه القرابين، ومنه يبزغ نور فى كل عام، فى السبت الذى يعرف بالسبت الكبير، وسبت النور، وسبت الفرح... قبر ليس فيه عظام... وليس فيه هوان الفناء للإنسانية، وإنما أشرق ويشرق فيه نور، ويتجدد منه وفيه الأمل والرجاء والإيمان بقيامة الأموات والحياة فى الدهر الآتى. قال الوحى الإلهى بفم النبى إشعياء عن المسيح «إياه تترجى الأمم، ويكون مثواه مجيداً» (إشعياء ١١ : ١٠).

ولقد مات المسيح يسوع، لأنه كان لابد أن يموت، لكى يفدى بموته الجنس البشرى كله، المحكوم عليه بالموت جزاء التعدى والمخالفة والمعصية التى فعلها آدم أبوهم، وفيه يموت جميع الناس (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٢).

ولذلك فإن موت المسيح ليس عاراً للمسيحيين، لكنه طريق الخلاص من العقاب الأبدى ولرفع وزر الخطيئة. مات المسيح ليهبنا خلاصاً وليمنحنا السلام القائم على العدل الإلهى، ولكى يردنا إليه فى كنف أبوته، ولكى نحظى معه بمجده فى فردوس النعيم وملكوت السماوات.

لكن المسيح يجمع بين كونه إلهاً وبين كونه إنساناً، فى وقت واحد. وبصفته إلهاً لا يموت، لأن الله حى لا يموت، ولا تقبل طبيعته الموت... وإنما الذى مات هو الإنسان يسوع المسيح أى يسوع المسيح بصفته إنساناً (١ . تيموثيئوس ٢ : ٥).

وموت يسوع المسيح معناه إنفصال وإفتراق بين جسده وروحه اللذين يتكون منهما ناسوته أو إنسانيته. على أن لاهوته المتحد بناسوته لم يُفارق لا روحه الإنسانية ولا جسده.

لذلك كان المسيح حياً فى موته... كان حياً بلاهوته المتحد بناسوته، لأن اللاهوت لا يموت، ولكن الكتاب المقدس يقرر أن المسيح مات بمعنى أنه أسلم روحه الإنسانية على الصليب (متى ٢٧ : ٥٠)، (مرقس ١٥ : ٣٧)، (لوقا ٢٣ : ٤٦)، (يوحنا ١٩ : ٣٠) فافترقت من جسده. **أما اللاهوت فظل متحداً بكل من الروح والجسد، ولم يفارق لا روحه**

---

(١) فى عيد القيامة المجيد ـ الأحد ٢٢ ابريل ـ نيسان لسنة ١٩٧٩م ـ ١٤ من برموده لسنة ١٦٩٥ش.

ولا جسده. وهذا هو السبب فى أنه على الرغم من الموت بهذا المعنى، فإنه عندما طعنه قائد المائة (لونجينوس) بالحربة فى جنبه الأيمن جرى من جنبه ماء ودم (يوحنا ١٩: ٣٤)، (١. يوحنا ٥: ٦، ٨)، وهو أمر لا يمكن حدوثه لميت، **إذن فيما مات المسيح، بانفصال مؤقت فى ناسوته بين الروح والجسد، كان حياً باللاهوت المتحد به. ذاك إذن هو الميت الحى.**

«قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحى الذى لا يموت الذى صُلب عنا، ارحمنا».

وهذا هو السبب فى أننا لا نخجل من أن نقول إن مسيحنا مات، **لأنه لم يمت عن ضعف، وإنما عن قوة، لكى ينتزع لنا بالموت حقنا فى الحياة إلى الأبد... فموته إذن هو عن حب، ولأجل خير يعود علينا «ما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥: ١٣).**

وفى هذا المفهوم الروحانى، نعيش أحداث الصلب والصليب فى يوم الجمعة العظيمة ونحن نردد مع القديس أثناسيوس الرسولى، حامى الإيمان الأرثوذكسى:

«قدوس الله الذى من أجلنا تأنس من دون تغير، وهو الإله».

قدوس القوى الذى أظهر بالضعف ما هو أعظم من القوة.

«قدوس الذى لا يموت الذى صلب من أجلنا، وصبر على موت الصليب، وقبله فى جسده، وهو الأزلى الذى لا يموت...».

وعلى ذلك فيوم الجمعة الذى نحتفل فيه بصلب المسيح هو يوم عظيم وكبير وجليل، ولذلك يُسمى يوم (الجمعة العظيمة) أو (الجمعة الكبيرة). وذلك لأنه قد تم فيه الخلاص. هكذا نؤثر أن نسميه، وذلك نظراً لخطره وقيمته فى تدبير الفداء والخلاص.

وشكراً لله، فإن الكفن الذى وُضع على جسد المخلص ولفوه به بعد أن أنزلوه من على الصليب ووضعوه فى قبر جديد (متى ٢٧: ٥٩، ٦٠)، (لوقا ٢٣: ٥٣)... هذا الكفن المحفوظ الآن فى مدينة (تورينو) TORINO بإيطاليا إرتسمت عليه صورة المخلص، وآثار الدم والجروح التى كانت على جسده، **بفعل الحرارة المنبعثة من جسده الذى كان حياً باللاهوت المتحد به**، فلم يبرد ببرودة الموت وكان هذا فى الوقت نفسه بينة مسبقة على أنه سوف يقوم

من الموت «ففك إسار أوجاع الجحيم، لأنه لم يكن ممكناً للجحيم أن يستبقيه أسيراً له (أعمال الرسل ٢ : ٢٤).

والأمر الذى حير العلماء والباحثين الذين فحصوا هذا الكفن من الكتان فحصاً علمياً دقيقاً، وأخضعوه للتحليل العلمى الشامل، تبينوا بالتدقيق أنه يرجع إلى ألفى عام واكتشفوا عليه **حبوب لقاح لنباتات منقرضة كانت تنمو فى فلسطين من ألفى سنة مضت.**

ومما هو جدير بالذكر أنه ليس على الكفن أى أثر لرسم بيد إنسان، والأمر الذى هو أغرب من الغرابة أن **آثار الجسد على الكفن هى بالسلب** (IN NEGATIVE) وذلك فى لغة التصوير الفوتوغرافى، فالأجزاء المضيئة داكنة، والداكنة مضيئة بينما أن **بقع الدم على الكفن هى (صورة موجبة)** (IN POSITIVE) **فهى بلون قرمزى قاتم...**

ويحمل الكفن المقدس - كما يقول العلماء بعد فحصه فحصاً علمياً دقيقاً - الدليل على **«إنفجار القوة»** (EXPLOSION OF ENERGY) انبعث من الجسد. **وهذا مرده إما إلى قوة الحياة الإلهية فى الجسد بفعل اللاهوت المتحد به، أو إلى قوة الحياة المنبعثة منه عندما قام من الموت، أو إلى الإثنين معاً.**

ولما كان الصلب قد تم فى يوم الجمعة، ووقع عيد الفصح اليهودى فى يوم السبت، وكان الاستعداد للعيد يبدأ فى غروب اليوم السابق (مرقس ١٥ : ٤٢)، (لوقا ٢٣ : ٥٤)، فلم يكن هناك وقت لغسل جسد المسيح بعد أن أنزلوه من على الصليب، وكان هذا خيراً، فإن آثار الدم فى مواضع كثيرة من الجسد ظهرت على الكفن عندما لفوه فيه، ومنها **بقع الدم على جبهة الرأس وعلى العنق، ومنها أيضاً آثار الجروح والتمزيقات على جلد الجسد**، وذلك من فعل عملية الجلْد بالمقرعة ذات السيور الثلاثة (فقد ظهرت على الكفن آثار نحو مائة وعشرين ضربة بالمقرعة على الرغم من أن عددها القانونى عند العبرانيين ٣٩ جلدة - أربعين جلدة إلا واحدة (٢ . كورنثوس ١١ : ٢٤)، (التثنية ٢٥ : ٣)... ومنها أيضاً آثار المسامير فى رسغ أو معصم يديه وقدميه... ومنها أثر طعنة الحربة فى جنبه الأيمن، ثم آثار أشواك الإكليل التى إنغرست بقسوة فى رأسه وجبهته،... ومنها آثار الرضوض والسَّحْجات (الخدوش والتقشيرات والتقطيعات فى الجلد) التى أحدثها حمل الصليب الثقيل على كاهله وعلى لوح الكتف الأيسر وأعلى الكتف الأيمن، بميل قدره عشرون درجة، وقد ظهر أن الرّضّ والسَّحْق فى لوحة الكتف الأيسر أكبر وأعمق من ذاك على الكتف الأيمن، **مما يدل على أن الكتف الأيسر قد**

عانى أكثر من الأيمن، وذلك من ضغط خشبة الصليب، كما يدل على أن الطرف الأدنى من الصليب كان مربوطاً إلى الكاهل الأيسر. وكذلك بفعل اللوحة النحاسية التى كتبوا عليها بيان تُهمة صلبه (متى ٢٧ : ٣٧)، (مرقس ١٥ : ٢٦)، (لوقا ٢٣ : ٣٨)، (يوحنا ١٩ : ١٩)، والتى كانت موضوعة على الصليب من خلف رأس المخلص ونازلة على كتفيه...

كل ذلك ظهر مطبوعاً على الكفن المقدس، **ويذلك أضاف هذا الكفن دليلاً أثرياً ناطقاً بحقيقة كل ما أورده الإنجيل المقدس عن حقيقة الصلب بكل تفصيلاتها ودقائقها.**

بل إن الآثار المنطبعة على الكفن المقدس أوضحت بمالا يدع مجالاً للشك تفصيلات دقيقة كثيرة عن عملية الصلب نفسها، وموضع المسامير فى يدى المخلص المصلوب **وأن المسامير قد دُقت فى رسغ اليد أى المعصم (وليس فى الكف) عند العصب المتوسط. أما القدمان فقد وضعت القدم اليسرى منهما بعنف وشدة فوق القدم اليمنى الموضوعة مباشرة على الصليب، ودُق مسمار واحد نفذ فى الكاحل أو رسغ القدم اليسرى، ومنها إلى رسغ القدم اليمنى، ومنها نفذ إلى خشبة الصليب. وأما الطعنة فى الجانب، فقد ظهرت فى الكفن أنها أصابت الجانب الأيمن من جسد المخلص عند الضلع السادسة فى المسافة الخامسة بين الأضلاع.**

وكشف الكفن المقدس أن إكليل الشوك الذى وضعوه على رأس مخلصنا كان من طراز مختلف من الأكاليل الدائرية، فقد كان يعلو الرأس بحيث إنغرست أشواكه الطويلة فى قمة الرأس والجبهة.

كما كشف الكفن المقدس آثار قَرَت (دم جامد يابس) وكدمة وورم فى منتصف الجبهة يدل على أن المخلص كان قد سقط على وجهه أثناء حمله للصليب إلى موضع الجلجثة، ومن أثر ذلك أيضاً تورم وإنتفاخ فى الشفة العليا للفم، وورم فى الفك الأسفل والذقن، ثم تشوه فى الحاجز الأنفى فيما بين الحاجز الأنفى أو قصبة الأنف وبدء غضروف الأنف، وهذا يشير إلى تفتت وكسر فى هذا الجزء من الأنف ترك أثره على الكفن بظهور منطقة صغيرة منخفضة عميقة نوعاً ما، وهذا يؤكد مرة أخرى **أن المخلص سقط تحت الصليب على وجهه من الأمام.**

وظهر على الكفن أيضاً ورم على حاجب وعلى جفن العين اليسرى، وتورم أو إنتفاخ على الركبة اليسرى ثم ورم آخر فى عظمة الخد الأيمن وإنتفاخ فى الخد ذاته مما يدل على **سقوط**

آخر تحت الصليب على الجانب الأيسر تارة وسقوط ثالث على الجانب الأيمن. وهذا يضيف دليلاً على صحة التقليد الذى يروى أن المسيح **فادينا قد سقط تحت حمل الصليب الثقيل وهو معيى ثلاث مرات.**

كذلك كشفت الآثار على الكفن المقدس أن **وجه المسيح من الأمام قد مسحت من عليه بُقع الدم** بينما ظهرت بقع كثيرة على جانبى الرأس وعلى العنق، وهذا يؤيد التقليد المنحدر عبر الأجيال عن فتاة تقية اسمها فيرونيقا VERONICA رأت فادينا فى طريق الصليب، ووجهه قد تلطخ بالدم والطين بفعل العرق المتصبب منه على تراب الأرض إذ سقط تحت حمل الصليب، فتقدمت نحوه، ومسحت وجهه بمنديلها، فانطبعت صورة الوجه المقدس على المنديل مكافأة لها على صنيعها الجميل.

أيها الرب يسوع، ربنا، ملك الملوك ورب الأرباب (١ . تيموثيئوس ٦ : ١٥)، (الرؤيا ١٧ : ١٤)، (١٩ : ١٦)، إننا كما نفخر بقيامتك المجيدة من الموت، غالباً ومنتصراً، فاتحاً أمامنا الرجاء بالقيامة التى أقمتنا فيها معك (كولوسى ٢ : ١٢) **نمجد أيضاً صلبوتك الذى فيه وبه كان لنا حبك ورحمتك بغير حدود، ونفتخر بالصليب ولا نعتبره عاراً بل مجداً وفخاراً، نحمله فى قلوبنا، وفوق رؤوسنا، وعلى صدورنا وأيدينا، مرددين مع الرسول بولس قوله «أما أنا فحاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح» (غلاطية ٦ : ١٤).**

«أنت يا سيدى ملكنا الروحى والسماوى، والصليب هو علم مملكتك» «وعلمه فوقى محبة» (نشيد الأناشيد ٢ : ٤).

٣٦ ـ صاحب القبر الفارغ (١)

إخوتنا الأحباء فى بلاد الشرق الأوسط، ومن بلاد الشرق الأوسط من الناطقين باللغة العربية.

شكراً فائضاً لله تعالى الذى أعطانا أن نتمتع ببركات هذا العيد السعيد، الذى يُعيد لأذهاننا ذكرى قيامة مخلصنا من بين الأموات وإنتصاره على الموت بقوة لاهوته المحيى، معلناً بقيامته حقيقة شخصيته الإلهية، التى أخفاها فى جسم بشريته من أجل تدبير الخلاص، الذى نزل هو من السماء لإتمامه لجنسنا.

فالمسيح له المجد هو وحده صاحب القبر الفارغ، والذى لم يستطع قبره أبداً أن يحتفظ بجسده أكثر من ساعات لأنه فى اليوم الثالث قام (١ . كورنثوس ١٥ : ٤) ولم ينل جسده الفساد (مزمور ١٥ : ١٠)، (أعمال ٢ : ٢٧، ٣١)، (١٣ : ٣٥) وخرج من القبر ـ والقبر مغلق بحجر عظيم (مرقس ١٥ : ٤٦) ومختوم بخاتم المملكة (متى ٢٧ : ٦٦) ـ وبعد قيامته وخروجه من القبر نزل ميخائيل رئيس الملائكة «ودحرج الحجر عن باب القبر» (متى ٢٨ : ٢) ليُعلن أن القبر فارغ وأن رب المجد قام حياً من بين الأموات. فليس القوى الجبار فى حاجة إلى ملاك يسهل له سبيل الخروج من القبر، فقد خرج من بطن البتول الطهور مريم العذراء وأختام بتولتها مصونة عذراء ـ ودخل على تلاميذه مراراً والأبواب من دونهم موصدة ومغلّقة بسبب الخوف من اليهود (يوحنا ٢٠ : ٢٦).

وبقيامته المجيدة أنار طريق الموت وكسر شوكته عن المؤمنين المعمدين، الذين نالوا بدم المصلوب العتق من عبودية الشيطان والجحيم. فلم يعد للموت ولا للجحيم سُلطان على المفديين بدم المخلص لأن ربنا يسوع نزل بنفسه إلى الجحيم (أفسس ٤ : ٩) مقر الأرواح المقيدة وبشر المأسورين هناك بالإطلاق (١ . بطرس ٣ : ١٩) المأسورين الذين كانوا ينتظرون الفداء والخلاص (زكريا ٩ : ١٢) ونقلهم إلى الفردوس الذى كان مغلقاً منذ أخطأ آدم أبو الجنس البشرى ـ وطرد من الفردوس عقاباً له (التكوين ٣ : ٢٤) ففتحه السيد المسيح بصليبه (لوقا ٢٣ : ٤٣) وأدخل إليه كل النفوس المؤمنة التى كانت مبيعة تحت الخطيئة واشتراها المسيح بدمه الإلهى الثمين (أفسس ٤ : ٨).

(١) نشر بجريدة (وطنى) فى عددها الصادر صباح الأحد ـ ١٠ من أبريل ـ نيسان لسنة ١٩٧٧م ـ ٢ من برموده لسنة ١٦٩٣ش ، وألقى فى عيد القيامة المجيد بالإذاعة البريطانية فى أبريل ١٩٧٧م.

أيها الإخوة

إن قضية الفداء أو الخلاص هى محور إيماننا ونقطة الارتكاز فى ديانتنا، بدونها لا نفهم السبب الذى من أجله تجسد ابن الله، لأن مسيح الله قد جاء من السماء خصيصاً لهذه المهمة التى لم يكن ممكناً لغيره أن يقوم بها.

فالخطيئة التي أخطأها آدم كانت عظيمة بهذا القدر، حتى إن نبياً أو قديساً أ و رسولاً لم يكن فى مقدوره أن يُكفر عنها وفاء للعدل الإلهى الذى حكم بالموت على آدم. ونحن نعلم أن الخطأ تقاس فداحته بمقام الذى أسىء إليه لا بمقام الذى أساء. وهكذا يقتضى العدل أن يكون وفاؤه فى شخص غير محدود، ليرد حق الله غير المحدود الذى أسىء إليه بمعصية آدم. لذلك لم يكن فى سلطان ملاك أو قديس أن يقوم بعمل الكفارة، وتغطية الخطأ الجسيم الذى وقع فيه الإنسان الأول لأن المخلوق المحدود لا يُكفر عن خطأ غير محدود.

وليس بخاف عليكم ـ أيها الإخوة ـ أن الله كلى العدالة كما أنه كلى الرحمة . وعلى ذلك فلا معنى للظن أن التوبة من جانب الإنسان كافية لترضية العدل الإلهى. إن الله يغفر ولكن ليس من دون شرط. والذى يزعم غير هذا مخطىء كل الخطأ. وكأن الخطيئة أمر هين وكأن الله يساء إليه دائماً وهو يغفر دائماً من غير قيد!! أى زعم هذا الذى يبنى على غيره معرفة بطبيعة الله وحقيقة صفاته؟ إنه رأى ينطوى على فهم خاطىء واستهتار بالقدوس الكامل الذى يتطلب من المؤمنين أن يكونوا كاملين كما أنه هو كامل (متى ٥ : ٤٨)، وأن يكونوا نظيره قديسين فى كل سيرة (١ . بطرس ١ : ١٥).

ولو كان الله يغفر من دون ترضية كافية لما رسم فى شريعة العهد القديم أن يقدم الناس ذبائح عن خطاياهم. ولم تكن الذبائح الدموية كافية فى ذاتها للترضية ولكنها بينة على الطاعة للشريعة. ولم يتم بتلك الذبائح غفران حقيقى ـ لأن الغفران الحقيقى كان مؤجلاً إلى أن يأتى الوسيط الحقيقى وهو المسيح الفادى الذى ليس لأحد بغيره الخلاص (أعمال ٤ : ١٢). وهو الذى جمع فى شخصه وطبيعته إنسانية آدم ولاهوت الله. وجمع المسىء والمساء إليه معاً وصالح الإنسان مع الله، بأن قدم فى ناسوته الترضية التى يتطلبها العدل الإلهى، حتى يغفر للإنسان ذنبه الذى عَصَى به وصيةَ الله.

وإذن لقد جاء المسيح من السماء من أجل أن يصلب لتتم بصلبه الترضية المطلوبة ويوفى العدل الإلهى وتغفر الخطيئة الأولى التى أخطأها أبونا آدم الأول. قال السيد المسيح «الكأس التى أعطانيها أبى، ألا أشربها» (يوحنا ١٨ : ١١) وهو يعنى كأس الصليب، وقال مرة أخرى: «يا أبتاه نجنى من هذه الساعة، ولكننى من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢ : ٢٧). وكان دائماً يقول «إن ابن الإنسان ينبغى أن يتألم كثيراً ويمتهن من الشيوخ ومن رؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم» (مرقس ٨ : ٣١)، (لوقا ٩ : ٢٢).

وإذن فالصليب ضرورة، وموت ابن الله بناسوته أمر لا مفر منه لخلاص الإنسان من حكم الموت، ولنجاته من سلطان الجحيم الذى ينتظره جزاءً وفاقا على جريمته. فبالصليب تمت الكفارة ودفع الثمن المستحق واشترى الإنسان من جديد. فانعتق من دائرة الشيطان الذى كان قد اقتنصه لإرادته (٢ . تيموثيوس ٢ : ٢٦).

على أن الخطأ الذى وقع فيه آدم قد شمل كل جنسنا. ذلك أن آدم كان أباً للجنس البشرى ونائباً عنه. وفى آدم أخطأ الجميع. قال الوحى «فكما أن الخطيئة دخلت فى العالم على يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، فكذلك سرى الموت إلى جميع الناس بالذى جميعهم خطئوا فيه» (رومية ٥ : ١٢). وعلى ذلك فلم تكن خطيئة آدم مجرد خطيئة شخصية، ولكن الجنس البشرى كله قد سقط فى آدم.

كان آدم يتمتع بميزات كثيرة عالية فى الطبيعة. كان يتمتع بالصلاح والقداسة والطهارة والبراءة. وكان ينعم بسمو الفكر ودقة الفهم وسعة الإدراك وصفاء الذهن وقوة النفس، وكان يمتلك السيادة والقدرة على نفسه وعلى الطبيعة فى شتى مظاهرها ومرافقها. وكان أيضاً يعمل بلا تعب ولا مشقة ولا فشل، كما كان عالياً على الضعف والمرض والموت. وبالإجمال كانت له عطايا كثيرة فوق الطبيعة، وقد فقدها جميعاً بسقطته ـ فانحطت نفسه واظلم عقله، وملكت على قلبه الشهوات والميول والإنعطافات الجسدية والمادية، ودب إليه الضعف والإنحلال والمرض والموت، نفساً وجسداً.

وقد ورث الجنس البشرى كله حالة آدم بعد السقوط لأن الجنس البشرى قد ولد من آدم بعد أن سقط وطرد من الجنة وسقطت عنه كل المواهب العالية على الطبيعة التى كان يتمتع بها الإنسان قبل سقوطه.

هذه الوراثة مسألة طبيعية وهى واضحة فى مملكة الناس. فمن يُحبل به من والدين فى حالة مـرضـهـمـا الوراثى يرث حـالهـمـا عند ولادته ولا يستطيع أن يفلت من تبعـات هذه الحـالة ومقتضياتها لأنه ولد فيها.

ولعل الدليل الدامغ على أننا ورثنا حالة آدم الأول التى صار إليها بعد السقوط هو أننا نعيش الآن لا فى جنة عدن بل فى أرض الشقاء، نأكل خُبزنا بعرق جبيننا - وما زالت المرأة تلد بالأوجاع أولاداً. ومَنْ مِنَ الناس يقوى على مغالطة نفسه حتى يُنكر هذه الحقيقة الواقعة؟

ولقد ينظر بعض الناس إلى عقيدة الخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية بنظرة قاتمة. ولكن فى هذا هرب من الواقع وإنكار لحقيقة واضحة تنطق بها أفواه الناس وتصرفاتهم فى كل يوم، بل فى كل لحظة من لحظات وجودهم «إذ أن جميع الناس قد خطئوا فأعوزهم مجد الله» (رومية ٣: ٢٣). وقد جاهر مار بولس بالقول «فإنى أسر بشريعة الله بحسب الإنسان الباطن فىّ، ولكنى أرى فى أعضائى شريعة أخرى تحارب شريعة عقلى، وتأسرنى لشريعة الخطيئة التى هى فى أعضائى» (رومية ٧: ٢٢، ٢٣).

ولا عبرة أيضاً بالقول إن الخطيئة الأولى فكرة قاسية تجعل الإنسان يؤخذ بذنب لم يقترفه بالفعل. **فالحق أن الإنسان لا يؤخذ بذنب آدم ولا يعاقب عن خطيئته وإنما يرث حالته فقط.** ولذلك فإن الطفل غير المعمد إذا مات فإنه لا يُعذب ولكنه «لا يمكنه أن يرى ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٣) «ولا يمكنه أن يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٥) فهو لا يرث ذنب آدم وإنما يرث حالته بعد السقوط لأنه وُلد فيها. وهذا هو معنى ما جاء فى أوشية الراقدين «فإنه ليس أحداً طاهراً من دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض» هذا عن الخطيئة الجدية - أما عن الخطيئة الفعلية فيقول الوحى «كل واحد بإثمه يموت» (إرميا ٣١: ٣٠) «النفس التى تخطأ هى تموت، الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن» (حزقيال ١٨: ٢٠).

فإذا كنا نحن قد ورثنا حالة آدم، فحُسبنا فيه أمواتاً لأنه أبونا - فلا نحتج لأننا نحن قد أخذنا أيضاً بر المسيح بالإيمان وبسر العماد «لأنه كما يموت جميع الناس فى آدم، فكذلك هم فى المسيح سيحيون» (١. كورنثوس ١٥: ٢٢) «لأنكم تعمدتم جميعاً فى المسيح فلبستم المسيح» (غلاطية ٣: ٢٧).

فشكراً لله الذى جعلنا وارثين للبر الذى فى المسيح (غلاطية ٣ : ٢٩) . وقد أخذنا من المسيح فى الصليب بركات وفيرة لا يعبر عنها وقد طُعمنا ـ ونحن أغصان فى زيتونة برية ـ فى جسد المسيح، فصار لنا قوتاً وخلاصاً وثباتاً. وأصبح القديسون فى العهد الجديد يتمتعون بإمتيازات أعظم من الإمتيازات التى كان يتمتع بها آدم، ويحصلون على مواهب وقدرات أعظم من المواهب والقدرات التى حصل عليها آدم.

هذه تأملات ينبغى أن نضعها نصب أعيننا دائماً، لا سيما ونحن نذكر سر الفداء فى عيد قيامة مخلصنا يسوع المسيح. فلنبارك الرب على أفضاله وآلائه، ونشكره على نعمائه. ولنعيد له عيداً روحانياً، ولنصنع الخير لجميع الناس. لنبهج قلب المسيح إلهنا، ولنصالح إخوتنا ونصنع السلام مع كل أحد، حتى نعيد لا بخمير الخبث والشر بل بفطير الإخلاص والحق، ولنطيّب قلب مخلصنا بعمل كريم يليق باسمه فى عيده العظيم ولنحرص على إتمام ما يُرضيه وتجنب ما يغضبه.

ويسرنا فى ختام هذه الرسالة أن ندعو لجميعكم بالبركة ـ ونطلب السلام والرفاهية والعزة لجميع الناس، شعوباً وحكومات وأفراداً، أعاد الله عليكم أمثال هذا العيد بكل أسباب السعادة الروحية والنفسية.

ولإلهنا المجد والإكرام إلى الأبد، آمين.